قسم اللغة العربية وآدابها







مدخل إلى
علوم الحديث ونصوصه

عرب (٣٠٦)

ساعتان

د. إبراهيم محمود عوض
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب – جامعة عين شمس

القاهرة - ٢٠٢٢

قـــائمـة المحتــويـات

كلمة التقديم

فى الصفحات التالية معالجة للموضوعات الموجودة فى "قائمة المحتويات". وبادئ بدء أقر بأننى استمتعت بكتابة الفصول المذكورة أعلاه استمتاعا عظيما. وقد اجتهدت وُسْعِى آملا ألا تكون أخطائى كثيرة ولا فاحشة. وأنا من المؤمنين إيمانا جازما بأن السُّنَّة تمثل جانبا مهما جدا من جوانب الإسلام بحيث لا يمكن أن يستمر الإسلام فى صورته الصحيحة إذا ما سقط هذا الجانب كما يريد أعداؤها، لكنى فى ذات الوقت لا أقول بعصمة جامعى السنة بل أراهم بشرا من البشر: عباقرة نعم، لكنهم ليسوا بمعصومين، وبأن هناك فرصة لنا كى نمحص الأحاديث التى وصلت إلينا عن طريقهم. وأدعو طلابى إلى الاجتهاد المخلص فى دراسة هذا المقرر، فهو مقرر مبارك ترعى عين الله من يقبل على دراسته ويؤتيه سبحانه مكافأة عظيمة كريمة، وأرجو أن يجدوا فيما كتبته فى هذا الموضوع نفس ما وجدته من متعة ونشوة. تولانا الله برحمته ولطفه وكرمه، وكتبنا من المفلحين.

الفرق بين الحديث النبوى والحديث القدسى

استقر الأمر بين العلماء منذ وقت مبكر على أن الحَدِيثَ وَالسُنَّةَ شيء واحد، وهو عَزْو قول أو فعل أو تقرير أو صفة إلى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم. فما قاله الرسول عليه السلام أو فَعَله ونقله عنه الصحابة أو إقرارُه بما فعله أتباعه أو الوصف الذى وصفه به من شاهده وسمعه، كل هذا يسمى: حديثا أو سنة. ويقول د. أحمد أمين فى كتابه: "فجر الإسلام" إنه بعد عصر الرسول عليه السلام دخل فى الحديث ما ورد عن الصحابة بوصفهم قد تتلمذوا على يده صلَّى الله عليه وسلَّم وشاهدوه وسمعوه ووعوا كل ذلك ونقلوه للآخرين. وهناك من يستعملون "الخبر" و"الأثر" أيضا بنفس المعنى.

ولدينا أيضا "الحديث القدسى"، وقد عرفه د. صبحى الصالح فى كتابه: "علوم الحديث ومصطلحه" قائلا: "كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُلْقِى أَحْيَانًا على أصحابه مواعظ يحكيها عن ربه عَزَّ وَجَلَّ ليست وَحْيًا مُنَزَّلًا فَيُسَمُّوهَا: قُرْآنا، ولا قولًا صَرِيحًا يسنده عَلَيْهِ السَّلاَمُ إلى نفسه إسنادًا مباشرًا فَيُسَمُّوهَا: حَدِيثًا عَادِيًّا، وإنما هى أحاديث يحرص النَّبِى على تصديرها بعبارة تدل على نسبتها إلى الله لكى يشير إلى أَنَّ عمله الأوحد فيها حكايتها عن الله بأسلوب يختلف اختلافًا ظَاهِرًا عن أسلوب القرآن، ولكن فيه مع ذلك نفحة من عالم القدس، ونورًا من عالم الغيب، وهيبة من ذى الجلال والإكرام. تلك هى الأحاديث القدسية، التى تُسَمَّى أَيْضًا: إِلَهِيَّةً وَرَبَّانِيَّةً". وهناك صيغتان لتقديم هذا اللون من الحديث هما: "قَالَ رَسُولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ"، و"قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم".

وقد انقسم العلماء إزاء الأحاديث القدسية مابين القائلين إنَّ اللفظ والمعنى فى الحديث القدسى كلاهما من الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن يرون أَنَّ الصياغة فى الحديث القدسى لِلْنَّبِى بينما المعنى للهِ. وممن قال بهذا الرأى الأخير مثلا أبو البقاء فى كتابه: "الكليات"، إذ نص على أن "القُرْآن مَا كَانَ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِوَحْى جَلِى، وَأَمَّا الحَدِيثَ القُدْسِى فَهُوَ مَا كَانَ لَفْظُهُ مِنْ عِنْدِ الرَّسُولَ، وَمَعْنَاهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِالإِلْهَامِ أَوْ بِالمَنَامِ".

ونبدأ بتسمية هذا الضرب من الحديث، والمعروف المشتهر بين المسلمين هو مصطلح "الحديث القدسى"، أما مصطلح "الحديث الربانى أو الإلهى" فغير ذائع، بل إن معظم الناس لا يعرفون سوى المصطلح الأول. وأما أن الحديث القدسى ليس وحيا فالسؤال هو: إن لم يكن وحيا فمن أين أتى؟ لقد أوحى الله إلى أم موسى وإلى النحل حسبما جاء فى القرآن، فكيف ننكر تسمية "الحديث القدسى": "وحيا" إذن؟ ثم عاد د. صبحى الصالح فقال إنه إلهام. فما الفرق يا ترى بين الوحى والإلهام؟ هل الوحى هو ما كان بلفظه ومعناه جميعا، والإلهام ما كان بالمعنى فحسب؟ لكن هل كان وحى الله لأم موسى بإلقائه باليم أو كان الوحى للنحل باتخاذ بيوتها من الجبال والشجر وما إلى ذلك باللفظ والمعنى جميعا؟ فكيف؟ لهذا أرانى أوثر أن أقول إن الحديث القدسى هو من الله سبحانه مثله مثل القرآن، لكنه لم يكن يسجل كتابة ولا يصلح للصلاة به. وهو يخلو من التشريعات اللهم إلا نتفا عارضة على سبيل الخبر، كما يخلو من قصص الأمم القديمة ومن الرد على تساخف المشركين ومجادلاتهم والتعرض

لأوثانهم وعبادتهم لها. كذلك لم يتحدَّ الله سبحانه المشركين بأن يأتوا بشىء منه كما تحداهم بالقرآن المجيد. وأحيانا ما يبدأ الحديث القدسى بـ"أنا الله" أو "أنا الرحمن" أو "أنا خير الشريكين". وكثيرا ما يتوجه إلى الإنسان بصيغة "(يا) عبدى، يا ابن آدم" مما لا وجود له فى القرآن. وهو يدور حول التوجيهات الأخلاقية والنفسية والعلاقة بين الله وعباده وما إلى ذلك بسبيل. كذلك تشير بعض الأحاديث القدسية إلى ما هو مكتوب فى الإنجيل مثلا أو إلى ما قاله النبى الفلانى. وهو كذلك غير مقسم إلى آيات ولا له أسماء كسور القرآن ولا يبتدئ بالبسملة ولا له أسباب نزول ولا حمله جبريل إليه صلَّى الله عليه وسلَّم ولا كانت تعترى النبىَّ الحالة التى كانت تعتريه عند نزول القرآن، حالة انقطاعه عن الدنيا وانفتاحه على العالم العلوى. وأرى أنه تنشيط لشعور العباد بربهم وتحريك لعواطفهم نحوه سبحانه. كما دخل الحديثَ القدسيَّ نصوصٌ زائفةٌ ليست منه صنعها المدلسون صناعة مثلما وقع للحديث النبوى، وهو ما لا يعرفه القرآن الكريم. وأيضا تقل الأحاديث القدسية بصحيحها وزائفها عن القرآن كثيرا جدا حتى إنها لا تشغل من الصفحات إلا بضع عشرات قلائل فى حين يغطى النص القرآنى فى بعض طبعات المصحف ستمائة صفحة.

وهذه بعض من تلك الأحاديث: "إن السماوات والأرض ضعفتْ عن أن تسعنى، ووسِعَنى قلب عبدى المؤمن"، "إذا ابْتَلَيْتُ عبدى المؤمن فصبر فلم يَشْكُنى إلى عُوَّاده أطلقتُه من إسارى ثم أبدلته لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، ثم يستأنف العمل"، "إذا تقرَّب إلىَّ العبد شبرا تقربتُ إليه ذراعا، وإذا تقرب إلىَّ ذراعا تقربت منه باعا، وإذا أتى إلىَّ مشيًا أتيته هرولةً"، "أنا الله. خلقت العباد بعلمى: فمن أردتُ به خيرا منحته خُلُقًا حسنا، ومن أردت به سوءا منحته خلقا سيئا"، "إنى أنا الله لا إله إلا أنا. سبقتْ رحمتى غضبى. فمن شهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فله الجنة"، "لأنتقمنّ من الظالم فى عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره"، "من سلبتُ كريمتيه عوَّضتُه منهما الجنة"، "مَنْ علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرتُ له ولا أبالى ما لم يشرك بى شيئا"، "مكتوب فى الإنجيل: كما تدين تدان، وبالكيل الذى تكيل تكتال"، "إن عبدا دخل الجنة فرأى عبده فوق درجته، فقال: يا رب، عبدى فوق درجتى؟ قال: نعم. جزيته بعمله، وجزيتك بعملك"، "قال موسى لربه: ما جزاء من عَزَّى الثَّكْلَى؟ قال: أُظِلُّه فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى"، "قال إبليس: يا رب، كلُّ خلقك قد سبَّبْتَ رزقهم، فما رزقى؟ قال: ما لم يُذْكَر اسم الله عليه"، "عبدى، إذا ذكرْتَنى خاليا ذكرتُك خاليا، وإذا ذكرتنى فى ملإٍ ذكرتك فى ملإٍ خير منه"، "كذَّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياى فزَعَمَ أنى لا أقدر أن أعيده كما كان وأما شتمه إياى فقوله: لى ولد. فسبحانى أن أتخذ صاحبة ولا ولدا"، "يقول الله تعالى: أين جيرانى؟ فتقول الملائكة: من هذا الذى ينبغى له أن يجاورك؟ فيقول: أين قُرَّاء القرآن وعُمَّار المساجد؟"، "مَنْ عادَى لى وَلِيًّا فقد آذنتُه بالحرب"، "الكبرياء ردائى، والعظَمة إزارى. فمن نازعَنى واحدا منهما قذفتُه فى النار"، "يا ابن آم، اسْتَطْعَمْتُكَ ولم تطعمنى. فيقول: فكيف أُطْعِمُك وأنت رب العالمين؟ فيقول: ألم يستطعمك عبدى فلان؟ أما تعلم أنك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندى؟"...

وكنت قرأت، وأنا طاب بالجامعة قبل خمسين عاما، فى كتاب محمود صالح عثمان: "العقاد فى ندواته" أن القرآن كان ينزل على النبى بالمعنى، ثم يكسوه النبى بألفاظه وعباراته. وصاحب هذا الرأى هو السير أحمد خان المصلح الهندى المعروف فى القرن التاسع عشر الميلادى. ولم أقف عند هذا الرأى طويلا ولا جعلته موضع تفكيرى، لكنى وضعت بعد ذلك بعدة عقود كتابا من ٦٠٠ صفحة بعنوان "القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية" وضحت فيه بالنصوص والإحصاءات أن أسلوب القرآن يختلف تماما عن أسلوب النبى فى أحاديثه وخطبه، وأنه لا يمكن القول، كما ادعى بعض السفهاء المعاندين، أنه عليه السلام كان له أسلوبان: واحد للقرآن، وآخر للحديث. ذلك أنه كان يمكن أن يكون لهذا الكلام شىء من المعنى لو كانت الأحاديث مجرد ثرثرة يقطع بها صاحبها الوقت أو يتبادل فيها الكلام مع من حوله فى الموضوعات الخاصة واليومية العارضة وما إلى هذا، فهو لا يحتفى بكلامه حينئذ ولا يهتم بصياغته بل يلقيه كيفما اتفق، فى الوقت الذى يعكف على النص القرآنى فلا يقدمه لأتباعه إلا بعد تحكيكه ووضعه فى أحسن صورة تعبيرية، وهو ما لم يكن يحدث، بل كانت الحادثة تقع أو يسأل أحدهم الرسول من هنا، فينزل الوحى من هنا حيث يكون الرسول غائبا عن الوعى بالدنيا وما فيها دون أن تكون أمامه فرصة للتفكير والتعبير وإحسان الصياغة، ثم ينهض فيتلو على الفور ما نزل من الوحى عليه. كما أن الموضوعات هنا هى الموضوعات هناك، والجمهور هنا هو الجمهور هناك. فهذا هو ردى على الزعم القائل بأن الصياغة القرآنية هى للنبى عليه السلام.

وقد وجدت منير الخباز فى محاضرة له منشورة فى موقعه على المشباك (الإنترنت) يفصّل القول بعض الشىء فى هذه النقطة، فقال تحت عنوان "هل صاغ النبى محمد (ص) القرآن بلغته؟": "هل خضع القرآن الكريم لصياغة النبى صلى الله عليه وآله بمعنى أن النبى صلى الله عليه وآله تلقى المعانى والمضامين، وقام هو بصياغتها بلغته وبأسلوبه العربى أم لا؟ طُرِحَتْ هذه النظرية فى العديد من الأبحاث، وهى أن النبى المصطفى صلى الله عليه وآله هو الذى قام بصياغة القرآن باللغة العربية. ويجب التنويه إلى أن هذه النظرية قد طرحت من قِبَل بعض المتقدمين، وعلى رأسهم سيد أحمد خان الهندى فى القرن التاسع عشر عام ١٨١٧م، وله تفسير للقرآن أيضًا ذكر فيه أن النبوة هى مَلَكَة طبيعية من المَلَكَات البشرية التى قد تتفتق عند توفر ظروفها ومناخاتها وبيئتها كما هو الحال فى ثمار الأشجار.

ثم جاء بعده أمين الخولى الأستاذ فى جامعة القاهرة، فأقام مذهبًا تفسيريًا لم يخرج عن الأرثودوكسية، إلا أن نقده الأدبى والصريح كان مُنْصبًّا على أن صياغة القرآن باللغة العربية قد تمت من قِبَل النبى صلى الله عليه وآله. وأيضًا سار على هذه النظرية فى الجملة نصر حامد أبو زيد، وهو مفكر مصرى معروف، وقد ذهب فى أبحاثه القرآنية إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد أقام حركة نقدية فلسفية اجتماعية تأويلية حتى للنص القرآنى حيث صَرَّح بأن القرآن نص تاريخى ثقافى متأثر بزمان نزوله ومكان نزوله وتدرّج نزوله إلى ثلاثة وعشرين سنة. وهناك شبيه بهذه النظرية فى بعض اللمسات فى كلمات محمد أركون وحسن حنفي.

لذلك عندما ذهب السيد عبد الكريم سروش المفكر الإيرانى إلى أن الوحى القرآنى صياغة من قِبَل النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فهو لم يأتِ بشىء جديد وراء هذه النظريات والكلمات التى سبقت الإشارة إليها، بل ذهابه إلى أن الوحى عبارة عن تجربة روحية يؤكد الرؤية البروتستانتية المعروفة عند فرقة من المسيحيين حيث يرون الوحى عبارة عن رؤية ومكاشفة روحية بين المسيح وبين ربه.

ذكر السيد سروش فى مقابلة له ما يؤكد تبنيه لهذه النظرية بشكل واضح حيث قابله الصحفى الهولندى وسأله عن رأيه فى الوحى بشكل واضح، فقال: إن النبى خالق للوحى.فالذى يحصل من الله هو مضمون الوحى، ولكن هذا الوحى بما هو مضمون لا يمكن بيانه للناس لأنه يفوق مستوى فهمهم. فهذا الوحى فاقد للصورة، وعلى النبى أن يصوغه فى إطار صورى ليجعله فى متناول فهم الجميع كما يفعل الشاعر بصياغة ما أُلْهِم بأدوات لغوية وأسلوب خاص، كما أن لشخصية النبى دورًا مهمًّا فى صياغة النص القرآنى، وكذلك سيرته وحياته ومراحل صباه وحالاته الروحية. ولو قرأتم القرآن تشعرون أن النبى أحيانًا يكون فى قمة الجذل والفصاحة بينما يكون أحيانًا مفعمًا بالملل وتجده عاديا فى كلامه، ولذلك ترك تأثير ذلك كله على النص القرآنى من الناحية البشرية".

وتعقيبنا على هذا الزعم هو نفس تعقيبنا السابق على كلام السير أحمد خان، ونزيد هنا أن القرآن لا يعكس فى أى من صفحاته شعورا بالملل أو بالجذل أو بالتعب والإرهاق أو بالتشاؤوم واليأس أو بالفخر والغرور أو بالخوف والتوجس أو بالشك والقلق أو بغير ذلك من المشاعر البشرية بل يملأ النفس إحساسا بالجلال الإلهى، ولا يمكن أن نجد فيه شيئا من مشاعر النبى وعواطفه على الإطلاق، وإلا فأين حزنه على موت أمه صلَّى الله عليه وسلَّم وجده وهو طفل، أو أساه الشديد لدن موت خديجة، أو حيرته لدى اتهام المنافقين لعائشة فى حادثة الإفك، أو ابتهاجه إزاء النصر المؤزر الذى أحرزه هو وأتباعه على المشركين فى بدر وفتح مكة أو على اليهود فى غزوة الأحزاب على سبيل المثال؟ كل ما نعثر عليه هو الروح الإلهى الجليل المتعالى فوق المشاعر والعواطف البشرية كما وضحتُ ذلك بالتفصيل فى أحد فصول الباب الثانى من كتابى: "مصدر القرآن".

وأما أن "الوحى عبارة عن تجربة روحية يؤكد الرؤية البروتستانتية المعروفة عند فرقة من المسيحيين حيث يرون الوحى عبارة عن رؤية ومكاشفة روحية بين المسيح وبين ربه" حسبما جاء عن سروش فى النص السابق فقد قرأت فى "Mohammedanism" لديفيد صمويل مرجليوث أن معانى الكتاب المقدس هى من عند الله فى حين أن التعبير اللغوى عن تلك المعانى هو من عند الوسطاء الذين كتبوا ذلك الكتاب. وهو يسمى تلك العملية بـ"colouring by the medium"، أى أن تلوين النص هو عمل ذلك الوسيط. ويدخل فى ذلك التلوين الأرقام الخاطئة والتناقضات بين النصوص والأغلاط التاريخية والجغرافية والمعلومات العلمية الفاسدة واستعمال ما لا يليق من الأوصاف لله وما إلى ذلك.

أما كلام د. نصر أبو زيد عن تاريخانية القرآن فليس مقصودا به أن القرآن كان ينزل من السماء ليواجه الأحداث التى تقع فى التاريخ فى مكة والمدينة وبلاد العرب فى القرن السابع الميلادى، بل المقصود حسبما نفهم من كتاباته أن القرآن صناعة بشرية لا من حيث التعبير فقط بل من حيث التعبير

والمعنى جميعا، فهو من عمل محمد وليس نازلا من السماء. ويستطيع القارئ الكريم مراجعة بحثى عن د. نصر أبو زيد فى كتابى: "أفكار مارقة"، ومراجعة كتابى عن د. محمد أركون: "المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية"، وكتابى عن د. حسن حنفى: "مع التفسير الموضوعى للقرآن الكريم للدكتور حسن حنفى- دراسة تحليلية تقييمية".

مكانة السنة فى الإسلام ومنزلتها من القرآن

السُّنَّة هى المصدر الثانى للدين بعد القرآن، وإن كان الشائع القول بأنها المصدر الثانى للتشريع فقط. والحق أنها ليست المصدر الثانى للتشريع فحسب بل للعقيدة والأخلاق والسلوك والذوق أيضا. ذلك أن الرسول لم يكن يتناول فى أحاديثه أمور التشريع وحدها بل كان يدعو معها إلى الأخلاق الكريمة والتصرفات القويمة والذوق الراقى والعقيدة السليمة وما إلى هذا كما نعرف جميعا. قال الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم: "ألا وإنِّى أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معه". فمِثْلُ الكتاب هو السنة الشريفة. وهذا أمر طبيعى، فليس من المعقول أن يكون الرسول مجرد حامل للوحى لا يصنع شيئا آخر غير تبليغه للبشر مهما عجز أولئك البشر عن فهم القرآن، ومهما وقفوا حائرين أمام النص لا يدرون كيف يطبقونه أو كيف ينزّلون الواقعة التى أمامهم على المبادئ العامة التى يتضمنها، أو وجدوا أنفسهم فى حيص بيص لأن القرآن لم يتعرض لهذه التفصيلة أو تلك. فمن الطبيعى أن يتكلم الرسول فى هذه الحالات وأشباهها. ولا بد أن يكون كلام الرسول فى الدين صحيحا ما دام القرآن لم ينزل بخلافه، وإلا فمن يكون كلامه صحيحا يا ترى؟

أما إذا نزل القرآن يخالف ما قاله الرسول أو عمله فهذا أمر استثنائى. وهو يؤكد أن سائر كلامه فى الدين صحيح ما دام القرآن لم يخالفه فيه. وبالمناسبة فإن الأمور التى عاتبه القرآن فيها إنما تدل على حبه لدعوته وحرصه على خدمتها بكل ما يستطيع وميله للتيسير على العباد واجتهاده فى راحتهم، لكن الوحى ينزل رغم ذلك مبينا أن خلاف ما صنع هو الأولى، إذ فوق كل ذى علم عليم هو الله سبحانه، الذى يعرف مصلحة العباد أفضل من أى إنسان حتى لو كان ذلك الإنسان نبيا رسولا. إذن فالرسول ليس مجرد مبلغ للقرآن عن ربه، بل هو عليه السلام يتكلم ويحكم ويقضى ويفتى ويشرع ويوجه الأخلاق والسلوك ويرقّى الذوق ويصحح العقيدة ويهدى الضمير. وعلى هذا فإن أحاديثه جزء أساسى من الدين، فهى المصدر الثانى بعد القرآن. وقد حذر عليه السلام المسلمين أن ينكروا السنة بحجة أن فى كتاب الله الكفاية: "ألا هل عسى رجلٌ يَبْلُغُه الحديثُ عنى وهو مُتَّكِئٌ على أريكَتِهِ، فيقولُ: "بينَنَا وبينَكم كتابُ اللهِ: فما وجدْنا فيه حلالا استحلَلْنَاه، وما وجدْنا فيه حرامًا حَرَّمناه". وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كما حرمَ الله"، "لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُمْ مُتَّكِئًا على أريكَتهِ يأتيهِ الأمرُ من أمرى ممَّا أمرتُ بهِ أو نَهَيْتُ عنهُ، فيقول: "بيننا وبينكُم هذا القرآنُ. فما وجدنا فيه من حلالٍ أحللناهُ، وما وجدنا فيهِ من حرامٍ حَرَّمْناهُ". ألا وإنِّى أُوتِيتُ الكتابَ ومثلَهُ معه".

إلا أن هناك فئة تنتسب إلى الإسلام ظهرت فى العصر الحالى تنكر الأحاديث ولا ترى سوى القرآن، وترفض ما أُثِر عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير، ولا ترى له قيمة. بل إن بعضهم ينفى أن يكون الرسول قد نطق بشىء آخر سوى القرآن، وكأنه جهاز تسجيل وليس إنسانا ذا عقل وقلب وضمير وشعور بالمسؤولية وقدرة على الشرح والتوضيح والتطبيق والحكم والتوجيه. وهذه الفئة تسمى: القرآنيين.

ولتلك الطائفة بذرة قديمة، فقد كتب الخطيب البغدادى فى كتابه: "الكفاية فى علم الرواية" أن "عمران بن حصين رضى الله عنه كان جالسًا ومعه أصحابه، فقال رجل من القوم: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له: أُدْنُهْ. فدنا، فقال: أرأيت لو وُكِلْتَ أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعًا، وصلاة العصر أربعًا، والمغرب ثلاثًا تقرأ فى اثنتين؟ أرأيت لو وُكِلْتَ أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعًا، والطواف بالصفا والمروة؟ ثم قال: أىْ قوم، خذوا عنا، فإنكم والله إلَّا تفعلوا لتَضِلُّنَّ" وفى رواية من طريق آخر "أن رجلًا قال لعمران بن حصين: ما هذه الأحاديث التى تحدثوناها، وتركتم القرآن؟ قال عمران: أرأيت لو أبيت أنت وأصحابك إلا القرآن من أين كنت تعلم أن صلاة الظهر عدتها كذا وكذا، وصلاة العصر عدتها كذا، وحين وقتها كذا، وصلاة المغرب كذا، والموقف بعرفة، ورمى الجمار كذا، واليد من أين تقطع؟ أمن هاهنا أم هاهنا أم من هاهنا؟ ووضع يده على مفصل الكف، ووضع عند المرفق، ووضع يده عند المنكب. اتبعوا حديثنا ما حدثناكم، وإلا والله ضللتم".

وذكر ابن تيمية فى "رسالة الفرقان بين الحق والباطل" عن الخوارج أن"أصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتِّباعه، لكنْ خرجوا عن السنة والجماعة، فهم لا يَرَوْن اتِّباع السنة التى يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك". وبالمثل نراهم لا يوافقون على المسح على الخفين لأنه ليس مذكورا فى كتاب الله. كذلك فإن النجدات أضافت إلى ذلك إسقاط حد الخمر لعدم وروده فى القرآن. وكان بعض المعتزلة على الأقل لا يَرَوْن فى الحديث المتواتر حجية، لجواز دخول الكذب عليه. كما كان النظّام يَعُدّ أبا هريرة أكذب الناس.

ومن الذين يقولون بذلك أيضا طائفة من أهل الهند ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر منها مولوى عبد الله جكرالوى ومولوى أحمد الدين أمرتسرى ومولانا أسلم جراجبورى وغلام أحمد برويز على ما وضح د. خادم بخش فى كتابه: "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة". وكان د. توفيق صدقى، وهو مصرى، لا يرى الإسلام شيئا آخر سوى القرآن، وإن كان قد رجع عن ذلك. وقد انتشرت تلك الدعوة حتى وجدنا من أولئك القرآنيين عددا من المصريين يتزعمهم د. أحمد صبحى منصور المدرس السابق بجامعة الأزهر، والمقيم حاليا فى أمريكا. فهو، فى كتابه: "القرآن وكفى مصدرا للتشريع" المملوء بالأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية المزعجة، يهاجم بشراسةٍ بالغةٍ الأحاديثَ وجامعى الحديث. وهو أشهر المهاجمين للسنة فى عصرنا وربما فى غير عصرنا أيضا. ولهذا سأكتفى بالرد على دعاواه بوصفه ممثلا لتلك الطائفة. ونبدأ بما قاله من أن كل واحد من أصحاب كتب الحديث النبوى الشريف قد انتخل أحاديث كتابه من عشرات آلاف الأحاديث مما يدل، كما يقول، على أن الغش كان قد استشرى فى ذلك الباب. والواقع أن هذا دليل ضده لا له، إذ لو كان المحدِّثون قد اخترعوا الأحاديث التى تضمها كتبهم حسبما يقول هو وأمثاله فلِمَ أتعبوا أنفسهم فى الغربلة والنخل؟ نعم لماذا لم يأخذوا كل حديث قابلهم وضمَّنوه كتبَهم ما دام الأمر تدليسا فى تدليس؟

أما قوله، فى كتابه المذكور، إن الإسلام لم ينتظر البخارى ومسلم وبقية علماء الحديث حتى يؤلفوا كتبهم تلك، بل كان المسلمون يمارسون دينهم قبل هؤلاء بقرون فالرد عليه أن المسلمين كانوا يستعينون طوال تلك القرون بالأحاديث النبوية أيضا، وكل ما فعله علماء الحديث أنهم اجتهدوا فى غربلة الأحاديث المنسوبة للنبى وتبويبها بحيث يجد القضاة والمفتون وأصحاب المذاهب الفقهية مجموعات الأحاديث بين أيديهم منظمةً جاهزةً لا تحوجهم كل مرة إلى تقويمها والتثبت من صحتها. وليس معنى هذا أن الأحاديث التى جمعها أهل الحديث هى فوق النقد، فما هم فى نهاية المطاف إلا بشر يصيبون ويخطئون، شأنهم شأن أى عالم آخر فى أى ميدان من ميادين العلم. لكنهم قد بذلوا مع ذلك جهودا هائلة فى الفحص والتقويم والتصنيف!

كذلك يزعم أحمد صبحى منصور أن الأحاديث النبوية تناقض القرآن وتحاربه. وهذا كلام خاطئ، إذ متى كانت أحاديث الرسول مناقضة للقرآن؟ إن ذلك لو حدث فمعناه أن تلك الروايات ليست من كلام النبى عليه الصلاة والسلام، اللهم إلا إذا ثبت أن التناقض المزعوم ليس تناقضا بل هو تخصيص لحكم عام مثلا، أو استثناء لحالة من الحالات التى لها ظروف مختلفة، أو حكم وقتى انتهى العمل به وبقى الحديث الذى يتناوله لم يندثر... وما إلى ذلك.

ومما استند إليه منصور أيضا فى محاربة السنة النبوية زعمه بأن وظيفة النبى محمد فى القرآن لا تزيد عن التبليغ البتة. لكن ألم يحدث أن سأل أحد الصحابة النبى عليه السلام عن معنى آية قرآنية استعصى فهمها عليه، أو جاءه أحد المسلمين يستفتيه فى حالة خاصة لا يعرف كيف يطبق عليها الحكم القرآنى العام، أو تحركت نفسه الشريفة لوعظ أصحابه بكلام من عنده يستوحى فيه القرآن؟ كذلك كان الرسول الكريم حاكما وقائدا عسكريا وقاضيا، إلى جانب كونه نبيا مبلغا للوحى. وهو ما يعنى أنه عليه السلام قد ترك لنا تراثا من الأحاديث غاليا ينبغى أن نتمسك به حتى نفهم الإسلام فهما سليما. بل إن أحمد صبحى منصور يشتط فيدعى أن النبى عليه السلام قد خطب الجمعة أكثر من خمسمائة مرة، ومع ذلك لم تحفظ له خطبة واحدة، إذ كان يخطب الجمعة بالقرآن، والقرآن فقط.

والحق أن القرآن بوجه عام يمثل دستور المسلمين، فإذا قلنا إننا محتاجون إلى صوغ قوانين تنظم حياتنا، أيمكن أن يقول لنا قائل إن محاولة صياغة هذه القوانين تتناقض مع وجود القرآن؟ إن القرآن يكتفى فى معظم الأحيان بالنص على الخطوط التشريعية العريضة والمبادئ الأخلاقية العامة، ثم يأتى الحديث النبوى فيقدم لنا الفتاوى والأحكام التفصيلية التى تستوحى تلك المبادئ العامة وتحولها إلى تطبيقات عملية يومية. إن القرآن والسنة النبوية يشبهان كتابا ذا هوامشَ وحواشٍ: القرآن فيه يمثل المتن، والحديث يقوم بدور الشرح والتعليق، ولا تعارض البتة بين الاثنين. وكلام الرسول وأفعاله هى جزء من الوحى، إلا إذا اجتهد الرسول عليه السلام من عند نفسه ولم توافقه السماء على ما اجتهد، فعندئذ ينزل القرآن منبها إياه بوجوب العدول عن هذا أو باستحسان ذلك العدول على الأقل: "عَبَسَ وتولَّى * أنْ جاءه الأعمى * وما يدريك؟ لعله يَزَّكَّى * أو يَذَّكَّرُ فتنفعَه الذكرى * أما مَنِ استغنى * فأنت له تَصَدَّى * وما عليك ألَا يَزَّكَّى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تَلَهَّى * كلا، إنها

تذكِرة"، "يا أيها النبى، لِمَ تحرِّم ما أَحَلَّ اللهُ لك تبتغى مرضاةَ أزواجك، والله غفور رحيم؟"، "وإذا قيل لهم: تَعَالَوْا يستغفرْ لكم رسولُ الله لَوَّوْا رؤوسَهم ورأيتَهم يَصُدّون وهم مستكبرون * سواءٌ عليهم أَسْتغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفرْ لهم. لن يغفر الله لهم، والله لا يَهْدِى القومَ الفاسقين".

وهناك رُؤًى رآها صلَّى الله عليه وسلَّم فى المنام وحدّث بها من حوله، وحوارات دارت بينه وبين المؤمنين ومجادلات قامت بينه وبين الكافرين لم ينزل بها وحى، ومن ثم لم تكن تبليغا. وهناك أيضا حُكْم النبى وقضاؤه بين المتخاصمين، وهذا طبعا غير القرآن. وهناك تصرفات تصرفها النبى ووافقه القرآن فيها أو عاتبه عليها. فإذا أضفنا إلى ما مرّ أن فى القرآن أحكاما كثيرة أتت مجملة عامة، وتحتاج عند التطبيق إلى النظر فيها لاستخراج الحكم فى هذه الواقعة الخاصة أو تلك لتنزيلها عليها، تبيّن لنا على نحو يقينى أنه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكن مجرد مبلغ للقرآن وكفى. مثال ذلك آية السرقة فى سورة "المائدة"، التى لا بد أن تثير عند قراءتها الأسئلة التالية: ما قيمة المبلغ الذى تُقْطَع عنده يد السارق؟ وهل تُقْطَع فى كل الأحوال أم هل هناك ظروف وشروط معينة لا بد من توفرها حتى يتم القطع؟ وكيف ينفَّذ هذا القطع؟ بل ما معنى القطع؟ كذلك عندنا الزكاة، ولكن كيف يخرج المسلم زكاته؟ وما نِصَابُها؟ وما نسبتها إلى ماله؟ وهل الزَّكَوَات كلها شىء واحد أم هل تختلف حسب نوع المال المزكَّى عنه؟ وهل لا بد من إخراجها عَيْنًا أم هل من الجائز أن نخرجها نَقْدًا؟ وهكذا يرى القارئ أن هناك، إلى جانب القرآن الكريم، مندوحةً واسعةً للمساهمات النبوية من خلال القول والسلوك والتطبيق والحُكْم... إلخ.

أما بالنسبة لما قاله أحمد صبحى منصور عن الصلاة وأنها إنما وردت لنا من أيام إبراهيم عليه السلام ولم تَرِدْ عن طريق السنة النبوية، فيا ترى كيف وصلت إلى العرب على أيام النبى؟ أترى العرب فى الجاهلية كانوا يصلون على النحو الذى كان يصلى عليه إبراهيم طوال كل هاتيك القرون منذ عصر أبى الأنبياء حتى عصر محمد؟ أم وصلتنا فى كتاب من كتب إبراهيم؟ فأين يا ترى ذلك الكتاب؟ وهل كانت صلاة إبراهيم تتضمن مثلا "الفاتحة" وآيات القرآن، التى لم تكن قد نزلت بعد، أم ماذا؟ ثم كيف يسكت القرآن فلا يذكر أن صلاة النبى محمد وأتباعه ليست شيئا آخر غير صلاة إبراهيم عليه السلام وسائر الأنبياء؟ الواقع أنه ليس أمامه إلا الإقرار بأنها إنما وصلت إلينا من خلال سنة نبينا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم ليس إلا. وبالمناسبة فأحمد صبحى منصور يصلى صلاة تختلف تماما عن صلاتنا فى مواعيدها وركعاتها وأقوالها وطريقة تأديتها. فكيف يقول إن مسألة كهذه لا يمكن أن يقع فيها الاختلاف؟ ثم ماذا كان يمكن أن تكون النتيجة لو لم تكن هناك أحاديث تضبط تلك المسألة؟ لا ريب أن الاختلاف سيكون فى تلك الحالة أشد وأزعج، ولسوف تزداد شقة ذلك الخلاف ازديادا فاحشا يثمر فتنة لا تبقى ولا تذر، ويتفتت المسلمون شذر مذر!

وبمناسبة الصلاة نشير هنا إلى ما كتبه أحمد صبحى منصور فى مقال له على المشباك بعنوان "الإسناد فى الحديث" عن الحديث التالى: "من بنى الله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا فى الجنة" تكذيبا وتهكما، إذ قال: اسْتَحْضِرْ عقلك ولا تعطه إجازة، وتفكر فى معنى ذلك الحديث المنسوب

كذبا للنبى عليه الصلاة والسلام. إنه يؤكد على أن كل من بنى لله مسجدا بنى الله تعالى له قصرا فى الجنة مهما كان الشخص مؤمنا أو كافرا، ومهما كان مصدر المال طيبا أو خبيثا. يعنى أن السيد هتلر من حقه أن يكون له قصور فى الجنة إذا بنى بضعة مساجد، ويعنى أيضا أن كل مختلس وظالم وناهب لأموال الناس يستطيع إذا بنى ببعض أمواله الحرام مسجدا أن يدخل الجنة. هل يتفق ذلك مع تشريع الاسلام؟ ثم إن الحديث الذى يبيع قصور الجنة لكل من يتبرع ببناء مسجد يحدد لنا منذ البداية أقل مساحة مقبولة للمسجد. يقول: "من بنى الله مسجدا ولو كمفحص قطاة"، أى يكون مساحة المسجد كقدر ما تتحرك به ساق القطاة حين تفحص بساقيها الارض. والقطاة هى طائر صغير الحجم أقل من العصفور الصغير. إنها فى الحدود٢× ٥ سم. أى من بنى الله مسجدا ولو كانت مساحته ٥ سم × ٢ بنى الله له قصرا فى الجنة حتى لو كان من مال حرام مهما كانت شخصية ذلك المتبرع، وحتى اذا كان ذلك المسجد ٥ سم × ٢ لايستطيع دخوله إلا النمل والصراصير الوليدة. هل يعقل أن يتكلم النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الكلام؟ ولكن ذلك الحديث تم إسناده أو تمت نسبته للنبى عليه الصلاة والسلام، ورواه ابن ماجه فى "مسنده" عن فلان عن فلان. وآمن الناس بصحة ذلك الاسناد. ومن هنا فإن ذلك الحديث الكاذب هو المسئول عن إقامة ٣٨ ألف مسجد وزاوية فى القاهرة الكبرى فى العشرين سنة الماضية، وكلها تنشر ثقافة التطرف عبر أحاديث مسندة أو منسوبة للنبى صلى الله عليه وسلم زورا، وهى تخالف القرآن والسنة الصحيحة للنبى عليه الصلاة والسلام. وبدلا ان تتوجه لبناء مساكن للشباب والعائلات التى تسكن المقابر فإنها توجهت لبناء مساجد أيديولوجية تزيد عن حاجة المسلمين الذين يستطيعون الصلاة فى كل مكان، ومع العلم بأن حق ابن السبيل فى تشريع الاسلام ثابت فى الزكاة الرسمية والصدقة التطوعية والفئ والغنيمة، ولا يصح الالتفات لرعاية أبناء السبيل من الأغراب إلا بعد ضمان المسكن والطعام لأبناء البلد. فكيف إذا كان أبناء البلد أنفسهم لا يجدون السكن بحيث ضاعت أحلام الشباب فى الزواج وأصبحت العنوسة أزمة مستفحلة؟ ومع ذلك تفاقمت تلك المشكلة لأن أموال الصدقات استنفذها أرباب الصحوة السلفية فى بناء عشرات الألوف من المنابر التى تؤسس لدولتهم القادمة! ومن دعائم تلك الدولة ثقافة التراث للعصور الوسطى، تلك الثقافة التى أصبحت مقدسة عبر الإسناد أو عن طريق نسبتها زورا للنبى عليه الصلاة والسلام مهما خالفت العقل والاسلام".

وبداية أحب أن أوضح للقارئ أن ذلك المفسد الكبير لا يفرق فى كتابته بين همزة الوصل وهمزة القطع إذ جعل كل الهمزات تقريبا وصلية، وجعل بعض همزات الوصل قطعية. كما أنه يخطئ نحويا وصرفيا وإملائيا على نحو غريب، وبخاصة من شخص مثله تعلم فى الأزهر. والسؤال هو: ما علاقة سلفيى اليوم بهذا الحديث؟ هل هم الذين اخترعوه وضحكوا على الناس به؟ إن الحديث قديم وموجود فى كتب السنة منذ بضعة عشر قرنا، ومن ثم فلا معنى لهذا الهجوم على السلفيين، الذين قد يكون رأيى فيهم أسوأ من رأيه هو إن كان ينفر منهم فعلا لا تظاهرا. وإذا كان النبى لا ينبغى أن يحض المسلمين على بناء المساجد فعلى بناء أى شىء ينبغى أن يحضهم؟ على بناء الكنائس والمعابد اليهودية ومعابد المجوس والهندوس مثلا؟ إن أحمد صبحى منصور يكره الإسلام كراهية شنيعة ويريد مع هذا أن

يوهمنا أنه يغار على القرآن والإسلام ورسوله عليه السلام. وهنا أحب أن أوضح للقراء أنه ما إن انتقل إلى أمريكا، التى ترعاه وتوسوس له بكل ما يقول، حتى كان أول شاغل له هو بناء مسجدِ ضِرَار يناطح به المساجد الإسلامية، والصلاة فيه تختلف تمام الاختلاف عن صلاتنا نحن المسلمين؟ فإذا كان يرى أنه لا داعى لبناء مسجد لأن الصلاة تقام فى أى مكان فلماذا لا يصلّى هو فى أى مكان ويوفر الفلوس الخاصة ببنائه للفقراء والمساكين؟ ثم إنه يترك الدولة، التى ينبغى أن توفر للمواطنين المساكن، ويهاجم بناة المساجد. فانظروا إلى اضطراب فكره وحَوَل عقله. على أن المسألة لا تقف هنا بل لا بد أن يعرف القراء من الذين ساعدوه على بناء هذا المسجد؟ فأما أحدهما فنصرانى مصرى مهجرى يحارب الإسلام ويرى أن المسلمين ليس لهم حق فى مصر وأن الإسلام دين غريب، والثانى لا يعرف عنه أنه ركع ركعة واحدة فى حياته، وهو على كل حال من رجال أمريكا الأوفياء.

أما مفحص القطا فقد قرأت فى تقرير فى صحيفة "الاتحاد" الإماراتية عنوانه "مشروع مفحص القطاة" بتاريخ ٧ إبريل ٢٠١٧م فمساحته ٢٥٠ سم مربع تقريبًا (١٣.٩ × ١٨ = ٢٥٠). فانظر الفرق بين كلام أحمد صبحى منصور وكلام الصحيفة. وهو يدلك على مدى جهله وتدليسه ولامبالاته بأن يكتشف الناس كذبه. كما أن حجم جسم القطا قريب من حجم جسم الحمام وليس أصغر من حجم العصفور الصغير كما يقول هذا المدلس. ومن كذبه الفج الغليظ أن المساجد تخرّج إرهابيين، وكأن المساجد موجودة تحت الأرض بعيدة عن عيون الناس والدولة، التى تعرف دبة النملة فى أى مكان على أرضها. إن الإرهابيين يعقدون اجتماعاتهم فى الخفاء بعيدا عن العيون والآذان، وإلا لقضت عليهم الدولة فى طرفة عين. ثم ما معنى الربط بين هتلر والمساجد إلا أن يرضى قلوب اليهود ومجرمى الغرب عنه وعما يقول؟ إنه بجرة قلم واحدة قد ربط بين المسجد وهتلر، أى بين الإسلام والنازية. فانظر بالله عليك مدى خبث طويته وغلظ مشاعره. إنه لا يرى أى بأس فى بناء الكنائس والمعابد لكنه يكره كراهية العمى بناء مسجد واحد، ولهذا يربط الجوامع بهتلر خبط لزق كى ينفر الناس منها ومن الصلاة والإسلام.

وأما زعمه أن الحديث يعنى أنه لا يهم أن يكون بانى المسجد مؤمنا أو كافرا أو لصا أو رجلا مستقيما حتى يدخل الجنة فهل الكافر يدخل الجنة أصلا؟ ثم هل الإسلام يقبل السحت والحرام؟ إن الله سبحانه "طيب لا يقبل إلا طيبا"، والحرام مصيره ومصير أصحابه النار مع المدلسين بمشيئة الله. وأما تهكمه على عبارة رسول الله: "ولو كمفحص قطاه" فهو دليل آخر على جهله وعناده. إنه رغم أزهريته لا يفقه الملاحظ البلاغية فى الحديث الجميل. والمبالغة، كما هو معروف، من الأدوات البلاغية ذات التأثير القوى على النفس البشرية. والرسول الذى قال ذلك هو نفسه القائل: "أَوْلِمْ ولو بظلف شاة"، فهل هناك من يجهل معنى هذا الحديث فيذهب يسخر من "ظلف الشاة" مقيما الدلائل والبراهين على أنه لا يؤكل ولا يصح أن يدعو أحد أحدا إليه؟ ومثله قوله عليه السلام: "لو يَعْلَمُونَ ما فى العَتَمَةِ والصُّبْحِ لَأَتَوْهُما ولو حَبْوًا". وهل هناك أصلا إنسان يفكر أن يأتى إلى المسجد حبوا فى التراب والطين والحجارة، وتتسلخ فوق ذلك ملابسه وركبتاه؟ بل هل من كان حاله هكذا يجب عليه

الصلاة فى المسجد أصلا؟ ومثله "اتقوا النار ولو بشق تمرة". ومثله "ردُّوا السّائلَ ولو بظلْفٍ مُحْرَقٍ". كذلك لا يوجد عاقل يتهكم على قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها" لأن هذه مبالغة يراد بها حث الناس على العمل مهما تكن الظروف، وإلا فهل إذا قامت القيامة سيكون هناك وقت أو بال لغرس فسيلة أو القيام بأى شىء آخر؟ وهل لو كان الإيمان فى الثريا أكان من أهل فارس من يتناولونه كما يقول الحديث الشريف؟ فأما إن كان القارئ يفهم معنى الأدب والبلاغة فسيعجب بهذه الصورة غاية الإعجاب، وأما إن كان متخلفا فى الذوق والفهم فلسوف يعترض قائلا: وكيف يصل الإيمان يا ترى إلى الثريا؟ ثم كيف يستطيع الفرس أن يتناولوه وليس ثم وسائل مواصلات تصل إلى هناك؟ وحتى لو وجدت وسائل مواصلات إنها لجديرة بأن تحترق وتذوب بمن فيها قبل أن تصل بزمن طويل من شدة حرارة النجم.

ومن تساخف أحمد صبحى منصور يقول: "وحتى اذا كان ذلك المسجد ٥ سم ×٢ لايستطيع دخوله الا النمل والصراصير الوليدة". يا لدمه الذى يشبه دم البق كما تقول العامة عندنا فى مصر! إنه بعد أن ربط المسجد بالإرهاب وبهتلر ها هو ذا يربطه بالنمل والصراصير. ثم ما ذنب الإسناد فى هذا كله؟ ألا ما أكثر الأسانيد التى يرفضها رجال الحديث! ثم إن المسلمين عموما الآن لا يهتمون إلا بمتن الحديث ذاته، وبالتالى فإن الإسناد لا يقدم عندهم ولا يؤخر. وهو نفسه قد عاد بعد سطور فقال: "وفى عصرنا لم يعد أحد يهتم اذا كان الاسناد صحيحا أو ضعيفا، فيكفى أن يقال: "قال رسول الله" ليصدق الناس فورا أن النبى قال فعلا هذا الكلام"، وهو ما ينسف كل ما قاله عن الإسناد.

وكعادة أحمد صبحى منصور فى الكذب كتب قائلا فى نفس المقال: "ومنذ عشر سنوات تقريبا جائنى صديق منزعج، قال إنه فوجئ ببلدته بالصعيد وقد سيطر عليها الشباب السلفى وأعادوها لما كان عليه السلف، ومن ذلك انهم أوجبوا على العريس ليلة الدخلة أن يحمل عروسه الى بيته وهى داخل زكيبة أو شوال لأن ذلك ما جاء فى السنة والاحاديث. فقلت لهم إنهم قرأوا خطأ ذلك الحديث القائل بأنهم كانوا يدخلون بالنساء فى شهر شوال، وكانت نكتة هائلة. وعاد صديقى الجاهل بلدته وقرأ لهم الحديث بالتشكيل الصحيح، وأنقذ بذلك بنات القرية من تجربة التعبئة فى الاشوال والزكائب". فانظر كيف يحاول عبثا أن يكون ظريفا. ترى هل سمع أحد بأن الشبان فى الصعيد فعلوا ذلك؟ ثم إنه يتناقض فى هذه الأسطر القليلة تناقضا فاضحا: فمرة يقول إن الشبان المذكورين أوجبوا على الأزواج أن يحملوا زوجاتهم ليلة الدخلة فى شِوَال ليعود فيقول إن شرحه للحديث قد جَنَّب الفتيات المتزوجات هذه التجربة. فأى الأحمدين الصبحيين المنصورين نصدق؟ أما أنا فهو عندى كذاب بالثلث فى كل ما يقول أو يكتب. ثم لو كان الشبان قد فهموا كلمة "شَوَّال" على أنها "شِوَال" فلماذا لم يفهموها بهذا المعنى فى الحديث القائل: "مَن صام رمضانَ وأتبَعه ستًّا من شوالٍ فكأنما صام الدهرَ"، وبعد أن يصوموا رمضان يحضرون ستة أشولة وبهذا يكونون قد صاموا الدهر"؟ ثم هل كانت كلمة "شِوَال" (بمعنى "زكيبة") معروفة للعرب والمسلمين فى ذلك العصر؟ وحتى لو كانت معروفة فإن كلمة "شهر" قبلها كفيلة بأن تبعد عن الذهن ذلك الفهم المضحك. ثم أين القصص والحكايات التى تتعلق بهذا التقليد الغريب؟ الواقع

أنه لا وجود لشيء من هذا لا فى الأحاديث ولا فى كتب التاريخ ولا فى كتب الأدب ولا فى المعاجم. كما أن قول عائشة: "تزَوَّجَنى رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى شَوّالٍ" معناه، بناء على ثقل ظل صاحبنا، أنه كان معها فى الشوال حين دخل بها. ولكن كيف يتم التزوج فى شوال؟

ونمضى مع أحمد صبحى منصور فى هجومه التافه على الأحاديث النبوية فنراه يقول: "ونعود إلى البخارى فى باب "مباشرة الحائض" ونقرر أن متن هذا الحديث قد تكرر فى عدة أحاديث أخرى تنسب للنبى صلى االله عليه وسلم أنه كان يباشر نساءه فى المحيض. وكلها أحاديث كاذبة لأنها تنسب للنبى عليه السلام أنه يخالف القرآن، إذ يقول تعالى: "يسألونك عن المحيض. قل: هو أذى. فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن. فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله. إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين" (البقرة/ ٢٢٢). أى أنهم سألوا النبى صلى االله عليه وسلم عن المحيض، وانتظر النبى صلى االله عليه وسلم الإجابة من السماء، فنزلت الآية تؤكد على اعتزال النساء جنسيا فى المحيض وعدم الاقتراب منهن بعد حتى يطهرن، ثم يبيح الاقتراب منهن بعد الطهر. وهنا تناقض جلى بين الآية الكريمة وحديث البخارى بحيث إنك إذا آمنت بالقرآن فعليك بتكذيب البخارى. أما إذا آمنت بحديث البخارى فأنت بالتالى تكذِّب بالقرآن. ومن هنا كان تأكيد الله تعالى فى القرآن على الايمان بحديث القرآن وحده، وما عداه ليس محلا للإيمان، وإنما هو قضية علمية قائمة على الشك، والحقائق فيها نسبية، وليست مطلقة مثل حقائق الإيمان. وبالتالى فإن تصديق الاسناد هو الذى يجعلها قضية إيمانية بالتزوير".

والحق إن هذا الحديث لأكبر دليل على انحراف أحمد صبحى منصور عن الصراط السوى، فنحن هنا أمام نص قرآنى ورد لنا تفسيره من خلال تصرف الرسول عليه السلام، وها هو ذا أحمد صبحى منصور يقدم لنا تفسيره هو. وهو يعمل جاهدا على كشط الأحاديث من الوجود كى يخلو له الجو فيبيض ويصفر كالحمامة التى كان يسمعها أبو فراس الحمدانى وهو فى سجن الروم أسير فيغبطها على ما هى فيه من حرية يفتقدها هو تماما فى زنزانته. إن النهى فى الآية الكريمة عن الاقتراب من النساء حتى يطهرن من الحيض ليس معناه أنه حرام على الأزواج الجلوس إليهن أو الكلام معهن أو ملامسة فرشهن أو مؤاكلتهن مثلا، وإلا كنا نتشبه باليهود، الذين جاء النبى عليه السلام ضمن ما جاء ليضع عنهم هذا الإصر وأمثاله من الأغلال المزعجة والمعوقة عن الحياة السلسة، فأباح دينه الكريم تعامل الأزواج مع زوجاتهن الحُيَّض فى كل شىء ماعدا الجماع. فهذا تفسير النبى عليه السلام، وهذا تفسير أحمد صبحى منصور. ولينظر المسلمون: من يتبعون ويطيعون؟ النبى العربى أم العميل الأمريكانى؟

لقد كان اليهود يَتَباعَدُونَ عَنِ الحائِضِ تماما بحُكْم كتابهم. فَفى الإِصْحاح الخامِسَ عَشَرَ مِن سِفْرِ "اللّاوِيِّينَ": "إذا كانَتِ امْرَأةٌ لَها سَيْلٌ دَمًا فى لَحْمِها فَسَبْعَةُ أيّامٍ تَكُونُ فى طَمْثِها وكُلُّ مَن مَسَّها يَكونُ نَجِسًا إلى المَساءِ وكُلُّ ما تَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكونُ نَجِسًا وكُلُّ مَن مَسَّ فِراشَها يَغْسِلُ ثِيابَهُ ويَسْتَحِمُّ بِماءٍ ويَكُونُ نَجِسًا إلى المَساءِ وإنِ اضْطَجَعَ مَعَها رَجُلٌ فكانَ طَمْثُها عَلَيْهِ يَكونُ نَجِسًا سَبْعَةَ أيّامٍ، وَكُلُّ فِراشٍ يَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا". ومِن قَبائِلِ العَرَبِ مَن كانَوا يبغضون الحائِضُ، وكان منهم من يخرجونها إلى

ظاهر المساكن حَتّى تَطْهُرَ. وقَوْلُهُ تعالى: "فاعْتَزِلُوا النِّساءَ فى المَحِيضِ" كِنايَةٌ عَنْ تَرْكِ مُجامَعَتِهِنَّ. فالْمُرَاد مِنَ النَّهْى عَنِ الْقُرْبِ هو النَّهْى عَنْ لَازِمِهِ الَّذِى يُقْصَدُ مِنْهُ، وَهُوَ الْجماع. وعلى هذا فمعنى "اعْتَزِلُوا نِساءَكم" هو اعْتَزِلُوا مُجامَعتهنُ. وقَوْلُه سبحانه: "ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتّى يَطْهُرْنَ" توضيح لِلْمُرادِ مِنَ الاعْتِزالِ، وأَنَّهُ لَيْسَ التَّباعُدَ عَنهن جسديا كما هو الحال لدى اليَهُودِ بَلْ عَدَم مجامعتهن. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهَا فِى الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِى النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ. قُلْ: هُوَ أَذًى"... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: اصْنَعُوا كُلَّ شَىء إِلَّا الْجِمَاعَ". وَفِى حَدِيثِ حِزَامِ بْنِ حَكِيمٍ أَنَّ عمهُ "سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: مَا يَحِلُّ لِى مِنِ امْرَأَتِى وَهِى حَائِضٌ؟ قَالَ: لَكَ مَا فَوْقَ الْإِزَارِ". وَهَذَا الْحُكْمُ يمثل التوسط بَيْنَ إِفْرَاطِ اليهود الَّذِينَ يَعُدُّونَ الْمَرْأَةَ الْحَائِضَ وَكُلَّ مَنْ يَمَسُّهَا أَوْ يَمَسُّ ثِيَابَهَا أَوْ فِرَاشَهَا نجسا، وَتَفْرِيطِ النصارى الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ مُجامعتها فِى الْحَيْضِ بمَا فِيهِ مِنَ الْأَذَى.

ومما يدل على أن القرب من الزوجة معناه الجماع الأحاديث التالية: "عن عبد الله بن عمر: إذا كانتِ الأَمَةُ تحتَ عَبدٍ، فأصابَتْها عَتاقةٌ، فإنَّها تُخيَّرُ ما لم يَمَسَّها: إنْ شاءَتْ كانتِ امرَأتَهُ، وإنْ شاءَتْ فارَقَتْهُ. فإنْ قَرُبَ حتى يُجامِعَها لم تَستَطِعْ أنْ تُنتَزَعَ منه". "عن عبد الله بن عباس: أنَّ رجلًا أتى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: يا رسولَ اللهِ، إنى ظاهرتُ من امرأتى، فوقعتُ عليها قبل أن أُكفِّرَ. فقال له رسولُ اللهِ: لا تَقْرَبْها حتى تفعلَ ما أمرَك اللهُ عزَّ وجلَّ". "عن جابر بن عبد الله: بينما نحنُ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى السوقِ إذا امرأةٌ قد أخذت بعنانِ حمارِه فقالت: إنَّ زوجى لا يقربُنى، ففرِّق بينى وبينَه. فدعاهُ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ما لكَ ولها؟ جاءت تشكو منكَ. حقًّا أنك لا تقربَها؟ قال: يا رسولَ اللهِ، والذى أكرمكَ إنَّ عهدى بهذهِ لهذهِ الليلة. فبكتْ وقالت: كذبَ. ففرِّقْ بينى وبينَه، فإنَّهُ من أبغضِ خلقِ اللهِ إلى.فتبسم رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ثم أخذ برأسِه ورأسِها فجمعَ بينهما وقال: اللهم أَدْنِ كلَّ واحدٍ منهما من صاحبِه. قال جابرٌ: فلبثْنا ما شاء اللهُ أن نلبَثَ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالسوقِ، فإذا نحنُ بالمرأةِ تحملُ أُدُمًا، فلما رأتْهُ طرحتِ الأُدْمَ وأقبلت إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: والذى بعثكَ بالحقِّ ما خُلِقَ من بشرٍ أحبَّ إلى منهُ إلا أنتَ". وفى "معجم عربى عامة" و"معجم الغنىّ" و"المعجم الوسيط" و"معجم اللغة العربية المعاصر": "قَرِبَ الرجل المرأة: جامعها. وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ".

كذلك كثيرا ما تستقل السنة النبوية بالتشريع، فكثير من الأحكام ثبت عن طريق السنة، ومنكر حجية السنة النبوية قوله شاذ مردود. وقد جاء فى الحديث الصحيح المتواتر: "لا يُجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها". ومع اتفاق أهل العلم قدامى ومحدثين على تحريم الجمع بين المرأة وعمتها اتباعا لما جاءت به الأحاديث الشريفة نجد أحمد صبحى منصور، فى مقال له على المشباك بعنوان "الدين السنى والتشريع بما لم يأذن به الله جل وعلا" يقول إن "الفقهاء أعملوا القياس فحرموا الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها قياسًا على حرمة الجمع بين المرأة وأختها، وحرموا الخالة والعمة من الرضاع قياسًا على تحريم

الأم من الرضاع والأخت من الرضاع، ثم صاغوا فى ذلك أحاديث هى أشبه بمتون الفقه وأحكام الفقهاء فقالوا: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب"، وقالوا: "لا يجمع الرجل بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها". وهنا يقع التناقض مع كتاب الله. فإذا أراد رجل أن يتزوج عمة زوجته أجاز له القرآن ذلك لأن عمة الزوجة ليست من المحرمات فى نص القرآن ولأنها تدخل فى الحلال من النساء للزواج ضمن قوله تعالى: "وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ"، ولكن الفقه السنى يجعل ذلك الحلال القرآنى حرامًا. وإذا أراد رجل أن يتزوج خالته من الرضاع أحلها له القرآن وحرمها عليه الفقه. وذلك يعنى بوضوح أنهم يحرمون ما أحل الله وينسبون ذلك للرسول، والرسول عليه السلام برىء من ذلك". ومما استقلت به السنة فى التشريع حكم أكل الحمار الأهلى: فقد قال عليه السلام: "ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السبع".

وعلماء الأمة قدامى ومحدثين متفقون على حجية السنة النبوية وأنها المصدر الثانى للتشريع. قال أيوب السختيانى فى "الكفاية فى علم الرواية": "إذا حدثتَ الرجل بالسنة فقال: "دعنا من هذا وحدثنا من القرآن" فاعلم أنه ضال مضل". وقال الشوكانى فى "إرشاد الفحول": "إن ثبوت حجية السنة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف فى ذلك إلا من لا حظ له فى الإسلام". وقبل ذلك هناك قوله تعالى: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" (الحشر/ ٧)، وقوله سبحانه: "قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ" (آل عمران/ ٣٢)، وقوله جل جلاله: "فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (النور/ ٦٣)، وقوله عز شأنه: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا" (الأحزاب/ ٣٦، وقوله عز وجل: "فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" (النساء/ ٦٥)، وقوله تقدست آلاؤه: "فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ".

وأما بالنسبة لخُطَبه صلَّى الله عليه وسلَّم فى الجمعة وغيرها فقد كانت كل خطبة تتكون أساسا من كلامه، مع الاستشهاد ببعض الآيات الكريمة بطبيعة الحال. وهذا هو الجزء الأول من أول خطبة جمعة له صلى الله عليه وسلم بالمدينة: "الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره، وأستهديه وأومن به ولا أكفره، وأعادى من يكفره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، ارسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرّط وضل ضلالا بعيدا. وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرا. وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره

وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا، ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد والذى صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك، فعنه يقول عز وجل: "ما يُبَدَّل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد". فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعْظِم له أجرا، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما. وإن تقوى الله يوقى مقته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرفع الدرجة. خذوا بحظكم ولا تفرّطوا فى جنب الله. قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا فى الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم: المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حَى عن بينة. ولاحول ولا قوة إلا بالله، فأكثِروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه. الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم".

ويهاجم أحمد صبحى منصور أيضا من يعدون سنة البخارى وغيره مصدرا من مصادر التشريع فى الإسلام متسائلا: هل يعقل أن تظل مصادر التشريع فى الإسلام ناقصة الى أن يأتى البخارى وغيره بعد موت النبى بعدة قرون ليكملوها؟ وماذا نفعل بقوله تعالى: "اليوم أكملتُ لكم دينَكم، وأتممتُ عليكم نعمتى، ورَضِيتُ لكم الاسلام دينا"؟ فعنده أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد للتشريع، إلا أن المسلمين أضافوا له مصادر أخرى توسعت بها الفجوة بينهم وبين الإسلام. وكان من بين تلك المصادر الأحاديث والسنن، وكلهم مختلفون فيها جزئيا وكليا. وعنده أن تلك الأحاديث ليست جزءا من الإسلام، وأولئك الذين يعدونها من الإسلام إنما يتهمون النبى عليه السلام بأنه لم يبلغ الدين كاملا وبأنه فرط فى تبليغ هذا الجزء.

هذا ما قاله أحمد صبحى منصور. والواقع أنه يتلاعب هنا بالكلمات، فنحن لا نؤمن بسنة البخارى ولا غير البخارى بل بسنة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، التى جمعها ودونها هؤلاء الأفذاذ. وكانت تلك السنة موجودة منذ أيام النبى، ودوَّن بعض الصحابة أشياء كثيرة منها كما سنوضح فى موضعه من هذا الكتاب، وكان المسلمون يحفظونها، ويلجأون إليها فى تشريعاتهم حين لا يجدون فى القرآن مبتغاهم وجودا مباشرا مثلما كانوا ولا يزالون يستخدمون عقولهم واستنتاجاتهم وقياساتهم عندما لا يجدون فى القرآن والحديث مبتغاهم وجودا مباشرا. وكل ما صنعه أصحاب كتب الحديث هو أنهم نقلوا أحاديث النبى من الصدور والأفواه والصحف إلى كتب صنَّفوها هم وبَوَّبُوها حتى تكون تحت يد من يريد فلا يضيع وقته فى البحث عنها ولا فى التحقق منها بدءا من نقطة الصفر. ترى هل يصح أن نقول إن الناس لم تكن تتنفس إلى أن صنف العلماء والأطباء كتبا فى الجهاز التنفسى والشهيق والزفير وشرحوا عملية التنفس؟ فكذلك الحال فى كتب الحديث.

أما قوله إن المسلمين يعدون ما كتبه البخارى وغيره هو السنة النبوية، ويدّعون أنها وحى من السماء رغم أن ذلك الوحى قد امتنع عن كتابته الرسول والخلفاء الراشدون وغير الراشدين إلى أن جاء بعض الناس كالبخارى وغيره فتطوعوا بدافع شخصى لتدوين تلك السنة، بما يعنى أن الإسلام ظل ناقصا

إلى أن تطوع البخارى وغيره لإكماله فى عصور الفتن والاستبداد والانحلال، أما قوله هذا فهو قول متهافت لا يصمد أمام النظر العقلى. فأى دافع شخصى بعث البخارى وغيره على تأليف "صحاحهم" أو "مسانيدهم" يا ترى؟ هل كان يريد ملكا أو مالا أو جاها؟ فكيف؟ إننا لا نقول إن كل ما جمعه البخارى أو غير البخارى فى كتابه صحيح مائة فى المائة، بل نقول إنهم قد بذلوا فى تلك السبيل جهودا عبقرية نبيلة نرجو أن يجازيهم الله عليها خير الجزاء. وهم لم يأتوا بتلك النصوص من عندياتهم بل جمعوا ما كان متداولا على الألسن أو محفوظا فى القلوب أو مثبتا فى الصحف ويعمل به المسلمون فى تصريف شؤونهم التشريعية والأخلاقية والسلوكية والعقيدية. إنهم، كما قلنا ونقول، لم ينشئوها من العدم، بل كانت موجودة، وكل ما صنعوه هو أنهم جمعوها وتحققوا حسب استطاعتهم من صحتها وبَوَّبُوها حتى يكون استعمالها سهلا ميسورا لمن يريد.

وهنا نراه يلجأ إلى اتهام البخارى بأنه أساء بأحاديثه تلك إلى مقام النبى الكريم، موردا حديثا يقرؤه بطريقته المريبة زاعما أن البخارى يصور فيه الرسول عليه الصلاة والسلام بصورة من يريد اغتصاب امرأة من النساء، مع أن الحديث إنما يتكلم عن سيدة كان النبى قد خطبها وعقد عليها لكنه لم يكن قد دخل بها. وتصادف أن وصلت الزوجة المذكورة إلى النبى وهو فى بعض الطريق مع صحابته، وأُنْزِلَتْ فى بستان، فترك النبى أصحابه ليرى زوجته الجديدة، فما كان منها حين رأته يمد يده إليها إلا أن استعاذت بالله ظنا منها أن ذلك سيجعلها أحظى عنده حسبما أفهمها بعض زوجات النبى. فكان أن أجابها الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا: عُذْتِ بمعاذ. أى أنت الآن فى حماية الله ما دمت قد استعذت به. ثم سرَّحها إلى أهلها تسريحا جميلا وأكرمها وأعطاها بعض المال تطييبا لخاطرها رغم انخداعها بما سمعت وتنفيذها له بالحرف مما لا يجعلها أهلا لأن تكون زوجة للنبى. إن الحديث الذى استشهد به أحمد صبحى منصور على صحة اتهامه للبخارى هو حديث موجز لا يعطى الصورة كاملة كما شرحتها هنا، بيد أن الرجوع إلى روايات الحديث الأخرى من شأنه أن يجلِّى الامر تجلية تامة ويوضح ما أراد منصور التعمية عليه ليصدّق القراء المتعجلون اتهامه المجحف للبخارى رضى الله عنه.

ومن الحجج التى يلجأ إليها أحمد صبحى منصور فى محاربته للحديث النبوى الشريف تفسيره العامى لقوله تعالى شأنه: "ما فرَّطنا فى الكتاب من شىء"، وقوله سبحانه: "ونزَّلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شىء"، متصورا أنه يمكنه الاستدلال بذلك على وجوب استغناء المسلم بالقرآن عن كل شىء آخر. والحق أنه لو كان صادقا فى هذا الذى يقول لكان أولى به أن يمزق كتبه ومقالاته أيضا. أليس القرآن قد ذكر كل شىء، وبيّن كل شىء، ولم يفرط فى أى شىء؟ وهذا يذكِّرنى بالسؤال الذى كنا نسمعه فى صبانا من بعض العامة حولنا: "إذا كان القرآن فيه تبيان كل شىء، فكيف لم يذكر عدد الأرغفة التى تنتجها أفران مصر على سبيل المثال؟". إننا لا نشاحّ فى أن القرآن قد بيّن كل شىء ولم يفرِّط فى ذكر أى شىء، ولكن بمعنى غير هذا المعنى العامى الساذج. إن القرآن كثيرا ما يكتفى برسم الخطوط العامة فى العقيدة والتشريع والأخلاق والعلاقات البشرية ثم يتركنا نستخلص منها ما نعالج به مشاكلنا التى تتجدد مع الأيام.

وقد كان الرسول هو أول من قام بتطبيق مبادئ القرآن واستخراج الأحكام التفصيلية من مبادئه وتشريعاته العامة وتطبيقها على الوقائع التى تستجد كل يوم، فكيف يُطْلَب منا أن نهمل ما تركه لنا الرسول الكريم على اعتبار أنه يتناقض مع إيماننا بالقرآن؟ أما قوله إن "النبى يوم القيامة سيعلن براءته من أولئك الذين تركوا كتاب الله وهجروه جريا وراء مصادر أخرى ومعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان: وقال الرسول: يا ربِّ، إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا * وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًّا من المجرمين، وكفى بربك هاديا ونصيرا" فهو تكرير للاتهامات السخيفة المتنطعة التى لا يَكِلّ ولا يَمَلّ من توجيهها لعلماء الحديث خاصة، والمسلمين عامة، إذ لا يوجد مسلم يستعيض بكتب الحديث عن كتاب الله، بل كل ما هناك أنها تساعدنا على فهم القرآن وتطبيقه على أحسن وجه ممكن، بدلا من الانفلات فى أجواز الفضاء دون ضابط ولا رابط كما يفعل هو نفسه ومَنْ على شاكلته. ثم هل يمكن أن يعلن النبىُّ براءتَه ممن يشهد له صلَّى الله عليه وسلَّم بالنبوة والرسالة، ويقف مع من يكفِّر الذى يقول: "أشهد أن محمدا رسول الله" حسب مزاعم أحمد صبحى منصور؟ وإذا كانت الشهادة لمحمد بالنبوة والرسالة كفرا وشركا وإثما فما هى الشهادة يا ترى التى تُرْضِى اللهَ ورسولَه؟

وهو يؤكد، ونحن قبله نؤكد، أن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم هو المثال الأعلى فى الخلق والسلوك والعقل والفصاحة والدعوة والتخطيط والقيادة العسكرية والزعامة السياسية. لكننا نتساءل: ترى كيف تواتى المسلمَ الحقَّ نفسُه على إهمال ذلك التراث النبوى العظيم والبدء كل مرة من جديد دون محاولة الاستفادة من هذا التراث الذى يقول فيه منصور قصائد وَلْهَى ليستدير فيفاجئنا بأن علينا نبذه تماما، وإلا كنا مشركين كافرين؟ ثم إذا كان الوحى قد عاتبه عليه السلام فيما لم يوافقه عليه، وفى ذات الوقت لم يعترض على شىء مما وصلنا من أحاديثه وتصرفاته الشريفة الأخرى، أفلا يحق لنا أن نفهم أن هذه الأحاديث والتصرفات تحظى من القرآن بالرضا والقبول؟ ألا يرى القارئ أن منصور يتخبط تخبطا عنيفا ولا يستطيع أن يهتدى إلى الخروج من المأزق الذى أوقع نفسه فيه سبيلا؟

كذلك نراه يقول إن ما وصلنا من روايات الأحاديث النبوية فيه الصواب والخطأ. وتعليقنا عليه هو أن علماء الحديث، كما هو معروف، لم يقبلوا كل ما وصلهم من كلام أو فعل منسوب للرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو دليل على أنهم قد بذلوا جهودا جبارة فى تمحيص سنته الكريمة، وإن كنا لا نستطيع الزعم بأن هذه الجهود العبقرية لا يخرّ منها الماء: فهناك أحاديث منسوبة للنبى ردها بعض العلماء، وهناك أحاديث أخرى لا يطمئن إليها القلب، بل منها ما لا يقتنع به العقل. أما منصور فقد غالى فى الرفض مغالاة رهيبة ودعا إلى اطّراح الأحاديث النبوية جملة وتفصيلا.

والغريب أنه فى الوقت الذى يهاجم المحدّثين والأحاديث التى يروونها هجوما شديدا لا يُبْقِى ولا يَذَر نراه يعتمد عليهم ويصدّق رواياتهم تمام التصديق كلما ظن أنه يستطيع توظيفها فى الهجوم عليهم. ومن ذلك قوله: "ويؤكد أن النبى نَهَى عن كتابة غير القرآن أن الخلفاء الراشدين بعده ساروا على طريقه فنَهَوْا عن كتابة الأحاديث وعن روايتها: فأبو بكر الصدّيق جمع الناس بعد وفاة النبى فقال: "إنكم تحدّثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا، فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئا. فمن

سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحِلّوا حلاله، وحرِّموا حرامه"، وهذا ما يرويه الذهبى فى تذكرة الحفاظ. ويروى ابن عبد البر والبيهقى أن عُمَر الفاروق قال: "إنى كنت أريد أن أكتب السنن، وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله. وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدا. ورواية البيهقى: "لا أَلْبِس كتاب الله بشىء أبدا". وروى ابن عساكر قال: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق، فقال: ما هذه الأحاديث التى أفشيتم عن رسول الله فى الآفاق؟ أقيموا عندى. لا والله لا تفارقونى ما عشت. فما فارقوه حتى مات". ومنه كذلك قوله: "وعلماء الحديث يتفقون على صحة حديث "من كذب علىَّ فليتبوأ مقعده من النار"، وبعضهم يضيف إليه كلمة "متعمدا": "من كذب علىّ متعمّدا فليتبوأ مقعده من النار". وهم يجعلون هذا الحديث من المتواتر، وعدد الحديث المتواتر لا يصل إلى بضعة أحاديث عند أكثر المتفائلين. والمهم أنهم، بإقرارهم بصحة هذا الحديث، يثبتون أن الكذب على النبى بدأ فى حياة النبى نفسه، وإلا ما قال النبى هذا الحديث يحذّر من الكذب عليه". ومنه أيضا قوله: "وأكثر أبو هريرة من الحديث بعد وفاة عمر، إذ أصبح لا يخشى أحدا. وكان أبو هريرة يقول: إنى أحدثكم بأحاديث لو حدّثتُ بها زمن عمر لضربنى بالدِّرّة (وفى رواية: "لَشَجَّ رأسى"). ويروى الزهرى أن أبا هريرة كان يقول: ما كنا نستطيع أن نقول: "قال رسول الله" حتى قُبِض عمر. ثم يقول أبو هريرة: أفكنتُ محدِّثَكم بهذه الأحاديث، وعُمَرُ حَىّ؟ أما والله إذن لأيقنت أن المِخْفَقَة (العصا) ستباشر ظهرى، فإن عمر كان يقول: اشتغلوا بالقرآن، فإن القرآن كلام الله". والآن ما دام ينكر الأحاديث فلماذا يستعين بها لتعضيد رأيه، وهى مزيفة فى نظره ليس لها حقيقة؟ ثم إن تفكير عمر فى جمع السنة معناه بكل حسم أن النبى قد ترك وراءه تلك الأحاديث، وهو ما يكذّب ما يزعمه أحمد صبحى منصور تكذيبا شديدا.

ثم ماذا نصنع بالحديث التالى، وفيه أن كلا من أبى بكر وعمر أثناء خلافته عرضت عليه قضية من قضايا الميراث، فلم يجد حكمها الشرعى فى القرآن فأخذه من السنة: "عن المغيرة بن شعبة: جاءتِ الجدَّةُ إلى أبى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضى اللَّهُ عنه فسألَتهُ ميراثَها، فقالَ: مالَكِ فى كتابِ اللَّهِ شىء، وما عَلِمْتُ لَكِ فى سنَّةِ رسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا، فارجِعى حتّى أسألَ النّاسَ. فقالَ المغيرةُ بنُ شعبة: شهِدتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أعطاها السُّدُس. فقال: هل معَكَ غيرُكَ؟ فقامَ محمَّدُ بنُ مسلمةَ فقالَ مثلَ ما قالَ المغيرةُ، فأنفذَهُ لَها أبو بَكْرٍ، ثمَّ جاءتِ الجدَّةُ الأخرى إلى عمرَ رضى اللَّهُ عنهُ فسألَتهُ ميراثَها، فقال: مالَكِ فى كتابِ اللَّهِ شىء، وما كانَ القضاءُ الَّذى قُضِىَ بِهِ إلّا لغيرِكِ، ولَكِنْ هو ذلِكَ السُّدسُ. فإنِ اجتمعتُما فهَوَ بينَكُما، وأيَّتُكُما خلَت بِهِ فهَوَ لَها". وهذا حكم الحديث: (ابن حجر العسقلاني- ت ٨٥٢، موافقة الخبر الخبر ٤١٥/٢ • صحيح). "عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة: جاءت الجدةُ إلى أبى بكرٍ تسألهُ ميراثها، فقال: مالكِ فى كتابِ اللهِ من شىء، وما علمتُ لكِ فى سنةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئا، فارجعى حتى أسألَ الناسَ. فسألَ الناسَ، فقال المُغيرةُ بن شُعْبَةٍ: حضرتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أعطاها السُدسَ. فقال: هل معك غيرُكَ؟ فقام محمدُ بن مَسلمةَ الأنصارى، فقال مثلَ ما قال المغيرةُ، فأنفذَ لها أبو بكرٍ السُدسَ. ثم

جاءتِ الجدةُ الأخرى إلى عمرَ بن الخطابِ تسألهُ ميراثها، فقال: ما لكِ فى كتابِ اللهِ من شىء، وما كانَ القضاءُ الذى قُضِىَ بهِ إلا لغيركَ، وما أنا بزائد فى الفرائضِ شيئا، ولكنْ هو ذلكَ السُدسُ. فإن اجتمعتُما فيهِ فهو بينكُما، وأيتكُما خلَتْ به فهو لها" (البغوي- ت ٥١٦، شرح السنة ٤٦٤/٤ • حسن). "عن المغيرة بن شعبة: جاءتِ الجَدَّةُ إلى أبى بكرٍ الصِّدِّيقِ تسأَلُه ميراثَها، فقال: ما لكِ فى كتابِ اللهِ مِن شىء، وما أعلَمُ لكِ فى سنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا، فارجِعى حتّى أسأَلَ النّاسَ. فسأَلَ النّاسَ، فقال المُغيرةُ بنُ شُعبةَ: حضَرْتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أعطاها السُّدُسَ. فقال: هل معكَ غيرُك؟ فقام محمَّدُ بنُ مَسلَمةَ الأنصارى فقال مِثْلَ ما قال المُغيرةُ، فأنفَذ لها أبو بكرٍ السُّدُسَ. ثمَّ جاءَتِ الجَدَّةُ الأخرى إلى عمرَ بنِ الخطّابِ تسأَلُه ميراثَها، فقال: ما لكِ فى كتابِ اللهِ مِن شىء، وما كان القضاءُ الَّذى قضى به إلّا لغيرِكِ، وما أنا بزائدٍ فى الفرائضِ شيئًا، ولكنْ هو ذلك السُّدسُ. فإنِ اجتَمَعْتُما فيه فهو بينَكما، وأيَّتُكما خلَتْ به فهو لها" (ابن حبان- ت ٣٥٤، صحيح ابن حبان ٦٠٣١ • أخرجه فى صحيحه)... ونكتفى بهذه الروايات الثلاث عن غيرها.

وهذا حديث آخر يرينا كيف كان عمر يسأل عما تقوله السنة كى يعرف ماذا صنع رسول الله فى ذات الموقف الذى وجد هو نفسه فيه: "عن أبى موسى الأشعرى: أنَّ أبا مُوسى الأشْعَرِى اسْتَأْذَنَ على عُمَرَ بنِ الخَطّابِ رَضِى اللَّهُ عنه، فَلَمْ يُؤْذَنْ له، وكَأنَّهُ كانَ مَشْغُولًا، فَرَجَعَ أبو مُوسى، فَفَرَغَ عُمَرُ، فقالَ: ألَمْ أسْمَعْ صَوْتَ عبدِ اللَّهِ بنِ قَيْسٍ؟ ائْذَنُوا له. قيلَ: قدْ رَجَعَ. فَدَعاهُ، فقالَ: كُنّا نُؤْمَرُ بذلكَ. فقالَ: تَأْتِينِى على ذلكَ بالبَيِّنَةِ. فانْطَلَقَ إلى مَجْلِسِ الأنْصارِ فَسَأَلَهُمْ، فقالوا: لا يَشْهَدُ لكَ على هذا إلّا أصْغَرُنا أبو سَعِيدٍ الخُدْرِى.فَذَهَبَ بأَبِى سَعِيدٍ الخُدْرِى، فقالَ عُمَرُ: أخَفِى هذا عَلَى مِن أمْرِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟ ألْهانِى الصَّفْقُ بالأسْواقِ (يَعْنِى الخُرُوجَ إلى تِجارَة)" (البخاري- ت ٢٥٦، صحيح البخارى ٢٠٦٢ • صحيح). "عن عمرَ بنِ الخطابِ: من أحيا أرضًا مَيتةً فهى لهُ" (ابن حزم- ت ٤٥٦، الإعراب عن الحيرة والالتباس ٨٣٩/٢ • ثابت). "عن عمر بن الخطاب: عن عُمَرَ فى المسحِ على الخُفَّيْنِ قال عُمَرُ: فعَله رسولُ اللهِ ففعَلْناه" (الطبراني- ت ٣٦٠، المعجم الأوسط ١٥٧/٢ • لم يرو هذا الحديث عن أبى بكر النهشلى إلا أبو بلال). "عن عبد الله بن عمر: عن عُمَرَ أنَّه سألَ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم عنِ اعتِكافٍ عليه، فأمَرَه أنْ يَعتَكِفَ ويصومَ" (شعيب الأرنؤوط- ت ١٤٣٨، تخريج سنن الدارقطنى ٢٣٦٠ • صحيح دون ذكر الصوم). "عن عبد الرحمن بن أبى ليلى: عَن عُمَرَ بنِ الخَطّابِ قال: فُرِضَتِ الصَّلاةُ فى الحَضَرِ أرْبَعًا، وفى السَّفَرِ رَكعَتَينِ" (ابن عبد البر- ت ٤٦٤، الاستذكار ٥٣/١ • حسن). "عنْ عُمرَ قال: لوْ وُزِنَ إيمانُ أبى بكرٍ وإيمانُ الناسِ لرجحَ إيمانُ أبى بكرٍ" (محمد بن محمد الغزي- ت ١٠٦١، إتقان ما يحسن ٤٦٨/٢ • إسناده صحيح). "عن إبراهيم النخعى: عن عُمرَ قال: لأَن أُخْطِئَ فى الحُدودِ بالشُّبُهاتِ أحَبُّ إلى مِن أَن أقيمَها بالشُّبُهاتِ" (السخاوي- ت ٩٠٢، المقاصد الحسنة ٥٠ • إسناده صحيح)، وذلك جريا على حديث رسول الله التالى: "عن عائشة: ادْرَءُوا الحدودَ عن المسْلِمين ما استَطعْتُم، فإنْ وجَدْتُم لمسْلمٍ مَخرَجًا فخَلُّوا سَبيلَه، فإنَّ الإمامَ أنْ يُخطِئَ فى العفْوِ خَيرٌ مِن أنْ يُخطِئَ بالعقوبةِ" (الحاكم- ت ٤٠٥، المستدرك على الصحيحين ٨٣٧٥ •

صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وفى الحديث التالى نراه لا ينهى من حوله عن التحديث عن رسول الله بل بمراعاة الإقلال من ذلك بقدر المستطاع، مؤكدا أنه معهم فى ذلك: "عن قرظة بن كعب: عن عمرَ قال: أَقِلُّوا الحديثَ عن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنا شريككم" (ابن حجر العسقلاني- ت ٨٥٢، فتح البارى لابن حجر ٢٥٧/١٣ • إسناده صحيح). ثم إن عبد الله بن عمر كان من كبار المحدّثين عن رسول الله وأغزرهم رواية. ولو كان أبوه ينهى عن رواية الأحاديث والاستشهاد بها لكان هو أول منصاع إلى ما يقوله أبوه أو لكان عمله هذا مثار استغراب الصحابة والتابعين جراء مخالفة الابن لنهج الأب.

وأخيرا، وإن لم يكن آخرا، ماذا لقائل أن يقول، والمعروف أن لكل من الصديق وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم مسندا خاصا به: جَمَعَ مسند الأول أحمد بن على المروزى، ومسند الثانى ابن كثير، ومسند ذى النورين أبو القاسم البغوى، ومسند علىٍّ يوسف أوزبك، فضلا عما لهم ولغيرهم من الصحابة من مساند فى مسند أحمد بن حنبل؟ إلا أن من يُسَمَّوْن بـ"القرآنيين" (رغم كرههم للقرآن قبل السنة) لا يفقهون ولا منطق ولا عقل عندهم. إنْ يريدون إلا القضاء على الإسلام خطوة خطوة. فقبل ذلك كانت الحرب على السنة، واليوم والغد حرب ضروس على القرآن. أما التوفيق بين نهى النبى أولا عن كتابة الأحاديث وسماحه فيما بعد بكتابتها فقد يرجع سببه إلى أن أحاديثه لم تكن تحتوى فى البداية على تشريعات تذكر، فلم تكن هناك ضرورة لحفظها، لكن حين صار عليه السلام يشرع للمسلمين فى المدينة بعد ما ظهرت أمة المسلمين وصارت لها دولة تحتاج إلى ترتيبات تشريعية كثيرة أذن عليه السلام للمسلمين أن يكتبوا عنه ما يقول.

كذلك لو كان النهى عن كتابة الأحاديث يعنى إهمالها تماما لما سمعنا أبا سعيد الخدرى، حين قال له بعضهم: "لو كتبتم (حديث رسول الله عليه السلام) لنا فإنا لا نحفظ"، يجيبه بقوله: "لا نكتبكم ولا نجعلها مصاحف. كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يحدثنا، فنحفظ. فاحفظوا عنا كما كنا نحفظ عن نبيكم". فعدم الكتابة ليس معناها أن السنة النبوية لا تقدم ولا تؤخر، فضلا عن إنكار وجودها أصلا، بل معناها النفور من كتابتها فقط فى ظروف معينة، وقد زال هذا النفور حين زالت تلك الظروف المانعة، أما حفظها والعمل بها فهو أمر واجب كما هو واضح. وهذا الخبر موجود فى كتاب "تقييد العلم" للخطيب البغدادى مثلا. ومن هنا نفهم كيف أن عمر حين فكر فى تقييد الأحاديث النبوية بالكتابة واستشار أصحاب رسول الله أشاروا عليه بكتابتها كما ورد فى "تقييد العلم" للخطيب البغدادى. وكان هناك فى عهد النبى عليه السلام "الصحيفة الصادقة" لعبد الله بن عمرو بن العاص، وصحيفة على بن أبى طالب، وصحيفة سعد بن عبادة، وما كتبه عليه السلام لعماله وأمرائه من تشريعات ينبغى أن يراعوها فى تصرفاتهم مع المسلمين وغير المسلمين، ورسائله للملوك والأمراء من حوله، والمعاهدات التى كتبها بينه وبين اليهود والمشركين، وكتاب الزكاة والديات الذى كتبه أبو بكر الصديق... إلخ إلى أنْ تم تدوين السنة تدوينا شاملا منظما.

بل إن أحمد صبحى منصور، فى تفسيره للقرآن، لا يستطيع أن يقول شيئا ذا بال دون الاستعانة بالحديث. ولنأخذ مثلا ما قاله فى أخلاق النبى عليه السلام إذ وصفه المولى سبحانه بقوله:

"وإنك لعلى خلق عظيم"، فقد أضاف أنه صلَّى الله عليه وسلَّم "كان خلقه القرآن". وهذا الكلام لم يرد فى القرآن، بل هو من كلام عائشة رضى الله عنها، وقد أوردته لنا الأحاديث النبوية. ومن ذلك أيضا ما كتبه بشأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، إذ يقول: "والنبى كان عليه أن ينفذ سُنّة الله، أى شرع الله وأوامره، حتى لو كان فيها حرج. وقد نزلت آية "ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له. سُنّةَ الله فى الذين خَلَوْا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا" فى موضوع زيد بن حارثة وزواجه وطلاقه من زوجته...". والسؤال هو: كيف عرف منصور أن الكلام فى الآية عن زينب، وأن زيدا هو زيد بن حارثة، وليس زيدا آخر؟ ذلك أن الآية لم تذكر إلا اسم "زيد" وحده دون اسم أبيه، وكذلك دون اسم زوجته. الواقع أنْ ليس هناك من مصدر لهذا إلا الأحاديث، فكيف أصبحت الأحاديث هنا شيئا موثوقا به بعد أن قال فيها ما قال؟ قد يقول إن القرآن يحدد زيدا بأنه من "أدعيائكم"، لكنْ مرة أخرى: من أين نعرف أن زيدا كان دَعِيّ النبى عليه السلام (أى ابنه بالتَّبَنِّى) إلا من الأحاديث النبوية؟ قد يقول: لكن هذا تاريخ، ونحن نُعْمِل عقولنا فى روايات التاريخ فنقبل ما تطمئن إليه ونرد ما سواه. وهذا هو ما أريد أن أُفْهِمه إياه: أن نُعْمِل عقولنا فى الأحاديث، لكن بشرط أن نحترم منطق العقل ومنهج العلم وأن نقلّب الأمر على كل وجوهه وأن نتريث قبل إصدار الأحكام وأن ننظر جيدا فيما يقوله الآخرون، وبخاصةٍ من يخالفوننا فى الرأى، وهو ما لم يدخر فيه المحدّثون وسعا، وإن لم يمنع هذا من وجوب إضافة المزيد من الجهود فى هذا السبيل. أما نبذ الأحاديث جملة وتفصيلا عن جهل واندفاع فهو عمل أخرق.

وهذا مثال آخر على أن منصور نفسه، رغم كل الطنطنات والتطاولات على المحدّثين والأحاديث، لا يستطيع أن يتقدم فِتْرًا فى تفسير القرآن دون الاستعانة بها وبهم، مع أنه يؤكد أننا، فى فهمنا للقرآن، لسنا بحاجة على الإطلاق إلى الاستعانة بالحديث أو بغيره، فقد كتب فى تفسير الآيات ١٠٥- ١١٣ من سورة "النساء" ما يلى: "وباعتبار النبى بشرا فقد استطاع بعض المنافقين أن يخدعه. حدث ذلك حين سرق أحدهم درعا، وشاع بين الناس أمره، وأحس أهل اللص بالعار مما ارتكبه ابنهم فتآمروا بالليل على أن يضعوا الدرع المسروق فى بيت شخص يهودى برئ. وفى الصباح جاءوا للنبى يبرئون ساحة ابنهم المظلوم. وانخدع النبى وصدّقهم ودافع عن ابنهم، وبذلك أصبح اللص بريئا، وأصبح البرىء لصا. وهى قصة تتكرر فى كل زمان ومكان مُوجَزها أن ينجو المجرم صاحب النفوذ وأن يدخل البرىء السجن ظلما. والقرآن الكريم ذكر القصة وحوّلها من حادثة تاريخية محددة بالزمان والمكان والأشخاص إلى قضية إنسانية عامة تتكرر فى كل عصر. وفى البداية عاتب الله تعالى النبى ووجّه نظره إلى أن يحكم بالكتاب وحذّره من أن يكون مدافعا عن الخائنين: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما". أى أنزل الكتاب الحق ليحكم بين الناس بما أراه الله فى ذلك الكتاب، فالاحتكام للكتاب. ولأنه نسى فقد جاء الأمر بالاستغفار: "واستغفر الله، إن الله كان غفورا رحيما"، ثم جاءه النهى عن الدفاع عن أولئك الخونة الذين تآمروا لتبرئة المجرم واتهام البرىء: "ولا

تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خوانًا أثيما * يَسْتَخْفُون من الناس ولا يَسْتَخْفُون من الله وهو معهم، إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول. وكان الله بما يعملون محيطا"...".

والسؤال هو: من أين له بأن الآيات نزلت فى أحد اللصوص، وأن هذا اللص قد سرق درعا، وأن أهله لما أحسوا أن أمره سينفضح ذهبوا فوضعوا الدرع فى بيت يهودى... إلخ؟ ترى هل هناك من مصدر آخر اعتمد عليه أحمد صبحى منصور هنا عدا الحديث؟ أما قوله إننا، فى فهمنا للقرآن الكريم، لا نحتاج إلى أى شىء آخر خارج نصوصه، فها هو ذا: "كتاب الله هو الكتاب المبين بذاته، وآياته موصوفة بالبينات، أى التى لا تحتاج فى تبيينها إلا لمجرد القراءة والتلاوة والتفكر والتدبر فيها. والذى جعل الكتاب مبينا وجعل آياته بينات هو رب العزة القائل: "بعدما بيَّنّاه للناس فى الكتاب"، والقائل عن كتابه: "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِر"، "فإنما يسَّرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قومًا لُدًّا، "فإنما يسَّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون"، أما قوله هذا فجهل فاحش، فمعروف أن أى نص يحتاج إلى وسائل تعين على فهمه، كالمعرفة باللغة التى ينتمى إليها، والمعرفة بالمعجم الخاص به، والمعرفة بالظروف التى كُتِب أو سُجِّل أو أُوحِىَ فيها، والمعرفة بالمصدر الذى جاء منه... إلخ. والقول بغير هذا هو كلام لا يستحق أن نصغى آذاننا له. ولقد رأينا كيف أن منصور نفسه لم يستطع أن يفهم الآيات القرآنية إلا بالاستعانة بأسباب النزول، وهى جزء من الأحاديث النبوية.

وهو يرى أن أحاديث رسول الله وتصرفاته إنما هى انعكاس لثقافات عصره وبيئته يمكن ألا تتفق مع القرآن ولا ينبغى أن نُولِيَها أى اعتبار. وهذا نص ما قاله: "ونحن، وإن كنا نعتبر القرآن هو المصدر الوحيد لسنة النبى وشريعة الرحمن ودين الله الأعلى، فإننا نضع تلك الروايات الحديثية موضعها الصحيح، وهى أنها تاريخ بشرى للنبى وللمسلمين وصدًى لثقافتهم وأفكارهم سواء اتفقت أم لم تتفق مع القرآن". معنى ذلك ببساطة أن كلامه هو التفسير الصحيح للقرآن، ولا يمكن أن يكون انعكاسا لثقافة عصره وبيئته، أما فهم الرسول للقرآن فمن الممكن ألا يتفق مع كتاب الله لأنه لا يزيد عن أن يكون انعكاسا لثقافة عصره وبيئته! ومن هنا نراه يقول إنه لا ينبغى أن نتأسى بالرسول إلا فى كتاب الله، وكأن الرسول يمكن أن يتصرف أو يقول شيئا يخرج فيه عن كتاب الله! وهذا نص كلامه: "إن الاقتداء والتأسى يعنى الاتباع، ولا يكون الاقتداء والتأسى على إطلاقه إلا بكتاب الله. والله تعالى كما أمرنا بالتأسى برسول الله محمد فى موقف معين فإنه أمر النبى نفسه بالاقتداء بهدى الأنبياء السابقين فقال: "أولئك الذين هدى اللهُ فبهُداهم اقْتَدِهْ"، فلم يقل تعالى: "فبِهِم اقْتَدِهْ"، وإنما قال: "فبِهُدَاهم اقْتَدِهْ"...".

أما الصلاة والزكاة والصيام، وهذه الشعائر مجرد أمثلة، فإن أحدا لا يستطيع أن يؤديها دون الاستعانة بالسنة النبوية المشرفة. لنأخذ مثلا نسبة الزكاة فى الإسلام، فهى لم ترد فى القرآن بل فى الأحاديث الشريفة. كما زعم أن الصلاة على النحو الذى نؤديها به الآن فى الإسلام قد انحدرت إلينا من ديانة إبراهيم. يريد أن يقول إنه ليس للسُّنّة المحمدية فضل فى هذا. لكن لو كان الأمر كما يقول لكان معناه أن الجاهليين كانوا يصلّون بصلاتنا ويقرأون فيها بقرآننا ويصلّون على نبينا قبل أن ينزل القرآن من السماء ويُبْعَث محمد عليه السلام بدين جديد. فهل هذا صحيح؟ وهل كان إبراهيم عليه السلام يقرأ

الفاتحة مثلنا... إلخ؟ بل هل كان العرب الجاهليون يعرفون الصلاة أصلا بهذا المعنى؟ لقد كانت الصلاة فى حياة العرب آنذاك تعنى الدعاء مطلقا، أما الأفعال والأقوال على تلك الهيئة المخصوصة التى نطلق عليها فى دين محمد: "الصلاة" فلم يكونوا يعرفونها، وإلا لجاءت فى الشِّعْر الجاهلى بهذه الدلالة.

ثم إن هناك آيات قرآنية لا يمكن فهمها، أو لا يمكن فهمها فهما سليما أو دقيقا، إلا إذا عُرِف سبب نزولها مما ذكرته الأحاديث، وإن لم ندّع لهذه الروايات العصمة دائما. ونضرب على ما نقول الأمثلة التالية، وقد اعتمدتُ فيها على كتاب "أسباب النزول" للواحدى النيسابورى: ففى الآية ١٠٤ من سورة "البقرة" نقرأ قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، لا تقولوا: راعِنَا، وقولوا: انْظُرْنا..."، فكيف يا ترى يمكن أن نفهم ما فيها من الأمر والنهى دون أن نعرف ما جاء فى سبب نزولها مما هو مرتبط بسيرة النبى عليه السلام وأحاديثه؟ "قال ابن عباس فى رواية عطاء: وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها (أى يستعملون فى تخاطبهم كلمة "راعنا")، فلما سمعتهم اليهود يقولونها للنبى صلَّى الله عليه وسلَّم أعجبهم ذلك، وكان "رَاعِنَا" فى كلام اليهود سبًّا قبيحًا، فقالوا: إنا كنا نسبّ محمدًا سرًّا. فالآن أَعْلِنوا السبّ لمحمد لأنه من كلامهم. فكانوا يأتون نبى الله صلَّى الله عليه وسلَّم فيقولون: يا محمد، رَاعِنَا. ويضحكون، ففطن بها رجل من الأنصار، وهو سعد بن عبادة، وكان عارفا بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله! والذى نفس محمد بيده لَإِنْ سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه. فقالوا: ألستم تقولونها له؟ فأنزل الله تعالى: يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنوا لا تَقولوا: رَاعِنَا... الآية". ولزيادة الأمر إيضاحا أذكر أنى قرأت منذ فترة أن الكلمة فى العبرية مأخوذة من "الرعونة". ومن هنا نهى الله سبحانه المسلمين عن استعمالها فى خطابهم لسيد الأنبياء والمرسلين حتى لا يعطوا الأوغاد فرصة للسخرية منه ومنهم بخباثتهم وقلة أدبهم المعروفة عنهم.

كذلك كيف يمكن فهم قوله تعالى فى الآية ١٨٧ من ذات السورة: "وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر" دون أن نطلع على الرواية الخاصة بسبب نزولها حتى لا نصنع كما كان بعض الصحابة يصنعون فى البداية؟ وهذه هى الرواية: "أخبرنا سعيد بن محمد الزاهد قال: أخبرنا جدى قال: أخبرنا أبو عمرو الحيرى قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا ابن أبى مريم قال: أخبرنا أبو غسان قال: حدثنى أبو حازم عن سهل بن سعد قال: نزلت هذه الآية: "وَكلوا وَاشْرَبوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لكم الْخَيْط الأَبْيَض مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَد"ِ ولم ينزل "مِنَ الْفَجْرِ". وكان رجال إذا أرادو الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتها، فأنزل الله تعالى بعد ذلك "مِنَ الْفَجْرِ"، فعلموا أنه أنما يعنى بذلك الليل والنهار. رواه البخارى عن ابن أبى مريم، ورواه مسلم عن محمد بن سهل عن أبى مريم".

وبالمثل كيف يمكن فهم قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهًا..." (النساء/ ١٩) دون أن نعرف أن الميراث هنا ليس أن نرث ما تركه هؤلاء النسوة من مال، بل أن يرثهن الرجل أنفسهن كأنهن متاع حسبما وضّحت الرواية التالية؟ "قال المفسرون: كان أهل المدينة فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته فألقى ثوبه

على تلك المرأة، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره. فإن شاء أن يتزوّجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئًا، وإن شاء عَضَلها وضارّها لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت هى فيرثها. فتوفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له: حصن (وقال مقاتل: اسمه قيس بن أبى قيس)، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها: يضارّها لتفتدى منه بمالها. فأتت كبيشة إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس تُوُفِّىَ، وورث ابنُه نكاحى. وقد أضرّ بى وطوَّل علىَّ، فلا هو ينفق علىَّ ولا يدخل بى ولا هو يخلِّى سبيلى. فقال لها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله. قال: فانصرفتْ وسمعت بذلك النساء فى المدينة، فأتين رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وقلن: ما نحن إلا كهيئة كبيشة، غير أنه لم ينكحنا الأبناء، ونَكَحَنا بنو العم. فأنزل الله تعالى هذه الآية".

وإلى القارئ هذا المثال كذلك من رواية "جونتانامو" للدكتور يوسف زيدان، إذ يفسر قوله تعالى: "وإن خفتم ألا تُقْسِطوا فى اليتامى فانْكِحوا ماطاب لكم من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاع..." على أن المقصود هو أمر الله كافل اليتيمات بالزواج من واحدة منهن إلى أربع، متجاهلا سبب نزول الآية، الذى يبين أن معناها هو العكس تماما مما يقول: فعن "عروة بن الزبير أنه سأل عائشة زوج النبى صلَّى الله عليه وسلَّم عن قول الله تبارك وتعالى: "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فى الْيَتَامَى فَانْكِحُواْ مَا طَابَ لَكُمْ من النِّسَاءِ...". قالت: يا ابن أختى، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشاركه فى ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقْسِط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهُوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهنّ ويبلغوا بهنّ أعلى سنتهنّ فى الصداق، وأُمِرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن"، بمعنى "اتركوهنّ فقد أحللت لكم أربعا من غيرهن". ولو كان المعنى كما زعم د. زيدان لقال سبحانه: "فانكحوا ما طاب لكم منهن (أى من اليتيمات) مثنى وثلاث ورباع". ذلك أن الله أراد أن يبعد الكفلاء عن اليتيمات اللاتى كانوا يكفلونهن ويطمعون فى أموالهن، ومن ثم يريدون الزواج منهن حتى تكون تلك الأموال تحت تصرفهم وحتى لا يدفعوا فيهن مهرا كبيرا، لا أنه يريد منهم أن يتزوجوهن. ومن هنا نستطيع أن نفهم ما يدعو إليه بعض النقاد الحداثيين من الدخول إلى النص مباشرة دون أن نلقى بالا لأى شىء خارجه من حياة صاحبه أو ظروفه أو السياق الذى كتب فيه ما كتب، وبالنسبة للقرآن ألا نرجع إلى أسباب النزول ولغة العرب وأسلوب الكتاب العزيز وتفسيرات المفسرين... إلخ بحيث يستطيع الكاتب أن يقول ما يريد تمريره من أفكار خطيرة دون معقِّب. كذلك فمقتضى كلام زيدان أنه، لو كان فى كفالة الرجل أربع يتيمات أخوات، وهذا طبعا ممكن جدا، فمن حقه التزوج بهن جميعا. وهذا يناقض ما يقول به الإسلام، الذى يحرم الجمع بين أختين اثنتين، فما بالنا بأربع؟

أما أن فى الأحاديث التى قالها النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ما يمكن أن يكون مناقضا للقرآن أو يؤدى بمن يصدّقه ويعمل على احتذائه إلى البوار فالسؤال هو: ماذا يا ترى فى الحديث الذى ينص على أن العلماء هم ورثة الأنبياء، أو الحديث الذى يؤكد أن فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر

الكواكب، أو الحديث الذى يقول إن مداد العلماء يُوزَن بدماء الشهداء، أو ذلك الذى ينبئنا بأن إماطة الأذى عن الطريق أو أن تبسُّم الواحد منا فى وجه أخيه صدقة، أو ذلك الذى يستحثنا ويغرينا بالتفكير المستقل القائم على أساس المنطق والعقل والإحاطة بالموضوع من كل أطرافه والتعمق فيه، ويبشّرنا بما لا وجود له فى أى نظام تربوى أو فلسفى أو سياسى من أن المجتهد مأجور حتى لو أخطأ فى اجتهاده، أو الذى ينبهنا فيه عليه السلام إلى أن الصدقة فى السر تطفئ غضب الرب، أو أن اليد الخشنة من أثر العمل والكدّ هى يد يحبها الله ورسوله، أو أن العين التى بكتْ من خشية الله أو باتت تحرس فى سبيل الله لا تَمَسّها النار أبدا، أو أن من رُزِق من البنات ولو بواحدة فأحسن تربيتها وزوّجها دخل الجنة، أو أن الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، أو أن السِّقْط يأخذ بيد أبويه فى موقف الحساب ويراغم ربه حتى يُدْخِلها الجنة، أو أن أحق الناس بصحبة الابن هى أمه ثم أمه ثم أمه ثم أبوه، أو أن معاشرة الرجل لزوجته حسنة من الحسنات يُؤْجَر عليها من الله وليست مجرد شهوة تُشْبَع، أو أن إتباع السيئة الحسنة يمحوها فلا يحاسَب الإنسان عليها، أو أنه سبحانه قد رفع عنا السهو والنسيان وما استُكْرِهْنا عليه، أو أن الله قد خلق لكل داءٍ دواء، أو قول الرسول الكريم لرجل أخذه الخوف منه: هَوِّنْ عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة، أو قوله: لا تُطْرُونى كما أَطْرَتِ النصارى عيسى بن مريم، أو قوله: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، أو تسبِّحون وتحمِّدون وتكبِّرون دُبُرَ كل صلاة ثلاثا وثلاثين، أو من آذى ذِمّيًّا فأنا خصيمه يوم القيامة، أو إن من الذنوب ذنوبا لا يكفِّرها إلا العمل، أو ادرأوا الحدود بالشبهات، أو إنما الصبر عند الصدمة الأولى، أو اسْتَوْصُوا بالنساء خيرا، أو خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى، أو ليس الإيمان بالتمنى، ولكنْ ما وَقَر فى القلب وصدّقه العمل، أو إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، أو إن الشيطان لَيَجْرِى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق، أو إن الحياء من الإيمان، أو إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الثالث، أو إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت، أو إذا بُلِيتم فاستتروا، أو إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، أو إن ذا الوجهين يُكْتَب عند الله كذابا، أو اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعْمِل عليكم عبدٌ حبشىٌّ كأن رأسه زبيبة، أو إن النظافة من الإيمان، أو إن الله جميل يحب الجمال، أو ما لكم تدخلون علىّ قُلْحًا؟ استاكوا، أو إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، أو نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع، أو ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شَرًّا من بطنه، أو رَضِينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ نبيًّا ورسولا، أو اللهم أسلمتُ وجهى إليك، وفوَّضْتُ أمرى إليك، وألجأتُ ظهرى إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا مَلْجَأَ ولا مَنْجَى منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ، ونبيّك الذى أرسلتَ، أو لا رهبانية فى الإسلام، أو أَنْفِقْ ولا تخش من ذى العرش إقلالا، أو تَعِسَ عبدُ الدينار! تَعِسَ عبدُ الدرهم! أو ما نقص مالٌ من صدقة، أو إن طَلَب العلمِ فريضةٌ على كل مسلم ومسلمة، أو اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، أو إن من خَرَجَ فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع، أو إن مَنْ فرّج عن مسلمٍ كُرْبة من كُرَب الدنيا فرّج الله عنه كُرْبة من كُرب يوم القيامة، أو سبعةٌ يُظِلّهم الله فى ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظله: إمام عادل، وشابٌّ نشأ

فى عبادة الله، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله...، أو إن الله لَيُمْلِى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته، أو من لا يشكر الناس لا يشكر الله، أو دخلت امرأةٌ النار فى هِرّة حَبَسَتْها: لا هى أطعمتْها ولا هى تركتْها تأكل من خَشَاش الأرض، أو اتّقُوا النار ولو بشِقّ تمرة، أو إن المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظَهرًا أبقى، أو من بات كالًّا مِنْ عمل يده بات مغفورًا له، أو إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يُتْقِنه، أو إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فَسِيلَةٌ فلْيَغْرِسْها، أو أَلْقِ السلام على من تعرف ومن لا تعرف، أو لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، أو اطلبوا الرزق بعزة الأنفس، أو إن الغِنَى غنى النفس، أو لا ينبغى للمؤمن أن يُذِلّ نفسه، أو ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب، أو قوله عليه السلام لشاب خطب فتاة: انظر إليها، فإنه أَحْرَى أن يُؤْدَم بينكما، أو قوله: لا تُنْكَح البِكْر حتى تُسْتَأْذَن ولا الأيِّم حتى تُسْتَأْمَر، أو يسِّروا ولا تعسِّروا، أو مَنْ أَمّ فى الصلاة فلْيخفِّف، فإن منكم الضعيف وذا الحاجة، أو أَحِبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك، أو إخوانُكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فلْيُطْعِمْه مما يَطْعَم، وليُلْبِسْه مما يلبس، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم، أو اتقوا الله فى الضعيفين: النساء وما ملكت أيمانكم، أو رفقًا أَنْجَشَةُ بالقوارير، أو... أو... أو... إلخ مما لا يكاد ينتهى من التوجيهات والتشريعات والأدعية النبوية العبقرية التى أكرمنا الله بها والتى ذكرتُ ما ذكرتُه منها من محفوظ الذاكرة منذ الصبا، وبالمعنى فى بعض الأحيان، وأرجو ألا أكون قد أخطأتُ فى شىء منه؟

وبالمثل يتصور د. منصور أن ثم تناقضا بين أمر القرآن لزوجات الرسول بالقرار فى بيوتهن وبين اصطحاب الرسول لهن فى غزواته. وهو يوضح ذلك بأنه فى غزوة الأحزاب مثلا فى العام الخامس من الهجرة نزلت سورة "الأحزاب"، وفيها الأمر لنساء النبى بأن يمكثن فى البيت ولا يخرجن منه: "وقَرْنَ فى بيوتكن، ولا تَبَرَّجْنَ تبرُّج الجاهلية الأولى، وأَقِمْن الصلاة وآتِين الزكاة، وأَطِعْن الله ورسوله. إنما يريد الله لِيُذْهِب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهِّركم تطهيرا"، متسائلا: "كيف يأمرهن الله بالبقاء فى البيت، ويأتى النبى فيصطحبهن فى غزوة بنى المصطلق فيما بعد؟ لقد كان ترك النساء فى المدينة بعيدا عن الغزوات عادة إسلامية حرص عليها النبى والمسلمون بحيث لم يكن يتخلف عن الغزو إلا النساء والأطفال والشيوخ غير القادرين. وحين تخلف المنافقون عن الخروج مع النبى فى احدى معاركه الدفاعية نزل القرآن يعيّرهم ويسخر منهم بأنهم رَضُوا بأن يتخلفوا مع النساء والصبيان: "رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالف". فهل من المعقول أن يصطحب النبى زوجاته معه عرضة لخطر الحرب بينما تبقى بقية النساء آمنات فى المدينة؟".

وردا على ذلك نقول: ليس معنى أمر القرآن نساء النبى بالاستقرار فى بيوتهن أنه ينبغى عليهن ألا يخرجن البتة منها، وإلا كان معناه أنه لا يجوز لهن الذهاب للمساجد، ولا لزيارة أهليهن، أو للمشاركة فى أى واجب اجتماعى وما إلى ذلك. ولقد كان الرسول عليه السلام كريما سمحا مع زوجاته كما هو مع الناس أجمعين، فلا يُعْقَل أن يتعامل معهن بمنطق العامة الذى يقول إن المرأة لا تخرج من بيت زوجها إلا إلى القبر! إن كل ما هنالك أن القرآن يريد لزوجات المصطفى أن يبتعدن بقدر الإمكان عن زحام الحياة

حتى يَظْلَلْن فى مكانهن الرفيع ولا يخوض الناس فى أحاديثهن وأخبارهن كما يفعلون مع كثير من النساء فى قيلهم وقالهم، لا ألّا يخرجن من بيوتهن بتاتا! ومن ثَمَّ فإذا صحبهن الرسول فى غزواته صحبهن على نفس الوضع الذى يصونهن عن العيون والألسنة.

ولقد كان النساء يشاركن فى الغزوات، فيسقين الجند ويضمدن المجروحين مثلا. فعن أنس بن مالك: "كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يغزو بأمِّ سُلَيْمٍ ونسوةٍ معها من الأنصارِ يَسْقِين الماءَ ويُداوين الجرحَى"، وعن ابن عباس: "كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يغزو بالنِّساءِ فيُداوينَ الجَرحى، ولم يَكُن يضربُ لَهُنَّ بسَهْمٍ، ولكِن يُحْذَيْنَ مِنَ الغَنيمةِ"، وعن الربيع بنت معوذ بن عفراء: "كُنَّا نغزو مع النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فنَسْقِى القومَ ونَخْدُمهم ونَرُدُّ الجرحى والقتلى إلى المدينةِ"، وعن أم عطية نسيبة الأنصارية: "غزوتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم سبعَ غزواتٍ أخلفهم فى رِحَالِهم، فأصنع لهم الطعامَ وأُداوى الجَرحى وأقوم على المَرْضَى"، وعن أم زياد الأشجعية: "خرجتُ مع رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى غزوة خيبر سادس ست نسوة، فبلغ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فبعث إلينا، فجئنا فرأينا فيه الغضب، فقال: مع من خرجتن؟ وبإذن من خرجتن؟ فقلنا: يا رسول اللهِ، خرجنا نغزل الشعر ونعين به فى سبيل الله، ومعنا دواء الجرحى، ونناول السهام ونسقى السويق. فقال: قمن. حتى إذا فتح الله عليه خيبر أسهم لنا كما أسهم للرجال. قال: قلت لها: يا جدة، وما كان ذلك؟ قالت: تمرا". ومعنى هذا أن أحمد صبحى منصور يحشر أنفه فيما لا يحسن، ويخترع من عنده الأحاديث اختراعا، ثم يستدير فيتهم البخارى ومسلما وغيرهما من جامعى الأحاديث بدائه هذا العياء.

كذلك يرى أحمد صبحى منصور أن هناك تناقضا بين الأحاديث التى تحضّ على التبكير فى الذهاب للمسجد يوم الجمعة وتلك التى تنصح المسلم بألا يهرول عندئذ حتى لو كان متأخرا بعض الشىء. وهو تناقض غير موجود إلا فى مخيلته. قال: "وتأتى أحاديث كثيرة تحض على سرعة التبكير بالذهاب لصلاة الجمعة، وتملأ هذه الأحاديث صفحات من البخارى، ثم يتبعها حديث ينقضها جميعا يقول: "إذا أُقِيَمت الصلاة فلا تأتوها تسعَوْن، وأْتُوها تمشون عليكم السكينة، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتمّوا" (البخارى/ الجزء الثانى/ ص٣، ٤، ٨، ٩)". والحق أن المعنى فى هذه الأحاديث واضح تمام الوضوح، وهو أفضلية التبكير. لكن ما العمل لو حدث أنْ تأخَّر المصلى لسبب أو لآخر فى الذهاب إلى صلاة الجمعة؟ أيجرى فى الشارع فيظن الناس به الظنون أو يضحكون منه أم يسير فى احترام واطمئنان على النحو الذى يليق بالشعيرة الكريمة؟

ونصل إلى علامات الساعة وشغب أحمد صبحى منصور بشأنها على عادته. يقول: "كل الأحاديث التى رواها البخارى وغيره، وفيها ينسبون للنبى أقاويل عن علامات الساعة وأحداثها والشفاعة وأحوال القيامة، كلها أحاديث تناقض القرآن صراحة. فالقرآن يؤكد فى أكثر من موضع بأن النبى لا يعلم الغيب، ولا يعلم شيئا عن الساعة وموعدها وتفصيلاتها. وقد عرضنا لذلك فيما سبق، وأتينا بالآيات الكثيرة فى هذا الموضوع، ويكفينا منها قوله تعالى للنبى: "قل: ما كنتُ بِدْعًا من الرسل، وما أدرى ما يُفْعَل بى ولا بكم. إنْ أَتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إلىّ". وإذا كان النبى لا يعلم ماذا سيحدث له أو لغيره

فكيف ننتظر منه أن يتحدث عن أحوال القيامة وشفاعته أو عدم شفاعته؟ ثم ألا يكفينا قوله تعالى فى عدم علم النبى بالغيب: "قل: لا أقول لكم: عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب"، "قل: لا أملك لنفسى نفعا ولا ضَرًّا إلا ما شاء الله، ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِىَ السوء. إنْ أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون"..."؟

والواقع أنى لا أدرى وجه التناقض بين الحديث والقرآن فى الموضوعات المذكورة: فليس فى الأحاديث أن النبى يعلم الغيب أبدا، وإن كان لله سبحانه أن يكشف ستر الغيب لرسوله متى أراد لحكمة يعلمها جل شأنه. وقد يكون ذلك فى القرآن كالإخبار بأن الروم ستنتصر على الفرس فى بضع سنين بعد أن لاقت الهزيمة المرة على أيديهم لتوّها، وكالتنبؤ بأن الجمع سيُهْزَمون ويُوَلُّون الدُّبُر، وهو ما تحقق فى بدر، وكإطلاعه نبيَّه فى غزوة الحديبية على أنه سيدخل مكة هو والمسلمون لأداء العمرة، مما تحقق العام الذى تلا ذلك... فهذه آيات قرآنية لا يستطيع منصور أن يكذّبها البتة، أما فى الأحاديث فهناك نبوءةُ غزوةِ الأحزاب الخاصّةُ بفتح فارس والروم، وهناك النبوءة الخاصة بفتح القسطنطينية، وهناك النبوءة الخاصة بتداعى الأمم على المسلمين كما تتداعى الأَكَلَة إلى قصعتها لا من قلة بل من ذلة... وكل هذا قد تحقق كما أنبأ به النبى العظيم. مرة أخرى نحن لا نقول إنه صلَّى الله عليه وسلَّم كان يعلم الغيب، بل نقول إن الله قد يطلعه على بعض أمور ذلك الغيب لحكمة من الحكم، وهو ما ضربنا له الأمثلة لتوّنا من كتاب الله وسنة رسول الله. وفى القرآن الكريم نقرأ الآيات التالية: "ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك"، "تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك. ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا"، "عالِمُ الغيب فلا يُظْهِر على غيبه أحدا * إلا مَنِ ارتضى من رسول"، وهى من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى أى تعليق. وإذن فليس من تناقض بين الأمرين كما يعمل د. أحمد صبحى منصور على إيهام القراء ليُفْقِدهم الثقة فى أحاديث النبى الكريم! ثم إن الرسول لم يحدد للساعة موعدا، بل ساق علامات عامة، وهذه العلامات قد تستغرق قرونا فلا يعرف الناس وقتئذ متى تقوم الساعة، ولكن يمكن العقلاءَ منهم أن يعتبروا ويصلحوا من فسادهم قبل فوات الأوان، فلعلهم ينجون.

ولا تقتصر أهمية الحديث على ما ذكرنا، إذ كثيرا ما تعالج الأحاديثُ النبويةُ أمورًا لم يتطرق إليها القرآنُ كالسواك وتمشيط الشعر وغُسْل الجمعة وخطبتها وإماطة الأذى عن الطريق وشفاعته صلى الله عليه وسلم هو بالذات لا الشفاعة بوجه عام واكتساب المسلم أجرا لمعاشرته زوجته والسبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله وشروط استجابة الدعاء، وطوائف الأعداء الذين ينبغى تركهم فى حالهم دون التعرض لهم بحال أثناء الحرب، والطرق التى يجب تجنبها فى البيع والشراء... إلخ، وهو غزير. وإلى جانب هذا هناك أمور كثيرة تناولها القرآن تناولا مجردا ثم تابعت الأحاديث وصفها وتصويرها بقلم الواقعية كما هو الحال فى كلام القرآن عن العلماء: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"، "قل: هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟"، "وقل: رب، زدنى علما"، وكلام الأحاديث فى هذا الصدد كقول الرسول: "العلماء ورثة الأنبياء"، "فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب"، "مَنْ خَرَج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع"، "طلب العلم فريضة

على كل مسلم ومسلمة"، "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع" وإشارته إلى أن الحيتان فى البحر تستغفر لطالب العلم... إلخ.

ثم كيف نعرف شخصية النبى العقلية والنفسية والخلقية تفصيلا لو لم تكن هناك أحاديث؟ الواقع أننا لو أهملنا الأحاديث كما يريد منا أحمد صبحى منصور لم نجد فى القرآن ما يساعدنا على أن نبصر صورة النبى عليه السلام خلال حياته اليومية: فى البيت وفى السفر ومع أصحابه وفى الحرب وفى الصلاة وفى الصيام وعند تناول الطعام وفى تعامله مع الأطفال والنساء وفى نومه وفى استيقاظه وبالنسبة للأطعمة التى يحبها وتلك التى لا يقبل عليها وفى تعليقه على الأحداث وفى توجيهه لهذا الصحابى أو ذاك وفى كلامه عن إخوانه الأنبياء السابقين وفى تفرقته بين شريعته وشرائعهم وفى ردود أفعاله تجاه الوقائع التى تحدث حوله... مما لا نجد له أثرا فى القرآن، الذى يكتفى بالخطوط العامة دون إيراد تفاصيل، علاوة على أن هناك أشياء لم يقترب منها القرآن قط. ثم ألم يعلن منصور أن الرسول هو المثال الأعلى؟ أليس من الطبيعى إذن أن يحرص أتباع أى مثل أعلى على معرفته ومعرفة كل ما يتعلق به؟ فكيف يستطيع المسلمون ذلك إذا ألغينا الأحاديث؟ بل إن وصف ملامح الرسول مثلا وطريقته فى الكلام والمشى والنوم وأداء العبادات ليس لها وجود فى كتاب الله، لكنها متاحة فى الحديث.

إن رجال الحديث إنما صنعوا ما صنعوه من جمعهم لكلام رسول الله وأوصافه ورواية أفعاله بدافع الحب له صلَّى الله عليه وسلَّم والإعجاب به والحرص على معرفة الكيفية التى نفهم بها الدين ونطبقه، بخلاف من يكرهه صلَّى الله عليه وسلَّم ويكره دينه ويتظاهر بأنه إنما يريد تنقية التوحيد مما شابَهُ من خَبَث الأحاديث النبوية، أستغفر الله. الواقع أن مثل هذا المنطق هو منطق الشياطين. ترى هل هناك من يكره أن يعرف رسولَه عن قرب ويعرف ماذا قال وماذا فعل؟ إن المحب ليحرص على أن يستعيد كل كلمة قالها محبوبه وكل تصرف أتاه وكل موقف اتخذه. وما من أمة فى الأرض إلا وتتفانى فى تخليد ذكرى عظمائها. وعلى هذا النهج تسير كل الأمم منذ كانت هناك أمم. فما بالنا إذا كان هذا العظيم هو نبيها؟ وبالله إذا لم نحرص على أحاديث رسول الله فعلى أحاديث مَنْ نحرص؟

نخرج من هذا بأننا لو هدمنا السنة النبوية هدمنا شطرا كبيرا من الإسلام. إنها ليست شيئا إضافيا أو كماليا، بل هى جزء أصيل من الدين. وفى أقل القليل هى الصورة التطبيقية للإسلام فى العصر الأول يهتدى بها المسلمون على مدى الدهر ويَرَوْن كيف واجه الرسول مشاكل عصره ومجتمعه، فنتصرف كما تصرف، ونفكر كما فكر، وننحو كما نحا... وهكذا. ومَنْ أَوْلَى مِنْ محمد بأن نتخذ منه قدوتنا وأسوتنا، وهو الرسول الذى تلقى الوحى وأُمِر بتبليغ الدين، وكانت السماء ترعاه وتراعيه وتصوبه وتباركه، فضلا عن أنها قد أمدته بمواهب عظيمة لا تتاح للبشر العاديين ولا حتى لكثير من النبيين والمرسلين؟ نعم السنة جزء أصيل من الدين، أما ما يقوله الفقيه الحنبلى أبو الحسن البربهارى (ت٣٢٩هـ) من جعل السنة هى الإسلام، والإسلام هو السنة، وكأنه لا وجود للقرآن، مع أن السنة لا وجود لها أصلا إلا بالقرآن، وهى تابعة له وليست مستقلة عنه، فضلا عن أن تكون هى الإسلام كله، فهو كلام لا يمكن أن نوافقه عليه. يقول: "اعلموا أن الإسلام هو السنَّة، والسنَّة هى الإسلام، ولا

يقوم أحدهما إلَّا بالآخَر". وهذه مغالاة لو سمعها الرسول لأنكرها إنكارا عنيفا. ويجرى هذا المجرى قول الأوزاعى (ت١٥٧هـ): "الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب"، وقول يحيى بن أبى كثير: "السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة".وقد علق أحمد بن حنبل على هذا بقوله: "ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكنى أقول إن السنة تفسر الكتاب وتبينه".

ونحن لو نظرنا مثلا فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام لنرى موقفه العملى من العلم فلسوف نقف ذاهلين أمام ما صنعه، وهو الأُمِّىّ، عقب الانتصار فى غزوة بدر حين وقع فى يد المسلمين عشرات الأسرى من كفار قريش، إذ عرض عليهم أن يطلق سراح كل من يقوم منهم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة دون فدية. وقد كان هذا الصنيع نقطة الانطلاق إلى نشر التعليم بين المسلمين، إذ كان عدد القارئين والكاتبين فى المجتمع الجاهلى جِدَّ ضئيلٍ كما هو معروف. وجدير بنا أن نتوقف نحن بدورنا إزاء هذا العمل العبقرى من رسول الله عليه الصلاة والسلام، ذلك العمل الذى كان وراء انتشار حركة التعليم بين أفراد الأمة الناشئة، إلى جانب إلحاحه صلَّى الله عليه وسلَّم على أن طلب العلم فريضة على كل مسلمة ومسلمة، وهو ما يتميز به عن سائر الأنبياء.

ووجه العبرة فى هذا أن العرب، رغم انتشار الأمية بينهم فى الجاهلية انتشارا واسعا، سرعان ما تخلصوا منها بعد اعتناقهم الإسلام وقَضَوْا عليها وأَضْحَوْا الأمة الأولى للعلم والثقافة والفكر فى العالم أوانذاك. إنه، عليه الصلاة والسلام، لم يؤلف اللجان ولم يخصص الميزانيات ولم يستكثر من بناء المدارس والجامعات لهذا الغرض، إذ كان ذلك صعب التنفيذ فى تلك الظروف إن لم يكن مستحيله، بل اكتفى بالمتاح بين يديه، وهو أقل من القليل. ومع ذلك فإن هذا القليل الذى يكاد يقرب من حد العدم قد أتى بتلك الثمار المدهشة، وهى ثمار لا يمكن المقارنة بينها وبين ما تحقق من نتائج فى ذلك الميدان بطول البلاد العربية وعرضها منذ عصر النهضة الحديثة التى بدأت قبل أكثر من قرنين من الزمان مع توفر الإمكانات الهائلة التى لم يكن الصحابة يحلمون بواحد على المليون منها. لقد كانوا يتلقَّوْن تعليمهم مثلا فى المسجد، والمساجد لا تكلف الدولة شيئا يذكر. ولم يستقدم عليه الصلاة والسلام لصبيان المدينة خبراء تربويين ولا مدرسين من الخارج بالعملة الصعبة، بل اعتمد على الأسرى الذين لو كان قد استبقاهم عنده دون عمل لكلفوه أموالا طائلة، لكنه بثاقب نظره وإلهامه العظيم افترع هذا الحل العبقرى الذى أتى بأعظم النتائج دون أن يدفع فيه شيئا على الإطلاق.

وللبروفسير ن. ستيفن (Prof. N. Stephen) كتاب بعنوان "Muhammad and Learning" تحدث فيه بأسلوب مشدوه عن أحاديث الرسول الكريم ودوره فى مجال التعليم، مستغربا أن يتنبه رجل مثله يعتزى إلى أمةٍ باديةٍ أُمِّيّةٍ تعيش فى القرن السابع الميلادى إلى هذا الجانب من جوانب الحياة وأن يكون له تلك الآراء التقدمية والمواقف المذهلة التى تعكسها آيات القرآن والأحاديث الشريفة، وبخاصة أن الأديان الأخرى كانت تضع التعلم تحت الرقابة وتجعله حكرا على الكهنة والطبقة الحاكمة ليس إلا، إن لم تعاقب على إفشاء العلم بين العامّة، فضلا عن إحراق الكتب، الذى يؤكد أنه سيظل إلى الأبد وصمة عار فى جبين من اجترحوه، وفى جبين الكنيسة أيضا لارتضائها

ومباركتها هذا العمل المخزى، على عكس محمد، الذى دعا البشر جميعا على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وظروفهم إلى السعى حثيثا فى طلب العلم رجالا ونساء من المهد إلى اللحد، بل أوجبه عليهم غير مكتفٍ بجعله حقا من حقوقهم يمكنهم أن يأخذوه أو يهملوه، وجَعَله بابا إلى الجنة، وساواه فى الفضل بالاستشهاد فى سبيل الله، بل فضّل العلماء على العبّاد المنعزلين عن تيار الحياة وميادين الجهاد بمثل ما يَفْضُل به البدرُ سائرَ الكواكب. ومع هذا يجدّ أحمد صبحى منصور فى محاولة هدم الأحاديث النبوية التى يقف أمامها البروفسير ستيفن مشدوها مما فيها من عبقرية سبقت الأزمان بمسافات شاسعة.

وفى مجال آخر من مجالات العبقرية النبوية التى ما كنا لنعرفها، فضلا عن أن نقدرها حق قدرها، لولا أحاديث النبى صلَّى الله عليه وسلَّم التى سجلت مظاهر تلك العبقرية والتى يريد أحمد صبحى منصور ومن على شاكلته أن يدمروها بحجة الحفاظ على الإسلام من الزيف والبهتان والتشويه والضلال، كتبت فرنشيسكا دو شاتل، وهى صحفية وأنثروبولوجية هولندية، بحثا بديعا أبدت فيه انبهارها بموقف النبى الكريم من الطبيعة حتى لقد عدته رائد الحفاظ على البيئة فى العالم وجعلته سابقا لعصره بل سابقا للعصور الحديثة بأشواط. قالت فى الفقرتين الأوليين من ذلك البحث: "جاء فى الحديث النبوى: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهمة إلا كان له به صدقة". الواقع أن القول بأن محمدا رائد من رواد الحفاظ على البيئة سوف يقع فى آذان الكثيرين فى البداية موقعا غريبا، إذ لا شك أن مصطلح "الحفاظ على البيئة" وما يرتبط به من مفاهيم مثل "البيئة" و"الوعى البيئى" و"ترشيد الاستهلاك" هى ألفاظ من اختراع العصر الحديث، أىْ مصطلحات صيغت لتواجه الاهتمامات المتزايدة بالوضع الراهن لعالم الطبيعة من حولنا. ومع ذلك فإن قراءة الأحاديث النبوية عن قرب، أى تلك الروايات المتعلقة بالأحداث الهامة فى حياة محمد، لَتُرِينا أنه كان واحدا من أشد المنادين بحماية البيئة. بل إن بمستطاعنا القول إنه كان فى نصرته للبيئة سابقا لعصره، أى رائدا فى مجال المحافظة على البيئة والتطور الرشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية، وواحدا من الذين يَسْعَوْن لإقامة توازن متناسق بين الإنسان والطبيعة. وبالاستناد إلى ما أوردته لنا الأحاديث من أعماله وأقواله يمكننا القول بأن محمدا كان يتمتع باحترام عميق لعالم النباتات والأزهار وأنه كان على صلة حميمة بعناصر الطبيعة الأربعة: التراب والماء والنار والهواء".

وهناك أستاذ جامعى أمريكى، هو البروفسير جيفرى لانج، اعتنق الإسلام أواخر القرن الماضى وأصدر عدة كتب منها كتاب "Struggle to Surrender"، الذى خصص جزءا كبيرا من فصله الثالث للكلام عن الحديث النبوى. وأشار لانج إلى أن الحديث النبوى كان هدفا للنقد الاستشراقى، وأعلن عن رغبته فى أن يكون هناك ردٌّ فعّالٌ على هذا النقد من جانب المسلمين الموجودين فى الغرب المعادى للإسلام معاداة راديكالية حسب وصفه. كما أشاد بعلم الحديث وبرجاله وتقواهم ومنهجيتهم الصارمة الدقيقة، وأثنى على كتبهم ثناء كبيرا، وبخاصة كتب الصحاح الستة المعروفة، إذ قاموا بغربلة الآلاف المؤلفة من أحاديث الرسول تمييزا لصحيحها من سقيمها، وهو ما اقتضاهم مجهودا ضخما يحمد لهم. وبلغ من دقتهم، حسبما يقول، أنهم كثيرا ما يقبلون حديثا معينا ثم يرفضون حديثا آخر له نفس المتن

دون أدنى خلاف، بسبب أن رواة هذا معدَّلون، ورواة ذاك مجرَّحون، مما يدل على مدى صرامة الطريقة التى اتبعوها فى توثيق كلام النبى عليه الصلاة والسلام. ثم ينقل كلام شبرنجر عن علم توثيق الرواة وتضعيفهم بأنه مفخرة للفكر الإسلامى. لكنه يشكو فى نفس الوقت من وجود أحاديث منسوبة للنبى عليه الصلاة والسلام لا تتفق وما يتطلع إليه المرء عند نبى من أنبياء الله أو تسوّغ أشياء لا يقبلها العقل والمنطق.

وأنا أتفق معه إلى حد بعيد، إذ أقول دائما إن علماء الحديث قد بذلوا جهودا عبقرية فى جمع الأحاديث وتمحيصها وتبويبها، فحفظوا للمسلمين ذخيرة لا تقدر بثمن، ولا يمكن أن يثيبهم عليها سوى رب العباد سبحانه، إلا أن هذا لا يعنى أن كل ما أوردوه من حديث هو صحيح حتما. لقد استفرغوا وسعهم ولم يَأْلُوا، والباقى علينا. وكما اجتهدوا هم نجتهد نحن. وقد نصيب نحن بدورنا، وقد نخطئ. والله قد تكفل لنا، كرما منه وتفضلا، بأن يجزينا فى الحالين الجزاء الحسن. فِمَّ الخوف؟ وفيم التحرج؟ وأرى أنه إذا بدا لمسلم أن حديثا من الأحاديث لا يقنع عقله فلا ضرر على إيمانه ما دام يبحث عن الحق ويقدم المسوغات لما يقول.

إن المسلمين عموما يؤمنون بأن البخارى هو أصح كتاب بعد كتاب الله، لكنْ يُلاحَظ فى ذات الوقت أنهم لا يفرقون بين هذا الحكم على "صحيح البخارى" وبين كونه كتابا معصوما. إن الكتاب المعصوم هو كتاب الله، وما دام البخارى يأتى بعده فهو ليس بمعصوم، لأن العصمة ليست درجات، بل درجة واحدة. وعلى هذا فإما أن يكون الكتاب معصوما أو لا يكون، وما دام كتابٌ ما يأتى بعد كتاب آخر معصوم فمعناه أنه أقل منه، ومن ثم ليس معصوما مثله. إنه قد يكون أوثق من غيره من كتب الحديث، نعم. لكنه ليس معصوما. على أن هذا لا يعنى أبدا أن كل من هب ودب يمكنه، تحت هذه الحجة، أن يشرع فى الهجوم على كتب الصحيح بحجة أنها غير معصومة. بل عليه أن يكون على مستوى الأمر ويبحث ويحقق ويدقق ويقدم مبررات عدم اقتناعه بهذا الحديث أو ذاك، واضعا فى ذهنه قبل كل شىء أنه مجرد مجتهد، وأن ما يقوله قابل للصواب والخطإ، وأن علماء الحديث قد بذلوا جهودا جبارة لا يمكن شطبها بجرة قلم من جانب أى فَسْل لا قيمة له فى دنيا العلم والعلماء. وبالمناسبة فقبل تصنيف البخارى لـ"صحيحه" كان الشافعى يقول إن أصح كتاب بعد كتاب الله هو "موطأ" مالك.

إن علماءنا الكرام قد خدموا السنة النبوية خدمة جُلَّى، وبذلوا جهودا عظيمة فى التحقق من عدالة الرواة وضبطهم. ولكن هذا لا يمنع أبدا أن نبدأ خدمة السنة من حيث انْتَهَوْا، فننظر فى مضمون الأحاديث ونتحقق من صحتها ودقتها مراعين ألا تناقض القرآن فى شىء أو تتعارض والروح العامة للإسلام ومبادئه وقيمه العليا وعقائده المتفق عليها أو تخالف الحقائق العلمية المقطوع بها أو تدابر التاريخ القطعى وأحداثه وأرقامه أو تعاكس الطبيعة البشرية التى نعرفها على مدى الأحقاب أو أوضاع المجتمعات أو نفسية الجماهير أو سنن الله فى الكون أو المنطق العقلى العام... إلخ. كما ينبغى أن نغلِّب الجوهريات على الشكليات، والمتون على الهوامش، والواجبات على النوافل، والأهم على المهم... وهلم جرا. وعندنا أيضا التحقق الأسلوبى. فلا شك أن من تمرس بأحاديث النبى وخطبه وحواراته يتشكل لديه انطباع

عن أسلوبه اللغوى. فلو وجد المحقق أن فى الحديث الذى ينظر فيه لفظا أو تعبيرا أو تصويرا أو تركيبا لم يكن يستعمله النبى: إما لأنه لم يكن من استخدامات عصره ومجتمعه أو لم يكن من استعمالاته هو الشخصية كان هذا سببا معضدا لعدم اطمئنان ضميره لذلك الحديث.

وليس فى الأمر ما يدعو إلى الحرج من جانب المتحقق ولا إلى الغضب من جانب العلماء الآخرين، فقد كان الصحابة ينتقد بعضهم بعضا ويرد بعضهم رواية بعض أو يطالبونهم بالدليل على صحة الحديث أو بشاهد آخر على ذلك. فمثلا تقول عائشة فى حديث لها: "من زعَم أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم رأَى ربَّهُ فقد أعظَم الفِرْيَةَ على اللهِ تعالى، ولكنَّهُ رأى جِبريلَ مرَّتينِ فى صورتِه وخَلْقه سادًّا ما بين الأُفُقِ". ومعنى هذا أنه كان هناك من يقول ذلك، فانتقدته عائشة أيما انتقاد، ولم يمنعها من هذا الانتقاد الشديد بل التكذيب العنيف أى اعتبار. ويقول أبو سعيد الخدرى: "كنتُ جالسًا بالمدينةِ فى مجلسِ الأنصارِ، فأتانا أبو موسى فزِعًا أو مذعورًا. قلنا: ما شأنُك؟ قال: إنَّ عمرَ أرسل إلىَّ أن آتيَه، فأتيتُ بابَه فسَلَّمْتُ ثلاثًا، فلم يَرُدَّ على، فرجعتُ، فقال: ما منعك أن تأتيَنا؟ فقلتُ: إنى أتيتُ فسلَّمْتُ على بابِك ثلاثًا، فلم يَرُدُّوا على، فرجعتُ. وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: إذا استأذن أحدُكم ثلاثًا فلم يُؤْذَنْ له فلْيَرْجِعْ. فقال عمرُ: أَقِمْ عليه البيِّنَةَ، وإلا أوجعتُكَ. فقال أُبَىُّ بنُ كعبٍ: لا يقوم معه إلا أصغرُ القومِ. قال أبو سعيدٍ: قلتُ: أنا أصغرُ القومِ. قال: فاذهبْ به".

كذلك "ذُكِر عند عائشةَ قولُ ابنُ عمرَ: الميتُ يُعذَّبُ ببكاءِ أهلِه عليهِ. فقالت: رحم اللهُ أبا عبدِ الرحمنِ. سمع شيئًا فلم يحفظْه. إنما مرت على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم جنازةُ يهودى، وهم يبكون عليهِ، فقال: "أنتم تبكون، وإنَّهُ لَيُعذَّب". وهناك حديث آخر فى ذات الموضوع عن عبد الله بن أبى مليكة هذا نصه: "توفيت ابنة لعثمان رضى الله عنه بمكة، وجئنا لنشهدها، قال: وحضرها ابن عمر وابن عباس، وإنى لجالس بينهما (أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبى)، فقال عبد الله بن عمر لعمرو بن عثمان: ألا تنهى النساء عن البكاء، فإن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: إن الميت لَيُعَذَّب ببكاء أهله عليه؟ فقال ابن عباس: قد كان عمر رضى الله عنه يقول بعض ذلك، ثم حدَّث قال: صدرتُ مع عمر من مكة حتى كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سَمُرَة، فقال: اذهب وانظر إلى هؤلاء الركب. قال: فنظرت، فإذا هو صهيب، فأخبرته. قال: ادعه لى، فرجعت إلى صهيب. فقلت: ارتحل، فالحَقْ أميرَ المؤمنين. فلما أصيب عمر دخل صهيب رضى الله عنهما يبكى يقول: وا أخاه! وا صاحباه! فقال عمر رضى الله عنه: يا صهيب، أتبكى علىَّ، وقد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إن الميت ليعذَّب ببعض بكاء أهله عليه؟ قال ابن عباس: فلما مات عمر رضى الله عنه ذكرتُ ذلك لعائشة رضى الله عنها، فقالت: رحم الله عمر. والله ما حدَّث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن الله يعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه. قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن: "ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى". قال: وقال ابن عباس عند ذلك: والله أضحك وأبكى. قال ابن أبى مليكة: فوالله ما قال ابن عمر شيئا".

وكان بعض الصحابة يضيق بكثرة رواية أبى هريرة لأحاديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فدافع عن نفسه بأنه كان ملازما لرسول الله عليه السلام فى حين كانوا هم مشغولين بأمور حياتهم عن الالتصاق بالنبى التصاقه به. ومن ذلك الحديث التالى: "قيل لعائشةَ: إنَّ أبا هريرةَ يقول: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: الشُّؤمُ فى ثلاثٍ: فى الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ. فقالت عائشةُ: لم يحفظْ أبو هريرةَ لأنه دخل ورسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: قاتَل اللهُ اليهودَ. يقولون إنَّ "الشؤمَ فى الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ"، فسمع آخِرَ الحديثِ، ولم يسمع أَوَّلَه". وعن أبى هريرة "مَن تبع جنازةً فصلَّى عليها فله قيراطٌ، فإن شهِد دفنَها فله قيراطانِ، والقيراطُ أعظمُ مِن أُحُدٍ. فقال له ابنُ عُمرَ: يا أبا هريرة، انظُرْ ما تحدِّثُ به عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. فقام إليه أبو هريرةَ فأخَذ بيدِه حتى انطَلَق به إلى عائشةَ، فقال لها أبو هريرة: أَنْشُدُك باللهِ هل سمعتِ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: مَن تبِع جنازةً فصلَّى عليها فله قيراطٌ، فإن شهِد دَفْنَها فله قيراطانِ، القيراطُ أعظمُ مِن أُحُدٍ؟ فقالتْ: اللهم نعَم. فقال أبو هريرةَ: إنه لم يكُنْ يشغَلُنى عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم غرسٌ. إنما كنتُ ألزمُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لكلمةٍ يعلِّمُنيها أو لقمةٍ يطعِمُنيها".

ومعروفٌ الخلاف الحاد الذى نشب بين عمر وأحد الصحابة حول الطريقة التى يقرأ بها كل منهما القرآن، وإسراعهما إلى الرسول ليتأكدا أيهما المصيب. ولو كان هناك مثل ذلك التحرج الذى نظنه لقد كان كلاهما حريا أن يصدّق الآخر ولا يرفعا الأمر إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. كما أن الأقضية التى كانت ترفع إلى رسول الله دليل آخر على أنهم لم يكونوا يَرَوْن فى اختلافهم أى حرج، وإلا ما كان أحدٌ قاضَى أحدا، فإنّ خصمه صحابى لا يصح القدح فيه أو الاختلاف معه. ثم عندنا حديث الإفك، ألم يخض فيه بعض الصحابة؟ وفوق هذا ألم يزن هذا ويسرق هذا من معاصرى النبى ممن شاهدوه وتحدث إليهم وتحدثوا إليه؟

ويدخل جورج طرابيشى على الخط فى كتابه: "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث- النشأة المستأنفة" زاعما أن آيات القرآن تنهى رسول الله عن التشريع وتحصر دوره فى مجرد إبلاغ الوحى وتمنعه من أخذ زمام المبادرة فى أى شىء. ومن هذه الآيات قوله تعالى: "فهل على الرسل إلا البلاغ المبين؟"، "ليس لك من الأمر شىء"... إلخ. فأما قوله سبحانه: "ليس لك من الأمر شىء" فليس معناه أنه ليس للرسول أن يشرع بل معناه أنه ليس له الحق فى الحكم على مصير أحد من أعدائه بالتعذيب أو النجاة، بل مرد ذلك إلى الله، فالله هو المحاسب وصاحب البت فى مصير العباد لا هو. ولا صلة، كما نرى، بين هذا وبين ما يقوله طرابيشى. وأما أن دور الرسول ينحصر فى التبليغ فالمقصود أنه لا حق له فى إكراه أحد على قبول الرسالة التى أتى بها ما دام لا يريد اعتناقها، بل هو مجرد مبلغ، وأما القبول والرفض فمن حق من يدعوهم إلى دينه. ثم لقد تكرر من الرسول إصدار أحكام وفتاوى، ولم ينزل الوحى ينهاه مبدئيا عن ذلك قط. بل هناك آيات تتوعد من يرفض الاحتكام إليه صلى الله عليه وسلم. ومعنى هذا أن من حقه نظر القضايا والفصل فيها، وهو ما يستلزم منه استخلاص الأحكام من نصوص القرآن العامة أو إضافة ما لم يتناوله القرآن مما يسير فى اتجاه مبادئ الإسلام وقيمه. صحيح أن

القرآن نزل فى بعض الحالات يعارض ما حكم أو أفتى به عليه السلام، لكنه من الناحية الأخرى أمضى ما قاله فى كثير من القضايا الأخرى. وفى الكتاب الذى بأيدينا الآن أمثلة كثيرة جدا على هذا. بل إن معارضة القرآن لما حكم به الرسول فى بعض الحالات لدليل قاطع على أنه لم يكن ممنوعا من الحكم والفتوى، وإلا لما حاول هو ذلك أصلا أو لنهاه القرآن عنه فى كل مرة يخالفه فيها. هكذا ينبغى أن يكون التفكير والتحليل، أما ما يقوله طرابيشى فهو رأى مسبق دخل به ليفرضه على النصوص والأحداث فرضا. ومن الغريب المدابر للمنطق أن من يعترضون على قيام الرسول بإصدار الأحكام والفتاوى لا يجدون شيئا فى قيام أتباعه صلى الله عليه وسلم من علماء وفقهاء وقضاة بذلك، وهو ما يعنى أنهم يرون هؤلاء الأتباع أفضل منه فى نظر الله وفى نظرهم هم أيضا. وهذا تفكير متهافت بل متهاوٍ. واضح أن طرابيشى لا يحسن فهم الآيات ولا تنزيلها على الحالات التى ترتبط بها.

ويدخل فى ذلك تعامله مع قصة الغرانيق على أنها حادثة حقيقية تجاوز فيها محمد دوره كمبلغ لما ينزل عليه من قرآن فأضاف جملتين من عنده لم تردا فى سورة "النجم" يعلى فيهما من شأن اللات والعزى ومناة بغية التقرب من القرشيين كى يؤمنوا برسالته. وزاد طرابيشى فادعى أن تلك القصة هى من المسكوت عنه. يريد أن يقول إن المسلمين ضربوا عنها صفحا وتناسوها لأنها تدين محمدا. وأنا أستغرب هذا من طرابيشى أشد الاستغراب: فهذه القصة لم يسكت عنها المسلمون فى يوم من الأيام منذ جاءتنا الروايات بها حتى يوم الناس هذا وإلى ما شاء الله ما دام هناك قرآن وكلام عن القرآن ومحمد. كذلك كان الأحجى بواحد كطرابيشى يقدَّم للناس على أنه مفكر كبير أن يكون تناوله لتلك الحكاية تناولا أعمق وأكثر حكمة. ويجد القارئ الكريم فى موضع آخر من هذا الكتاب تحليلا عميقا ومرهقا لهاتين الجملتين من الناحية التاريخية والاجتماعية والنفسية والأسلوبية ومن ناحية بناء السورة انتهى إلى أنهما ليستا من القرآن، الذى يقول طرابيشى وأشباهه إن مؤلفه هو محمد، ولا تجريان على أسلوبه. وكنت أحب لو أن طرابيشى برهن فى معالجته لهذه الحكاية على أنه ذو عقل واسع متفتح يتعمق الأشياء ولا يسارع إلى التمسك بكل ما يقابله فى الكتب فى غير صالح الإسلام. وهذا واضح أشد الوضوح من إشادته الهائلة بكتاب معروف الرصافى عن الشخصية المحمدية، الذى بذل فيه الشاعر العراقى جهدا شيطانيا ليثبت عبثا أن محمدا هو مؤلف القرآن وأنه لا وحى ولا يحزنون بل لا إله كما نفهم نحن الألوهية، وفندت أنا كل ما قاله كبيرا كان أو صغيرا فى كتاب ضخم لى عن هذا الموضوع، وبينت أن الرجل قد فقد عقله ولياقته وأنه لا يعى جيدا ما يقول. كذلك فإن كراهية طرابيشى للإسلام واضحة من حملته العصبية العنيفة على دفاع د. عبد الرحمن بدوى عن النبى عليه السلام واعتباره هذا الدفاع ردة من عبد الرحمن بدوى من أسوإ ما يمكن. الحق أن طرابيشى لم يكن قط واسع الأفق بل كان متعصبا تعصبا ذميما ضد النبى والوحى والإسلام كله كاشفا البغض الذى يملأ قلبه تجاه دين التوحيد.

جهود المحدِّثين فى رواية السنة وتوثيقها

جاء النبى محمد عليه السلام بدين جديد على العرب فى عقائده وعباداته ومصطلحاته وتوجيهاته الأخلاقية والنفسية والاجتماعية، وجديد فيما أعلنه الرسول عن الطريقة التى يتنزل عليه بها الوحى متمثلا فى ملاك اسمه جبريل، وجديد فى أسلوب القرآن المتميز عن كل ما كان يعرفه العرب آنذاك من شعر وخطب ووصايا وسجع كهان، وهو ما دفع المشركين إلى معاداة محمد والسخرية منه بوصفه الرجل الذى أتى بهذا الدين الغريب عليهم، والتآمر عليه هو وأتباعه والعمل بكل وسيلة على إيذائهم بل وقتل بعضهم والتفكير فى اغتيال النبى نفسه. وعلى الناحية الأخرى كان المسلمون الأولون يهتمون بنبيهم وزعيمهم الذى أداروا ظهورهم لمجتمعاتهم وأهليهم وأصدقائهم من أجله، ويحرصون على أن يظلوا معظم الوقت قريبين منه بل ملتصقين به وأن ينصتوا إلى كل ما يقول سواء كان قرآنا نازلا من السماء أو حديثا من أحاديثه التى يشرح بها الدين الجديد أو يعلق من خلالها على ما يقع له ولهم.

ومن هنا نشأ الاهتمام بالحديث النبوى الشريف: فمن كانوا يكتبون ويقرأون بين المسلمين كانوا يسجلون على الأقل بعضا مما يقوله عليه الصلاة والسلام، ويعتمدون فى الباقى على الحفظ، وأما الأميون فكانوا يستعملون ذاكرتهم الحادة التى كان المجتمع العربى يعتمد عليها بالدرجة الأولى فى كل مناحى ثقافته. لكنه عليه السلام لم يعين كتبة للحديث كما كان هناك كتبة للقرآن، بل لقد أُثِر عنه نهيه المسلمين الأولين عن كتابة الأحاديث قائلا: "لاَ تَكْتُبُوا عَنِّى، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّى غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ، وَحَدِّثُوا عَنِّى وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ". ومعنى هذا أنه إذا كان قد نهاهم لسبب أو لآخر عن كتابة أحاديثه فقد حضهم على حفظ تلك الأحاديث، وعلى هذا فليس هناك أدنى حجة على أنه كان يرى إهمال ما يقول، بله ألا ينطق بغير القرآن طول الليل والنهار ومع كل الناس من حوله كما يزعم أحمد صبحى منصور، وكأنه عليه السلام شريط تسجيل. "عن عمران بن حصين عنِ الحَسَنِ قالَ: بَيْنَما عِمْرانُ بْنُ حُصَيْنٍ يُحَدِّثُ عن سُنَّةِ نَبِيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم إذْ قالَ له رَجُلٌ: يا أبا نُجَيْدٍ، حَدِّثْنا بالقُرْآنِ. فقالَ لهُ عِمْرانُ: أنتَ وأَصْحابُكَ تَقْرَأونَ القُرْآنَ، أَكُنْتَ مُحَدِّثى عنِ الصَّلاةِ وما فيها وحُدودِها؟ أَكُنْتَ مُحَدِّثى عنِ الزَّكاةِ فى الذَّهَبِ والإبلِ والبَقَرِ وأَصْنافِ المالِ؟ ولكنْ قدْ شَهِدْتُ وغِبْتَ أنتَ. ثُمَّ قالَ: فَرَضَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى الزَّكاةِ كذا وكذا. وقالَ الرَّجُلُ: أَحْيَيْتَنى أَحياكَ اللهُ. قالَ الحَسَنُ: فما ماتَ ذلك الرَّجُلُ حتّى صارَ مِنْ فُقهاءِ المُسْلِمينَ". ويؤكد أهمية أحاديثه صلَّى الله عليه وسلَّم ما رد به أبو سعيد الخدرى على من قال له: "لو كتبتم (حديث رسول الله عليه السلام) لنا فإنا لا نحفظ"، إذ كان جوابه: "لا نكتبكم ولا نجعلها مصاحف. كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يحدثنا، فنحفظ. فاحفظوا عنا كما كنا نحفظ عن نبيكم".

وعلى كل فقد رجع النبى عن نهيه ذاك وأباح للمسلمين أن يسجلوا أحاديثه الشريفة كتابة فقال مثلا: "قيِّدوا العلم بالكتاب"، "اكتبوا، ولا حرج"، "اكتبوا لأبى شاة"، "استعن على حفظك بيمينك". وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل النبى: "أُقَيِّد العلم؟"، فقال له: "نعم"، فعاد يسأله: "وما تقييده؟"، فأجابه: "الكتاب"، أى عن طريق الكتابة. وعن رافع بن خديج: "قلنا: يا رسول الله، إنا

نسمع منك أشياء. أفنكتبها؟". قال: "اكتبوا، ولا حرج". وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه استأذن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يكتب ما يسمع من حديثه، فأذن له. وليس فى هذا ما يثير الاستغراب، فما أكثر المواقف والآراء التى يغيرها البشر مع تغير الظروف. وليس رجوعه عليه السلام عن رفض كتابة أحاديثه هو الرجوع الوحيد فى مواقفه: "إِنِّى كنتُ نَهيتُكم عنْ زيارةِ القبورِ، فزوروها لتُذَكِّرَكُمْ زيارتُها خيرًا. وكنتُ نَهَيْتُكم عنْ لحومِ الأضاحى بعدَ ثلاثٍ، فكلُوا وأمسِكُوا ما شئتُم. وكنتُ نَهيتُكم عنِ الأشْرِبَةِ فى الأوْعِيَةِ، فاشربوا فى أى وعاءٍ شئتُم، ولا تشربوا مُسْكِرًا"، "إِنِّى كنتُ نَهَيتُكُم أن تَنتبِذوا فى الدُّبّاءِ والحنتمِ والمزفَّتِ، فانتَبِذوا. ولا أُحلُّ مُسْكِرًا"، "إِنِّى كنتُ نهيتُكُم عن ادِّخارِ لحومِ الأضاحى فوقَ ثلاثٍ، فكُلوا وادَّخِروا ما بدا لكُمْ. وفى روايةٍ: فكُلوا وادَّخِروا وتصدَّقوا. وفى روايةٍ: فكُلوا وأطْعِموا وتصَدَّقوا". وكما نرى فهو أمور عملية لا عقيدية ولا أخلاقية لا تقبل التغيير، أو أمور تتعلق بالوسائل، وهى متغيرة بطبيعتها. وبطبيعة الحال كانت أحاديث الرسول فى البداية محدودة ثم زادت وتشعبت، وفى مكة لم تكن هناك أحاديث تشريعية تستلزم تقييدها بالكتابة على عكس الحال فى المدينة إذ زادت الأحاديث وكان لا بد من تقييد ما فيها من تشريعات بالورقة والقلم حتى لا تضيع. فهذا تفسير آخر لرجوع النبى عن رفضه كتابة ما يقول صلى الله عليه وسلم.

والإسلام هو دين الكتابة: فقد أقسم الله بالقلم وما يسطرون، وأقسم بالكتاب المبين، وامتن على عباده بتعليمه إياهم بالقلم. ومعروف أن كل ما يأتيه الإنسان من أعمال أو يتلفظ به من أقوال يسجَّل فى كتاب عنده جل وعلا ويتم الحساب بناء عليه يوم القيامة. كذلك لا يصح أن ننسى كتاب القضاء والقدر: "ما أصاب من مصيبةٍ فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قَبْل أن نبرأها". ويلفت النظر بقوةٍ تعبير القرآن عن الوحى الذى ينزل على رسوله عليه السلام بـ"الصحف": "فى صحفٍ مكرَّمة * مرفوعة مطهَّرة * بأيدى سَفَرَة *كرامٍ بَرَرَة". وكان القرآن والديون والمعاهدات والرسائل والأوامر والتكليفات الرسمية كل ذلك يُسَجَّل على الورق حتى لا يُنْسَى كتاب الله أو تضيع الحقوق وتغيم المسؤوليات ويكثر النزاع... إلخ. وبسبب الأهمية العظيمة للكتابة والكتب فى الإسلام سُمِّىَ القرآن بـ"الكتاب": هكذا بـ"أل" الماهية. فمن الطبيعى أن يعود الرسول عن نهيه عن كتابة الأحاديث بعد انتشار الوعى بالفرق بين القرآن والحديث مثلا والاطمئنان إلى أن أحدا لن يخلط بينهما وبعد كثرة الأحاديث التشريعية فى المدينة.

وكان لبعض الصحابة فى عهد الرسول عليه السلام صحف كتبوا فيها من أحاديثه صلَّى الله عليه وسلَّم: فكان لسعد بن عبادة الأنصارى صحيفة جمع فيها طائفة من أحاديث الرسول وسُنَنه، ولعبد الله بن أوفى صحيفة مماثلة، ولجابر بن عبد الله هو أيضا صحيفة، كما كان لسمرة بن جندب نسخة كبيرة فيها طائفة من أحاديث رسول الله عليه السلام، وكانت صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص تسمى: "الصحيفة الصادقة"، وكان لعبد الله بن العباس ألواح يستعين بها فى مجالس العلم، ولهمام بن منبّه صحيفة رواها عن أبى هريرة، وكانت لأسماء بنت عميس صحيفة. وهناك صحيفة المدينة التى كتبها النبى لتنظيم العلاقة بين طوائف سكان المدينة عقب مهاجَره إليها...

إذن فقد دون الصحابة رضوان الله عليهم كثيرا جدا من أحاديث النبى صلوات الله وسلامه عليه فى حياته فى صحائف متفرقة. وكان الصحابة والتابعون حريصين على جمع الحديث الشريف وتنقيته من شوائب التحريف والتزيد، وشكلت المجموعات التى كتبوها فى صحائفهم العدد الأكبر من أحاديث الجوامع والمسانيد والسنن فيما بعد. أى أَنَّ المجموعَ الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه ونسخه فى عصر الرسول وعصر الصحابة من بعده.

والملاحظ أن ما بلغنا من الأحاديث فى العهد المكى أقل كثيرا من نظيرتها فى العهد المدنى. وسوف أورد هنا طائفة من الأحاديث المكية، وأتبع بعضها بتحليلى لها ورأيى فيها استنادا إلى متونها. وأنا حين أفعل هذا فإنى أنطلق من قول علماء الحديث: "مَا كُلُّ مَا صَحَّ سَنَدًا صَحَّ مَتْنًا". من هذه الأحاديث حديث جلوسه صلَّى الله عليه وسلَّم على فراش جده عند الكعبة وتعلق عبد المطلب به: "عن العباس بن عبدالمطلب: كانَ عبدُ المطَّلبِ أطولَ النّاسِ قامةً وأحسنَهم وجْهًا. ما رآهُ أحدٌ قطُّ إلّا أحبَّهُ. وَكانَ لَهُ مفرشٌ فى الحجرِ لا يجلسُ عليْهِ غيرُه ولا يجلسُ عليْهِ معَهُ أحدٌ، وَكانَ النَّدِى من قريشٍ حرب بن أميَّةَ فَمَنْ دونَهُ يجلسونَ حولَهُ دونَ المفرشِ، فجاءَ رسولُ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وَهوَ غلامٌ لم يبلغ فجلسَ على المفرشِ، فجبذَهُ رجلٌ، فبَكى، فقالَ عبدُ المطَّلب، وذلِكَ بعدَ ما كُفَّ بصره: ما لابنى يبكى؟ قالوا لَهُ: إنَّهُ أرادَ أن يجلسَ على المفرشِ، فمنعوه. فقالَ: دعوا ابنى يجلس عليْهِ، فإنَّهُ يحسُّ من نفسِهِ شرفًا، وأرجو أن يبلغَ منَ الشَّرفِ ما لم يبلغ عربى قبلَهُ ولا بعدَه. قالَ: وماتَ عبدُ المطَّلبِ والنَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم ابنُ ثمانِ سنينَ، وَكانَ خلفَ جنازةِ عبدِ المطَّلبِ يبْكى حتّى دُفِنَ بالحجونِ" (الذهبي- ت ٧٤٨، تاريخ الإسلام ٥٤/١ • فيه عبد الله بن شبيب، وهو ضعيف).

وبعيدا عن التفصيلات فى النص والحكم على أحد رواته بالضعف فمن الطبيعى أن يحظى محمد الصغير بحب جده له، فللأحفاد فى قلوب أجدادهم مكانة رائعة، وقد عبر المثل الشعبى عن هذا الحب العجيب حين قال: "أعزّ الوِلْد وِلْد الوِلْد". وسوف تدور الأيام ويصير النبى بدوره جدا ويقرّب أحفاده إليه مستمتعا بكل ما يفعلون ويجد راحة ورَوْحا وريحانا فيهم. وهذا متعالم مشهور لا حاجة بنا إلى الاستشهاد عليه بالنصوص. وكان الرسول، من حبه لجده، يقول: "أنا ابن عبد المطلب"، بل كان بعض من يفدون للتعرف إليه صلَّى الله عليه وسلَّم ينادونه أو يتحدثون عنه بوصفه "ابن عبد المطلب".

ومن الأحاديث المكية أيضا حديث رضاعته عليه السلام فى بنى سعد: "عن حليمة: خرَجْتُ فى نسوةٍ مِن بنى سعدِ بنِ بكرٍ نلتمِسُ الرُّضَعاءَ بمكَّةَ على أَتانٍ لى قَمْراءَ فى سَنةٍ شَهْباءَ لم تُبْقِ شيئًا، ومعى زوجى، ومعنا شارِفٌ لنا واللهِ ما إنْ يَبِضُّ علينا بقَطرةٍ مِن لَبَنٍ، ومعى صبى لى إنْ نامُ ليلتَنا مِن بكائِه ما فى ثَدْيِى ما يُغنيه. فلمَّا قدِمْنا مكَّةَ لم تَبْقَ منَّا امرأةٌ إلَّا عُرِض عليها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فتأباه، وإنَّما كنَّا نرجو كرامةَ الرَّضاعةِ مِن والدِ المولودِ، وكان يتيمًا، وكنَّا نقول: "يتيمًا ما عسى أنْ تصنعَ أمُّه به؟" حتَّى لم يَبْقَ مِن صواحبى امرأةٌ إلَّا أخَذَتْ صبيًّا غيرى، فكرِهْتُ أنْ أرجِعَ ولم أجِدْ شيئًا، وقد أخَذ صواحبى، فقُلْتُ لزَوجى: واللهِ لَأرجِعَنَّ إلى ذلك اليتيمِ فلَآخُذَنَّه. فأتَيْتُه فأخَذْتُه ورجَعْتُ إلى رَحْلى، فقال زوجى: قد أخَذْتِيه؟ فقُلْتُ: نَعم واللهِ، وذاك أنِّى لَمْ أجِدْ غيرَه. فقال: قد أصَبْتِ. فعسى

اللهُ أنْ يجعَلَ فيه خيرًا. قالت: فواللهِ ما هو إلَّا أنْ جعَلْتُه فى حِجْرِى أقبَل عليه ثَديِى بما شاء اللهُ مِن اللَّبَنِ، فشرِب حتَّى رَوِى وشرِب أخوه (يعنى ابنَها) حتَّى رَوِى، وقام زوجى إلى شارِفِنا مِن اللَّيلِ، فإذا بها حافلٌ، فحلَبها مِن اللَّبَنِ ما شِئْنا وشرِب حتَّى رَوِى، وشرِبْتُ حتَّى رَوِيتُ، وبِتْنا ليلتَنا تلك شِباعًا رِوَاءً، وقد نام صِبيانُنا. يقولُ أبوه (يعنى زوجَها): واللهِ يا حَليمةُ ما أراكِ إلَّا قد أصَبْتِ نسَمةً مُبارَكةً. قد نام صبيُّنا ورَوِى.قالت: ثمَّ خرَجْنا، فواللهِ لَخرَجَتْ أَتَانِى أمامَ الرَّكْبِ حتَّى إنَّهم لَيقولونَ: ويحَكِ! كُفِّى عنَّا. أليسَتْ هذه بأَتانِكِ الَّتى خرَجْتِ عليها؟ فأقولُ: "بلى واللهِ"، وهى قُدَّامَنا حتَّى قدِمْنا منازِلَنا مِن حاضرِ بنى سعدِ بنِ بكرٍ فقدِمْنا على أجدَبِ أرضِ اللهِ. فوالَّذى نفسُ حَليمةَ بيدِه إنْ كانوا لَيسرحونَ أغنامَهم إذا أصبَحوا، ويسرَحُ راعى غنَمِى، فتروحُ بِطانًا لُبَّنًا حُفَّلًا، وترُوحُ أغنامُهم جياعًا هالكةً ما لها مِن لَبَنٍ. قالت: فنشرَبُ ما شِئْنا مِن اللَّبَنِ وما مِن الحاضرِ أحَدٌ يحلُبُ قطرةً ولا يجِدُها، فيقولونَ لرعائِهم: وَيْلَكم! ألَا تسرَحونَ حيثُ يسرَحُ راعى حَليمةَ؟ فيسرَحونَ فى الشِّعبِ الَّذى يسرَحُ فيه، فترُوحُ أغنامُهم جياعًا ما بها مِن لَبَنٍ، وترُوحُ غنَمى لُبَّنًا حُفَّلًا. وكان صلَّى الله عليه وسلَّم يشِبُّ فى اليومِ شبابَ الصَّبى فى شهرٍ، ويشِبُّ فى الشَّهرِ شبابَ الصَّبى فى سَنةٍ، فبلَغ سنةً وهو غلامٌ جَفْرٌ. قالت: فقدِمْنا على أمِّه، فقُلْتُ لها وقال لها أبوه: رُدِّى علينا ابنى فلْنرجِعْ به، فإنَّا نخشى عليه وباءَ مكَّةَ. قالت: ونحنُ أضَنُّ شىء به ممَّا رأَيْنا مِن بركتِه. قالت: فلَمْ نزَلْ حتَّى قالت: ارجِعا به. فرجَعْنا به، فمكَث عندَنا شهرَيْنِ. قالت: فبيْنا هو يلعَبُ وأخوه يومًا خلْفَ البيوتِ يَرعَيانِ بَهْمًا لنا إذ جاءنا أخوه يشتَدُّ فقال لى ولأبيه: أدرِكا أخى القُرَشى.قد جاءه رجُلانِ فأضجَعاه وشقَّا بطنَه. فخرَجْنا نشتَدُّ فانتهَيْنا إليه وهو قائمٌ مُنتقِعٌ لونُه، فاعتنَقه أبوه، واعتنَقْتُه ثمَّ قُلْنا: ما لكَ أى بنى؟ قال: أتانى رجُلانِ عليهما ثيابٌ بِيضٌ فأضجَعانى ثمَّ شقَّا بطنى.فواللهِ ما أدرى ما صنَعا. قالت: فاحتمَلْناه ورجَعْنا به. قالت: يقولُ أبوه: يا حَليمةُ، ما أرى هذا الغلامَ إلَّا قد أُصيبَ. فانطلِقى، فلْنرُدَّه إلى أهلِه قبْلَ أنْ يظهَرَ به ما نتخوَّفُ. قالت: فرجَعْنا به، فقالت: ما يُردُّكما به، فقد كُنْتُما حريصَيْنِ عليه؟ قالت: فقُلْتُ: لا واللهِ إلَّا أنَّا كفَلْناه وأدَّيْنا الحقَّ الَّذى يجِبُ علينا ثمَّ تخوَّفْنا الأحداثَ عليه فقُلْنا: يكونُ فى أهلِه. فقالت أمُّه: واللهِ ما ذاك بِكما. فأخبِرانى خبَرَكما وخبَرَه. فواللهِ ما زالت بنا حتَّى أخبَرْناها خبَرَه. قالت: فتخوَّفْتُما عليه؟ كلَّا واللهِ إنَّ لِابنى هذا شأنًا. ألَا أُخبِرُكما عنه؟ إنِّى حَمَلْتُ به فلم أحمِلْ حَمْلًا قطُّ كان أخَفَّ علَى ولا أعظَمَ بركةً منه. ثمَّ رأَيْتُ نورًا كأنَّه شِهابٌ خرَج منِّى حينَ وضَعْتُه أضاءتْ لى أعناقُ الإبلِ ببُصْرَى. ثمَّ وضَعْتُه، فما وقَع كما يقَعُ الصِّبيانُ. وقَع واضعًا يدَه بالأرضِ رافعًا رأسَه إلى السَّماءِ. دعاه والحَقا بشأنِكما".

والمفترض، حسبما يقول هذا الحديث، أن محمدا آنذاك كان طفلا رضيعا لا يزيد عمره عن سنة وشهرين، فهل يعقل الطفل الرضيع ما حدث له ويرويه على هذا النحو؟ وهل إزالة حظ الشيطان تستلزم مثل تلك العملية الجراحية الجسدية؟ وإن كانت تستلزم فلم وقعت فى أرض بنى سعد ولم يشاهدها سوى ابن حليمة الصغير؟ ولو كانت الحادثة حقيقية لقد كان لقاؤه صلَّى الله عليه وسلَّم بأخته من الرضاعة الشيماء بنت حليمة بعدما صار رسولا فرصة لتذكر مثل تلك الواقعة الغريبة. لكننا ننظر فلا نجد ذكرا لها على أى نحو خلال ذلك اللقاء. ثم لقد قال الرسول عن شيطانه إن الله قد أعانه عليه بأن

جعله يسلم. وإذن فلم يك ثم داع لتلك العملية أصلا. وكيف احتفظت آمنة بسكينتها وطمأنينتها بعدما سمعت حكاية شق بطنه؟ ألا إن ذلك لغريب على أية أم، فضلاعن أم فى ذلك العهد ومن تلك البيئة!

وأما بالنسبة للنور الذى سطع عند ولادته فكيف استطاعت آمنة رؤية الإبل فى بصرى وبين المكانين مسافة شاسعة (حوالى ١٢٧٠كم) ومساكن وجبال وتلال وقوافل وبشر لا يعلم عددهم سوى الله سبحانه، ولا يمكن أن تخترق كلَّ ذلك العيونُ؟ بل قبل ذلك كيف عرفت أنها بصرى، وهى لم ترها من قبل؟ ولماذا بصرى بالذات دون المدن الأخرى الموجود فى الطرق إليها أو التى بعدها؟ ولماذا بصرى بالذات وهى لا تقع على نفس خط الطول الذى تقع عليه مكة؟ ولماذا رأت أعناق الإبل بالذات دون بقية المخلوقات والأشياء؟ وهل المرأة التى تلد وتقاسى الآلام العنيفة التى نعرفها يكون لديها من هدوء النفس وروقان البال ما يجلعها تنشغل عن آلامها ووليدها ومن معها من النساء برؤية ذلك النور وتتبع ما يضيئه؟ وكيف لم تتعجب النسوة اللاتى كن معها أوانذاك عن هذا النور العجيب بل تقبلنه كأنه أمر اعتيادى يحدث لكل من يلدن؟ ثم لماذا لم تذكر أولئك النسوة تلك الحكاية لقريش حين بُعِثَ عليه السلام، فكذبوه واضطهدوه؟ وهل كانت آمنة والنسوة التى معها لدى الولادة ليسكتن فلا يقصصن ما وقع على رجال الأسرة وأزواج هؤلاء النسوة، وبذلك يشيع هذا الحدث وتعلم به مكة وغير مكة؟ بل هل من المعقول أن تصمت آمنة فلا تحدث صغيرها المبارك الذى شع النور منها بسبب ولادته عن هذا النور ومغزاه بالنسبة له وأنه سوف يكون له شأن، وأى شأن؟ ولماذا لم نسمع عبد المطلب يحدث به حفيده الذى كان يحبه حبا جما ليدخل به على قلبه السرور على الأقل؟ ولماذا لم تخبره به حاضنته أم أيمن التى كانت متعلقة به أشد التعلق؟ ونفس الشىء يقال عن عمه أبى طالب وزوجته وأبنائه وبناته. وكيف لم تشر إليه خديجة حين جاءها من الغار فزعا يرتعد قائلا: "زمِّلونى زملونى"، واكتفت بذكر فضائله النفسية والخلقية، وكانت هذه فرصة عظيمة لتدخل بهذه القصة على قلبه الطمأنينة والسكينة؟ ثم لقد أنكر النبى أن يكون كسوف الشمس يوم ممات ابنه إبراهيم آية يعضده الله بها ويعلن وقوفه معه فى هذا الموقف العصيب الصعيب، وأكد أن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته لأنهما يجريان على نظام معين لا يخرجان عنه. فبنفس هذا المنطق المحمدى العلمى الكريم ننظر إلى روايتنا هذه فنقول إن النور له مصادره من الشمس والقمر والنيران ونحو ذلك، ولا يمكن أن يصدر من امرأة عند ولادتها لأن هذا خروج على نظام الكون الذى أرساه الله منذ بداية الخليقة. ولو افترضنا أن النور هنا مجرد رمز على الهداية التى سوف يهدى بها رسول الله الناس حين ينزل عليه الوحى فلماذا يقتصر النور على بصرى بالذات فى حين أن هداية النبى هى للبشر جميعا، وبلغت كل مكان على وجه البسيطة؟ كذلك لا بد من التنبيه إلى الحديث التالى: "عن أبى هريرة: لا تَقُومُ السّاعَةُ حتّى تَخْرُجَ نارٌ مِن أرْضِ الحِجازِ تُضِيء أعْناقَ الإبِلِ بِبُصْرى". والحديثان يكادان أن يكونا شيئا واحدا كما نرى معنى ولفظا سوى أن هذا سوف يحدث بينما الأول قد حدث، وهذا نار، وذاك نور.

ولا ينبغى أن يغيب عنا قول آمنة: "حَمَلْتُ به فلم أحِمِلْ حَمْلًا قطُّ كان أخَفَّ علَى ولا أعظَمَ بركةً منه" وما فيه من لامعقولية، إذ إنها لم تحمل بغيره لا من قبل ولا من بعد، فقد كان محمد هو طفلها

الوحيد، وقد ماتت بعد ولادته بسنوات قلائل وخلَّفته كما هو وحيدا، إذ مات أبوه، ومحمد فى بطنها، ولم تتزوج بعد موت زوجها. كما لا يصح أن نمر بقسمها الذى تقول فيه: "والذى نفس حليمة بيده" مرور الكرام دون أن يلفتنا أنه قسم إسلامى كان النبى كثيرا ما يستعمله فيقول: "والذى نفسى/ نفس محمد بيده..."، ولم يكن المشركون يعرفونه.

ثم كيف يتمشى ذلك النور الذى يدل على كرامة آمنة عند ربها مع الحديث التالى: "عن أبى هريرة: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّى أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّى، فَلَمْ يَأْذَنْ لِى، واسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَها، فأذِنَ لِى"، "عن بريدة بن الحصيب الأسلمى: كنّا معَ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فنزل ونحن معَه قريبٌ من ألفِ راكبٍ، فصلّى ركعتينِ ثم أقبل علينا بوجهِه وعيناه تذرفانِ، فقام إليه عمرُ بنُ الخطابِ ففدَّاه بالأمِّ والأبِ يقولُ: يا رسولَ اللهِ، ما لك؟ قال: إنى سألتُ ربِّى عزَّ وجلَّ فى الاستغفارِ لأمِّى، فلم يأذنْ لى، فدمعت عيناى رحمةً لها من النارِ"؟ ترى هل يعقل أن تذهب من يصدر عنها هذا النور إلى النار؟ كيف يا إلهى؟ لا بد أن يكون أحد الحديثين أو كلاهما غير صحيح. وأنا أميل إلى أنهما جميعا غير صحيحين. وقد بينت لماذا لا يمكن أن يكون الحديث الأول صحيحا. وأما هذا الحديث الأخير فكيف تذهب أم الرسول إلى النار، ولم نسمع أنها ظلمت أحدا أو شربت الخمر أو ارتكبت ما يشين أو كانت مشركة؟ ثم كيف تذهب إلى النار وهى من أهل الفترة؟ ألم يقل سبحانه: "وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا"؟ فكيف يعذبها الله ولم يأتها رسول من عنده تعالى؟ ولو كان حدث هذا فعلا فهل يكتفى النبى عليه السلام بالحزن على أمه والبكاء شفقة عليها مرة واحدة يتيمة ثم ينسى الموضوع برمته ولا يذكره ولا يذكرها بعد ذلك قط؟ ألا إن هذا لعجيب!

ومن الأحاديث المكية هناك هذا الحديث الخاص ببداية الوحى: "عن عائشة: أوَّلُ ما بُدئَ به رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم منَ الوَحْى الرُّؤْيا الصّادِقةُ فى النَّومِ. كان لا يَرى رُؤْيا إلّا جاءَتْه مِثلَ فَلَقِ الصُّبحِ. ثمَّ حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، فكانَ يأْتى جبَلَ حِراءٍ فيَتَحنَّثُ (وهو التَّعبُّدُ) حتّى فاجأَهُ الحقُّ وهو فى غارِ حِراءٍ، فجاءَه الملَكُ فيه فقالَ: اقرَأْ. قالَ: فقلْتُ: ما أنا بقارئٍ. قالَ: فأخَذَنى فغَطَّنى حتّى بلَغَ منِّى الجَهدَ ثمَّ أرسَلَنى، فقالَ لى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ" (العلق/ ١-٥). قالَ: فرجَعَ بها تَرجُفُ بَوادِرُه حتّى دخَلَ على خَديجَةَ فقالَ: زَمِّلونى زَمِّلونى.فزَمَّلوه حتّى ذهَبَ عنه الرَّوعُ، فقالَ: يا خَديجةُ، ما لى؟ فأخْبَرَها الخَبَرَ وقالَ: قد خَشِيتُ على.فقالَتْ له: كلّا. أبشِرْ، فواللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أبدًا. إنَّكَ لتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ فى الحَديثِ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِى الضَّيفَ، وتُعِينُ على نَوائبِ الحقِّ. ثمَّ انطلَقَتْ به خَديجةُ حتّى أتَتْ به وَرَقةَ بنَ نَوفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عَبدِ العُزّى بنِ قُصَى، وهو عمُّ خَديجةَ أخو أبيها، وكانَ امْرًا تَنصَّرَ فى الجاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكتُبُ العَربيَّةَ ويَكتُبُ بالعَربيَّةِ منَ الإنْجيلِ ما شاءَ اللهُ أنْ يَكتُبَ، وكانَ شَيخًا كَبيرًا قد عَمِى.قالَتْ خَديجةُ: أى عمُّ، اسمَعْ منَ ابنِ أخيكَ. قالَ وَرَقةُ بنُ نَوفَلٍ: يا ابنَ أخى، ماذا تَرى؟ فأخبَرَه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم خبَرَ ما رَأى، فقالَ وَرَقةُ: هذا النّاموسُ الَّذى أُنزِلَ على موسى صلَّى الله عليه وسلَّم".

ثم هاتان الروايتان الخاصتان بأكل ما ذبح على النُّصُب قبل الإسلام: "عن عبد الله بن عمر: أنَّه (أى رسول الله) لَقى زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَح، وذلك قَبلَ أنْ يَنْزِلَ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم الوَحْى، فقَدَّمَ إليه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم سُفْرَةً فيها لَحْمٌ، فأبى أنْ يَأْكُلَ منها، وقال: إنِّى لا آكُلُ مِمّا تَذبَحونَ على أنْصابِكم، ولا آكُلُ إلّا مِمّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه. وحدَّثَ هذا عبدُ اللهِ عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم"، "عن عبد الله بن عمر: أنَّ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم لَقِى زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ بأَسْفَلِ بَلْدَح قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ على النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم الوَحْى، فَقُدِّمَتْ إلى النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم سُفْرَةٌ، فأبى أنْ يَأْكُلَ منها، ثُمَّ قالَ زَيْدٌ: إنِّى لَسْتُ آكُلُ مما تَذْبَحُونَ على أنْصابِكُمْ ولا آكُلُ إلّا ما ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عليه، وأنَّ زَيْدَ بنَ عَمْرٍو كانَ يَعِيبُ على قُرَيْشٍ ذَبائِحَهُمْ، ويقولُ: الشّاةُ خَلَقَها اللَّهُ، وأَنْزَلَ لَها مِنَ السَّماءِ الماءَ، وأَنْبَتَ لَها مِنَ الأرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَها على غيرِ اسْمِ اللَّهِ؟ إنْكارًا لِذلكَ وإعْظامًا له".

وواضح أن زيد بن عمرو بن نفيل كان مشهورا بموقفه من الذبائح التى تذبح للأوثان على النصب، ولا أظن النبى كان يغيب عنه هذا كى يقدم له اللحم الذى كان يرفض الأكل منه ويعلن الأسباب التى يستند إليها فى ذلك الرفض. وفى "سيرة ابن إسحاق" أن عمات الرسول، أو "بنات أبى طالب" بالنص، كن يعلمن هذا عن زيد، فكيف جهله النبى عليه السلام؟ وهنا يحق لى أن أقف مستغربا أن يذكر زيد بن عمرو بن نفيل بنات أبى طالب ولا يذكر أبناءه، الذين هم أعمام الرسول: العباس وحمزة وأبا طالب وأبا لهب والحارث... بل لقد كان زيد بن عمرو بن نفيل مخالفا لقومه فى كل ما يعتقدون ويعبدون ويسلكون: "عن أسماء بنت أبى بكر: لقد رأيتُ زيدَ بنَ عمرو بنِ نفيلٍ قائمًا مسندًا ظَهْرَهُ إلى الكعبةِ يقولُ: يا معشرَ قريشٍ، واللَّهِ ما منْكُمْ أحدٌ على دينِ إبراهيمَ غيرى.وَكانَ يُحْيِى الموءودةَ. يقولُ للرَّجلِ إذا أراد أن يقتُلَ ابنتَهُ: مَهْ! لا تقتُلْها. أنا أكْفيكَ مؤونتَها. فيأخذها، فإذا ترعرعت قالَ لأبيها: إن شئتَ دفعتُها إليْكَ، وإن شئتَ كَفَيْتُكَ مؤونتَها". فكيف ينسى النبى هذا كله ويقدم له اللحم المذبوح على النصب؟ كما أن إحدى الروايتين تذكر أن اللحم كان مع النبى منذ البداية فقدَّم منه لزيد، فى حين تقول الرواية الأخرى إن اللحم قد قُدِّم للنبى فلم يأكله وعرضه على زيد، ولا أظن النبى يفعل ذلك وهو يعلم كسائر القرشيين موقف زيد من الأوثان وما يُذْبَح من الحيوان لها. وعلى أية حال فإن الروايتين تخلوان خلوا تاما من أى شىء يشير إلى أن اللحم كان مذبوحا للأوثان. إنما هو ظن ظنه زيد. كذلك لو كان هذا الحديث صحيحا لرأينا الصحابة يسألونه: كيف كان يأكل من ذبائح الأوثان، وهو النبى الذى أتى بعد ذلك بتحريمها تحريما باتا؟ إنه فضول طبيعى، ومع هذا لم نسمع أن أحدا من أتباعه قد استفسر منه هذا الاستفسار، وبخاصة أنه قد أثنى على زيد لعدم أكله من طعام النصب والأوثان. ليس هذا فحسب بل لا أظن أن المشركين، حين جاءهم بحرمة هذا الطعام، كانوا ليهملوا الفرصة السانحة ولا يتخذوا من تصرفه هذا بابا من أبواب الشغب عليه والسَّخَر منه، إذ كيف كان ينهج قبلا نهجهم فى الأوثان والأكل من ذبائح أنصابها ثم يستدير فيحرمها عليهم ويشتد فى هذا أيما اشتداد ناسيا أو متجاهلا أنه كان مثلهم تماما؟

وفوق ذلك فنحن المؤمنين بأنه صلَّى الله عليه وسلَّم نبى رسول من عند الله لا نتصور أن يختار الله لرسالته إنسانا كان يتصرف كما يتصرف المشركون الوثنيون، إذ الله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يمكن أن يختار للنبوة رجلا ليس على مستواها. ولقد كان الرسول قبل الإسلام يتحنث فى غار حراء، ومعناه أنه كان يبحث عن الطريق المستقيم الذى ينبغى أن يسير فيه ويلتزمه، فلا يعقل من ثم أن يجرى فى طعامه فى ذلك الحين على سنة الشرك والوثنية.

وعندنا كذلك من أحاديث مكة الحديث التالى، وهو عن اضطهاد أبى لهب للرسول عليه الصلاة والسلام من أجل الدعوة الجديدة التى أتى بها: "عن طارق بن عبد الله المحاربى: رأيتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَمُرُّ فى سوقِ ذى المَجازِ وعليهِ حلَّةٌ حمراءُ، وَهوَ يقولُ: "أيُّها النّاسُ، قولوا: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ تُفلِحوا"، ورجلٌ يَتَّبَعُهُ ويَرْميهِ بالحجارةِ، وقد أدمى كعبَهُ وعُرقوبَهُ، وَهوَ يقولُ: يا أيُّها النّاسُ، لا تُطيعوهُ، فإنَّهُ كذّابٌ. فقُلتُ: مَن هذا؟ فَقالوا: إنه غلامُ بَنى عبدِ المطَّلِبِ. فقُلتُ: مَن هذا الَّذى يتَّبعُهُ ويرميهِ بالحِجارةِ؟ فقالوا: عَبدُ العُزّى أبو لَهبٍ".

ثم هذا الحديث أيضا، وهو يختص بنزول سورة "النجم" والزعم بأنه صلَّى الله عليه وسلَّم قد مدح اللات والعزى ومناة أثناء قراءتها: "عن عبد الله بن عباس: أنَّ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم كانَ بمكةَ فقرأَ سورةَ "النَّجم" حتّى انتهى إلى "أَفَرَأَيْتُمْ اللّاتَ وَ العُزّى * وَ مَناةَ الثّالِثَةَ الأُخْرى"، فجرى على لسانِهِ "تِلْكَ الغرانيقُ العُلَى * الشَّفاعةُ منهم تُرْتَجَى"، قالَ: فسمعَ ذلِكَ مشركُو أهلِ مكةَ فسُرُّوا بذلِكَ، فاشتدَّ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأنزلَ اللهُ تعالى: "وَما أَرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَ لا نَبِى إِلّا إذا تَمَنّى أَلْقى الشَّيْطانُ فى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِى الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ" (العيني- ت ٨٥٥، عمدة القارى ١٤٥/٧ • الحديث، وإن كان رجاله ثقات فإن الراوى شك فيه كما أخبر عن نفسه: فإما شك فى رفعه فيكون موقوفًا، أو فى وصله فيكون مرسلًا).

ومعنى هذا، طبقا لذلك الحديث، أن سورة "النجم" كانت تحتوى فى البداية على آيتين تمدحان الأصنام الثلاثة: "اللات والعُزَّى ومَنَاة"، ثم حُذِفتا منها فيما بعد، إذ كان النبى محمد عليه الصلاة والسلام، فيما قيل، يتمنى أن يصالح القرشيين حتى يكسبهم إلى صفه بدلا من استمرارهم فى عداوتهم لدعوته وإيذائهم له ولأتباعه، ومن ثَمَّ أقدم سهوا على تضمين سورة "النجم" تَيْنِك الآيتين عقب قوله تعالى: "أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى؟" على النحو التالى: "إنهنّ الغرانيق العُلَا * وإن شفاعتهن لَتُرْتجَى/ الشفاعة منهم ترتجى"، أو دسهما الشيطان فى تلاوته وهو لا يشعر. والواقع أن أقل نظرة فى سورة "النجم" أو فى سيرة حياته صلَّى الله عليه وسلَّم كافية للقطع بأن تلك القصة لا يمكن أن تكون قد حدثت على هذا النحو الذى اخترعه بعض الزنادقة قديما، ثم أخذ أعداء الإسلام يرددونها منذئذ!

وقد تناول عدد من علماء المسلمين فى القديم والحديث الروايات التى تتعلق بهاتين الآيتين المزعومتين وبينوا أنها لا تتمتع بأية مصداقية. والحقيقة إن النظر فى سورة "النجم" ليؤكد هذا الحكم الذى توصل إليه أولئك العلماء. فهذه السورة من أولها إلى آخرها عبارة عن حملة مدمدمة على المشركين وما

يعبدون من أصنام بحيث لا يُعْقَل إمكان احتوائها على هاتين الآيتين المزعومتين، وإلا فكيف يمكن أن يتجاور فيها الذمُّ العنيف للأوثان والمدحُ الشديد لها؟ ترى هل يمكن تصوُّر انخراط شخص فى فاصل من التقريظ لشخص آخر لينتقل بعدها مباشرة لسبه وإهانته؟ ترى هل يُعْقَل ابتلاعُ العرب مثل هاتين الآيتين اللتين تمدحان آلهتهم، وهم يسمعون عقيب ذلك قوله تعالى: "ألكم الذَّكَر وله الأنثى؟ * تلك إذن قسمةٌ ضِيزَى * إنْ هى إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إنْ تتَّبِعون إلا الظن وما تَهْوَى الأنفس. ولقد جاءهم من ربهم الهدى"؟ إن هذا أمر لا يمكن تصوره!

كما أن وقائع حياته صلَّى الله عليه وسلَّم تجعلنا نستبعد تمام الاستبعاد أن تكون عزيمته قد ضعفت يوما، فقد كان مثال الصبر والإيمان بنصرة ربه له ولدعوته. ومواقفه من الكفار طوال ثلاثة وعشرين عاما وعدم استجابته فى مكة لوساطة عمه بينه وبينهم رغم ما كان يشعر به من حب واحترام عميق نحوه، ورغم الإيذاء الرهيب الذى كان يتعرض له هو وأتباعه، وكذلك رفضه لما عرضوه عليه من المال والرئاسة، هى أقوى برهان على أنه ليس ذلك الشخص الذى يمكن أن يقع فى هذا الضعف والتخاذل!

وقد أضفتُ طريقةً جديدةً للتحقق من أمر هاتين الآيتين هى الطريقة الأسلوبية، إذ نظرتُ فى الآيتين المذكورتين لأرى مدى مشابهتهما لسائر آيات القرآن فوجدت أنهما لا تمتان إليها بأية صلةٍ. ذلك أن الآيتين المزعومتين تجعلان الأصنام الثلاثة مناطا للشفاعة يوم القيامة دون تعليقها على إذن الله، وهو ما لم يسنده القرآن فى أى موضع منه إلى أى كائن مهما تكن منزلته عنده سبحانه. ولن نذهب بعيدا للاستشهاد على ما نقول، فبعد هاتين الآيتين بخمس آيات فقط نقرأ قوله تعالى: "وكم مِنْ مَلَكٍ فى السماوات لا تُغْنِى شفاعتُهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويَرْضَى". فكيف يقال هذا عن الملائكة فى ذات الوقت الذى تؤكد إحدى الآيتين المزعومتين أن شفاعة الأصنام الثلاثة جديرة بالرجاء من غير تعليق لها على إذن الله؟

ثم إنه قد ورد فى الآية الثانية من آيتى الغرانيق كلمة "تُرْتَجَى"، وهى أيضا غريبة على الأسلوب القرآنى، إذ ليس فى القرآن المجيد أى فعل من مادة "ر ج و" على صيغة "افتعل". أما ما جاء فى إحدى الروايات من أن نص الآية هو: "وإنّ شفاعتهن لتُرْتَضَى"، فالرد عليه هو أن هذا الفعل بهذه الصيغة، وإن ورد فى القرآن ثلاث مرات، لم يقع فى أى منها على "الشفاعة"، وإنما تُسْتَخْدَم مع الشفاعة عادةً الأفعال التالية: "تنفع، تُغْنِى، يملك".

كذلك بدأتْ مجموعةُ الآيات التى تتحدث عن اللات والعُزَّى ومناة بقوله عَزَّ شأنُه: "أ(فـ)ـرأيتم...؟"، وهذا التركيب قد ورد فى القرآن إحدى وعشرين مرة كلها فى مخاصمة الكفار والتهكم العنيف بهم كما فى الشواهد التالية: "قل: أرأيتم إن أتاكم عذابُه بَيَاتًا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون؟"، "قل: أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتم منه حلالا وحراما، قل: آللهُ أَذِنَ لكم أم على الله تفترون؟"، "قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشَهِد شاهدٌ من بنى إسرائيل على مِثلِهِ فآمن واستكبرتم؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين"، "أفرأيتم الماء الذى تشربون؟ * أأنتم أنزلتموه من

المُزْن أم نحن المُنْزِلون؟ * لو نشاء جعلناه أُجَاجًا، فلولا تشكرون"... فكيف يمكن إذن أن يجىء هذا التركيب فى سورة "النجم" بالذات فى سياق ملاطفة الكفار ومراضاتهم بمدح آلهتهم؟ وفوق هذا لم يحدث أن أُضيفت كلمة "شفاعة" فى القرآن الكريم (فى حال مجيئها مضافة إلى ضمير) إلا إلى الضمير "هم" على خلاف ما أتت عليه فى آيتى الغرانيق من إضافتها إلى الضمير "هنّ".

وفضلا عن ذلك فتركيب الآية الأولى من الآيتين المزعومتين يتكون من "إنّ (وهى مؤكِّدة كما نعرف) + ضمير (اسمها) + اسم معرّف بالألف واللام (خبرها)". وهذا التركيب لم يُسْتَعْمَل لـ"ذاتٍ عاقلةٍ" فى أى من المواضع التى ورد فيها فى القرآن الكريم (وهى تبلغ العشرات) دون تأكيد اسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله كما فى الأمثلة التالية: "ألا إنهم هم المفسدون/ ألا إنهم هم السفهاء/ إنه هو التواب الرحيم/ إنك أنت السميع العليم/ إنك أنت التواب الرحيم/ إنه هو السميع العليم/ إنه هو العليم الحكيم/ إنه هو الغفور الرحيم/ إنى أنا النذير المبين/ إنه هو السميع البصير/ إننى أنا الله/ إنك أنت الأعلى/ إنا لنحن الغالبون/ إنه هو العزيز الحكيم/ وإنا لنحن الصافّون/ وإنا لنحن المسبِّحون/ إنهم لهم المنصورون/ إنك أنت الوهاب/ إنه هو السميع البصير/ إنه هو العزيز الرحيم/ إنك أنت العزيز الكريم/ إنه هو الحكيم العليم/ إنه هو البَرُّ الرحيم/ ألا إنهم هم الكاذبون/ فإن الله هو الغنى الحميد". أما فى المرة الوحيدة التى ورد التركيب المذكور دون تأكيد اسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله (وذلك فى قوله تعالى: "إنه الحق من ربك") فلم يكن الضمير عائدا على ذات عاقلة. وعلى ذلك فإن التركيب فى أُولَى آيَتَىِ الغرانيق هو أيضا تركيب غريب على أسلوب القرآن الكريم.

مما سبق يتأكد لنا على نحوٍ قاطعٍ أن الآيتين المذكورتين ليستا من القرآن، وليس القرآن منهما، فى قليل أو كثير. بل إنى لأستبعد أن تكون كلمة "الغرانيق" قد وردت فى أى من الأحاديث التى قالها النبى عليه الصلاة والسلام. وينبغى أن نضيف إلى ما مرّ أن كُتُب الصحاح لم يرد فيها أى ذكر لهذه الرواية، ومثلها فى ذلك ما كتبه ابن هشام مثلا فى السيرة النبوية.

ولقد قرأت فى كتاب "الأصنام" لابن الكلبى أن المشركين كانوا يرددون هاتين العبارتين فى الجاهلية تعظيما للأصنام الثلاثة، ومن ثَمَّ فإنى لا أستبعد ما طرحه الكاتب الهندى سيد أمير على فى كتابه: "The Spirit of Islam" من تفسير لما يمكن أن يكون قد حدث بناءً على ما ورد من روايات فى هذا الموضوع، إذ يرى أن النبى، عندما كان يقرأ سورة "النجم"، وبلغ الآيات التى تهاجم الأصنام الثلاثة، توقَّع بعض المشركين ما سيأتى بعد ذلك فسارع إلى ترديد هاتين العبارتين فى محاولة لصرف مسار الحديث إلى المدح بدلا من الذم والتوبيخ. وقد كان الكفار فى كثير من الأحيان إذا سمعوا القرآن أحدثوا لَغْطًا ولَغْوًا كى يصرفوا الحاضرين عما تقوله آياته الكريمة كما تقول الآية السادسة والعشرون من سورة "فُصِّلَتْ". فهذا الذى يقوله الكاتب الهندى هو من ذلك الباب.

ومع هذا فثم روايات صحيحة الإسناد تقول إن ذلك قد حدث. وأنا، لو انطبقت السماء على الأرض، لا أصدق بصحة هذا الكلام بعد كل تلك التحليلات والتدقيقات المتنوعة التى قمت بها، وإلا فلنلق عقولنا وبحوثنا التاريخية واللغوية والبلاغية فى أقرب مقلب قمامة. ولا يصح أن ننسى أن صحة

إسناد الحديث لا ينبغى أن يعنى بالضرورة صحة متنه. وهاتان روايتان من تلك الروايات المتعلقة بالغرانيق الصحيحة الإسناد: "عن عبد الله بن عباس: أنَّ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم كانَ بِمَكةَ فقرأَ سورةَ "والنَّجْمِ" حتى انتهى إلى "أَفَرَأَيْتُمُ اللاّتَ والْعُزّى * وَمَناةَ الثّالِثَةَ الأُخْرى" فجرى على لسانِه "تِلْكَ الغَرانيقُ العُلى * الشفاعةُ منهم تُرْتَجى". قال: فسمِعَ بِذَلِكَ مشركو أهلِ مكةَ فسُرُّوا بذلِكَ، فاشتَدَّ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأنزل اللهُ تباركَ وتعالى "وَما أَرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِى إِلّا إِذا تَمَنّى أَلْقى الشَّيْطانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ ما يُلْقِى الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ... إلى قولِهِ: عَذابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ"، يومُ بدرٍ" (الهيثمي- ت ٨٠٧، مجمع الزوائد ١١٨/٧ • رجاله رجال الصحيح). "عن أبى العالية: قالَ المشركونَ لرسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: لو ذكرتَ آلهتَنا فى قولِكَ قعَدنا معكَ، فإنَّهُ ليسَ معكَ إلا أراذِلُ النّاسِ وضعفاؤهُم، فكانوا إذا رأَونا عندَكَ تحدَّث النّاسُ بذلكَ فأتوكَ، فقام يصلِّى فقرأَ "والنَّجْمِ" حتى بلغ "أَفَرَأَيْتُمُ اللاّتَ والْعُزّى * وَمَناةَ الثّالِثَةَ الأُخْرى * تلكَ الغَرانيقُ العُلى * وشفاعتُهُنَّ تُرتَجى * ومثلُهُنَّ لا يُنسى" فلما فرغَ من ختمِ السُّورَةِ سجدَ وسجدَ المسلِمونَ والمشرِكونَ، فبلغ الحبشَةَ أنَّ النّاسَ قد أسلَموا، فشقَّ ذلكَ على النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم فأنزلَ اللَّهُ: وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ... إلى قولِهِ: عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ" (السيوطي- ت ٩١١، الدر المنثور ٥١٤/١٠ • إسناده صحيح).

ومن الأحاديث الخاصة بالمرحلة المكية كذلك حديث الإسراء والمعراج: "عن أنس بن مالك: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: أُتِيتُ بالبُراقِ، وهو دابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الحِمارِ ودُونَ البَغْلِ، يَضَعُ حافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهى طَرْفِهِ. قالَ: فَرَكِبْتُهُ حتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ. قالَ: فَرَبَطْتُهُ بالحَلْقَةِ الَّتى يَرْبِطُ به الأنْبِياءُ. قالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجاءَنِى جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ بإناءٍ مِن خَمْرٍ وإناءٍ مِن لَبَنٍ، فاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فقالَ جِبْرِيلُ صلَّى الله عليه وسلَّم: "اخْتَرْتَ الفِطْرَةَ"، ثُمَّ عُرِجَ بنا إلى السَّماءِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فقِيلَ: مَنَ أنْتَ؟ قالَ: جِبْرِيلُ. قيلَ: ومَنْ معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ. قيلَ: وقدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قالَ: قدْ بُعِثَ إلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنا، فإذا أنا بآدَمَ، فَرَحَّبَ بِى ودَعا لى بخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إلى السَّماءِ الثَّانِيَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ، فقِيلَ: مَنَ أنْتَ؟ قالَ: جِبْرِيلُ. قيلَ: ومَنْ معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ. قيلَ: وقدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قالَ: قدْ بُعِثَ إلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنا، فإذا أنا بابْنَى الخالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ويَحْيَى بنِ زَكَرِيّا صَلَواتُ اللهِ عليهما، فَرَحَّبا ودَعَوا لى بخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِى إلى السَّماءِ الثّالِثَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فقِيلَ: مَنَ أنْتَ؟ قالَ: جِبْرِيلُ. قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. قيلَ: وقدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قالَ: قدْ بُعِثَ إلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنا، فإذا أنا بيُوسُفَ صلَّى الله عليه وسلَّم، إذا هو قدْ أُعْطِى شَطْرَ الحُسْنِ، فَرَحَّبَ ودَعا لى بخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إلى السَّماءِ الرَّابِعَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ. قيلَ: مَنْ هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ. قيلَ: ومَنْ معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ. قالَ: وقدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قالَ: قدْ بُعِثَ إلَيْهِ. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بإدْرِيسَ، فَرَحَّبَ ودَعا لى بخَيْرٍ. قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: "وَرَفَعْناهُ مَكانًا عَلِيًّا" (مريم/ ٥٧)، ثُمَّ عُرِجَ بنا إلى السَّماءِ الخامِسَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قيلَ: مَنْ هذا؟ فقالَ: جِبْرِيلُ. قيلَ: ومَنْ معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ. قيلَ: وقدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قالَ: قدْ بُعِثَ إلَيْهِ. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بهارُونَ صلَّى الله عليه وسلَّم، فَرَحَّبَ ودَعا لى بخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إلى السَّماءِ السَّادِسَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ. قيلَ: مَن هذا؟

قالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنا، فإذا أنا بِمُوسَى صلَّى الله عليه وسلَّم، فَرَحَّبَ ودَعا لِى بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إلى السَّماءِ السَّابِعَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فقِيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: ومَنْ معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. قِيلَ: وقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بإِبْراهِيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إلى البَيْتِ المَعْمُورِ، وإذا هو يَدْخُلُهُ كُلَّ يومٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِى إلى السِّدْرَةِ المُنْتَهَى، وإذا ورَقُها كآذانِ الفِيَلَةِ، وإذا ثَمَرُها كالْقِلالِ. قالَ: فَلَمَّا غَشِيَها مِن أَمْرِ اللهِ ما غَشِى تَغَيَّرَتْ، فَما أَحَدٌ مِن خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَها مِن حُسْنِها. فأَوْحَى اللّهُ إِلَى ما أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَى خَمْسِينَ صَلاةً فى كُلِّ يومٍ ولَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إلى مُوسَى صلَّى الله عليه وسلَّم، فقالَ: ما فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلتُ: خَمْسِينَ صَلاةً. قالَ: ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فإنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذلكَ، فإِنِّى قَدْ بَلَوْتُ بَنِى إسْرائِيلَ وخَبَرْتُهُمْ. قالَ: فَرَجَعْتُ إلى رَبِّى فَقُلْتُ: يا رَبِّ، خَفِّفْ على أُمَّتِى.فَحطَّ عَنِّى خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إلى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّى خَمْسًا. قالَ: إنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذلكَ، فارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. قالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بيْنَ رَبِّى تبارَكَ وتَعالَى وبيْنَ مُوسَى عليه السَّلامُ حتَّى قالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَواتٍ كُلَّ يومٍ ولَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ، فَذلكَ خَمْسُونَ صَلاةً. ومَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ له حَسَنَةً، فإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ له عَشْرًا. ومَن هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها لَمْ تُكْتَبْ شيئًا، فإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ سَيِّئَةً واحِدَةً. قالَ: فَنَزَلْتُ حتَّى انْتَهَيْتُ إلى مُوسَى صلَّى الله عليه وسلَّم فأخْبَرْتُهُ، فقالَ: ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فقالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إلى رَبِّى حتَّى اسْتَحْيَيْتُ منه".

ثم هذا حديث عن الهجرة وكيفية استعداد أبى بكر لها ليكون فى معية الرسول عليه السلام:

"عن عائشة أم المؤمنين: لم أَعْقِلْ أبوَى قطُّ إلَّا وهما يَدينانِ الدِّينَ. لم يمُرَّ علينا يومٌ إلَّا يأتينا فيه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم طرَفَى النَّهارِ بُكرَةً وعَشيًّا. فلمَّا ابتُلى المُسلمونَ خرَج أبو بكرٍ رضوانُ اللهِ عليه مُهاجِرًا قِبَلَ أرضِ الحبشةِ، فلقِيَه ابنُ الدَّغِنَةِ سيِّدُ القارَةِ فقال: أين يا أبا بكرٍ؟ قال: أخرَجَنى قومى، فأَسيحُ فى الأرضِ وأعبُدُ ربِّى.فقال له ابنُ الدَّغِنَةِ: إنَّ مِثْلَك يا أبا بكرٍ لا يَخْرُجُ ولا يُخرَجُ. إنَّك تُكْسِبُ المَعدومَ وتَصِلُ الرَّحِمَ وتَقْرِى الضَّيفَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ، وأنا لك جارٌ. فارتحَل ابنُ الدَّغِنَةِ، ورجَع أبو بكرٍ معه، فقال لهم وطاف فى كفَّارِ قُريشٍ: إنَّ أبا بكرٍ لا يَخْرُجُ ولا يُخرَجُ مِثْلُه. إنَّه يُكسِبُ المَعْدومَ ويَصِلُ الرَّحِمَ ويحمِلُ الكَلَّ ويَقرى الضَّيفَ ويُعينُ على نوائبِ الحقِّ. فأنفَذَتْ قُريشٌ جِوارَ ابنِ الدَّغِنَةِ فأمَّنوا أبا بكرٍ، وقالوا لابنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أبا بكرٍ أنْ يعبُدَ ربَّه فى دارِه ويُصَلِّى ما شاء ويقرَأَ ما شاء ولا يؤذِينا ولا يَسْتَعْلِنَ بالصَّلاةِ والقراءةِ فى غيرِ دارِه. ففعَل أبو بكرٍ رضِى اللهُ عنه ذلك، ثمَّ بدا لأبى بكرٍ فابتَنى مسجدًا بفِناءِ دارِه فكان يُصَلِّى فيه ويقرَأُ القُرآنَ، فيقِفُ عليه نساءُ المُشرِكينَ وأبناؤُهم فيعجَبون منه وينظُرون إليه. وكان أبو بكرٍ رضِى اللهُ عنه رجُلًا بكَّاءً لا يملِكُ دمعَه إذا قرَأ القرآنَ، فأرسَلوا إلى ابنِ الدَّغِنَةِ، فقدِم عليهم، فقالوا: إنَّما أجَرْنا أبا بكرٍ أنْ يعبُدَ ربَّه فى دارِه، وإنَّه ابتَنى مسجدًا، وإنَّه أعلَن الصَّلاةَ والقراءةَ، وإنَّا خشِينا أنْ يفتِنَ نساءَنا وأبناءَنا، فأْتِه فقُلْ له أنْ يقتصِرَ على أنْ يعبُدَ ربَّه فى دارِه. وإنْ أبى إلَّا أنْ يُعلِنَ ذلك فلْيرُدَّ علينا ذِمَّتَك، فإنَّا نكرَهُ أنْ نُخْفِرَ

ذمَّتَك، ولَسْنا بمُقرِّينَ لأبى بكرٍ الاستعلانَ. فأتى ابنُ الدَّغِنَةِ أبا بكرٍ فقال: قد علِمْتَ الَّذى عقَدْتُ لكَ عليه. فإمَّا أنْ تقتصِرَ على ذلك وإمَّا أنْ ترجِعَ إلى ذِمَّتى، فإنِّى لا أُحِبُّ أنْ تسمَعَ العرَبُ أنِّى أُخْفِرْتُ فى عقدِ رجُلٍ عقَدْتُ له. قال أبو بكر: فإنِّى أرضى بجِوارِ اللهِ وجِوارِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم. ورسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يومَئذٍ بمكَّةَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم للمُسلِمِينَ: أُرِيتُ دارَ هجرتِكم. أُريتُ سَبَخَةً ذاتَ نخلٍ بيْنَ لابَتَيْنِ (وهما حَرَّتانِ). فهاجَر مَن هاجَر قِبَلَ المدينةِ حينَ ذكَر رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ذلك، ورجَع إلى المدينةِ بعضُ مَن كان هاجَر إلى أرضِ الحبَشةِ مِن المُسلِمِينَ، وتجهَّز أبو بكرٍ مُهاجِرًا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: على رِسْلِك يا أبا بكرٍ، فإنِّى أرجو أنْ يُؤذَنَ لى.فقال: فِداكَ أبى وأمِّى! أوَترجو ذلك؟ قال: نعم. فحَبَس أبو بكرٍ رضِى اللهُ عنه نفسَه لرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ولصحابتِه وعلَف راحلتَيْنِ كانتا له وَرَقَ السَّمُرِ أربعةَ أشهُرٍ. قال الزُّهرى: قال عُروةُ: قالت عائشةُ: إذ قائلٌ يقولُ لأبى بكرٍ: "هذا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مُقبِلًا مُتقنِّعًا" فى ساعةٍ لم يكُنْ يأتينا فيها. فقال أبو بكرٍ: فِدًى له أبى وأمِّى! إنْ جاء به هذه السَّاعةَ لَأمرٌ. فجاء رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم واستأذَن، فأذِن له، فدخَل رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: يا أبا بكرٍ، أخرِجْ مَن عندَك. فقال أبو بكرٍ رضِى اللهُ عنه: يا رسولَ اللهِ، إنَّما هم أهلُك. قال: فنَعم. قال: قد أُذِن لى.قال أبو بكرٍ: فالصُّحْبةُ بأبى أنتَ يا رسولَ اللهِ. قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: نَعَمْ. فقال أبو بكرٍ: بأبى أنتَ يا رسولَ اللهِ! فخُذْ إحدى راحلتَى هاتينِ فقال: نَعَمْ بالثَّمَنِ. قالت: فجهَّزْناهما أحَثَّ الجهازِ وصنَعْنا لهما سُفْرةً فى جِرابٍ، فقطَعَتْ أسماءُ مِن نِطاقِها وأَوْكَتْ به الجِرَابَ، فلذلك كانت تُسمَّى: "ذاتَ النِّطاقِ"، فلحِق رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى غارٍ فى جبلٍ يُقالُ له: "ثَوْرٌ"، فمكَثا فيه ثلاثَ ليالٍ".

أما فى المدينة فالأحاديث كثيرة كثرة هائلة، إذ غزرت الحوادث وتسارعت وتيرتها وتعقدت ونشبت معارك بين الإسلام من جهة وبين الشرك واليهودية والنصرانية من جهة أخرى، وجعلت التشريعات تترى، وصار النبى، إلى جانب نبوته، زعيما سياسيا، وقائدا حربيا، وقاضيا ينظر دعاوى الخصوم ويفصل بينهم، وزوجا لعدد من النساء لا لامرأة واحدة كما كان فى مكة حين لم يكن له سوى خديجة، وأقبلت الوفود على المدينة لمقابلته وإعلان إسلامها والقبول به نبيا وزعيما وقائدا، وأخذ يعقد المعاهدات بين دولته وهذه القبيلة أو تلك، كما بعث يدعو الملوك والولاة من حوله للدخول فى دين الله. ورغم أن الرسول قد حذر من الكذب عليه فلا أظن تزييف الأحاديث فى عهده صلَّى الله عليه وسلَّم كان فاشيا، إذ من السهل معرفة الصحيح من الزائف آنئذ، فالرسول موجود، وما أسرع الحصول على رأيه فيما يُشَكّ فيه من حديث. وهذا يذكّرنى بما كتبه العقاد ذات مرة من أن الرسول لو بُعِثَ الآن لاستطاع بسهولة أن ينفى ما نُسِبَ إليه مع الأيام من أحاديث كاذبة، وانتهت بذلك تلك المشكلة.

وأود هنا ألا تفوتنى الإشارة إلى أنه ليس شرطا أن يكون تعدد الروايات فى الحديث الواحد راجعا إلى رواية كل راوٍ للحديث بالمعنى، إذ قد يكون السبب فى ذلك هو أن الرسول كان يتناول الموضوع الواحد عدة مرات فى سياقات متباينة كما نصنع نحن الأساتذة الآن فى محاضراتنا حين تتقسم

الفرقة الواحدة إلى مجموعات فنحاضر كل مجموعة فى نفس الموضوعات ونكرر أثناء ذلك كثيرا مما قلناه فى المجموعات الأخرى بالمعنى لا بالنص. وحتى لو كان ذلك التعدد سببه الرواية بالمعنى فَحَرِىٌّ أن يبعثنا هذا على الاطمئنان لأننا نلمس بأنفسنا فى الأغلبية الساحقة من الروايات أن المعانى هى هى رغم اختلاف التعبير عنها. أما فى الروايات المتعارضة التى لا يمكن التوفيق بينها فهذا موضوع آخر، ولا أظن أن النبى هو الذى وقع فى هذا التناقض بل الرواة هم السبب فيه.

وإلى جانب الاطمئنان إلى تميز أسلوب القرآن عن أسلوب الحديث مما أدى إلى السماح بكتابة كلام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بعد منعها، بالإضافة إلى خوف كثير من المسلمين نسيان ما قاله النبى عليه السلام على أهميته فى فهم الدين الذى جاء به، لوحظ مع مرور الوقت فُشُوّ وضع الأحاديث على رسول الله، وهو ما ضاعف الاهتمام بتقييد سنته عليه السلام كتابة وتمييز الأحاديث الصحيحة فيها من الخطإ الذى أضيف إليها: فملاحدة ألفوا أحاديث يريدون من ورائها الإساءة إليه صلَّى الله عليه وسلَّم وإلى دينه، ورواة لا يتمتعون بضبط ولا ربط خلطوا فى رواياتهم ولو دون قصد بين ما قاله الرسول وما ظنوا أنه قاله، وأصحاب مذاهب وفرق تعصبوا لمذاهبهم الفقهية وفرقهم الكلامية وبلادهم وزعمائهم وقَوَّلُوا الرسول ما لم يقله بغية نصر مقالاتهم والتهوين من شأن مخالفيهم من أصحاب الفرق والمذاهب والبلاد الأخرى، وبعض ممن يحبون الرواج عند الحكام اخترعوا أحاديث يَنْهَوْن فيها عن مخالفة الحاكم مهما فعل، وأحاديث تثنى عليه وتعلى من شأنه، وبعض ممن يحبون للمسلمين العكوف على القرآن وتلاوته باستمرار زَيَّفوا أحاديث عن مزايا كل سورة من سور الكتاب المجيد... وهكذا حتى لقد بلغت الأحاديث المنسوبة للنبى صلَّى الله عليه وسلَّم مئات الآلاف، ولم يَنْفُذ منها عبر غربال التنقية سوى عدة آلاف ليس إلا.

ويستنتج من قوله عليه السلام: "مَنْ كذَب علَى مُتعمِّدًا فلْيتبوَّأْ مَقعَدَه مِن النّارِ" أن الكذب بدأ فى حياته صلَّى الله عليه وسلَّم، وإن كان ذلك قليلا كما سبق القول. ومن ذلك الحديثُ التالى بروايتيه: "عن عبد الله بن عمرو: أنَّ رجُلًا لبِس حُلَّةً مِثْلَ حُلَّةِ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ أتى أهلَ بيتٍ مِن المدينةِ، فقال: النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم أَمَرنى أى أهلِ بيتٍ شِئْتُ استطَعْتُ. فقالوا: عهدُنا برسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو لا يأمُرُ بالفواحشِ. قال: فأعَدُّوا له بيتًا وأرسَلوا رسولًا إلى رسولِ اللهِ، فأخبَره، فقال لأبى بكرٍ وعُمَرَ: انطلِقا إليه: فإنْ وجَدْتُماه حيًّا فاقتُلاه ثمَّ حرِّقاه بالنّارِ، وإنْ وجَدْتُماه قد كُفِيتُماه فحرِّقاه، ولا أراكما إلّا وقد كُفِيتُماه. فأتياه فوجَداه قد خرَج مِن اللَّيلِ يبولُ، فلدَغَتْه حيَّةٌ أفعى، فمات، فحرَّقاه بالنّارِ ثمَّ رجَعا إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبَراه الخبَرَ، فقال النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم: مَن كذَب علَى مُتعمِّدًا فلْيتبوَّأْ مَقعَدَه مِن النّارِ" (الطبراني- ت ٣٦٠، المعجم الأوسط ٣١٨/٢ • لم يروه عن عطاء إلا وهيب ولا عن وهيب إلا أحمد بن إسحاق تفرد به أبو طلحة). "عن عبد الله بن عمرو: أن رجلًا لبس حلةً مثلَ حلةِ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ثم أتى أهلَ بيتٍ من المدينةِ فقال: إن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم أمرنى أى أهلِ بيتٍ شئتُ استطلعتُ. فقالوا: عهدنا برسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يأمرُ بالفواحشِ. قال: فأعدُّوا له بيتًا وأرسلوا رسولًا إلى

رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبروه. فقال لأبى بكرٍ وعمرَ: انطلقا إليه: فإن وجدتماه حيًّا فاقتلاه ثم حرِّقاه بالنارِ، وإن وجدتماه ميِّتًا فقد كُفِيتُماه، ولا أراكما إلا قد كُفِيتُماه، فحَرِّقاه. فأتياه فوجداه قد خرج من الليلِ يبولُ، فلدغته حيةٌ أفعى، فمات، فحَرَّقاه بالنارِ ثم رجعا إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبراه الخبرَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: من كَذَبَ على متعمِّدًا فليتبوأْ مقعدَه من النارِ" (الهيثمي- ت ٨٠٧، مجمع الزوائد ١٥٠/١ • فيه عطاء بن السائب، وقد اختلط).

والواقع أن الإنسان ليستغرب أشد الاستغراب حين يقرأ هذا الحديث. ترى أيمكن أن يُقْدِم أحد من العرب آنذاك بهذه البساطة، حتى لو كان منافقا أو متهورا لا يعمل لما يريد عمله أى حساب، على ما أقدم عليه هذا الرجل فى المدينة حيث يعيش النبى عليه السلام، ومن ثم سوف يبلغه الخبر فى الحال بما يترتب عليه من نتائج أقلها انفضاحه بين المسلمين؟ ويزيد الأمر غرابة أن أهل البيت الذين نزل عليهم تشككوا فى كلامه تشككا شديدا وبعثوا إلى رسول الله يخبرونه بما قاله وعمله، ومع هذا ظل الرجل عندهم مطمئنا كأن شيئا لم يكن، وكل ما صنعه هو أن خرج ليبول، أى لم يخرج إلا تحت وطأة البول. ثم تنتهى الحكاية بأن أفعى تلدغه فيموت بسمها وينتهى بذلك أمره ولا نعرف اسمه ولا نسبه. وأيضا فإن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى أحاديثه لم يذكر للكاذب عليه عقوبة غير دخوله النار فى الحياة الآخرة ولم يأت على ذكر أية عقوبة له فى الدنيا. كذلك أرانى لا أحقق معنى "أى أهل بيت شئت استطلعت"، إذ ما معنى "الاستطلاع" هنا؟ وما السر فى اتجاه ذهن الأسرة المذكورة من الاستطلاع إلى الفواحش؟ ترى ما هى الفواحش التى قصدها أهل ذلك البيت؟ وكيف يمكن أن يفعلها ذلك الرجل العجيب؟

على كل حال انتشر وضع الأحاديث بعد موت النبى وظهور الفتن انتشارا واسعا: فناس وضعوا أحاديث فى حق على ترفعه رفعة عظيمة، فقابل من يتشيع لأبى بكر وعمر وعثمان ذلك باختلاق أحاديث تعلى من شأنهم. وقل مثل ذلك فى التعصب لعلى أو معاوية. وانتشرت أيضا أحاديث تمدح العرب، وأخرى تمدح الفرس وتقلل من شأن العرب. وهناك أحاديث موضوعة لتعلية مكانة هذه القبيلة أو تلك. وهناك أحاديث وضعت للحث على الفضائل والتحفيز لعمل أهل الجنة والتحذير من الوقوع فى النار. وثم أحاديث تنحاز لهذا المذهب الكلامى أو الفقهى أو ذاك... إلخ. وقد كان رد فعل علماء الحديث أن اهتموا بسندها، أى برواتها ومدى تمتعهم بالفضائل الخلقية والعقيدية والنفسية والعقلية التى تكفل صحة ما يروون من أحاديث. وترتب على هذا ظهور كتب ما يسمى بـ"الجرح والتعديل"، وهى الكتب التى تبحث فى مدى أهلية الراوى للتصديق أو استحقاقه للتكذيب حسب عقيدته وخلقه وذاكرته. لكن لا ينبغى أن ننسى أن المعدِّلين والمجرِّحين هم بدورهم بشر من البشر يمكن أن يتأثروا بمذهبهم والفرقة الكلامية أو الجماعة السياسية التى ينتمون إليها. وقد كان الصحابة أنفسهم يطالبون نظراءهم بالدليل على صحة ما يروون من أحاديث دون أن يروا فى هذا افتئاتا على مكانة الصحبة لرسول الله عليه السلام.

وفى الحديث الذى سوف أورده الآن نقرأ أن الصحابة رضى الله عنهم لاموا واحدا منهم لأنه نقل ما قاله ابنُ أبِى أبىٍّ فى حق الرسول وأصحابه تصورا منهم أنه لم يكن دقيقا فيما نقله عن رأس النفاق... إلى أن نزل القرآن يصدِّقه: "عن زيد بن أرقم: سمِعتُ عبدَ اللهِ بنَ أُبى يقولُ: "لا تنفقوا على مَنْ عندَ رسولِ اللهِ حتّى ينفضُّوا"، فأتيتُ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبرتُه، فأتاه ابنُ أُبى فحلف أنَّه لم يقُلْ ذلك، وأتانى أصحابُ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم فلامونى، قال: فأتيتُ منزلى فنِمْتُ، قال: كأنَّه كئيبٌ، قال: فأرسل إلى النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم، أو قال: فأتيتُ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: "إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد صدَّقك وعذَّرك"، وتلا هاتيْن الآيتَيْن: "هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتّى يَنْفَضُّوا"... الآيتَيْن".

و"عن عبد الله بن عباس: جاء رجلٌ إلى عمرَ يسأَلُه، فجَعَل ينظُرُ إلى رأسِه مرَّةً وإلى رِجْلَيْهِ أخرى لِما يرى به مِن البؤسِ، فقالُ له عمرُ: كم مالُك؟ قال: أربعونَ مِن الإبِلِ. قال: فقال ابنُ عبّاسٍ: فقُلْتُ: صدَق اللهُ ورسولُه: "لو كان لابنِ آدَمَ واديانِ مِن ذهبٍ لابتغى إليهما الثّالثَ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدَمَ إلّا التُّرابُ، ويتوبُ اللهُ على مَن تاب"، قال: فقال لى عمرُ: ما تقولُ؟ قال: قُلْتُ: هكذا أقرَأنيها أُبَى بنُ كعبٍ. قال: فقُمْ بنا إليه. قال: فأتاه فقال: ما يقولُ هذا؟ قال أُبَى: هكذا أقرَأنيها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم".

و"عن محمد بن سيرين: أنَّ عمرَ استعملَ أبا هريرةَ على البَحْرَيْنِ، فقَدِمَ بعشرةِ آلافٍ، فقالَ لَه عمرُ: استأثرتَ بِهذِه الأموالِ أى عدوَّ اللَّهِ وعدوَّ كتابِهِ! فقالَ أبو هريرةَ: لستُ بعدوٍّ اللَّهِ ولا عدوَّ كتابِه، ولكِنْ عدوّ من عاداهما. فقالَ: فمِن أينَ هى لَك؟ قالَ: خيلٌ نُتِجَتْ، وغَلَّةُ رقيقةٌ، وأعطيةٌ تتابعَت على.فنظروا فوجدوهُ كما قالَ. فلمّا كانَ بعدَ ذلِك دعاهُ عمرُ ليستعمِلَه، فأبى أن يعملَ لَه، فقالَ لَه: تَكْرَه العملَ، وقد طلبَه من كانَ خيرًا منكَ؟ طلبَه يوسفُ عليه السَّلامُ. فقالَ: إنَّ يوسفَ نبى ابنُ نبى ابنِ نبى ابنِ نبى، وأنا أبو هريرةَ ابنُ أُمَيمةَ، وأخشى ثلاثًا واثنتينِ. فقالَ عمرُ: فهَلّا قلتَ: خمسةً؟ قالَ: أخشى أن أقولَ بغيرِ علمٍ، وأقضى بغيرِ حِلْمٍ، أوَ يُضْرَبَ ظَهرى، ويُنْتَزَعَ مالى، ويُشْتَمَ عِرضى".

و"عن على بن أبى طالب: شهِدتُّ عثمانَ وعليًّا، فكانَ عثمانُ ينهى عنِ العمرَةِ وأنْ يُجْمَعَ بينهما وبينَ الحجِّ، قال: وعلى يُهِلُّ بهما جميعًا. قال: فالتقَيا، فقال لَهُ عثمانُ: ما تريدُ إلّا خلافِى! قال: ما أريدُ خلافَكَ، ولكِنْ لا أدَعُ شيئًا رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يفعلُهُ لقولِ أحدٍ منَ الناسِ".

ولما روى أبو هريرة الحديث التالى: "من أصبح جنبا فلا صوم له" اعترضت عائشة عليه قائلة إن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يدركه الفجر فى رمضان وهو جُنُبٌ، فيغتسل ويصوم. وحين علم أبو هريرة باعتراض عائشة على ما قال عقَّب بقوله إنها أعلم منه، وإنه إنما أخذه من الفضل بن العباس لا من الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام.

و"عن أبى بن كعب: ما حاكَ فى صدرى منذُ أسلمتُ إلَّا أنِّى قرأتُ آيةً، وقرأَها آخرُ غيرَ قراءتى، فقلتُ: أقرأنيها رسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقالَ الآخر: أقرأنيها رسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه

وسلَّم. فأتيتُ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم فقلتُ: يا نبى اللَّهِ، أقرأتنى آيةَ كذا وَكذا. قالَ: نعم. وقالَ الآخرُ: ألم تقرئنى آيةَ كذا وَكذا؟ قالَ: نعم. إنَّ جبريلَ وميكائيلَ عليْهما السَّلامُ أتيانى، فقعدَ جبريلُ عن يمينى، وميكائيلُ عن يسارى، فقالَ جبريلُ عليْهِ السَّلامُ: اقرأ القرآنَ على حرفٍ. قالَ ميكائيلُ: "استزدْهُ استزدْهُ" حتّى بلغَ سبعةَ أحرفٍ فكلُّ حرفٍ شافٍ كافٍ".

بل إن رسول الله، حين أخبره عبد الله بن مسعود فى بدر أنه قتل أبا جهل راجعه فى ذلك ليتأكد أنه قتله فعلا، ثم لم يكتف بهذا بل ذهب معه طالبا منه أن يريه عيانا بيانا عدوَّ الله وهو مقتول: "عن عمرو بن ميمون: عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضى اللهُ عنهُ قال: لمّا كان يوم بدرٍ انتهيتُ إلى أبى جهلٍ وهو مصروعٌ فضربْتُهُ بسيفى، فما صنع شيئًا، وَنَدَرَ سَيْفُهُ، فَضَرَبْتُهُ ثم أتيتُ به النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فى يومٍ حارٍّ كأنَّما أقلّ من الأرضِ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، هذا عدوُّ اللهِ أبو جهلٍ قد قُتِلَ. فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: آللهِ لقد قُتِلَ؟ قلتُ: آللهِ لقد قُتِلَ! قال: فانْطَلِقْ بنا فَأَرِناهُ. فجاء فنظر إليهِ، فقال: هذا كان فرعون هذه الأمة".

وعلى نفس الشاكلة نراه صلَّى الله عليه وسلَّم حينما قال له أحد الصحابة بعد أن سلَّم من الصلاة إنه قد صلى بهم العصر ركعتين لم يأخذ كلامه مسلما به بل سأل بقية الصحابة الذين صَلَّوْا معه، وعندما تيقن أنه صلى ركعتين لا أربعا قام فأكمل الصلاة: "عن أبى هريرة: صَلّى لَنا رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم صَلاةَ العَصْرِ، فَسَلَّمَ فى رَكْعَتَيْنِ، فَقامَ ذُو اليَدَيْنِ فَقالَ: أَقُصِرَتِ الصَّلاةُ يا رَسولَ اللهِ أمْ نَسِيتَ؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: كُلُّ ذلكَ لَمْ يَكُنْ. فَقالَ: قدْ كانَ بَعْضُ ذلكَ يا رَسولَ اللهِ. فأقْبَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم على النّاسِ فَقالَ: أَصَدَقَ ذُو اليَدَيْنِ؟ فَقالوا: نَعَمْ يا رَسولَ اللهِ. فأتَمَّ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ما بَقِى مِنَ الصَّلاةِ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، وهو جالِسٌ، بَعْدَ التَّسْلِيمِ".

ومثله "عن عبد الله بن عمرو قال: زوَّجَنى أبى امرأةً مِن قُرَيشٍ، فلمّا دخلَتْ علَى جعَلْتُ لا أنْحاشُ لها ممّا بى مِن القوّةِ على العِبادةِ مِن الصَّومِ والصَّلاةِ، فجاء عمرُو بنُ العاصِ إلى كَنَّتِهِ حتى دخَلَ عليها فقال لها: كيف وجَدْتِ بَعْلَكِ؟ قالت: خيرُ الرِّجالِ (أَوْ كَخيْرِ البُعولةِ) مِن رجُلٍ! لم يُفتِّشْ لنا كنَفًا، ولم يَعرِفْ لنا فِراشًا. فأقبَلَ علَى فعَذَمنى وعضَّنى بلِسانِه، فقال: أنْكحتُكَ امرأةً من قُريشٍ ذاتَ حسَبٍ، فعضَلْتَها وفعلْتَ وفعلْتَ! ثُمَّ انطلَقَ إلى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فشَكانى، فأرسَلَ إلى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فأتَيْتُه، فقال لى: أتصومُ النَّهارَ؟ قُلْتُ: نعمْ. قال: وتقومُ اللَّيلَ؟ قُلْتُ: نعمْ. قال: لكِنِّى أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّى وأنامُ، وأَمَسُّ النِّساءَ. فمَنْ رغِبَ عن سُنَّتى فليس منِّى".

كذلك حينما بلغ النبىَّ اعتراضُ بعض الأنصار على طريقة توزيعه مالا على بعض المسلمين جمعهم وسألهم عما بلغه أنهم قالوه ولم يأخذ ما بلغه عنهم شيئا مسلما به لمجرد أن مَنْ رواه بعض أصحابه: "عن أنس بن مالك: لَمّا كان يَومُ حُنَينٍ، وجمَعَتْ هَوازِنُ وغَطَفانُ للنَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم جَمْعًا كثيرًا، والنَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم يومَئذٍ فى عَشَرةِ آلافٍ أو أكثَرَ مِن عَشَرةِ آلافٍ، قال: ومعه الطُّلَقاءُ، قال: فجاؤُوا بالنَّعَمِ والذُّرِّيَّةِ، فَجُعِلوا خَلْفَ ظُهورِهم، قال: فلمّا الْتَقَوْا ولّى الناسُ، قال: والنَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم يَومَئذٍ على بغلةٍ بَيضاءَ، قال: فنزَلَ وقال: إنِّى عبْدُ اللهِ ورسولُه، قال: ونادى يَومَئذٍ نِداءَين لم

يُخْلَطْ بيْنهما كلامٌ، والتفَتَ عن يمينِه فقال: أى مَعشَرَ الأنصار. قالوا: لَبَّيْك يا رسولَ اللهِ. امْشِ نحنُ معك. ثمَّ التفَتَ عن يَسارِه فقال: أى مَعشَرَ الأنصارِ. قالوا: لَبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ. نحنُ معك. ثمَّ نزَلَ بالأرضِ، والْتَقَوْا، فهزَموا وأصابوا مِنَ الغَنائمِ، فأَعْطى النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم الطُّلَقاءَ وقَسَمَ فيها، فقالت الأنصارُ: نُدْعَى عِندَ الكُرْهِ، وتُقْسَمُ الغَنيمةُ لغَيرِنا؟ فبلَغَ ذلكَ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فَجَمَعَهم، وقعَدَ فى قُبَّةٍ فقال: أى مَعشَرَ الأنصارِ، ما حديثٌ بلَغَنى عنكم؟ فسَكَتوا، ثمَّ قال: يا مَعشَرَ الأنصارِ، لو أنَّ الناسَ سَلَكوا واديًا، وسلكَتِ الأنصارُ شِعْبًا، لَأَخَذتُ شِعْبَ الأنصارِ. ثمَّ قال: أما تَرضَوْنَ أنْ يَذهَبَ الناسُ بالدُّنيا، وتَذهَبُونَ برسولِ اللهِ تَحُوزُونَه إلى بُيوتِكم؟ قالوا: رَضِينا يا رسولَ اللهِ، رَضِينا. قال ابنُ عَونٍ: قال هِشامُ بنُ زَيدٍ: فقلْتُ لأنسٍ: وأنت شاهِدٌ ذاك؟ قال: فأين أَغيبُ عن ذاك؟".

ويتفاوت نصيب الصحابة من رواية الحديث ما بين مُقِلٍّ ومُكْثِر: فالأحاديث التى رواها مثلا أبو هريرة تبلغ ٥٢٧٤، والتى روتها عائشة ٢٢١٠، وعدد ما رواه كل من عبد الله بن عمر وأنس بن مالك قريب من ذلك، ولكل من جابر بن عبد الله وابن العباس ما يزيد عن ١٥٠٠ حديث، أما عمر فقد صح له خمسون حديثا من ٥٣٧. وهذه مجرد أمثلة على ما نقول. وذكر د. احمد أمين فى الفصل الذى عقده للحديث الشريف فى كتابه: "فجر الإسلام" أن عدد الصحابة الذين رووا عن رسول الله بلغ ١١٤٠٠٠ صحابى ما بين راو لحديث واحد وراو لمئات الأحاديث.

وكان الصحابة بعد فتح الممالك قد تفرقوا فى الأمصار، وكان منهم علماء رحلوا للتعليم فى البلاد المفتوحة، وأهمهم عبد الله بن عمر فى المدينة، وعبد الله بن مسعود فى الكوفة، وعبد الله بن عباس فى مكة، وعبد الله بن عمرو بن العاص فى مصر، ولأن بضاعة كل منهم من أحاديث النبى لم تكن تطابق ما عند الآخرين، بل كان هناك تفاوت حسبما سمع من النبى عليه السلام أو فاته، كان هناك أيضا تفاوت فيما تعرفه هذه البلاد من الحديث الشريف. ولما جاء التابعون رحلوا من أمصارهم إلى الأمصار الأخرى، فحاز كل مصر ما عند الأمصار الأخرى من علم، وتقاربت المعارف العلمية فى الأمصار المختلفة كما ذكر د. أحمد أمين فى "فجر الإسلام".

وكان عمر بن الخطاب، عليه رضوان الله، قد فكر فى جمع الحديث النبوى وأخذ يقلب الأمر فى ذهنه شهرا ثم انتهى بأن طرح الفكرة عنه، ثم طلب عبدُ العزيز بن مروان أميرُ مصر من كثير بن مرة الحضرمى أن يوافيه بما سمع من الصحابة ما عدا أحاديث أبى هريرة إذ كانت عنده، لكنا لا ندرى ماذا حدث بعد ذلك. ولما تولى ابنُه عمرُ بن عبد العزيز الخلافة عزم على جمع السنة فكتب إلى أبى بكر بن حزم: انْظُرْ ما كان من حديثِ رسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فَاكْتُبْهُ، فَإِنِّى خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ، وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ، وَلاَ تَقْبَلْ إِلَّا حَدِيثَ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم. كما أمر ابنَ شهاب الزهرى أيضا بجمع السنة، فكُتِبت فى دفاتر، فبعث إلى كلِّ أرضٍ له عليها سلطان واحدا منها. ويقول ابن سعد فى "طبقاته": "سمعت مالك بن أنس يقول: لما حج أبو جعفر المنصور دعانى، فدخلت عليه فحادثته، وسألنى فأجبته، فقال: إنى عزمت أن آمر بكتبك هذه التى قد وَضَعْتَ (يعنى "الموطأ") فتُنْسَخ نسخًا ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعَدَّوْها إلى غيرها ويَدَعوا ما

سوى ذلك من هذا العلم المحدث. فإنى رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم. قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فان الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورَوَوْا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وغيرهم. وإنَّ ردهم عما اعتقدوه شديد. فدَعِ الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم. فقال: لعمرى لو طاوعتَنى على ذلك لأمرتُ به".

وقد نشط تدوين الحديث بدءا من منتصف القرن الثانى الهجرى كما وضح د. محمود بن أحمد الدوسرى بموقع "الألوكة" بتاريخ ٢٥/ ١٢/ ٢٠١٨م تحت عنوان "جمع السنة وتدوينها": فكان فى مكة عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى (ت ١٥٠هـ) وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ)، وفى المدينة مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) ومحمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ) وابن أبى ذئب (ت ١٥٨)، وفى البصرة الربيع بن صبيح (ت ١٦٠هـ) وسعيد بن أبى عروبة (ت ١٥٦هـ) وحماد بن سلمة (ت ١٦٧هـ)، وفى الكوفة سفيان الثورى (ت ١٦١هـ) وزكريا بن أبى زائدة (ت ١٤٩ه) وابن فضيل (ت ١٩٥هـ) ووكيع (ت ١٩٧)، وفى اليمن معمر بن راشد (ت ١٥٣هـ) وخالد بن جميل، وفى الشام الأوزاعى وعبد الرحمن بن عمرو (ت ١٥٧هـ) والوليد بن مسلم (ت ١٩٤هـ)، وفى خراسان ومَرْو عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ)، وفى واسط هشيم بن بشير (ت ١٨٣هـ)، وفى الرَّى جرير بن عبد الحميد (ت ١٨٨هـ)، وفى مصر عبد الله بن وهب (ت ١٩٧). ثم كان تصنيف كتب السنة، أى تدوينها بنظام معين على أشكال مختلفة، فى منتصف القرن الثانى الهجرى.ومن ذلك مصنف عبد الرزاق (ت ٢١١هـ) ومصنف ابن أبى شيبة (ت ٢٣٥هـ)، وتصنيف المسانيد كمسند الحميدى (ت ٢١٩هـ) ومسند أحمد (ت ٢٤١هـ) ومسند الدارمى (ت ٢٥٥هـ)، وتصنيف الجوامع كجامع البخارى (ت ٢٥٦هـ) وجامع مسلم (ت ٢٦١هـ) وجامع الترمذى (ت ٢٧٩هـ)، وتصنيف السُّنَن كسنن أبى داود (ت ٢٧٥هـ) وسنن ابن ماجه (ت ٢٧٣هـ) وسنن النسائى (ت ٣٠٣ هـ).

ومما يتصل بهذا الموضوع رحلة العلماء فى طلب الحديث وتدوينه. وفى الفصل الذى عقده د. صبحى الصالح لموضوع "الرحلة فى طلب الحديث" كلام طيب وهام فى هذه المسألة، التى ترينا كيف كان المسلمون فى العصور الأولى من تاريخ الإسلام يقبلون على طلب العلم فى نهم ويرحلون فى سبيل الحصول على الأحاديث النبوية فى أرجاء الأرض المتناوحة بكل ما عندهم من استطاعة وحب وتحمس ومقدرة على مواجهة الظروف الصعبة وتحملها دون تذمر حتى لو كان سبب السفر هو التأكد من صحة حديث واحد، وحتى لو كان شقة السفر طويلة ومرهقة ومكلفة، وإن لم يخل الأمر من مبالغات كما سوف نرى. ومع هذا فإننا إذا ما قارنا بين ذلك الجو والجو المناظر له الآن فى ميدان طلب العلم لهالنا الفارق الرهيب بين الجوين لصالح الوضع القديم بطبيعة الحال، وإن لم يعن هذا أننا ندين الطلاب المسلمين الآن على طول الخط، فلا شك أن الظروف التى يتعلمون فيها لا تساعد دائما على فراغ البال المطلوب لنشدان العلم، لكنهم بوجه عام لا يحاولون بذل الجهود المرادة فى ميدان التعليم بل يكتفون بالحفظ ومراجعة المادة قبل الامتحان بوقت قليل... وما إلى ذلك مما نعرفه جميعا.

يقول د. صبحى الصالح: "فى المدينة المنورة... نشأ الحديث نشأته الأولى، فكان الصحابة يتناقلونه فيها مشافهة وَتَلْقينًا، وإليهم كان يفزع التابعون ليأخذوه من أفواههم بالتلقين أَيْضًا... وظلت رحاب المدينة مقدسة فى عيون الرُّوَاةِ... وأضحى أبناء الأقاليم الأخرى إذا حجوا بيت الله الحرام لا يلبثون أن يولُّوا وجوههم شطر المدينة ليسمعوا من أفواه أهليها، وقد يرحلون إليها من الأمصار النائية ليأخذوا ما تفرد به رُواتُها... وإذا كان أهل المدينة قد تَفَرَّدُوا، أول نشأة الحديث، برواية أكثر السُنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فَإِنَّ بعض الأمصار الأخرى بدأت تَتَفَرَّدُ كذلك فى عصر مبكر بطائفة من الأحاديث تشتهر فى إقليمها أولًا، ثم تستفيض بعد مدة تطول أو تقصر على ألسنة الرواة فى كثير من البلدان. وفى بطون كتب الحديث ألوان من التعبير توحى بهذا التفرُّد الإقليمى فى رواية السُنن: فهذا مِمَّا تَفَرَّدَ به أهل البصرة، وهذا من سنن أهل الشام لم يشركهم فيه أحد، وهذا حديث حمصى. وما كان لِلْرُّوَاةِ، تجاه هذا التفرد الإقليمى فى الرواية، أنْ يقنعوا بأخذ العلم من أهل بلدهم ولا بأخذه من المدينة وحدها سواء أكانت بعيدة عن مصرهم أم قريبة منه، فأصبحت الرحلة فى طلب الحديث إلى البلاد النائية أشهى أمانيهم، فبها استطاعوا أنْ يتلقَّوُا العلم من أفواه الرعيل الأول من الرواة، وبها تحقق لهم ما كانوا يعتقدونه من أنَّ "حُصُولَ الْمَلَكَاتِ عَنْ الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّلْقِينِ أَشَدُّ اسْتِحْكَامًا وَأَقْوَى رُسُوخًا".

ولقد بدأ طلب العلم بالمشافهة فى القرن الهجرى الأول، فكان الصحابى الجليل أبو الدرداء يقول: لَوْ أَعْيَتْنِى آيَةٌ فِى كِتَابِ اللهِ فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَفْتَحُهَا عَلَى إِلَّا رَجُلٌ بِبِرْكِ الغِمَادِ لَرَحَلْتُ إِلَيْه. والصحابى العليم جابر بن عبد الله ابتاع بَعِيرًا فَشَدَّ عليه رحله وسار شَهْرًا حتى قدم الشام ليسأل عبد الله بن أُنَيْس عن حديث فى القصاص. وكانت الرحلة فى حديث واحد مألوفة عند كثير من السلف. فعن سعيد بن المسيب: إِنْ كُنْتُ لأَرْحَلُ الأَيَّامَ وَاللَّيَالِى فِى طَلَبِ الحَدِيثِ الوَاحِدِ. وَعَنْ أَبِى قِلاَبَةَ (نحو ١٠٤هـ): لَقَدْ أَقَمْتُ بِالْمَدِينَةِ ثَلاَثًا مَا لِى حَاجَةٌ إِلَّا رَجُلٌ عِنْدَهُ حَدِيثٌ يَقْدَمُ، فَأَسْمَعُهُ مِنْهُ.

واختلفت أشكال الرحلة وصورها باختلاف الأشخاص والأمصار والأجيال: فكان فى الراحلين من يمشى على رجليه، ومن يرتحل وهو ابن خمس عشرة سَنَةً أو ابن عشرين، ومن يوصف بأنه أحد من رحل وتعب، أو بأنَّ له رحلة واسعة، أو أنه أكثر وأكثر الترحال، أو أنَّ له العناية التامة بطلب الحديث والرحلة، أو أنه بقى فى الرحلة بضع عشرة سنة. وكان يقال فى أمثال هؤلاء أَحْيَانًا: تُضْرَب إليه آباط المَطِى أو أكباد المطى، أو رحل الناس إليه، أو كانت الرحلة إليه فى زمانه. وواضح أنَّ لقب "الرحَّال والرحَّالة، والجوَّال والجوَّالة" كان وقفًا على كبار المُحَدِّثِينَ أمثال من ذكرنا ممن تحمَّل المشاق وسافر إلى الآفاق طلبًا لأحاديث تقل أو تكثر، فكان الناس يسألون عن نوع المشقات التى مَرَّ بها هؤلاء المحدثون، وكان الذى يوصف بأنه "طوَّاف الأقاليم" موضع الإكبار والإجلال فى جميع العصور. ولا ريب أنَّ بعض هؤلاء الجوالين قد طوَّفوا بالشرق وبالغرب مرارًا. وإنَّ المستشرق جولدتسيهر Goldziher، على وَلُوعِه بإنكار أخبار القوم، لا يفوته أنْ يعترف بأنَّ الرحَّالين الذين يقولون إنهم طافوا الشرق والغرب أربع مرات ليسوا مُبْعِدِين ولا مُغَالِين".

وهناك كتاب كبير كامل فى موضوع الرحلة لجمع الأحاديث صنفه الخطيب البغدادى، وخصصه لكل من رحل خلف حديث واحد لا غير سواء من الصحابة أو من بعدهم. وعنوانه هو "الرحلة فى طلب الحديث". ونقتطف منه هذه النصوص لتصوير ما نقول: "أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ رِزْقٍ الْبَزَّازُ: ثنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْبَخْتَرِى الرَّزَّاز إِمْلَاءً: ثنَا جَعْفَرُ بْنُ هَاشِمٍ الْبَزَّازُ الْعَسْكَرِى: ثنَا عَلِى بْنُ بَحْرٍ: ثنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِى عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، ح، وَأَنْبَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَرَجِ الْبَزَّازُ: أَنْبَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ حَمْدَانَ: ثنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ: ثنَا أَبِى: ثنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكًا، قَالَ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: إِنْ كُنْتُ لَأَسِيرُ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِى فِى طَلَبِ الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ".

"أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى بْنِ الْفَضْلِ الصَّيْرَفِى: ثنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْأَصَم: ثنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمُرَادِى: ثنَا أَيُّوبُ بْنُ سُوَيْدٍ،: ثنَا يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ الْبَاهِلِى مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ ثِقَةً، قَالَ: قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَدِى بْنِ الْخِيَارِ أَحَدُ بَنِى نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ: بَلَغَنِى حَدِيثٌ عَنْ عَلِى خِفْتُ إِنْ مَاتَ أَلَا أَجِدهُ عِنْدَ غَيْرِهِ، فَرَحَلْتُ حَتَّى قَدِمْتُ الْعِرَاقَ، فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْحَدِيثِ، فَحَدَّثَنِى وَأَخَذَ عَلَى عَهْدًا أَلَّا أُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا، وَلَوَدِدْتُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ فَأُحَدِّثُكُمُوهُ. فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ حَتَّى صَعِدَ الْمِنْبَرَ فِى إِزَارٍ وَرِدَاءٍ مُتَوَشِّحًا قَرْنًا، فَجَاءَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ حَتَّى أَخَذَ بِإِحْدَى عِضَادَتَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ قَالَ عَلِى: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَكْذِبُونَ عَلَيْنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ عِنْدَنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِنا، وَرَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كَانَ عَامًّا، وَلَمْ يَكُنْ خَاصًّا، وَمَا عِنْدِى عَنْهُ مَا لَيْسَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا شَىء فِى قَرْنِى هَذَا؟ فَأَخْرَجَ مِنْهُ صَحِيفَةً، فَإِذَا فِيهَا "مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ". فَقَالَ لَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ: دَعْهَا يَا رَجُلُ، فَإِنَّهَا عَلَيْكَ لَا لَكَ. فَقَالَ: قَبَّحَكَ اللَّهُ! مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَى لَا لِى؟

أَضْحَتْ هُزَالَةُ رَاعِى الضَّأْنِ تَهْزَأُ بِى ... مَاذَا يَرِيبُكَ مِنِّى رَاعِى الضَّأْنِ؟"

"أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عُبَيْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَرْبِى: ثنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ الْمُقْرِى النَّقَّاشُ: ثنَا مُحَمَّدُ بْنُ خُزَيْمَةَ بِنَيْسَابُورَ: ثنَا بِشْرُ بْنُ هِلَالٍ،: ثنَا جَعْفَرٌ عَنْ عَلِى بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِى عُثْمَانَ، قَالَ: بَلَغَنِى عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَيَكْتُبُ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِن بِالْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ. فَحَجَجْتُ ذَلِكَ الْعَامَ، وَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ الْحَجَّ إِلَّا لِلِقَائِهِ فِى هَذَا الْحَدِيثِ، فَأَتَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، بَلَغَنِى عَنْكَ حَدِيثٌ، فَحَجَجْتُ الْعَامَ، وَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ الْحَجَّ إِلَّا لِأَلْقَاكَ. قَالَ:فَمَا هُوَ؟ قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ لَيَكْتُبُ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِن بِالْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لَيْسَ هَكَذَا قُلْتُ، وَلَمْ يَحْفَظِ الَّذِى حَدَّثَكَ. قَالَ أَبُو عُثْمَانَ: فَظَنَنْتُ أَنَّ الْحَدِيثَ قَدْ سَقَطَ. قَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ لَيُعْطِى عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ أَلْفَى أَلْفِ حَسَنَةٍ. ثُمَّ قَالَ: أَوَلَيْسَ فِى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: "مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً؟"، وَالكَثِيرةُ عِنْدَ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفَى أَلْفٍ، وَأَلْفَى أَلف".

"أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْقَطَّانُ: أَنْبَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ: ثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ: ثنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ: حَدَّثَنِى مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ، ح وَأَنْبَأ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَلِى الْوَرَّاقُ وَعَلِى بْنُ الْمُحْسِنِ

الْمُعَدِّلُ، قَالَا: أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْمُخَرِّمِى: أَنْبَأ أَبُو بَكْرٍ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفِرْيَابِى: حَدَّثَنِى أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ، هُوَ الْخَلَّالُ: ثَنَا مَعْنُ بْنُ عِيسَى: ثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الدَّيْلَمِى يَقُولُ: بَلَغَنِى حَدِيثٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَرَكِبْتُ إِلَيْهِ إِلَى الطَّائِفِ أَسْأَلُهُ عَنْهُ، وَكَانَ ابْنُ الدَّيْلَمِى بِفِلَسْطِينَ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِى حَدِيقَةٍ لَهُ، فَوَجَدْتُهُ مُخْتَصِرًا بِيَدِ رَجُلٍ كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِالشَّامِ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ مِنْ شَرَبَةِ الْخَمْرِ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقُولُ فِى شَارِبِ الْخَمْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: فَاخْتَلَجَ الرَّجُلُ يَدَهُ مِنْ يَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَقَالَ: نَعَمْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقُولُ: مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا".

وقد ذكر د. صبحى الصالح، فى سياق الكلام عن الأمصار الإسلامية وما بينها من اختلافات فى رواية الحديث، أن "الراوى الواحد يُقْبَل حديثه ويُعَدُّ مقاربًا للصحة إذا أخذه أهل هذا المصر، ويُرَدّ ويُعْتَبَر منكرًا إذا تلقَّاه أهل مصر آخر. وذلك يفسِّرُ لنا تفسيرًا منطقيًّا واضحًا موقف الإمام البخارى من زهير بن محمد حيث يقول: "زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَهْلُ الشَّامِ يَرْوُونَ عَنْهُ مَنَاكِيرَ، وَرِوَايَةُ أَهْلِ العِرَاقِ أَشْبَهُ". فقد اختلف حكم البخارى على هذا الرجل تبَعًا لاختلاف الإقليم الذى أخذ عنه لأنَّ هذا الإمام العظيم، بمعرفة الرجال وَتَشَدُّدِهِ فى شروط الرواة والمرويات، كان أقدر علماء عصره على تجريح شخص وتعديل آخر، أو على تَوْهين الشخص نفسه لعلة خفية تارة وتوثيقه لأمور كثيرة يقدِّرُها تارة أخرى"، وذلك دون أن يبين لنا السبب فى تلك الظاهرة الغريبة. لقد كانت هذه المسألة تستلزم منه رحمه الله توضيحا وتبيينا، لكنه أطلق الكلام إطلاقا ثم مضى بغير تعليل ولا توجيه.

كذلك وجدت فى كتاب "الرحلة فى طلب الحديث" للخطيب البغدادي رواية عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ تثير قضية شديدة الأهمية أرانى فيها على طرفى نقيض مع البغدادى ومن يستشهد بهم لتعضيد ما يقول، قَالَ: "كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِى الدَّرْدَاءِ فِى مَسْجِدِ دِمَشْقٍ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، جِئْتُكَ مِنَ الْمَدِينَةِ مَدِينَةِ الرَّسُولِ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِى أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. قَالَ: وَلَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: وَلَا لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: وَلَا جِئْتَ إِلَّا لِهَذَا الْحَدِيثِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقُولُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ، وَكُلُّ شَىءٍ حَتَّى الْحِيتَانِ فِى جَوْفِ الْمَاءِ. إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ. إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَأَوْرَثُوا الْعِلْمَ. فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ".

وهذا الكلام يحتاج إلى تعقيب، إذ سوف يظن كثير من القراء أن طلب الرزق إلى جانب طلب العلم يفسده، ويضيع على صاحبه المكافأة الإلهية الخاصة بتحصيل المعرفة. وهذا فهم خاطئ للأمر، إذ إن تحصيل العلم يحتاج إلى المال، فطالب العلم الآن مثلا يلزمه الطعام والملبس والصابون والمسكن وأجرة السفر ونفقات الانتقال داخل المدن والمبيت بالفنادق والاستراحات، ويحتاج إلى من

يغسل له ملابسه ويكويها وينظف له حذاءه، ويحتاج إلى هاتف يسير به أموره... إلخ، وكل ذلك يستلزم مالا، ومالا كثيرا. والإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والدنيا. ولنا فى الحج والجهاد أسوة، فليس على الحاج أى حرج إذا ما قرن الحج بطلب الرزق فى سفره. كما أن المجاهد فى سبيل الله يأخذ نصيبه من الغنائم والأنفال، ولم نسمع أحدا يقول إن أخذ المال يعارض الجهاد. فلم هذا التحرج إذن فى موضوع طلب العلم؟ وعلى هذا فإن العبد لله يرى أن طالب العلم الذى يخرج لتحصيله مع المتاجرة فى السفر أو العمل عند هذا الشخص أو ذاك فى الطريق أو فى محل الوصول مأجور مرتين: مرة لطلبه العلم، ومرة لطلبه الرزق وعدم اتكاله على الآخرين أو مد يده مع ذل السؤال إلى كل من هب ودب، وبخاصة أن الرسول بَشَّع لنا الشحاذة وحذرنا أنها سوف تأتى نكتة سوداء فى وجه الشحاذ يوم القيامة. وهناك الآن طلاب وطالبات كثيرون يشتغلون وهم ملتحقون بالجامعة. ولا ريب أن هذا تصرف رائع لولا أنهم لا يُولُون الكتاب والقراءة والعلم ما يستحقه منهم بل همهم هو الحصول على شهادة، والسلام. ولو فعلوا لكان أجرهم عظيما. وكثير من الطلاب فى أوربا وأمريكا يصنعون ذلك لكنهم يقرأون ويحبون العلم فى ذات الوقت ولا يعرفون الحفظ دون فهم أو إهمال الكتب طوال العام والعكوف عليها أيام الامتحانات فقط.

ويبدو لى أن الناس تفهم طلب العلم فى سبيل الله فهما غير صحيح، فيظنون أن تفكير المتعلم فى أى شىء غير الله يبطل أجره. ولو كان الأمر كما يظنون ما حصل طالب علم على الأجر الإلهى. والواقع أن من طلب العلم ليخرج من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة فهو فى سبيل الله، ومن خرج فى طلب العلم ليكون إنسانا راقيا فهو فى سبيل الله، ومن طلب العلم ليحصل على وظيفة يخدم بها نفسه والناس والوطن والإنسانية فهو فى سبيل الله، ومن خرج فى طلب العلم ليعلم الآخرين ويعطيهم الفرصة التى أتيحت له فهو فى سبيل الله. والمعلم حين يأخذ راتبا على تعليمه التلاميذ والطلاب فهو لا يخرج عن سبيل الله بل هو فى قلب سبيل الله، وإلا فمن أين يعيش هو وزوجته وأولاده؟ إن بعض المسلمين تأخذهم الجلالة فيتشددون فى غير متشدَّد. والحياة قائمة على التبادل: فالمدرس يعطى ما عنده من علم وتجارب وخبرات، ويأخذ فى مقابل ذلك راتبا ينفق منه على احتياجاته هو وأسرته. وهذا ينطبق على كل صاحب مهنة أو حرفة أو وظيفة. ومعلوم ما صنعه الصحابة مع أبى بكر حين تولى خلافة المسلمين غب وفاة النبى الكريم، إذ رأوه متجها إلى السوق يسعى على رزقه، ففرضوا له راتبا يتعيش منه حتى يستطيع أن يباشر عمله الجديد ويعطيه كل اهتمامه دون انشغال بحاجاته المعيشية هو وأسرته. فهذا مِثْلُ هذا. ولقد كان للرسول ذاته نصيب من الغنائم، وإلا فكيف كان يمكنه أن يعيش ويزاول قيادته للمسلمين فى ميدان السياسة والجهاد والقضاء؟

وفى كتابه: "علوم الحديث ومصطلحاته" يورد د. صبحى الصالح، نقلا عن "طبقات الحنابلة" لابن أبى يعلى، قول حجاج بن الشاعر: "جَمَعَتْ لِى أُمِّى مِائَةَ رَغِيفٍ، فَجَعَلْتُهَا فِى جِرَابٍ، وَانْحَدَرْتُ إِلَى شَبَابَةَ بِالْمَدَائِنِ، فأقمتُ بِبَابِهِ مِائَةَ يَومٍ، كُلَّ يَوْمٍ أَجِىء بِرَغِيفٍ فَأَغْمِسُهُ فِى دِجْلَةَ فَآكُلُهُ. فَلَمَّا نَفِدَتْ خَرَجْتُ". وقد تكون فى الرواية بل فيها بكل تأكيد مبالغة، لكننا نتساءل: أهذا ما نريده لطالب العلم؟

أنريد له الجوع والهوان والهزال وتضعضع الصحة على هذا النحو؟ وهل يرضى الله ورسوله ذلك؟ ولماذا يُكْتَب على طالب العلم وحده هذه المشقة والمعاناة؟ لقد كنا نسمع الناس يقولون إن الجوع يوقظ الذهن وينشط العقل. وهذا كلام غريب وسطحى، فالجوع يطير كل أبراج العقل، إذ يفقد الشخص حيويته ونشاطه وينشغل طوال الوقت بقرصات بطنه وصراخها فلا يستطيع أن يركز فيما يقرأ، ثم بعد قليل يفقد كل قدرة على القراءة والفهم. إن الأكل والشرب والكساء والمسكن والنوم والاطمئنان حاجات إنسانية لا يستطيع الإنسان ممارسة حياته بدون إشباعها. ومن يقل بغير هذا فهو كذاب أو مغفل ساذج. والعجيب أن الفقهاء يَنْهَوْن القُضَاة عن نظر الدعاوى المرفوعة إليهم عند الشعور بالجوع. فكيف يُطْلَب من المتعلم ما يُنْهَى عنه القاضى؟

ومن هنا لست أوافق د. صبحى الصالح حين يقول فى كتابه السالف الذكر تحت عنوان "الرحلة للمتاجرة بالحديث": "لَإِنْ كان هؤلاء الرحَّالون إنما يطلبون الحديث ابتغاء الاتساع فى المعرفة فإنَّ كَثِيرًا غيرهم بدأوا يطلبونه متاجرةً به: فيعقوب بن إبراهيم بن سعد كان يحفظ الحديث الذى رواه أبو هريرة وفيه ينهى الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم عن الاغتسال فى الماء الدائم إذا أصابته نجاسة، وكان يعقوب لا يُحَدِّثُ بهذا الحديث إلَّا بدينار. وأَمْرُ أبى نعيم الفضل بن دُكَيْن أغرب من هذا، فإنه إمام حافظ ثقة، ولكنه ضرب الرقم القياسى فى الخبرة بالشؤون المالية. فهذا أحد تلاميذه على بن جعفر بن خالد يقول: كُنَّا نَخْتَلِفُ إِلَى أَبِى نُعَيْمٍ الفَضْلِ بِنِ دُكَيْنٍ الْقُرَشِى نَكْتُبُ عَنْهُ الحَدِيثَ، فَكَانَ يَأْخُذُ مِنَّا الدَّرَاهِمَ الصِّحَاحَ، فَإِذَا كَانَ مَعَنَا دَرَاهِمُ مَكْسُورَةً يَأْخُذُ عَلَيْهَا صَرْفًا. ولذلك كان شُعبة بن الحجاج ينصح بأخذ الحديث من الغَنِى المُوسِرِ لأنه يستغنى عن الكذب فيقول لعلى بن عاصم: عَلَيْكَ بِعُمَارَةَ بْنِ أَبِى حَفْصَةَ، فَإِنَّهُ غَنِى لاَ يَكْذِبُ. فيرُدُّ عليه على بن عاصم قائلًا: كَمْ مِنْ غَنِى يَكْذِب. ويقول شُعْبَةُ مُؤَكِّدًا رَأْيَهُ: لاَ تَكْتُبُوا عَنِ الفُقَرَاءِ شَيْئًا.

ولقد قام العلماء فى مختلف العصور فى وجه هؤلاء المتاجرين بالحديث يضربون على أيديهم، وينصحون طلبة العلم قائلين: يَا ابْنَ آدَمَ، عَلِّمْ مَجَّانًا كَمَا عُلِّمْتَ مَجَّانًا. ويستندون فى هذا إلى أنَّ التعليم مَجَّانًا وارد فى الكتب السماوية. فعن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال: مَكْتُوبٌ فِى الكُتُبِ: يَا ابْنَ آدَمَ، عَلِّمْ مَجَّانًا كَمَا عُلِّمْتَ مَجَّانًا. ولهذا القول أصل صحيح معروف فى الكتب السماوية، ففى آخر سفر من أسفار الكتاب المقدس "Deutéronome": "إِنَّمَا عَلَّمْتُكُمْ بِأَمْرِ رَبِّى". ويستندون أَحْيَانًا أخرى إلى الحديث النبوى نفسه ليجزموا بحرمة أخذ الأجر على تعليم العلم. ففى "سُنَن أبى داود" أنَّ الصحابى الجليل عُبادة بن الصامت رَضِى اللهُ عَنْهُ علَّمَ ناسًا من أهل الصُّفَّة الكتاب والقرآن، فأهدى إليه رجل منهم قوسًا رمزًا للشكر وعرفان الجميل، وَإِذَا عُبَادَةُ يَسْتَفْتِى رَسُولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فِى أَمْرِ هَذِهِ الهَدِيَّةِ، فَيُفْتِيهِ عَلَيْهِ السَّلاَم بِلَهْجَةٍ شَدِيدَةٍ جَازِمَةٍ: إِنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ تُطَوَّقَ مِنْ نَارٍ فَاقْبَلْهَا. وكان لأمثال هذا الحديث أثر بليغ فى نفوس العلماء وَالرُّوَّاةِ، فكانوا يَعُدُّون الهدية رشوة إنْ أهداها طالب الحديث، ويرفضون أنْ يلقوا إليه شيئًا منه إلا إذا عاهدهم ألا يُهْدِيَهم شَيْئًا.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَجَّاجِ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَسْمَعُ مِنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَة (-١٦٧هـ)، فَرَكِبَ بَحْرَ الصِّينِ فَقَدِمَ فَأَهْدَى إِلَى حَمَّادٍ، فَقَالَ لَهُ حَمَّادٌ: اخْتَرْ. إِنْ شِئْتَ قَبِلْتُهَا وَلَمْ أُحَدِّثْكَ أَبَدًا، وَإِنْ شِئْتَ حَدَّثْتُكَ وَلَمْ أَقْبَلِ الْهَدِيَّةَ. فَقَالَ: لاَ تَقْبَلِ الهَدِيَّةَ وَحَدِّثْنِى.فَرَدَّ الْهَدِيَّةَ وَحَدَّثَهُ. وتتَّخذ هذه الفكرة سبيلًا آخر إلى تقبيح الْمُتَاجِرِينَ بالحديث فى مثل قول الإمام أحمد حِينَ سُئِلَ: يُكْتَبُ عَمَّنْ يَبِيعُ الحَدِيثَ؟ فَقَدْ أَجَابَ: لا، وَلاَ كَرَامَةَ.

ولعلَّ بائعى الحديث والمتاجرين به، رغم جشعهم الظاهر أَحْيَانًا، لم يكونوا دائمًا من الكَذَّابِينَ أَوْ الوَضَّاعِين، ولعلَّ كَثِيرًا منهم كانوا ثقاتٍ ضابطين، ولكنه المال يَثْنِى أعناق الرجال. وكانت لهؤلاء فلسفتهم الخاصة، فهم قد تَجَشَّمُوا المشاقَّ وركبوا الأهوال ورحلوا فى طلب الحديث لا يعوقهم فقر، ولا يفتّ فى عزمهم صعوبة الطريق وأخطاره، سواء عليهم الصحراء وَحَرّهَا، والبحار وأمواجها، إذ تغلغل فى نفوسهم اعتقاد أنَّ طلب العلم جهاد، فمن مات فى سبيله مات شهيدًا، بينما كان سائر الآخذين عنهم قابعين فى دورهم، آمنين فى سربهم. فهم لا يريدون أنْ يكونوا سواء مع هؤلاء. ونحن لا نعدم فى كتبنا الأمينة أخبارًا تشير إلى الأصول المنهجيَّة التى كان يَتَّبِعُهَا هؤلاء الرواة فى استقصاء الحديث النبوى، وهى أصول كانت تُكَبِّدُهُمْ من العناء الشيء الكثير، وهى لو قورنت بشىء فى عصرنا الحديث لكانت أشبه بأساليب الناشرين الذين أصبحت أعمالهم وقفًا على البحث عن كنوز المخطوطات لنشرها ثم بيعها بأغلى الأثمان".

وبادئ بدء أحب أن أقول: لا داعى لتسمية أخذ أجر على التحديث: "متاجرة" لأن فيها إيحاءات مسيئة دون أن يكون هناك ما يستلزم تلك الإساءة، إذ إن أهل الحديث إنما يزاولون عملا ينبغى أن يأخذوا عليه أجرا. صحيح أن الله سبحانه قد وصف الأعمال الصالحة التى تصدر عن المسلم بأنها تجارة مع الله، لكنى أشم فى استخدام الكلمة فى سياقنا هذا تقريعا وتفزيعا. وأعود للدكتور الصالح وأسأله: ألا تأخذ أنت وأنا وآلاف مؤلفة من الأساتذة المسلمين فى المدارس والجامعات رواتب لقاء تعليمنا التلاميذ والطلاب؟ ألا نأخذ من الناشرين نسبة من أثمان الكتب التى ينشرونها لنا ويبيعونها بالنيابة عنا؟ ألم تأخذ من "دار العلم للملايين" مالا على كتابك هذا الذى بين أيدينا، وهو فى حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم؟ ألم تأخذ أجرا على اشتراكك فى ترجمة القرآن المجيد إلى الفرنسية؟ ألم تأخذ مالا على تأليفك كتابك الآخر: "مباحث فى علوم القرآن"؟ فلماذا ننظر بعين الانتقاد والتنقص إلى من يأخذون أجرا على ما بذلوه من جهود مضنية فى جمع الحديث النبوى الشريف وتوصيله للناس؟ ثم كيف تكون الهدية التى يدفعها طالب الحديث لقاء ما يأخذه من الراوى من أحاديث رشوة؟ هل هو دفعها مقابل أخذ شىء ليس من حقه؟

وبالنسبة لحديث رسول الله الخاص بالقوس التى أهداها أهل الصُّفَّة لعبادة بن الصامت فبعيدا عن الحكم عليه من ناحية الإسناد نلاحظ أنه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يذكر الحيثيات التى جعلت أخذ عبادة القوس من أحد أفراد أهل الصفة عملا مستنكرا على هذا النحو. ومن الممكن أن تكون هذه القوس هى كل ما يملك رجل الصفة فلا يصح حرمانه منها. ومن الممكن أن رسول الله لم يكن يريد لأى شخص أخذ شىء من أهل الصفة مقابل أى شىء يؤدَّى إليهم بالذات لفقرهم المدقع. ثم إن تلك القوس لم

تكن أجرة على التعليم بل كانت هدية حرة. والحديث إذن ليس نصا فى حرمة أخذ أجرة على القرآن ولا على أحاديث رسول الله، فهو يخلو من هذا تماما. أما بالنسبة لعبارة الكتاب المقدس فمنذ متى يا ترى يأخذ المسلمون أحكامهم الشرعية وتوجيهاتهم الخلقية من ذلك الكتاب؟ لقد رأى رسول الله ورقة منه فى يد عمر، فغضب وأمره بالتخلص منها والاكتفاء بالقرآن لأن عصر الكتاب المقدس قد وَلَّى، وأتى عصر الوحى القرآنى. وعلى كل حال فإنى لم أجد العبارة المذكورة فى الكتاب المقدس. وحتى لو كانت موجودة فيه وفاتنى الوصول إليها فمن الخطإ الاستشهاد بها لأنها، فيما هو واضح، أشبه أن تكون قولا لأحد الأنبياء وليس قول معلم عادى، فهى تقول: "إنما علمتكم بأمر ربى"، ومعروف أن الأنبياء لا يعلمون الناس وحى السماء بمقابل، ومع هذا فإنهم يقبلون الهدية ولا يرون فيها معابة أو نقصا. أما تعليمنا نحن أهل العلم للتلاميذ والطلاب بمقابل فهو حلال بلال زلال، وإلا فكيف يعيش المعلمون؟ أما إذا تنازل كل إنسان عن أخذ مال لقاء ما يقدمه للآخرين فأهلا وسهلا ومرحبا. لكن هذا إنما يكون فى "الحواديت" الجميلة التى يحصل فيها كل إنسان على ما يريد لقاء كلمة "بالصلاة على النبى": فهو إذا جاع يذهب إلى المطعم قائلا لصاحبه: "أطعمنى واسقنى بالصلاة على النبى، ولا تنس السلطات ولا الحلو"، وإذا مرض ابنه أخذه للطبيب وطلب منه أن يفحص الولد ويصف له الدواء بالصلاة على النبى، ثم يأخذه إلى الصيدلى ويطلب منه أن يعطيه ما فى الروشته بالصلاة على النبى... وهكذا دواليك، ثم يأتى دوره هو فيعلم أولاد هؤلاء بالصلاة على النبى هو أيضا. وهذا فى المشمش طبعا.

ولقد أعطى الرسول على التعليم أجرا، وذلك بعد غزوة بدر، إذ كان هناك عدد من أسارى المشركين ليس عندهم ما يفتدون أنفسهم به، فطلب منهم الرسول أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة ويفك أسرهم، ففعلوا. أما استشهاد المانعين إعطاء المعلمين أجرة بقوله تعالى: "وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا" فهو استشهاد خاطئ، إذ الكلام فى خطاب بنى إسرائيل، والآيات فيه ليست آيات القرآن، وليس المقصود على كل حال هو تعليم القرآن مقابل المال بل بيعهم الدين بالدنيا وإيثارهم العاجلة على الآجلة ونبذهم تعاليم التوراة وانغماسهم فى الشهوات والتمرد والعصيان مما يفيض بكثير من أمثلته العهد القديم.

وكنت أحب لو أن الحكومات الإسلامية فى المراحل المبكرة من تاريخ الإسلام قررت لطلاب الحديث عطاء شهريا للاستعانة به فى تحصيل ذلك العلم الشريف وتكريما لهم وتهيئة لجو السكينة وهدوء الخاطر الذى يلزم لطالب العلم. صحيح أن بعض الحكومات المسلمة قد أنشأت مدارس لهذا الغرض ورتبت للمعلمين وظائف شهرية، لكن ذلك إنما كان فى مرحلة متأخرة، ولم يستمر. ومعروف أن الحكام والولاة والأغنياء كانوا يغدقون على الشعراء المداحين الكاذبين فى الغالب إغداقا، لكننا لم نسمع بأنهم فكروا فى صنع ذلك مع طلاب العلم. وهذه نقطة سيئة فى حقهم.

كذلك فرغم إكبارى لأهل الحديث دراسة ورواية لا أوافق بسهولة على صحة بعض المرويات الخاصة بهم وبجهودهم فى ميدان الرحلة لطلبه، إذ طابع المبالغة الشديدة ظاهر عليها. فمن ذلك ما يروى عن الصحابى جابر بن عبد الله من أنه ابتاع بَعِيرًا فَشَدَّ عليه رحله وسار شَهْرًا حتى قدم الشام ليسأل

عبد الله بن أُنَيْس عن حديث فى القصاص. لقد كان جابر قريبا من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وثم أحاديث تجمعه بالنبى وتحكى ما دار بينهما من حوار، وكان النبى يهتم به وبزواجه وأخواته اهتماما كبيرا، وروى عنه صلَّى الله عليه وسلَّم ١٥٤٠حديثا، فكيف فاته ذلك الحديث عن القصاص رغم ذلك كله؟ وكيف انفرد عبد الله بن أنيس بهذا الحديث دون سائر الصحابة حتى إن جابرا لا يجد صحابيا قريبا منه يحفظه كى يسأله بدلا من تلك الرحلة الطويلة المرهقة من أجل حديث واحد؟ وقد كان جابر يجلس فى المسجد النبوي يعلّم الناس، وكان من المكثرين من رواية الحديث الشريف، فيتحلق الناس حوله ليسمعوا منه، وكان مفتى المدينة فى زمانه. والمدينة، كما نعرف، هى منبع الأحاديث إذ كان يعيش فيها النبى عليه السلام. فكيف يحتاج رجل أنصارى من المدينة ذاتها إلى البحث عن حديث فى مدينة بعيدة عن مدينة رسول الله؟ ومتى؟ بعد وفاة النبى. بل كيف عرف جابر أن لدى ابن أنيس حديثا فى القصاص لا يعرفه سواه إلا أن يكون أحدهم أو بعضهم يحفظ هذا الحديث ورواه لجابر؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يأخذه جابر عنه مباشرة؟ وإذا كان جابر يجلس فى المدينة يعلم الناس الحديث فكيف أوقف درسه وتركهم لمدة شهرين كاملين وأكثر بلا أستاذ؟ وماذا كان يقول لرفقائه فى القافلة طوال هذين الشهرين؟ إن الحديث يسكت عن هذا كله وكأن تلك الرحلة كانت فى الفضاء الخارجى ولا يصاحب جابرا فيها أحد! ثم ألم يكن هناك من يرسله إلى عبد الله بن أنيس ليسمع منه الحديث ويكتبه له عنه فيكسب بذلك الحسنيين: معرفة الحديث واستمرار الدرس. وأخيرا نجد فى بعض الروايات أن رحلة جابر من أجل الحديث كانت إلى مصر، وفى بعضها الآخر كانت إلى الشام. وثم تفاصيل أخرى صغيرة تختلف فيها الروايات لا نقف عندها. وما كتبته هنا إنما هو مجرد أسئلة للاستفسار لا غير.

وهذا هو الحديث المشار إليه: "عن عبد الله بن أنيس: عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضى اللهُ عنهُما قالَ: بَلَغَنى حديثٌ عنْ رَجلٍ مِن أصحابِ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم سَمِعَه مِن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى القِصاصِ، ولمْ أَسْمَعْه، فابتَعتُ بَعيرًا فشدَدتُ عليه رَحْلى ثُمَّ سِرتُ إليه شهرًا حتّى قدِمتُ مصرَ، فأَتيتُ عبدَ اللهِ بنَ أُنيسٍ فقلتُ للبوّابِ: قلْ له: جابرٌ على البابِ. فقالَ: ابنُ عبدِ اللهِ؟ قلتُ: نَعَمْ. فأتاهُ فأخبَرَهُ، فقامَ يَطَأُ ثوبَهُ حتّى خَرَجَ إليه فاعْتَنَقنى واعتنقتُهُ، فقلتُ له: حديثٌ بَلَغَنى عنكَ سَمِعتَهُ مِن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولمْ أَسْمَعْهُ فى القِصاصِ، فخَشيتُ أنْ أَموتَ أوْ تَموتَ قبلَ أنْ أَسْمَعَهُ. فقالَ عبدُ اللهِ: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: يَحشُرُ اللهُ العبادَ (أوْ قالَ: النّاسَ) عُراةً غُرْلًا بُهْمًا. قالَ: قُلنا: ما بُهْمًا؟ قالَ: ليس معهم شىء. ثُمَّ يُناديهم بصوتٍ يَسمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يَسمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أنا الملكُ، أنا الدَّيّانُ. لا ينبغى لأَحَدٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ أنْ يَدخُلَ الجنَّةَ، ولا يَنبغى لأَحَدٍ مِنْ أهلِ النّارِ أن يَدخُلَ النّارِ، وعندهُ مَظلمةٌ حتّى أَقُصَّهُ منه حتّى اللَّطْمةَ. قالَ: قُلنا: كيف، وإنَّما نَأتى اللهَ غُرلًا بُهما؟ قالَ: بالحسناتِ والسَّيِّئاتِ. قالَ: وتلا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: "الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ. لا ظُلْمَ الْيَوْمَ" (غافر/ ١٧)" (الحاكم- ت ٤٠٥، المستدرك على الصحيحين ٣٦٨٣ • صحيح الإسناد).

وثم حديث عن عبد الله بن عمر يشبهه فى خطوطه العامة، لكنه أكثر تفصيلا: "عن عبد الله بن عمر: يُحشَرُ النّاسُ كَما وَلَدَتهم أُمُّهُم حُفاةً عُراةً غُرْلًا. فَقالت عائشَةُ: النِّساءُ والرِّجالُ، بأبى أنتَ وأُمِّى؟ فَقال: نَعَم. فَقالت: واسَوْءَتاه! فَقال: ومِن أى شىء تَعْجَبينَ يا بنتَ أبى بَكرٍ؟ قالتْ: عَجِبتُ مِن حَديثِك: يُحشَرُ الرِّجالُ والنِّساءُ حُفاةً عُراةً غُرْلًا يَنظُر بَعضُهُم إلى بعضٍ! قال: فَضَرَب على مَنْكِبِها وقال: يا بنتَ أبى قُحافةَ، شُغِل النّاسُ يَومئذٍ عنِ النَّظرِ، وسَمَوْا بِأَبصارِهِم مَوْقوفينَ لا يَأكُلونَ ولا يَشرَبون شاخِصينَ بِأَبصارِهِم إلى السَّماءِ أَربعينَ سنةً: فَمِنهُم مَن يَبلُغُ العَرَقُ قَدَمَيه، ومِنهُم مَن يَبلُغُ ساقَيهِ، ومِنهُم مَن يَبلُغ بَطنه، ومِنهُم مَن يُلجِمُه العَرَقُ مِن طولِ الوقوفِ، ثُمَّ يَرحَمُ اللهُ مِن بعدِ ذلك العِبادَ، فيَأمُرُ اللهُ المَلائكَةَ المُقرَّبينَ، فيَحمِلون عَرْشَه مِنَ السَّمواتِ إلى الأَرضِ حتّى يوضَعَ عَرشُه فى أرضٍ بَيضاءَ لم يُسفَكْ عليها دمٌ ولَم تُعْمَلْ فيها خَطيئةٌ كأنَّها الفِضَّةُ البَيضاءُ، ثُمَّ تَقومُ المَلائكَةُ حافِّينَ مِن حولِ العَرشِ، وذلكَ أَوَّلُ يومٍ نَظَرَتْ عينٌ إلى اللهِ، فيَأمُرُ مناديًا، فيُنادى بِصوتٍ يَسمَعُه الثَّقلانِ مِن الجنِّ والإنسِ: أينَ فُلانُ بنُ فُلانِ بنِ فُلانٍ؟ فيَشْرَئِبُّ النّاسُ لِذلكَ الصَّوتِ، ويَخرُجُ ذلكَ المُنادَى مِنَ المَوقفِ، فيُعَرِّفُه اللهُ للنّاسِ، ثُمَّ يُقالُ: "تَخرُجُ معَه حَسناتُه"، يُعَرِّفُ اللهُ أهلَ المَوقِفِ بتلكَ الحَسناتِ، فإذا وَقَف بينَ يدَى ربِّ العالَمينَ قيل: أينَ أَصحابُ المَظالمِ؟ فيُجيبونَ رجلًا رجلًا، فيُقالُ لكلِّ واحدٍ مِنهُم: أَظَلَمْتَ فُلانًا لِكَذا وَكذا؟ فيَقولُ: نَعم يا ربِّ. فَذلكَ اليومُ الَّذى تَشهَدُ عَلَيهِم أَلسِنَتُهم وأَيديهِم وأَرجُلُهم بِما كانوا يَعمَلونَ، فتُؤخَذُ حَسَناتُ الظّالمِ فتُدفَعُ إلى مَن ظَلَمَه، ثَمَّ لا دينارٌ ولا دِرهمٌ إلّا أُخِذ مِن الحَسناتِ، ورُدَّ مِن السِّيئاتِ. فَلا يَزالُ أَصحابُ المَظالِم يَسْتَوْفُونَ مِن حَسناتِ الظّالمِ حتّى لا تَبْقى له حَسنةٌ، ثُمَّ يَقومُ مَن بَقى مِمَّن لم يَأخُذْ شيئًا فيَقولونَ: ما بالُ غَيرِنا استَوفَى ومُنِعْنا؟ فيُقالُ لَهُم: لا تَعْجَلوا. فيُؤخَذُ مِن سيِّئاتِهم فتُرَدُّ عَليه حتّى لا يَبْقى أَحدٌ ظَلَمَه بِمَظلِمةٍ. فيُعَرِّفُ اللهُ أهلَ المَوقفِ أَجمَعينَ ذلكَ، فإذا فَرَغَ مِن حسابِ الظّالمِ قيلَ: ارجِع إلى أُمِّكَ الهاويَةِ، فإنَّه لا ظُلمَ اليومَ. إنَّ اللهَ سريعُ الحِسابِ. ولا يَبقى يَومئِذٍ مَلَكٌ ولا نَبى مُرْسَلٌ ولا صِدِّيقٌ ولا شَهيدٌ إلّا ظَنَّ لِما رَآه مِن شِدَّةِ الحسابِ أنَّه لا يَنجو إلّا مَن عَصَمَه اللهُ عزَّ وجلَّ".

وهذه رواية عائشة لنفس الحديث، ولكن ليس فيها سوى الكلام عن بعث البشر حفاة عراة غرلا: "عن عائشة أم المؤمنين: يُحْشَرُ النّاسُ يومَ القِيامَةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا. قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، النِّساءُ والرِّجالُ جَميعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ؟ قالَ صلَّى الله عليه وسلَّم: يا عائِشَةُ، الأمْرُ أشَدُّ مِن أنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ".

ومثل ذلك ما نسب لمكحول (ت١١٣هـ) من قوله: "كُنْتُ عَبْدًا بِمِصْرَ لامْرَأَةٍ مِنْ بَنى هُذَيْلٍ، فَأَعْتَقَتْنى، فَمَا خَرَجْتُ مِنْ مِصْرَ وَبِهَا عِلْمٌ إِلَّا حَوَيْتُ عَلَيْهِ فِيمَا أُرَى، ثُمَّ أَتَيْتُ الْحِجَازَ فَمَا خَرَجْتُ مِنْهَا وَبِهَا عِلْمٌ إِلَّا حَوَيْتُ عَلَيْهِ فِيمَا أُرَى، ثُمَّ أَتَيْتُ الْعِرَاقَ فَمَا خَرَجْتُ مِنْهَا وَبِهَا عِلْمٌ إِلَّا حَوَيْتُ عَلَيْهِ فِيمَا أُرَى، ثُمَّ أَتَيْتُ الشَّامَ فَغَرْبَلْتُهَا، كُلُّ ذَلِكَ أَسْأَلُ عَنِ النَّفَلِ فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يُخْبِرُنِى فِيهِ بِشَىء، حَتَّى لَقِيتُ شَيْخًا يُقَالُ لَه: زِيَادُ بْنُ جَارِيَةَ التَّمِيمِى، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ سَمِعْتَ فِى النَّفَلِ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ. سَمِعْتُ حَبِيبَ بْنَ مَسْلَمَةَ الْفِهْرِى يَقُولُ: شَهِدْتُ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم نَفَّلَ الرُّبُعَ فِى الْبَدْأَةِ، وَالثُّلُثَ فِى الرَّجْعَةِ".

ووجه المبالغة تأكيده أنه حوى كل علم بمصر والحجاز والشام والعراق. كل ذلك ولم يكن له بالعلم ولا بالحديث شأن قبل ذلك لأنه كان عبدا لا يملك من أمر نفسه ولا من وقته شيئا ينفقه فى طلب العلم، فضلا عن أنه لم يشر من بعيد أو قريب إلى أنه قبل تحرره من الرق كانت له بالعلم أية صلة.

وعلى نفس الشاكلة من المبالغة قالوا عن ابن منده (ت٣٩٥هـ) إنه عند عودته من رحلته الطويلة فى طلب الحديث كانت كتبه أربعين حملا. ومعنى هذا أننا إزاء قافلة كاملة حتى لو كانت صغيرة. فبالله هل هناك بيت فى ذلك الوقت يمكن أن يسع أربعين حمل بعير من الكتب؟ ومن يا ترى يمكنه أن ينظمها له حتى يستطيع الاستفادة منها؟ لقد قيل إن الصاحب بن عباد كان يحمل معه ما يحتاجه من الكتب فى سفره على ثلاثين جملا. لكن رغم ما أراه فى هذا الخبر أيضا من مبالغة لأن الإنسان لا يحتاج فى سفره إلى كل تلك الكتب ولا نصفها ولا عشرها ولا حتى عشر معشارها لقد كان لابن عباد بوصفه من رجال الدولة الكبار على كل حال من يشرفون على هذه الكتب ونقلها وتنظيمها وتجهيز ما يحتاج إلى قراءته منها وحمله إليه ووضعه بين يبديه كأنهم جن سليمان، فيأخذها هو كاللوز المقشور دون أن يتعب فى ذلك شيئا. أما هنا فنحن أمام غير ابن عباد.

وهناك حكاية أخرى من حكايات طلاب الحديث الرحالين وردت فى عدد من المراجع تشوبها المبالغة أيضا. وخلاصتها، على اختلاف بطلها، أن جماعة من رواة الحديث رحلوا إلى شيخ فى بلد بعيد ليسمعوا منه حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فرأوه خارجًا وقد انفلتت بغلته، وهو يحاول إمساكها، وبيده مخلاة يريها إياها كى تعود فتأكل ما فى المخلاة ولا تشرد منه، فلاحظوا أن المخلاة فارغة، فرجعوا ولم يسمعوا منه قائلين فى تنطع: هذا يكذب على البغلة، فلا نأمن أن يكذب فى الحديث. ولست أدرى، ولست إخال أدرى، أى كذب هذا الذى يتحدثون عنه؟ ألم يرخص النبى فى الكذب مع الزوجة الغضبى لتتألَّف قلبها والتغلب على حرانها؟ ألم يرخص عليه الصلاة والسلام فى الكذب عند الإصلاح بين صديقين متخاصمين؟ بل هل الكذب مع الدواب حرام أصلا؟ فماذا إذن نسمى إخفاء السكين عن عينى الدابة التى سوف نذبحها؟ وماذا نسمى أمر رسول الله لنا بذبحها بعيدا عن عيون زميلاتها مع أن دور أولئك الزميلات فى الذبح والطهى والأكل آت آت لا مناص لهن عن ذلك؟ وماذا نقول فى الحنان الذى نغدقه على الدواب التى نربيها عندنا والطعام الوفير الذى نقدمه إليها ونحن قد عقدنا العزم على ذبحها وسلخها وطهيها وأكلها؟

ومع هذا فقد قرات ما يلى فى موقع "الإسلام: سؤال وجواب": "السؤال: ما حكم الكذب على الحيوان، مثل أن توهمه أن بين يديك طعاما حتى يأتى إليك؟ هل يعد هذا من الكذب؟ وجزاكم الله خيرا. الجواب: الحمد لله. ليست القضية متعلقة بالحيوان بقدر ما هى متعلقة بالإنسان. فالمسلم الذى يعتاد الصدق ويتحرى الصدق فى قوله وفعله وأخلاقه ومواقفه وجميع تفاصيل حياته ليس ممن يقع منه هذا النوع من التصرف، فيوهم الحيوان بما ليس فى واقع الأمر. وذلك لأن الصدق خلة نفسية وسجية خلقية إذا اعتادها الإنسان صارت "حالة" أصيلة فى القلب والعقل كما قال عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ

الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا". رواه البخارى (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧). وحينئذ سيجد هذا الصادق فى نفسه حرجا أن يشير بشىء كأنه معه، وفى واقع الأمر ليس كذلك: سواء مع الإنسان أو الحيوان أو حتى مع نفسه وفى تخيله وتصوره. يقول مالك بن دينار رحمه الله: "الصدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرجَ أحدُهما صاحبَه " انتهى. من "ذم الكذب" لابن أبى الدنيا (رقم ٤٨).

والإنسان مكلف فى تصرفه مع الحيوان، فهو مأمور بالإحسان إليه والقيام عليه إذا كان محبوسا لديه أو تَركه فى حال سبيله إن لم يتمكن من ذلك، ومأمور باجتناب أذيته بالوسم فى الوجه أو الضرب المبرح ونحو ذلك. ولذلك فنحن نخشى أن يكون مسؤولا عن إيهامه الحيوانَ بالطعام فى حين أنه ليس معه طعام وأن تكتب عليه فى ذلك كذبة كما تكتب عليه إذا وقع التصرف نفسه مع الأطفال كما هو ثابت فى السنة النبوية. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ: "أَتَانَا رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فِى بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِى.قَالَ: فَذَهَبْتُ أَخْرُجُ لِأَلْعَبَ، فَقَالَتْ أُمِّى: يَا عَبْدَ اللهِ، تَعَالَ أُعْطِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيه؟ قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِى كُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبَةٌ" رواه أحمد فى "المسند" (٢٤/٤٧١)، وحسَّنه لغيره المحققون فى طبعة مؤسسة "الرسالة"، وكذلك الشيخ الألبانى فى "صحيح أبى داود" (٤٩٩١). بل يقول العلامة المعلمى رحمه الله: جاء جماعة إلى شيخ ليسمعوا منه، فرأوه خارجًا وقد انفلتت بغلته، وهو يحاول إمساكها، وبيده مخلاة يريها إياها، فلاحظوا أن المخلاة فارغة، فرجعوا ولم يسمعوا منه. قالوا: هذا يكذب على البغلة، فلا نأمن أن يكذب فى الحديث" انتهى. من "الأنوار الكاشفة" (ص٩٠).

إلا أنه يمكننا أن نستثنى هنا ما إذا احتاج مربى الدابة إلى جلب الدابة إليه، ولم يجد ما يتوصل به إلى ذلك، أو كان فى مرحلة التدريب مثلا للاستئناس، وكانت تلك العادة إحدى الطرائق المهمة فى التدريب، فلا نرى حرجا فى هذه الحالات فى استعمال طريقة الإيهام للحاجة إليها. ومعلوم أن الحاجة تبيح بعض ما ورد منعه فى الشريعة إذا كان إنما منع لغيره أو منع على سبيل كمال الخلق والأدب لا سيما وما هنا ليس كذبا صريحا، وإنما هو فعل موهم. والله أعلم".

وواضح تمام الوضوح أن الكاتب، الذى تشدد فى مبدإ الأمر، قد تراجع عن كل ما قال تحت دعاوى سطحية، إذ المغالِى فى المثالية سرعان ما يجد نفسه عاجزا عن تطبيق مثاليته، فيتلعثم فى تصرفاته ومواقفه ويرجع القهقرى كأنه لم يقل شيئا. وبمنطق الكاتب يحرم على صاحب الحقل أن ينصب فى حقله "خيال مقثأة" لإفزاع الطيور حتى لا تأكل الحب وتفسد الزرع لأن خيال المقثأة ليس إنسانا حقيقيا بل مجرد تمثال من العيدان والخرق القديمة، ويحرم وضع مصيدة الفئران فى البيت وفيها قطعة من الجبن لأنها وسيلة للضحك على ذقون الفئران المساكين الصادقين الذين لا تخرج منهم العيبة، ويحرم تغطية زُبْيَة الأسد لأن فيها خداعا لملك الغابة يراد منها إسقاطه فى الحفرة المغطاة حين يمر من هناك كى نتخلص من شره ووحشيته... إلخ. وعلينا، حين نريد إعطاء حقنة للطفل الصغير أن نصف له ما سوف يحصل معه بكل تفصيل عند أخذ الحقنة مع إبراز الألم الشديد الذى سيشعر به جراء إدخال إبرة معدنية فى لحمه أو

شريانه، وإلا كنا مخاتلين كذابين يعاقبهم الله يوم القيامة أشد العذاب جراء كذبنا الغليظ على الطفل الطيب البرىء، ولن يشفع لنا أننا أردنا التخفيف عنه وتجنيبه الرعب بقدر المستطاع.

ولعل القارئ قد لاحظ أننى فيما كتبته هنا عن أحاديث رسول الله ورواتها وجامعيها كنت حريصا على الواقعية وكشف الستر عن المبالغات التى لا تدخل العقل ولا يوافق عليها المنطق. وفى ضوء هذا الكلام يستطيع القارئ الكريم أن يتفهم موقفى حين فندت طائفة من الحكايات والروايات التى تتصل بالحديث النبوى الشريف. إننى لا أنكر الجهد العظيم الذى بذله رجال الحديث والعبقرية النادرة التى مارسوا بها عملهم، وأقر بالفضل الكبير الذى أغدقوه علينا وبالمنة الهائلة التى طوقوا بها أجيادنا والخدمات الثمينة التى قدموها للإسلام، لكنى أعرف طوال الوقت أنهم فى نهاية المطاف بشر. ومن ثم لم أجد داعيا لترك تلك الحكايات المغالية دون أن ألقى عليها الضوء كى يعرف القارئ أن بشريتهم تعنى أن لهم حسناتهم وتقصيراتهم وأن لقدراتهم ومواهبهم حدودا لا تُتَخَطَّى لا تنافى اعترافنا بعبقرياتهم وإخلاصهم.

وفى كتاب "الرحلة فى طلب الحديث" للخطيب البغدادى: "أَخْبَرَنَا عَلِى بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ الْمُقْرِى إِجَازَةً، وَحَدَّثَنِيهِ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَلَّالُ عَنْهُ قِرَاءَةً، ثنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ الْقَرْمَنْسِينِى، ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ أَبِى حَمْزَةَ، ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ وَزِيرٍ الْوَاسِطِى، قَال: سَمِعْتُ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ يَقُولُ لِحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ: يَا أَبَا إِسْمَاعِيلَ، هَلْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَصْحَابَ الْحَدِيثِ فِى الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: "فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ"؟ فَهَذَا فِى كُلِّ مَنْ رَحَلَ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ، وَرَجَعَ بِهِ إِلَى مَنْ وَرَاءَهَ فَعَلَّمَهُ إِيَّاهُ". وطبعا لم يكن الارتحال فى طلب الحديث قد عرف بعد على النحو الذى عرف لاحقا، لكن أصحاب كل حرفة يحبون أن يعلوا من شأنها ويرونها فى كل شىء. ومن هنا أدخل أصحاب الحديث طلب الحديث وتعليمه للآخرين فى هذه الآية بعدما وسعوا مداها من الحرص على سماع ما ينزل من الوحى القرآنى على الرسول بالمدينة حين تكون السرايا خارجة فى مهماتها، وتوصيله لمن كان فى السرايا وعاد ويريد أن يتعلم الجديد من القرآن.

وساق القرطبى فى تفسيره لهذه الآية رأى من قال إنهم هم أهل الحديث بالذات: "رَوَى عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ. قَالَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ: إِنْ لَمْ يَكُونُوا أصحاب الحديث فلا أدرى من هم؟ قُلْتُ: وَهَذَا قَوْلُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ فِى تَأْوِيلِ الْآيَةِ: إِنَّهُمْ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ. ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِى". ولست أظن أن المقصود حصريا هم أهل الحديث بل طائفة من أمة المسلمين لا يضلون مع الضالين ويظلون مستمسكين بالحق حتى يلقوا ربهم. ويدخل فيهم كل من ينطبق عليه حديث الرسول. ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد، إذ نقرأ فى "شرف أصحاب الحديث" للخطيب البغدادى عن أبى عَبْدِ اللَّهِ الْمَرْوَزِى "أَنَّ رَجُلًا رَأَى يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ بَعْدَ مَوْتِهِ فِى النَّوْمِ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ" أَبَاحَنِى الْجَنَّة. قَالَ: بِالْقُرْآنِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَبِمَاذَا؟ قَالَ: بِالْحَدِيثِ". وهو كلام لا أدرى كيف يجرو على التلفظ به قائله.

على أن طلب الحديث هو رغم ذلك ميدان من أعظم ميادين العلم، ودائما ما أقول: لو، لا قدر الله، سقطت السنة كما يريد من يَتَسَمَّوْن كذبا وزورا بـ"القرآنيين" لضاع الإسلام بتشظِّيه بين المسلمين، إذ يصير لكل واحد أو عصبة منهم إسلام خاص يختلف عما عند الآخرين، ولتحاربوا وتفانَوْا. فأنا، حين أرد على مؤوِّلى الآية بحيث تقع على أهل الحديث وحدهم، لا أحاول البتة الغض من شأن حديث رسول الله بل أحببت أن أوضح الأسلوب الذى يلجأ إليه البشر لتعظيم تخصصاتهم وتفضيلها على غيرها من التخصصات.

مصطلحات حديثية

الحديث إما مقبول، وهو الصحيح، وإما مردود وهو الضعيف. لكن علماء الحديث اصطلحوا على تقسيم ثلاثى للحديث: صحيح وحسن وضعيف. ويبقى الحديث الموضوع، وهو المختلق على رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أو على غيره من الصحابة والتابعين، وهذا ليس حديثًا فى الواقع، ويُسْقِط عنه صفةَ الحديث إثباتُ وضعه. وهذه الأقسام الحديثية الثلاثة تشتمل على أنواع كثيرة تندرج تحتها، ومن هذه الأنواع ما هو خالص للصحة أو للحسن أو للضعف، وما هو مشترك بين الصحيح والحسن فقط، ثم ما هو مشترك بين الثلاثة على السواء: الصحيح والحسن والضعيف.

فالحَدِيثِ الصَّحِيحُ هو الحَدِيثُ المُسْنَدُ الذِى يَتَّصِلُ إِسْنَادُهُ بِنَقْلِ الشخص الْعَدْلِ الضَّابِطِ عَنِ الْعَدْلِ الضَّابِطِ حَتَّى يَنْتَهِى إِلَى رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَوْ إِلَى مُنْتَهَاهُ مِنْ صَحَابِى أَوْ مَنْ دُونَهُ، وَلاَ يَكُونُ شَاذًّا وَلاَ مُعَلَّلًا. والشخص العدل هو المستقيم التام فى شؤون الدين فسَلِمَ من الفسق ومن خوارم المروءة. والشخص الضابط هو من يسمع الرواية كما ينبغى ويفهمها فهما دقيقا ويظل هكذا من لحظة السماع إلى لحظة الرواية ويحفظها حفظا كاملا لا تردد فيه. ومعنى أن الحديث الصحيح هو ما اتصل إسناده من راويه إلى منتهاه. ولذلك يقال فى وصفه إنه متصل أو موصول. أما الحديث المرسل فهو الذى سقط منه الصحابى، ففقد الاتصال فى السند، فهو على الأرجح ضعيف لا صحيح. وكذلك الحديث المنقطع غير صحيح لأن رجلًا سقط من إسناده، أو لأن رجلًا مُبْهَمًا ذُكِر فى هذا الإسناد. أما الحديث المُعْضَل فهو الحديث الذى سقط من إسناده اثنان فأكثر. كذلك فالحديث الصحيح لا يكون شَاذًّا، وهو ما رواه الثقة مُخَالِفًا رواية الثقات. وبالمثل لا يكون الحديث الصحيح مُعَلَّلًا، أى ليس فيه عِلَّةٌ خَفِيَّةٌ تقدح فى صِحَّتِهِ، وإن كان يبدو غير معلول. فرجال السند فى الصحيح كلهم عدول ضابطون. فإن عرى أحدهم عن صفة من صفات العدالة أو الضبط صار الحديث ضعيفا.

والصحيح على قسمين: صحيح لذاته وصحيح لغيره. فالصحيح لذاته هو ما اشتمل من صفات القبول على أعلاها، أما الصحيح لغيره فهو ما صُحِّحَ لأمر أجنبى عنه، كالحَسَن، فإنه إذا رُوِى من غير وجه ارتقى إلى منزلة الصحة. وكما يوصف الصحيح بأنه مُسْنَدٌ وَمُتَّصِلٌ يوصف كذلك بأنه متواتر أو آحادى، ويجوز وصفه أيضا بأنه غريب أو مشهور.

فالمتواتر هو الحديث الصحيح الذى يرويه جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم فى أول السند ووسطه وآخره. وينقسم المتواتر إلى لفظى ومعنوى.فالمتواتر اللفظى هو الذى رواه الجمع المذكور فى أول السند ووسطه وآخره بلفظ واحد وصورة واحدة. وذلك مثل حديث "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا"، الذى رواه أكثر من أربعين صحابيا. أما المتواتر المعنوى فيكتفى فيه بأداء المعنى ولو اختلفت رواياته، عن الجمع الذين يحيل العقل والعادة تواطؤهم على الكذب، وهو كثير جِدًّا. ومثاله أَحَادِيثَ رَفْعِ اليَدَيْنِ فِى الُّدعَاءِ، فقد رُوِى عنه صلَّى الله عليه وسلَّم نحو مائة حديث فى رفع يديه فى الدعاء، لكنها فى قضايا مختلفة، فكل قضية منها لم تتواتر، والقدر المشترك فيها، وهو الرفع عند الدعاء، تواتر باعتبار المجموع. ولا خلاف بين المحدِّثين فى أن كُلًّا من المتواتر اللفظى والمعنوى يوجب العلم القطعى اليقينى،

وإنما يختلفون فى الحديث الصحيح الآحادى: هل يفيد الظن أم القطع؟ فالنووى يراه ظنى الثبوت، وأكثر أهل الحديث يقطعون منه بما أخرجه البخارى ومسلم، وبعضهم يُرَجِّحُونَ أن الآحادى الصحيح، سواء أخرجه الشيخان أو سواهما، يفيد العلم القطعى اليقينى كالمتواتر بقسميه عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ. والحديث الصحيح يُسَمَّى:"غَرِيبًا" إذا تفرد بروايته واحد ثقة، وتكون غرابته فى المتن تارة، وفى الإسناد تارة أخرى. وَيُسَمَّى:"مَشْهُورًا" إذا اشتركت جماعة فى روايته عن الشيخ الثقة.

غير أن درجة الصحة ليست واحدة فى كل ما سُمِّى: "صحيحًا" ولا فى جميع الكتب المشتملة على الصحيح، بل المحدِّثون يعرفون الصحيح والأصح، كما سنرى أنهم يعرفون الضعيف والأضعف. وهم يعتقدون أن رُتَبَ الصحيح تتفاوت بتفاوت الأوصاف المقتضية للتصحيح فى القوة. ولم يسَع النووى، تجاه هذا التفاوت، إلا أن يُقَسِّمَ الصحيح سبعة أقسام: أعلاها ما اتفق عليه البخارى ومسلم، ثم ما انفرد به البخارى، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما كان على شرطهما وإن لم يُخْرِجَاهُ، ثم على شرط البخارى، ثم على شرط مسلم، ثم ما صححه غيرهما من الأئمة. وتتفاوت كذلك رُتَبُ الصحيح بتفاوت الأمصار التى روته، ويوشك أكثر العلماء أن يجزموا بأن أصح الأحاديث ما رواه أهل المدينة، فهى دَارُ السُنَّةِ المُشَرَّفَةِ. ويذكر ابن تيمية مثلا أنه قد اتَّفَقَ أَهْلُ العِلْمِ بِالحَدِيثِ عَلَى أَنَّ أَصَحَّ الأَحَادِيثِ مَا رَوَاهُ أَهْلُ المَدِينَةِ، ثُمَّ أَهْلُ البَصْرَةِ، ثُمَّ أَهْلُ الشَّامِ. وبالمثل اختلف أئمة الحديث فى أصح الأسانيد، فذكر كل منهم ما أداه إليه اجتهاده. ولكل صحابى رواة من التابعين، ولهم أتباع، وأكثرهم ثقات، فلا يمكن أن يُقْطَعَ الحكم فى أصح الأسانيد لصحابى واحد.

وقد يَعْدِلِ نقاد الحديث عن قولهم:"حَدِيثٌ صَحِيحٌ" إلى قولهم: "صَحِيحُ الإِسْنَادِ" يريدون أن صحة السند لا تستلزم صحة المتن لجواز أن يكون فى المتن شذوذ أو علة. وإذا أرادوا صحة السند والمتن معًا أَوْرَدُوا العبارة مطلقة فقالوا: هذا حديث صحيح. وهذه العبارة المطلقة أرقى من قولهم: "صَحِيحُ الإِسْنَاد" بهذا التقييد. وإذا قال المُحَدِّثُونَ: "أَصَحُّ شَىء فِى البَابِ كَذَا" فلا يلزم من هذا التعبير صحة الحديث، إذ هم يقولونه حتى لو كان الحديث ضعيفًا، ويقصدون أنه أرجح ما فى الباب أو أَقَلُّهُ ضعفًا.

والحَدِيثُ الحَسَنُ هو ما اتصل سنده بنقل شخصٍ عَدْلٍ خفيف الضبط، وَسَلِمَ من الشذوذ وَالعِلَّةِ. وأهم ما فى هذا التعريف أن الشخص العدل فى الحَسَن خفيف الضبط بينما هو فى الصحيح تام الضبط. وَكِلاَ القسمين سالم من الشذوذ والعلة، وكلاهما يُحْتَجُّ بِهِ ويستشهد بمضمونه. والحديث الحسن نوعان: حسن لذاته، وحسن لغيره. وإذا أطلق الحديث الحسن انصرف إلى الحَسَن لذاته. وإنما سُمِّى:"حَسَنًا لِذَاتِهِ" لأن حُسْنَهُ ناشئ عن شىء ذاتى فيه لا خارج عنه. فهو قد بلغ بنفسه درجة الصحيح فى شروطه، وإن كان أخف منه فى ضبط رجاله. أما الحسن لغيره فهو ما فى إسناده مستور لم تتحقق أهليته ولا عدم أهليته غير أنه ليس مُغَفَّلًا كثير الخطإ ولا مُتَّهَمًا بالكذب، ويكون متنه مُعَضَّدًا بمتابع أو شاهد.

و"جامع الترمذى" أصل فى معرفة الحديث الحَسَن، والترمذى هو الذى نَوَّهَ بذكر الحديث الحسن، وهو أول من عُرِفَ أنه قَسَّمَ الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف. وفى "جامع الترمذى"

عبارتان يحسن أن تفهما بوضوح، وإلا أوقعتا القارئ فى اللَّبْسِ والإبهام: إحداهما عبارة "حديث حسن صحيح"، والأخرى "حديث حسن صحيح غريب". وأفضل ما يجاب به عن الأول أن الرواية التى وصفت بـ"الحُسْنِ" ثبتت من طريق أخرى لها شروط الصِحَّةِ، فما يقول فيه الترمذى: "حَسَنٌ صَحِيحٌ" أعلى عنده من الحسن ودون الصحيح. وأما وصف الحَسَن الصحيح بالغرابة فقائم على أن الصحيح يروى أحيانًا من وجه واحد فيكون غريبًا، فالحَسَن الذى هو دون الصحيح أجدر أن يوصف كذلك بأنه غريب.

والحَسَن لذاته إذا رُوِى من وجه آخر تَرَقَّى من الحَسَن إلى الصحيح بسبب قوّته من الجهتين، فيعتضد أحدهما بالآخر، وذلك لأن الراوى فى الحَسَن متأخر عن درجة الحافظ الضابط مع كونه مشهورًا بالصدق والستر، فإذا رُوِى حديثه من أكثر من وجه قَوِى بالمتابعة وزال ما كان يخشى عليه من جهة سوء حفظ راويه، فارتفع حديثه من درجة الحَسَن إلى الصحيح. وإلى جانب الترمذى، الذى كان أول من نَوَّهَ با لحديث الحسن، نجد فى الطبقة التى سبقته كأحمد والبخارى، وفى متفرقات من كلام مشايخه، أحاديث تغلب عليها صفة الحسن، فهى دون الصحيح، وأعلى من الضعيف.

ويرى ابن الصلاح أن من مظانّ الحسن "سنن أبى داود"، إذ يروى عنه أنه قال: "ذَكَرْتُ الصَّحِيحَ وَمَا يُشْبِهُهُ وَيُقَارِبُهُ، وَمَا كَانَ فِيهِ وَهَنٌ شَدِيدٌ بَيَّنْتُهُ. وَمَا لَمْ أَذْكُرْ فِيهِ شَيْئًا فَهُوَ صَالِحٌ، وَبَعْضُهَا أَصَحُّ مِنْ بَعْضٍ"، فَيُعَقِّبُ ابن الصلاح على عبارة أبى داود هذه بقوله: "فَمَا وَجَدْنَاهُ فِى كِتَابِهِ مَذْكُورًا مُطْلَقًا وَلَيْسَ فِى وَاحِدٍ مِنَ "الصَّحِيحَيْنِ" وَلاَ نَصَّ عَلَى صِحَّتِهِ أَحَدٌ فَهُوَ حَسَنٌ عِنْدَ أَبِى دَاوُدَ. ويبدو أن تعقيب ابن الصلاح مُسْتَمَدٌّ من منهجه الذى سار عليه من ضرورة منع المتأخرين من الحكم على حديث ما بالصحة إذا لم يكن فى أحد "الصحيحين" ولم يَنُصَّ أحد من الأئمة على صحته. وللبغوى فى كتابه: "مصابيح السنة" اصطلاح خاص فى تمييز الصحيح والحسن: فأما الصحيح فهو ما أخرجه الشيخان أو أحدهما، وأما الحسن فهو ما رواه أبو داود والترمذى وأشباههما. وقد اعترض عليه كثيرون، ولم يجدوا مسوغًا لاصطلاحه الخاص.

على أن وصف النُقَّاد حديثًا ما بـ"الصِحَّةِ" أو "الحُسْنِ" لا يمنع أن يوصف بألقاب أخرى توحى بقبوله وإمكان الاحتجاج به. ومن هذه الألفاظ "جَيِّدٌ، وَمُجَوَّدٌ، وَقَوِى، وَثَابِتٌ، وَمَحْفُوظٌ، وَمَعْرُوفٌ، وَصَالِحٌ، وَمُسْتَحْسَنٌ". ويلاحظ فى هذه الألقاب أن المعنى اللغوى أغلب عليها من مصطلح المحدِّثين. أما وصف كل من "الصحيح والحسن" بـ"الصَّالِحِ" فواضح فى نفسه لأن المراد صلاحيتهما للاحتجاج. وعلى هذا يقول المُحَدِّثُونَ فى"سنن أبى داود" إن أحاديثه صالحة، لأنها تشمل الصحيح والحسن. ومن المباحث المشتركة بين الصحيح والحسن أن الحكم بالصحة أو بالحسن على أحد الأسانيد لا يلزم منه حكمنا بذلك على المتن، فقد يكون شَاذًّا أَوْ مُعَلَّلًا. ويقول علماء الحديث فى ذلك: مَا كُلُّ مَا صَحَّ سَنَدًا صَحَّ مَتْنًا.

والحَدِيثُ الضَّعِيفُ هو مَا لَمْ يَجْمَعْ صِفَةَ الصَّحِيحِ أَوِ الحَسَنِ. وقد جمع بعض العلماء الصور العقلية لأقسام الحديث الضعيف من خلال فقده شروط الصحة والحسن، فخرج بإحدى وثمانين وثلاثمائة

صورة أكثرها غير واقعى ولا يحمل عنوانًا مُعَيَّنًا بين أقسام الحديث الضعيف المصطلح عليها لدى المشتغلين بهذا العلم، بينما وقفتُ لدى ابن الصلاح عند اثنتين وأربعين صورة. وها هى ذى بعض تلك الصور:

المُرْسَلُ: وهو ما سقط منه الصحابى كقول نافع: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كذا، أو فعل كذا، أو حدث بحضرته كذا، ونحو ذلك. فهو إذن مرفوع التابعى مطلقًا، وسبب ضعفه فقد الاتصال فى السند، وإنما سُمِّى: "مُرْسَلًا" لأن رَاوِيهِ أرسله وأطلقه فلم يُقَيِّدْهُ بالصحابى الذى تَحَمَّلَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. وليس المرسل حُجَّةً فِى الدِّينِ. ومع هذا فأكثر أهل العلم يحتجون بمراسيل الصحابة لأن الصحابى الذى يروى حديثًا لم يتيسر له سماعه بنفسه مِنْ رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم غالبًا ما تكون روايته عن صحابى آخر قد تحقق أَخْذُهُ عَنْ الرَّسُولِ عليه السلام. فسقوط الصحابى الآخر من السند لا يضر، كما أن جهل حاله لا يضعف الحديث لأن ثبوت شرف الصحبة له كاف فى تعديله. ويتعذر إنكار مراسيل الصحابة، فأكثر الرواية عن ابن عباس مرسلة لِصِغَرِ سِنِّهِ فى حياة رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، إذ مات عَلَيْهِ السَّلاَمُ وسن ابن عباس حوالى ثلاث عشرة سَنَةً. والمرسل مراتب، أعلاها ما أرسله صحابى ثبت سماعه، ثم صحابى له رؤية فقط ولم يثبت سماعه، ثم المخضرم، ثم المتقِن كسعيد بن المسيب. ويلى هذه المرتبة مرتبة من كان يتحرى فى شيوخه، كالشعبى ومجاهد. ودونها مراسيل من كان يأخذ عن كل أحد، كالحَسَن...

المُنْقَطِعُ: وهو الحَدِيثُ الذِى سَقَطَ مِنْ إِسْنَادِهِ رَجُلٌ أَوْ ذُكِرَ فِيهِ رَجُلٌ مُبْهَمٌ. فهو كالمرسل من هذه الناحية. ومثال ما سقط من إسناده رجلٌ الحديثُ الذى رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ الثَّوْرِى عَنْ أَبِى إِسْحَاق عَنْ زَيْدِ بْنِ يُثَيْعٍ عَنْ حُذَيْفَةَ مَرْفُوعًا: "إِنْ وَلَّيْتُمُوهَا أَبَا بَكْرٍ فَقَوِى أَمِينٌ". فقد سقط من إسناده شريك بين الثورى وبين أبى إسحاق، لأن الثورى لم يسمع الحديث من أبى إسحاق مباشرة، وإنما سمعه من شريك، وشريك هذا سمعه من أبى إسحاق. ومثال ما ذكر فيه رجل مُبْهَمٌ حديث "اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِى الأَمْرِ"، الذى رواه أَبُو العَلاَءِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ عن رجلين عن شداد بن أوس. فهَذَانِ الرَّجُلاَنِ مبهمان، وقد تكون الرواية فى أحاديث أخرى عن رجل واحد مُبْهَم. وقد يُرْوَى الحديث وفى إسناده رجل غير مُسَمَّى وليس بمنقطع. مثاله حَدَّثَنَا شَيْخٌ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: "يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُخَيَّرُ الرَّجُلُ بَيْنَ العَجْزِ وَالْفُجُورِ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَلْيَخْتَرِ الْعَجْزَ عَلَى الْفُجُورِ" لأن هذا الرجل المبهم هو عمر الجدلى كما جاء فى رواية أخرى.

المُعْضَلُ: هو الحديث الذى سقط منه راويان متواليان فأكثر، وهو قسم من المنقطع، فكل معضل منقطع، ولكن ليس كل منقطع معضلًا. ومن المعضل ما أرسله تابع التابعى كهذا الحديث الذى رواه الأَعْمَشُ عَنِ الشَّعْبِى: "يُقَالُ لِلرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: لاَ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ" لأن الشعبى إنما رواه عن أنس، وأنس رواه عن رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. فقد أعضل الأعمش الحديث بحذف اسْمَىْ أَنَس وَرَسُول اللهِ من إسناده. وكما نرى فالمعضل أسوأ من المنقطع،

والمنقطع أسوأ من المرسل، والمرسل لا تقوم به حُجَّةٌ. وإنما يكون المعضل أسوأ حالًا من المنقطع إذا كان الانقطاع فى موضع واحد من الإسناد، فأما إذا كان فى موضعين أو أكثر فإنه يساوى المعضل فى السوء.

المُدَلَّس. وهو قسمان: أحدهما مدلس الإسناد، وهو الحديث الذى يُؤَدِّيهِ الراوى عمن عاصره ولقيه مع أنه لم يسمعه منه، أو عمن عاصره ولكنه لَمْ يَلْقَهُ مُوهِمًا أنه سمعه من لفظه. مثال ذلك قَوْلُ عَلِى بْنِ خَشْرَمَ: "كُنَّا عِنْدَ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ فَقَالَ: قَالَ الزُّهْرِى كَذَا. فَقِيلَ لَهُ: أَسَمِعْتَ مِنْهُ؟ قَالَ: حَدَّثَنِى بِهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرَ عَنْهُ". فسفيان قد عاصر الزهرى ولقيه، ولكنه لم يسمع منه، وإنما أخذ عن عبد الرزاق، وعبد الرزاق أخذ عن معمر، ومعمر أخذ عن الزهرى. فالتدليس هنا إسقاط سفيان لشيخيه وإيراده الحديث بصيغة توهم سماعه من الزهرى مباشرة. وهذا أشد قسمى التدليس وأشنعهما وأدلهما على الكذب. وكان الشافعى يَرُدّ مُطْلَقًا من عُرِف بالتدليس فى الإسناد ولو مرة واحدة، ولكن أكثر العلماء على أن الراوى الذى نسب إلى التدليس يُقْبَل من روايته ما صرح فيه بلفظ السماع، ويُرَدّ منها ما كانت عبارته محتملة مبهمة. أما القسم الثانى فتدليس الشيوخ، وهو أن يصف راويه بأوصاف أعظم من حقيقته أو يسميه بغير كنيته بقصد التعمية كما فى قول الراوى: "حدثنا العلامة الثبت، أو الحافظ الضابط"، أو ينسب أحد رواته إلى جده مثلا بدلا من أبيه. ويرى ابن الصلاح أن الخطيب البغدادى كَانَ لَهِجًا بِهَذَا التَّقْسِيمِ فِى مُصَنَّفَاتِهِ. لكن لا نظن أن الحافظ الخطيب كان يقصد تعمية أمر واحد من هؤلاء الشيوخ. ومن التدليس تدليس العطف، كأن يقول الراوى: "حدثنا فلان وفلان" رغم أنه لم يسمع من الثانى المعطوف. ومنه تدليس السكوت، كأن يقول: "سَمِعْتُ" أو "حَدَّثَنَا" أو "حَدَّثَنِى" ثم يسكت ثم يقول: "الأَعْمَشُ" مثلًا، موهمًا أنه قد سمع منه، مع أنه لم يحدث. ومنه تدليس التسوية، وهو أن يسقط من سلسلة الإسناد راويا لضعفه أو صغر سنه ليكون الحديث مَرْوِيًّا عن الثقات فقط فيحكم له بالقبول. وممن اشتهر بذلك الوليد بن مسلم، إذ كان يحذف شيوخ الأوزاعى الضعفاء ولا يذكر إلا الثقات، ولما سئل عن ذلك أجاب بأن الأوزاعى أسمى من أن يروى عن هؤلاء.

وعبارات المدلسين تنطوى على خبث شديد، فقد يستخدم بعضهم لفظا مبهما متشابها تعظيمًا لشأن شيخه من خلال تعظيم البلد أو الحى الذى ينسب إليه كما إذا قال راوٍ مصرى مثلا:"حَدَّثَنِى فُلاَنٌ بِالأَنْدَلُسِ"، وهو يريد موضعًا بالقرافة له نفس الاسم، أو قال: "بِزُقَاقِ حَلَب"، وهو يريد موضعًا بالقاهرة، أو قال راو بغدادى: "حَدَّثَنِى فُلاَنٌ بِمَا وَرَاءَ النَّهْرِ"، وهو يقصد ما وراء نهر دجلة. ففى ذلك إيهام للسامع بأنه رحل فى طلب الحديث. والحافظ ابن حجر يطلق على هذا اللون من التعميه: "تدليس البلاد".

المُعَلَّلُ. وهو الحديث الذى اكتشفت فيه علة تقدح فى صحته رغم أنه يبدو فى الظاهر بلا علة. واكتشاف علة الحديث يحتاج إلى اطلاع كبير، وحافظة قوية، وفهم دقيق لأن العلة نفسها سبب غامض يخفى حتى على المشتغلين بعلوم الحديث. وقد يتمكن المتمرس بهذا الفن من معرفة إحدى العلل الغامضة بضرب من الإلهام يشرح اللهُ به صدره. قيل لعبد الرحمن بن مهدى: إِنَّكَ تَقُولُ لِلشَّىء: هَذَا صَحِيحٌ، وَهَذَا لَمْ يَثْبُتْ. فَعَمَّنْ تَقُولُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَتَيْتَ النَّاقِدَ فَأَرَيْتَهُ دَرَاهِمَكَ، فَقَالَ: "هَذَا جِيدٌ،

وَهَذَا بَهْرَجٌ" أَكُنْتَ تَسْأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ أَوْ تُسْلِمُ الأَمْرَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ كُنْتُ أُسْلِمُ الأَمْرَ إِلَيْهِ. قَالَ: فهذا كَذَلِكَ لِطُولِ المُجَالَسَةِ وَالمُنَاظَرَةِ وَالْخُبْرِ بِهِ.

وأكثر ما يتطرق التعليل إلى الإسناد الجامع لشروط الصحة ظاهرًا، وحينئذٍ تدرَك العلة بتفرد الراوى وبمخالفة غيره له مع قرائن تنضم إلى ذلك تنبّه الناقد على وهمٍ وقع: بإرسال موصول أو وقف مرفوع، أو دخول حديث فى حديث، بحيث يغلب على ظنه أن الحديث غير صحيح، أو يتردد فيتوقف فيه. والطريق إلى معرفة المعلل هو جمع طرق الحديث والنظر فى اختلاف رواته وضبطهم وإتقانهم.

المُضْطَرِبُ. وهو الحديث الذى تتعدد رواياته، ولكنها متساوية متعادلة لايمكن ترجيح إحداها. وقد يرويه راو واحد مرتين أو أكثر، أو يرويه اثنان أو رواة متعددون. ومنشأ الضعف فيه ما يقع من الاختلاف حول حفظ رواته وضبطهم لأن انتفاء هذا الاختلاف معناه رجحان إحدى الروايات بما ثبت لراويها من حفظ أو ضبط أو طول سماع لمن أدى عنه. لذلك لا يسمى: "مُضْطَرِبًا" إذا ترجحت فيه إحدى الروايتين أو الروايات. والاضطراب يقع فى الإسناد غالبًا، وقد يقع فى المتن، لكن قل أن يحكم المحدث على الحديث بالاضطراب فى المتن وحده دون الإسناد. فمن الاضطراب فى الإسناد حديث أَبِى بَكْرٍ أَنَّهُ قَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَاكَ شِبْتَ. قَالَ: شَيَّبَتْنِى هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا". فهذا حَدِيثٌ مُضْطَرِبٌ لأَنَّهُ لَمْ يُرْوَ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ أَبِى إِسْحَاقَ، وَقَدِ اخْتُلِفَ عَلَيْهِ فِيهِ عَلَى نَحْوِ عَشَرَةِ أَوْجُهٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ رَوَاهُ مُرْسَلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ رَوَاهُ مَوْصُولًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ مُسْنَدِ أَبِى بَكْرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ مُسْنَدِ سَعْدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ مُسْنَدِ عَائِشَةَ... وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ لاَ يُمْكِنُ تَرْجِيحُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَالجَمْعُ مُتَعَذِّرٌ.

وقد يتبادر إلى ذهن الباحث أن الاختلاف فى هذا الإسناد المضطرب على هذه الأوجه المتباين لا ينبغى أن يمنع صحة الحديث ما دام مرددًا بين ثقات متساوين يتعذر بينهم الترجيح. وهذا الفهم المتبادر مقبول إجمالًا، غير أن الحكم على الحديث عند التعارض مثلًا لا بد أن يصنف رواياته درجات فيها الصحيح وفيها الأصح. فالحديث الذى لم يُخْتَلَف فيه عن راويه أصلًا يكون أصح من الحديث المُخْتَلَف فيه فى الجملة. ومن هنا كان مجرد الاضطراب فى الإسناد أمارة على الضعف لأن تساوى الروايات فى الدرجة وعدم تعارضها يمنعان الحكم بأن واحدا منها أصح من الباقى، فكأن تساويها فى الصحة تساوٍ فى الضعف إذ لا مرجح للأخذ بواحدة منها دون الباقى.

ومثال الاضطراب فى المتن حديث البسملة الذى أخرجه مسلم فى "صحيحه" من رواية الوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، قَالَ: "حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِى عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَيْهِ يُخْبِرُهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُ قَالَ: "صَلَّيْتُ خَلَفَ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم وَأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِـ"الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" لاَ يَذْكُرُونَ "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" فِى أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلاَ فِى آخِرِهَا". فهذه العبارة الأخيرة التى ينص فيها الراوى على نفى قراءة البسملة هى المتن المضطرب فى هذا الحديث لأن مسلمًا والبخارى اتفقا على إخراج رواية أخرى فى الموضوع نفسه لا يتعرض فيها لذكر البسملة بنفى أو إثبات، وإنما يكتفى الراوى بقوله: فكانوا يستفتحون القراءة بِـ"الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ". يقصد أن الفاتحة هى السورة التى كانوا يستفتحون بها. ولو وقف الأمر عند هذا الحد لأمكن ترجيح الحديث المتفق عليه، فلم نصف

الحديث الأول بالاضطراب، ولكن رواية ثالثة عن أنس تفيد أنه سئل عن الافتتاح بالتسمية، فأجاب أنه لا يحفظ فى ذلك شيئًا عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. وتردد مثله فى هذه المسألة يحسب له حسابه، فأصبح من الصعب إن لم يكن من المتعذر ترجيح ما يتعلق بالبسملة إثباتًا أو نفيًا، وتعذر الترجيح هو السبب المباشر فى وصف متن الحديث الأول بالاضطراب.

المَقْلُوبُ. وهو الحديث الذى انقلب فيه على أحد الرواة لفظ فى المتن، أو اسم رجل أو نسبه فى الإسناد، فقدَّم ما حقه التأخير، أو أخَّر ما حقه التقديم، أو وُضِعَ شيء مكان شيء. ومثال المقلوب فى المتن ما رواه مسلم فى "السَبْعَةَ الذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِى ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ". فنص الحديث فى "الصحيحين" هو "حتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ". ولكن المتن انقلب على أحد الرواة، فقدم اليمين وَأَخَّرَ الشمال. ومثال المقلوب فى الإسناد التقديم والتأخير فى الأسماء، كَمُرَّةَ بْنَ كَعْبٍ وَكَعْبَ بْنَ مُرَّةَ، لأن أحدهما اسم أبى الآخر. وفى هذين المثالين نجد أن القلب قد وقع سَهْوًا لاَ تعمدًا، فكان الحكم بضعف الحديث. ولو أنه وقع تعمدًا لاَ سَهْوًا لكان القلب نوعا من الوضع والتزييف.

الشَّاذُّ. وأهم ما يلاحظ فى الحديث الشاذ أمران: الانفراد والمخالفة. فهو بوجه عام ما رواه الثقة مُخَالِفًا الثقات، أو مَا رَوَاهُ المَقْبُولُ مُخَالِفًا لِمَنْ هُوَ أَوْلَى مِنْهُ.

المُنْكَرُ. وهو الحديث الذى يرويه الضعيف مُخَالفًا رواية الثقة. وهو يباين الشاذ، إذ إن راوى الشاذ هو الثقة بينما راوى المنكر هو الضعيف غير الثقة. وقد لوحظ فى المنكر أنه مقابل للمعروف، كما لوحظ فى الشاذ أنه مقابل للمحفوظ، لأن راوى المناكير إنما يخالف ما عُرِفَ واشتهر.

المَتْرُوكُ. وهو الحَدِيثُ الذِى رَوَاهُ رَاوٍ وَاحِدٌ مُتَّهَمٌ بِالكَذِبِ فِى الحَدِيثِ أَوْ ظَاهِرَ الفِسْقِ بِفِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ، أَوْ كَثِيرِ الغَفْلَةِ، أَوْ كَثِيرَ الوَهْمِ.

وهذه الأنواع العشرة ليست على درجة واحدة من الضعف، بل تتفاوت تَبَعًا لحال رواتها، فمن الضعيف ما هو أضعف، كما أن من الصحيح ما هو أصح.

هذا، ويتناقل الناس المقولة الشائعة بأنه يَجُوزُ العَمَلُ بِالضَّعِيفِ فِى فَضَائِلِ الأَعْمَالِ، فيسوغون بها جميع ما يتساهلون فى روايته من الأحاديث التى لم تصح عندهم، ويُدْخِلون فى الدين كثيرًا من التعاليم التى لا تستند إلى أصل ثابت معروف. ومن العلماء من لا يسلمون برواية الضعيف فى فضائل الأعمال ولو توافرت له جميع الشروط التى لاحظها المتساهلون. وهى ألا يكون المروى شديد الضعف، وأن يندرج تحت أصل كلى ثبت بالكتاب أو السنة الصحيحة، وألا يعارضه دليل أقوى منه. ووجهة نظرهم هو أن لنا مندوحة عن الأحاديث الضعيفة بما بين أيدينا من الأحاديث الصحاح والحسان الكثيرة، ولا يصح أن نخدم ديننا إلا بما قام على اليقين. ومن هنا لا يصح أن نقول عند الاستشهاد بحديث ضعيف: "قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم" كيلا يتوهم السامع أو القارئ أنه صحيح أو حسن، بل علينا أن نصرح بضعفه ونشفع قولنا بأحكام الحفاظ الذين اطلعوا على الطرق المختلفة التى ورد بها هذا الحديث واستلزمت وصفهم له بالضعف.

ومع هذا علينا التزام الحيطة فى حكمنا على أى حديث بالضعف. فإطلاق الحكم بالضعف معناه ضعف الحديث إسنادًا ومتنًا معا رغم أنه قد يكون ضعيفا فى الإسناد فقط أو فى المتن فقط، بل يحتمل أن يكون ضعفه فى إسناد معين، بينما تكون بقية أسانيده صحيحة لا يجوز الحكم بضعفها. فعلينا إذا وجدنا حديثًا بإسناد أو متن ضعيف أن نقول إِنَّهُ ضَعِيفٌ بِهَذَا الإِسْنَادِ بالذات أو بهذا المتن بالذات. على أن باب الاجتهاد لم يغلق فى الحديث، فكل من تخصص فى الحديث روايةً ودرايةً وتوافرت فيه شروط الاجتهاد التى كانت تتوافر فى الحفّاظ السالفين جاز له أن يحكم إطلاقًا بضعف حديث ما إن بحث عن جميع طرقه وغلب على ظنه أن متنه لم يرد بإسناد آخر صحيح. أما البادئ فى علم الحديث فإذا نقل رواية لا يعلم حالها فعليه استعمال صيغة التمريض، فيقول مثلًا: "رُوِى عَنْ رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كَذَا، أَوْ بَلَغَنَا كَذَا. وبالمقابل لا يصح أن يذكر بصيغة التمريض حديثًا صحيحًا يرويه بدون إسناده، لما يوهم ذلك من ضعفه، بل يقول:"قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم " دون تردد.

الجرح والتعديل

الجرح هو الطعن فى راوى الحديث من ناحية خلقه أو ذاكرته، والتعديل عكس ذلك. ولا يُعَدّ الجرح غِيبَةً بل عِلْمًا مهمًّا تحتاجه رواية الحديث، وإلا اختلط الحابل بالنابل ولم نستطع التفرقة بين الحديث الصحيح وغيره. والمفروض أن من يَجْرَح ويعدِّل يجب أن يكون هو نفسه من الخلق والحفظ بحيث يكون لنقده للرواة معنى، إذ لا يعقل أن يأتى من ليس عدلا ضابطا فيجرح ويعدّل. إنه ميزان، ولا يعقل أن يكون الميزان مختلا. كذلك ينبغى أن يكون الجارح المعدِّل متزنا فى أحكامه دون إفراط أو تفريط وأن يكون حذرا فى صياغة كلامه فلا يزيد عن الواقع ولا يقل عنه ولا يتعنت أو يتحيز. وبالمثل لا يصح أن نأخذ كلام المعدلين الجارحين من غير تثبت بل ينبغى أن نتحرى الصواب بكل ما نستطيع. وبوجه عام يرى علماء الحديث أن التعديل لا يشترط فيه إيراد أسبابه، وإلا كان على المعدِّل أن ينفى عمن يعدّله كل عيب، وهذا مرهق، بخلاف الجرح فلا بد فيه من ذكر الأسباب وأن تكون أسبابا مقبولة تخل فعلا بعدالة الراوى وحفظه. ومع هذا فالملاحظ أن كثيرا من أحكام الجرح فى كتب علماء الحديث غير مبررة، ويقبلها من يرجع إلى تلك الكتب فى كثير من الأحيان من باب الحذر والتثبت ليس غير. وهناك من الرواة من شاع الحكم عليهم بالعدالة والضبط أو شاع الحكم عليهم بالجرح وعدم الحفظ. وهؤلاء لا يشكلون عادة أية مشكلة. إنما تقع المشكلة فيمن اختلف علماء الجرح والتعديل حولهم، وهم ليسوا بالقليل. وبالمثل لا يكفى أن يقول العالم عمن حدثه بحديث رسول الله: "حدّثنى الثقة" دون أن يسميه، اللهم إلا إذا كان قائل ذلك من الأئمة الكبار كمالك والشافعى وأبى حنيفة وابن حنبل مثلا.

ولاختلاف العلماء فى جرح الرواة وتعديلهم قال الذهبى فى "الموقظة"، وإن كان فى كلامه مبالغة ما: "ومن ألفاظ التعديل أن يوصف الراوى بأنه "ثقة أو متقِن أو ثَبْت" أو "صدوق أو لا بأس به" أو "شيخ" أو "صالح الحديث". وكل لفظ من هذه الألفاظ يشير إلى درجة معينة فى التعديل. وأعلى من ذلك قولهم: "أوثق الناس، وأثبت الناس، وأضبط الناس، وإليه المنتهى فى التثبت، ولا أعرف له نظيرا فى الدنيا، ولا أحد أثبت منه، أو من مثل فلان؟ أو فلان لا يُسْأَل عنه". ويلى هذه الألفاظ "فلان ثقة ثقة، أو ثبت حجة، أو ثقة متقن. ويلى ذلك "فلان ثقة، أو متقن، أو حجة، أو إمام، أو عدل ضابط". ويلى هذا "لا بأس به، أو صدوق، أو مأمون، أو محله الصدق... إلخ". وفوق كل هذه المراتب يأتى الصحابة رضى الله عنهم. أما ألفاظ الجرح فمنها "ليّن الحديث" أو "ليس بقوى" أو "ضعيف الحديث" أو "متروك الحديث" أو "ذاهب الحديث" أو "كذاب". ومنها "فيه مقال، أو فيه ضعف، أو ليس بالقوى، أو ليس بذاك، أو ليس بالمَرْضِىّ، أو ليس بالحافظ، أو فيه ضعف، أو تكلموا فيه، أو سكتوا عنه، أو مطعون فيه، أو فيه نظر". وأسوأ من ذلك "فلان لا يحتج به، أو مضطرب الحديث، أو حديثه منكر، أو ضعيف". وأسوأ منه "فلان مردود الحديث، أو ليس بثقة، أو ضعيف جدا، أو واهٍ بمَرَّة، أو مطروح، أو لا يُكْتَب حديثه، أو لا تحل الرواية عنه". وأسوأ مما سبق "فلان متهم بالكذب، أو ساقط، أو متروك، أو غير ثقة، أو مُجْمَع على تركه". أما "فلان أكذب الناس، أو ركن الكذب، أو منبع الكذب" فأسوأ وأسوأ. وشروط العدالة والضبط أن يكون الراوى مسلما بالغا

عاقلا تقيا ضابطا لما يروى متيقظا غير مغفل، حافظا إن حدَّث من حفظه وضابطا لكتابه إن حدَّث من كتابه. فإذا تحقق فى الراوى العدالة والضبط فهو حجة يلزم العمل بحديثه، ويطلق عليه لقب "ثقة".

ومن أشهر كتب التعديل والجرح "التاريخ الكبير والتاريخ الأوسط" للبخارى، و"أحوال الرجال" لإبراهيم بن يعقوب الجوزجانى المتوفى سنة ٢٥٩ هـ، و"التاريخ" لعُبَيْد الله بن عبد الكريم أبى زرعة الرازى المتوفى سنة ٢٦٤ هـ، و"الجرح والتعديل" لعبد الرحمن بن محمد ابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ، و"الإرشاد فى معرفة علماء الحديث" للحافظ الخليل بن عبد الله القزوينى المتوفى سنة ٤٤٦ هـ، و"الكمال فى أسماء الرجال" لعبد الغنى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ، و"تهذيب الكمال فى أسماء الرجال" ليوسف بن عبد الرحمن أبى الحجاج المزى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ، و"تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال" للذهبى، و"تهذيب التهذيب" و"تقريب التهذيب" لابن حجر العسقلانى، و"تحرير التقريب" للشيخ شعيب الأرناؤوط والدكتور بشار عواد معروف.

ومن أشهر كتب التعديل "الثقات" للإمام أحمد بن عبد الله العجلى المتوفى ٢٦١هـ، و"كتاب الثقات" للإمام أبى حاتم محمد بن حبان البستى المتوفى ٣٥٤هـ، و"تذكرة الحفاظ" للإمام شمس الدين محمد الذهبى المتوفى ٧٤٨هـ. ومن أشهر كتب الجرح "الضعفاء" للبخارى، و"الضعفاء" للنسائى، و"الضعفاء" للعقيلى، و"الكامل فى الضعفاء" لإمام ابن عدىّ المتوفى ٣٦٥هـ، و"كتاب المختلطين" لصلاح الدين أبى سعيد خليل بن كيكلدى الدمشقى المتوفى سنة ٧٦١هـ، و"الاغتباط فيمن رُمِى فى الاختلاط" لإبراهيم بن محمد سبط بن العجمى المتوفى سنة ٨٤١هـ، و"الكشف الحثيث عمن رُمِى بوضع الحديث" لبرهان الدين الحلبى سبط ابن العجمى المتوفى سنة ٨٤١ هـ، و"تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس" و"لسان الميزان" لابن حجر العسقلانى، و"تذكرة المؤتسى فى من حدّث ونسى" لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ، و"الكواكب النيرات فى معرفة من اختلط من الرواة الثقات" لابن الكيال المتوفى سنة ٩٣٩هـ".

وأمر التعديل والجرح قائم على الاجتهاد، ومن هنا نجد فى أحيان كثيرة تعارضا بين العلماء فى هذا المجال. بل ربما يقع التعارض فى كلام الناقد نفسه، فيأتى عنه التعديل والجرح جميعًا لنفس الشخص. على أن الاختلاف فى هذا الباب ليس واقعًا فى جميع الرواة، بل يوجد كثيرون ثقات عدول متفق على قبولهم والاحتجاج بهم، مثلما فيهم مجروحون متَّفَق على جرحهم ولا يُحتج بهم، وفيهم المسكوت عن أمره، وفيهم المختلف فيه. وينبغى الاجتهاد فى التوفيق بين النصين المتعارضين عدالة وتجريحا، وإلا انتقل الأمر إلى العمل بالراجح. والناقد بشر من البشر يعتريه الغضب والحب والكره والغفلة والجهل والتسرع والمبالغة والخطأ فى التقدير والتأثر بالمعاصرة أو باختلاف المذهب والمشرب أو بالخصومات وما إلى ذلك. وقد يعدّل الناقدُ الراوى أولا، ثم يبدو له من أمره ما يوجب جرحه فيجرحه.

وهناك مبالغات واضحة فى مدح الرجال أحيانا: من ذلك ما جاء فى مقدمة د. نور الدين عتر لكتاب "الرحلة فى طلب الحديث" للخطيب البغدادى من أن أحمد بن حنبل كان يصلى من الليل مائة ركعة إلا إذا أتاه طالب علم، فكان يقلل النافلة ويقبل عليه يناقله الحديث. فمبلغ علمنا أن أحدا من

الصحابة لم يكن يتنفل بمائة ركعة يوميا. كما أن مسؤولية العالم واسعة وثقيلة ولا تترك له مثل هذا الوقت والجهد، فضلا عن أن العالم فى الإسلام مفضل على العابد بمسافة شاسعة كما جاء فى حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فانصرافه إلى العلم والتفكر فى قضاياه أهم وأفضل، وبخاصة أن الذهن لا يترك صاحبه يمارس عمله فى سكون بل يظل يلح عليه بما يتقلب فيه من أفكار وآراء وخواطر ومشاعر. كذلك من المعروف أن كثيرا من الأفكار إن لم تقيد فى وقتها طارت وصعب تذكرها واسترجاعها.

وعن الخطيب البغدادى يقول أبو الفرج الإسفرائينى، حسبما ذكر مقدم كتاب "الرحلة فى طلب الحديث" د. نور الدين عتر، إنه كان فى طريقه إلى الحج يختم القرآن كل يوم حتى مغيب الشمس قراءة ترتيل، ثم يهجم عليه طلاب الحديث يسألونه أن يحدثهم فيحدثهم. وهنا نتساءل بحق: هل يمكن أن يفعل أى شخص هذا كل يوم؟ بل هل يمكن أن يفعل أى شخص هذا أصلا؟ إن ختمة القرآن بالترتيل لا يمكن أن تستغرق أقل من عشرين ساعة، ومعنى ذلك أنه لا يبقى من اليوم سوى أربع ساعات للنوم. وهذا إن افترضنا، وهو مستحيل، أن الشخص لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحدا ولا يدخل الحمام ولا يتوضأ ولا يصلى ولا ولا ولا. وحتى إذا تسامحنا فى هذا كله وقلنا إنه سوبرمان ولا يحتاج إلى أكل أو شرب أو نوم أو دخول حمام فكيف يكون لديه طاقة بعد كلامه المتصل عشرين ساعة كأنه آلة بحيث يتذكر الأحاديث ويعلّمها طلابها ويأخذ منهم ويعطى ساعات أخرى؟ إن حاكى هذا الكلام يخرج بالخطيب البغدادى عن نطاق البشرية ظنا منه أنه بهذا يعلى من شأنه، غير دار أنه بذلك ينشر الريبة فى نفوسنا فيما يقول. ثم كيف يفعل الخطيب البغدادى هذا كل يوم دون ملل أو ضيق إن صح أنه يستطيع أن يفعله أصلا؟ ألم يقل الرسول عليه السلام: "ساعة وساعة"؟ و"عن عبد الله بن عمرو: يا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أنَّكَ تَصُومُ النَّهارَ وتَقُومُ اللَّيْلَ؟ قُلتُ: بَلى يا رَسولَ اللَّهِ. قالَ: فلا تَفْعَلْ. صُمْ وأَفْطِرْ، وقُمْ ونَمْ، فإنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا". و"عن وهب بن عبد الله السوائى أبى جحيفة: آخى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم بيْنَ سَلْمانَ وأَبِي الدَّرْداءِ، فَزارَ سَلْمانُ أبا الدَّرْداءِ، فَرَأى أُمَّ الدَّرْداءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقالَ لَها: ما شَأْنُكِ؟ قالَتْ: أخُوكَ أبو الدَّرْداءِ ليسَ له حاجَةٌ فى الدُّنْيا. فَجاءَ أبو الدَّرْداءِ فَصَنَعَ له طَعامًا، فَقالَ: كُلْ. قالَ: فإنِّي صائِمٌ. قالَ: ما أنا بآكِلٍ حتّى تَأْكُلَ. قالَ: فأكَلَ، فَلَمّا كانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أبو الدَّرْداءِ يَقُومُ، قالَ: نَمْ. فَنامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقالَ: نَمْ. فَلَمّا كانَ مِن آخِرِ اللَّيْلِ قالَ سَلْمانُ: قُم الآنَ. فَصَلَّيا، فَقالَ له سَلْمانُ: إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فأعْطِ كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ. فأتى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فَذَكَرَ ذلكَ له، فَقالَ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: صَدَقَ سَلْمانُ".

ومن المبالغات أيضا ما أورده الخطيب البغدادى فى كتابه: "الرحلة فى طلب الحديث" من كلام محمد بن المسيب عن نفسه، إذ قال: "كنت أمشى فى مصر، وفى كمى مائة جزء فى كل جزء ألف حديث". وقال عنه أبو على الحافظ: "كان محمد بن المسيب يمشى بمصر، وفى كمه مائة ألف حديث. كان دقيق الخط. وصار هذا كالمشهور من شأنه" (تذكرة الحفاظ). بالله كيف يسع الكم مائة جزء؟ وكيف يتحمل الشخص ذلك الوقر وهو يتحرك به بين الناس؟ إن الكم كم، وليس مكتبة متنقلة. والإنسان

إنسان، وليس حائطا تُثَبَّتُ فيه رفوف لوضع الكتب. ومن المبالغات أيضا ما جاء فى "مقدمة ابن الصلاح" من أن يوسف بن الحسين الرازى الصوفى دخل على عبد الرحمن بن أبى حاتم وهو يقرأ كتابه فى الجرح والتعديل، فقال له: كم من هؤلاء القوم قد حطوا رواحلهم فى الجنة منذ مائة سنة ومائتى سنة وأنت تذكرهم وتغتابهم؟ فبكى عبد الرحمن". فانظر إلى هذا السخف الذى يهرف به الرازى الصوفى بزعمه أن من يكتب ابن أبى حاتم عنهم ويذكر حكمه عليهم من ناحية رواية الحديث هم فى الجنة منذ قرن وقرنين، وكأن الله أطلعه على الغيب أو كأنه سمح له بدخول الجنة ومعرفة من دخلها ومن لم يدخلها. لقد كان النبى عليه السلام متشددا فى هذا الأمر بحيث لم يكن يسمح لأحد بأن يقول إن فلانا أو علانا من أهل الجنة، ويعد من يقحم نفسه فى هذا المأزق متأليا على الله ومتخطيا حدوده معه سبحانه.

ومن الأمثلة على اختلاف العلماء فى الحكم على المحدثين ما نجده فى هامش ص٧٤ من كتاب الخطيب البغدادى بتحقيق د. نور الدين عتر، إذ نقرأ عن يعقوب بن إسحاق العسقلانى، وهو أحد رواة حديث من الأحاديث: "قال الذهبى فى "ميزان الاعتدال" (ج٤ ص٤٤٩): كذاب. وفى "اللسان" (ج٦ ص٣٠٤) عن سلمة بن قاسم فى كتاب "الصلة": هو عندى صالح جائز الحديث". وفى هامش ١ ص ١٠٣ من نفس الكتاب من كلام المحقق: "وهارون بن عنترة وَثَّقَه أحمد ويحيى بن معين، وقال الحافظ: لا بأس به. وقال ابن حيان: لا يجوز أن يحتج به. منكر الحديث جدا". وفى ص ١١٢ بالهامش كتب نور الدين عتر: "قال الترمذى (فى عبد الله بن محمد بن عقيل): هو صدوق. وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قِبَل حفظه. وسمعت محمد بن إسماعيل (يعنى البخارى) يقول: كان أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه والحميدى يحتجون بحديث عبد الله بن محمد بن عقيل. قال محمد: وهو مقارب ا لحديث". وفى هامش١ من ص١٣١ يقول المحقق نور الدين عتر: "أيوب بن سويد الرملى ضعّفه الإمام أحمد وغيره. وقال الحافظ بن حجر: صدوق يخطئ". وفى هـ١ ص١٦٠ يقول د. عتر: "قال صالح بن جزرة الحافظ: ما رأيت أحفظ منه، لكنه كان يكذب فى الحديث. وقال يحيى بن معين: جربت عليه الكذب. قال ابن عدى: سألت عبدان عنه، فقال: معاذ الله أن يُتَّهَم. إنما كان قد ذهبت كتبه فكان يحدث حفظا، أى فيغلط. فهو على ذلك واهٍ لسوء حفظه لا لكذبه". وفى ص١٧٢ هـ١ عن عباس بن يزيد يقول نور الدين العتر: "عباس بن يزيد هو البحرانى الحافظ القاضى. أحد من جمع بين علو الرواية ومعرفة الحديث... قال الدارقطنى: ثقة مأمون. وعنه: تكلموا فيه. وقال السمعانى: ثقة مأمون. وقال ابن أبى حاتم: محله عندنا الصدق. وضعّفه مسلمة بن قاسم. وسبب تضعيفه روايته عن يزيد بن زُريع وقد اختلط. والله أعلم".

وفى ص٩٧ من كتاب نور الدين عتر: "منهج النقد فى علوم الحديث": "قال الذهبى فى ترجمة محمد بن الفضل السدوسى عارم شيخ البخارى بعد أن ذكر توثيقه نقلا عن الدارقطنى: قلت (أى الذهبى): فهذا قول حافظ العصر الذى لم يأت بعد النسائى مثله. فأين هذا القول من قول ابن حبان الحشاف المتهور فى عارم فقال: اختلط فى آخر عمره وتغير حتى كان لا يدرى ما يحدّث به، فوقع فى حديثه المناكير الكثيرة، فيجب التنكب عن حديثه فيما رواه المتأخرون، فإذا لم يعرف هذا من هذا ترك

الكل ولا يحتج بشيء منها؟ قلت: ولم يقدر ابن حبان أن يسوق له حديثا منكرا. فأين ما زعم؟ انتهى كلام الذهبى".

وبالنسبة لحماد بن جعفر بن زيد العبدى البصرى نجد فى "تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال" للذهبى المتوفى ٧٤٨هـ أن ابن معين وابن حبان قد وثقاه بينما قال ابن عدى إنه منكر الحديث. وبالمثل نرى أبا داود يوثق حنيفة أبا حرة الرقاشى، وعباسا يضعفه. وفى ترجمة خالد بن مهران الحذاء أبى المنازل البصرى يصفه أحمد بأنه ثبت، كما يصفه ابن معين والنسائى بأنه ثقة، أما أبو حاتم فقال: لا يُحْتَجّ به. وبالنسبة لسالم بن أبى حفصة العجلى الكوفى فإن ابن معين قد وَثَّقه، وقال أحمد: شيعىٌ ما أظن به بأسا. وقال أبو حاتم: مِنْ عُتُق الشيعة لا يحتج به، وحكم عليه النسائى بأنه ليس بثقة. وفى ترجمة سالم بن عبد الله البصرى الخياط نزيل مكة نجد أحمد يقول فى حقه: ما أرى به بأسا، ويقول الثورى: كان مرضيا، ويقول ابن عدى: ما أرى بعامة حديثه بأسا، وذكره ابن حبان فى الثقات بينما حكم عليه ابن معين وابن داود بأنه لا يساوى فلسا، وقال النسائى: إنه ليس بثقة. وفى سالم بن نوح العطار البصرى يقول أحمد: ما به بأس. وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال أبو حاتم وغيره: لا يحتجّ به. وقال أبو زرعة: صَدُوقٌ ثِقَةٌ. وفى كثير من الحالات لا نجد للذهبى حكما على المترجَم لا من ناحية أخلاقه ولا من ناحية ذاكرته بل يكتفى بذكر من أخذ عنه ومن أعطاه من الرجال ليس إلا.

وأحيانا ما يقول علماء الجرح والتعديل فى الحكم على الراوى كلاما يبدو لنا الآن مضحكا بعد التقدم العلمى وانقشاع الخرافات ومعرفتنا بجوهر الدين، كما هو الحال فى ترجمة حماد بن سلمة، إذ قال شهاب بن معمر البلخى: "كان حماد بن سلمة يعد من الأبدال، وعلامة الأبدال ألا يولد لهم. تزوج سبعين امرأة، فلم يُولَد له". وهو كلام مضحك، إذ ما معنى أنه كان من الأبدال؟ وأَنَّى للمترجِم أن المقول عنهم: "أبدال" لا ينجبون؟ وأنى لحماد هذا الوقت والمال والقدرة ليتزوج سبعين امرأة؟ وفى ترجمة حيوة بن شريح بن صفوان أبى زرعة التجيبى يقول ابن وهب عنه إنه كان من البكَّائين والدَّعَّائين، وكان ضيق الحال جدا، وإنه اقترح عليه يوما أن يدعو الله للتوسيع عليه، فالتفت يمينا ويسارا فلم ير أحدا، فتناول حصاة ودعا الله أن يجعلها ذهبا فصارت ذهبا فى الحال... إلخ هذا الهراء. وفى ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن هشام بن عبد الملك أعجبته سَحْنَته وعانَهُ كما عانَ مشيعى جنازته لكثرتهم، فتشاءم الناس به لهذا وذاك. وكان الإيمان بالعين ولا يزال فاشيا بين الناس رغم أنه يفتقر إلى أساس ينهض عليه. وكل ما يقال فى هذا الموضوع مجرد كلام يُتَنَاقَل ولا يَثْبُت للتجربة.

ليس ذلك فحسب بل هناك إلى جانب هذا الاختلافِ اختلافٌ آخرُ حول أصح الأسانيد الخاصة برواية الأحاديث: ففى نظر البخارى أن أصح سلسلة حديثية هى مالك عن نافع عن ابن عمر، وعن ابن حنبل وإسحاق بن راهويه أن أصح سلسلة هى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه، وفى رأى على بن المدينى وسليمان بن حرب أن أصح سلسلة هى محمد بن سيرين عن عَبِيدة السلمانى عن على.

طرق التحمل وصوره

"طرق التحمل" هى ساليب التى تلقَّى بها الراوى الحديث الشريف عمن أخذه منه. وهذه الطرق ثمانٍ هى "السماع من لفظ الشيخ، والقراءة على الشيخ، والإجازة، والمناولة، والكتابة، والإعلام، والوصية، والوِجادة": فالسماع من لفظِ الشيخ هو أن يقرأ الشيخ ويسمع الطالب: سواء قرأ الشيخ من حفظه أو كتابه، وسواء سمع الطالب وكتب ما سمعه أو سمع فقط ولم يكتب. السماع أعلى أقسام طرق التحمل عند الجمهور. وفى البداية كان الطالب يقول عن هذه الطريقة: "سمعت، حدثنى، أخبرنى، أنبأنى، قال لى، ذكر لى". وبعد ذلك صار الطالب يقول تعبيرا عن السماع: "سمعت، حدثنى".

والطريقة الثانية هى القراءة على الشيخ أو العَرْض، فيقرأ الطالب والشيخ يسمع: سواء قرأ الطالب أو قرأ غيره وهو يسمع، وسواء كانت القراءة من حفظه أو من كتاب، وسواء كان الشيخ يتابع القارئ من حفظه أو يمسك كتابه هو أو أى شخص آخر ثقة. والرواية بطريق القراءة على الشيخ رواية صحيحة فى جميع الصور المذكورة اللهم إلا عند بعض المتشددين. وبعضهم يجعلها مساوية للسماع، وبعضهم يجعلها أدنى من السماع، وبعض ثالث يجعلها أعلى من السماع. وفى هذه الطريقة يقول الطالب: "قرأت على فلان، قرئ عليه وأنا أسمع فأقرَّ به، حدثنا قراءة عليه أو أخبرنا (فقط)".

والطريقة الثالثة هى الإجازة، أى أجزتُ لك أن تروى عنى "صحيح البخارى" مثلا. وهى أنواعٌ منها أن يجيز الشيخ معيَّنا لمعين كـ"أجزتك يا فلان صحيح البخارى" مثلا، أو أن يُجِيز معيَّنا بغير معين كـ"أجزتك يا فلان رواية مسموعاتى"، أو أن يجيز غير معيَّن بغير معيَّن كـ"أجزت أهل زمانى رواية مسموعاتى"، أو أن يجيز بمجهول أو لمجهول كـ"أجزتك كتاب السنن" وهو يروى عددا من كتب السنن لا كتابا واحدا منها، أو"أجزت لسين بن صاد" مثلا، ومعروف أن هناك عددا من الأشخاص يحملون هذا الاسم... وأقواها النوع الأول، وثَمَّ خلاف على الباقى منها. والتحمُّل بطريقة الإجازة تحمُّلٌ هزيلٌ. وفى هذه الطريقة يقول الراوى: "أجاز لى فلان، حدثنا إجازة، أخبرنا إجازة، أنبأنا".

والطريقة الرابعة من طرق تحمل الحديث هى طريقة "المناولة". وقد تكون المناولة مقرونة بالإجازة، وهى أعلى أنواع الإجازة. ومن صورها أن يدفع الشيخ إلى الطالب كتابه ويقول له: "هذا روايتى عن فلان، فارْوِهِ عنى"، ثم يبقيه معه تمليكا، أو يعيره إياه لينسخه. وقد تكون المناولة مجردة عن الإجازة، فيدفع الشيخ إلى الطالب كتابه مقتصرا على قوله: هذا سماعى. وبالنسبة للمناولة المقرونة بالإجازة تجوز الرواية بها، وهى أدنى مرتبة من السماع والقراءة على الشيخ، وأما المجردة عن الإجازة فلا تجوز الرواية بها على الصحيح. ويقول الطالب فى المناولة: "ناوَلَنى، ناوَلَنى وأجاز، حدثنا مناولةً، أخبرنا مناولةً وإجازةً".

والطريقة الخامسة من طرق تحمل الحديث هى الكتابة، فيكتب الشيخ مسموعه لحاضر أو غائب بخطه أو أمره. وقد تكون مقرونة بالإجازة كـ"أجزتك ما كتبت لك أو إليك"، ونحو ذلك. والرواية بها صحيحة، وهى فى الصحة والقوة كالمناولة المقرونة بالإجازة. وقد تكون مجردة عن الإجازة كأن يكتب له بعض الأحاديث ويرسلها له وليس معها الإجازة بروايتها. وقد منع الروايةَ بها قوم، وأجازها

آخرون. والصحيح الجواز عند أهل الحديث لإشعارها بمعنى الإجازة. وقد اشترط بعضهم البينة على الخط، ومنهم من قال: بل يكفى معرفة الطالب المكتوب إليه خط الكاتب لأن خط الإنسان لا يشتبه بغيره، وهو الصحيح. ويستخدم الراوى عبارات مثل "كتب إلى فلانٌ، حدثنى فلانٌ كتابةً، أخبرنى فلانٌ كتابةً".

والطريقة السادسة من طرق التحمل هى الإعلام. وهو أن يخبر الشيخ الطالب أن هذا الحديث أو هذا الكتاب من سماعه. وقد اختلف العلماء فى حكم الرواية بالإعلام: فمنهم من أجازها، ومنهم من لم يجزها، وهو الصحيح لأنه قد يُعْلِم الشيخُ الطالبَ أن هذا الحديث من روايته، لكن لا تجوز تلك الرواية لخلل فيه. أما لو أجاز بروايته لجازت روايته. ويقول الراوى فى هذه الطريقة: "أعلمنى شيخى بكذا".

والطريقة السابعة من طرق التحمل هى الوصية، وذلك بأن يوصى الشيخ عند موته أو سفره لشخص بكتاب من كتبه التى يرويها. واختلف العلماء فى حكم الرواية بها كالعادة: فمنهم من أجازها، ومنهم من لم يجزها بناء على أن الشيخ قد أوصى له بالكتاب لا برواية الكتاب. ويعبر الراوى عن هذه الطريقة بقوله: "أوصى إلى فلانٌ بكذا، حدثنى فلانٌ وصيةً".

والطريقة الثامنة من طرق التحمل هى الوِجَادَةُ. وهى مصدر على وزن "فِعَالَة" الدالّ على حرفة أو وظيفة مثل "كتابة، قراءة، رئاسة، سفارة، صحافة، قيادة". والوجادة هى أن يجد الطالب أحاديث بخط شيخ يرويها، وهذا الشيخ يعرف الطالب خطه، ولكن ليس له سماع منه ولا إجازة. ويقول الراوى فى هذه الحالة: "وجدت بخط فلان كذا، قرأت بخط فلان كذا" مع إيراده الإسناد والمتن. والرواية بالوجادة تلحق بـ"المنقطع"، لكن فيها مع ذلك شيئا من الاتصال.

طرق دفع التعارض بين الأحاديث

يؤمن المسلم بأن أحاديث النبى الصحيحة فى أمور الدين لا يمكن أن تتعارض فيما بينها. ذلك أن ما وعد الله به سبحانه من حفظ الذكر لا يقتصر على القرآن الكريم وحده، بل المراد به شرع الله الذى بعث به رسوله قرآنًا وسنةً معا. ويؤكد العلماء المسلمون أن التعارض الحقيقى بين أحاديث النبى المقطوع بصحتها إليه والتى تتعلق بأمور الدين لا يمكن أن يقع، وأن الاختلاف الذى قد نراه فى بعض الأحاديث إنما هو خلاف فى الظاهر ليس إلا. فهذا الاختلاف الذى يبدو فى الظاهر بين بعض الأحاديث هو موضوع علم "مختلِف الحديث". وخلاصة رأى العلماء فيه، كما يقول النووى فى "مختلف الحديث"، أن يأتى حديثان متضادان فى المعنى ظاهرًا فنحاول التوفيق بينهما. وهو قسمان، قسم يمكن الجمع بينهما، فيتعين ويجب العمل بهما معًا، وقسم لا يمكن الجمع بينهما بوجه، فإن علمنا أحدهما ناسخًا قدمناه، وإلا عملنا بالراجح، كالترجيح بكثرة الرواة وصفاتهم مثلا. فهو علم يتم به التوفيق بين الأحاديث المتنافية ظاهرًا: إما بتخصيص العام أو بتقييد المطلق أو بالحمل على تعدد الحادثة... إلى غير ذلك من وجوه التأويل. وقد يقوم شراح الحديث بهذا التوفيق أثناء شرحهم للحديث، وقد يؤلفون فيه كتبا مستقلة.

وهناك أسماء أخرى لعلم "مختلف الحديث" مثل "تأويل الحديث"، أو "تأليف الأحاديث"، أو "تلفيق الأحاديث"، أو "مشكل الحديث"، وكلها شىء واحد. ويرى بعض العلماء أن إشكال الحديث قد ينشأ من مخالفة الحديث للعقل أو للقرآن أو للغة، أما اختلاف الحديث فهو أن يكون هناك تعارض بين حديثين، فيقوم المؤلف بينهما بإزالة الاختلاف بالتوفيق بينهما من خلال بيان الناسخ والمنسوخ، أو بالترجيح، أو بالشرح الذى يرفع به وجه الخلاف بينهما. والواقع أن المهم هو المسميات لا الأسماء. ومن هنا لم نر العلماء قديمًا يهتمون كثيرا بالتفريق بين مشكل الحديث ومختلف الحديث، إذ المهم هو رفع الإشكال سواء كان هذا الإشكال من واقع الحديث نفسه أو من تعارضه مع حديث آخر.

ويتخذ أصحاب الفتن والأهواء والملاحدة وأعداء الإسلام من هذه الأحاديث مجالا للطعن فى الدين. فعلم مختلف الحديث ومُشْكِلِه علم شديد الأهمية لا ينهض به إلا من كان إمامًا فى هذا المجال، وبمعرفته يندفع التناقض عن كلام النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ويطمئن المسلم إلى دينه. ومن المؤلفات فى هذا المجال "اختلاف الحديث" للشافعى، وهو المجلد العاشر من كتابه: "الأم"، و"تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة، و"شرح مشكل الآثار" للطحاوى، و"مشكل الحديث وغريبه" لابن فورك، و"تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه" المنسوب للسيوطى، وهو فى الواقع "تفسيرُ مُشْكلاتِ أحاديثَ يُشْكِلُ ظاهرُها" لابن المنيِّر، و"مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين" لنافذ حسين، و"منهج التوفيق والترجيح بين مختلف الحديث" لعبد المجيد السوسوة، و"مختلف الحديث وموقف النقاد والمحدثين منه" لأسامة خياط، و"أحاديث العقيدة التى يوهم ظاهرها التعارض فى الصحيحين" لسليمان الدبيخى، و"مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين مع دراسة تطبيقية على مرويات حجة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم"، و"مختلف الحديث عند الإمام النووى من خلال شرحه على صحيح مسلم جمعا ودراسة مقارنة" لمنصور عبد الرحمن العقيل، و"منهج التوثيق والترجيح بين مختلف الحديث وأثره فى الفقه الإسلامى"

لعبد المجيد الوسنة، و"مختلف الحديث بين المحدثين والأصوليين الفقهاء" لأسامة الخياط، و"منهج الشافعى فى ظاهرة مختلف الحديث" لعبد اللطيف السيد على سالم، و"مختلف الحديث عند الإمام الطحاوى فى ضوء كتابه: شرح معانى الآثار" لوديع عبد المعطى سعود إبداح، و"الموازنة بين منهج الإمامين: الشافعى وابن قتيبة من خلال كتابيهما: اختلاف الحديث وتأويل اختلاف الحديث" لإسماعيل جافان، و"اختلاف الحديث وعناية المحدثين به" لعبد المجيد مصطفى أبو شحادة، و"ابن حزم ومنهجه فى مختلف الحديث من خلال كتاب: حجة الوداع"، و"علم مختلف الحديث: أصوله وقواعده " لشرف القضاة، و"مشكل الحديث بين ابن قتيبة والطحاوي- دراسة نقدية" لمحمد عودة ربابعة، و"مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها" لعبد الله بن على النجدى، و"مختلف الحديث عند الإمام ابن حجر العسقلانى فى: فتح البارى"، و"منهج ابن حبان فى مشكل الحديث فى صحيحه" لإبراهيم أحمد العسعس...

ولتأويل مختلف الحديث أهمية كبيرة منها أن فهم الحديث الشريف فهمًا سليمًا، ومن ثم استنباط الأحكام الشرعية منه استنباطًا صحيحًا، لا يتم إلا بمعرفة العلم الخاص بذلك. ومنها أنَّ النظر فى الطريقة التى يدفع بها العلماء الاضطراب عن الأحاديث ينمى لدى طالب العلم القدرة على التعامل الصحيح مع النصوص الشرعية. ويرى العلماء أن الاختلاف الحقيقى بين الأحاديث هو التضاد التام بين حجتين متساويتين دلالةً وثبوتًا وعددًا، ومتحدتين زمانًا ومحلًا، وهو ما لا يمكن وقوعه فى الأحاديث النبوية لأنها وحى من الله تعالى. أما الاختلاف الظاهرى فهو، فى نظر العلماء، وهم لا وجود له فى الحقيقة. ويقول ابن القيم فى هذا النوع من الاختلاف: "ونحن نقول: لا تعارض بحمد الله بين أحاديثه الصحيحة. فإذا وقع التعارض فإما أن يكون أحد الحديثين ليس من كلامه صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد غلط فيه بعض الرواة مع كونه ثقة ثبتًا، فالثقة يغلط، أو يكون أحد الحديثين ناسخًا للآخر إذا كان مما يقبل النسخ، أو التعارض فى فهم السامع لا فى نفس كلامه صلَّى الله عليه وسلَّم. فلا بد من وجه من هذه الوجوه الثلاثة. وأما حديثان صحيحان صريحان متناقضان من كل وجه ليس أحدهما ناسخًا للآخر فهذا لا يوجد أصلًا، ومعاذ الله أن يُوجد فى كلام الصادق المصدوق صلَّى الله عليه وسلَّم الذى لا يخرج من بين شفتيه إلا الحق، والآفة من التقصير فى معرفة المنقول والتمييز بين صحيحه ومعلوله، أو من القصور فى فهم مراده صلَّى الله عليه وسلَّم وحمْل كلامه على غير ما عناه به، أو منهما معًا، ومن ههنا وقع من الاختلاف والفساد ما وقع".

والطريقة التى يزال بها التعارض الظاهرى بين مختلف الحديث هى أن يجمع العالم بين الحديثين لاحتمال أن يكون بينهما عموم وخصوص، أو إطلاق وتقييد، أو مجمل ومبيِّن، لأن القاعدة المقررة عند أهل العلم هى أن إعمال الكلام أولى من إهماله. فإن لم يمكن الجمع بين الحديثين نُظِر فى التاريخ لمعرفة المتأخر من المتقدم، فيكون المتأخر ناسخًا للمتقدم. فإن لم يمكن الجمع، ولم يقم دليل على النسخ، وجب ترجيح أحد الحديثين على الآخر بدليل. فإن لم يستطع شيئا مما مضى فعليه التوقف حينئذ عن العمل بأحد الحديثين حتى يتبين وجه الترجيح.

وتطبيقا لقواعد هذا العلم نأخذ بعضا مما كتبه العلماء الموفِّقون بين الأحاديث المتعارضة ظاهريا مع التعليق على ما يستلزم التعليق عليه: فعلى سبيل التمثيل يقول الشافعى فى كتاب "اختلاف الحديث" عن التيمم وما ينبغى أن نفعل فيه: "أَخْبَرَنَا الثِّقَةُ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِى عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ:كُنَّا مَعَ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّمَ فِى سَفَرٍ، فَنَزَلَتْ آيَةُ التَّيَمُّمِ، فَتَيَمَّمْنَا مَعَ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّمَ إِلَى الْمَنَاكِبِ. قالَ الشَّافِعِى: فَلَوْ كَانَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَيَمَّمَ عَمَّارٌ إِلَى الْمَنَاكِبِ إِلَّا بِأَمْرِ النَّبِى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ التَّنْزِيلِ كَانَ مَنْسُوخًا لِأَنَّ عَمَّارًا أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا أَوَّلُ تَيَمُّمٍ كَانَ حِينَ نَزَلَتْ آيَةُ التَّيَمُّمِ، فَكُلُّ تَيَمّمٍ كَانَ لِلنَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّمَ بَعْدَهُ مُخَالِفه فَهُوَ نَاسِخٌ لَهُ. أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ: أَخْبَرَنَا الشَّافِعِى: أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي الْحُوَيْرِثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنِ ابْنِ الصِّمَّةِ قَالَ: مَرَرْتُ بِالنَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَبُولُ، فَمَسَحَ بِجِدَارٍ ثُمَّ يَمَّمَ وَجْهَهُ وَذِرَاعَيْهِ. قَالَ الشافِعِى: وَابْنُ الصِّمَّةِ وَبَنُو الصِّمَّةِ مَعْرُوفُونَ، بَدْرِيُّونَ وَأُحُدِيُّونَ، وَأَهْلُ غَنَاءٍ فِى الْإِسْلَامِ وَمَكَانٍ مِنْهُ، وَالْأَعْرَجُ وَأَبُو الْحُوَيْرِثِ ثِقَةٌ، وَلَوْ كَانَ حَدِيثُ ابْنِ الصِّمَّةِ مُخَالِفًا حَدِيثَ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ غَيْرَ بَيِّنٍ أَنَّهُ نَسَخَهُ كَانَ حَدِيثُ ابْنُ الصِّمَّةِ أَوْلَاهُمَا أَنْ يُؤْخَذَ بِهِ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَمَرَ فِى الْوُضُوءِ بِغَسْلِ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، وَمَسْحِ الرَّأْسِ وَالرِّجْلَيْنِ، ثُمَّ ذَكَرَ التَّيَمُّمَ، فَعَفَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنِ الرَّأْسِ وَالرِّجْلَيْنِ، وَأَمَرَ بِأَنْ نُيَمِّمَ الْوَجْهَ وَالْيَدَيْنِ، وَكَانَ اسْمُ الْيَدَيْنِ يَقَعُ عَلَى الْكَفَّيْنِ وَالذِّرَاعَيْنِ، وَعَلَى الذِّرَاعَيْنِ وَالْمِرْفَقَيْنِ، فَلَمْ يَكُنْ مَعْنًى أَوْلَى أَنْ يُؤْخَذَ بِهِ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ فِى الْوُضُوءِ مِنْ غَسْلِ الذِّرَاعَيْنِ وَالْمِرْفَقَيْنِ، لِأَنَّ التَّيَمّمَ بَدَلٌ مِنَ الْوُضُوءِ، وَالْبَدَلُ إِنَّمَا يُؤْتَى بِهِ فِى الْمُبْدَلِ عَنْهُ. قَالَ الشَّافِعِى: وَرُوِى عَنْ عَمَّارٍ أَنَّ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّمَ أَمَرَهُ أَنْ يُيَمِّمَ وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ. قَالَ: فَلَا يَجُوزُ عَلَى عَمَّارٍ إِذَا كَانَ ذَكَرَ تَيَمّمَهُمْ مَعَ النَّبِى عِنْدَ نُزُولِ الْآيَةِ إِلَى الْمَنَاكِبِ إِنْ كَانَ عَنْ أَمْرِ النَّبِى إِلَّا أَنَّهُ مَنْسُوخٌ عِنْدَهُ، إِذْ رُوِى أَنَّ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّمَ أَمَرَ بِالتَّيَمّمِ عَلَى الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ، أَوْ يَكُونُ لَمْ يَرْوِ عَنْهُ إِلَّا تَيَمُّمًا وَاحِدًا، فَاخْتَلَفَتْ رِوَايَتُهُ عَنْهُ، فَتَكُونُ رِوَايَةُ ابْنِ الصِّمَّةِ الَّتِى لَمْ تَخْتَلِفْ أَثْبَت، فَإِذَا لَمْ تَخْتَلِفْ فَأَوْلَى أَنْ يُؤْخَذَ بِهَا لِأَنَّهَا أَوْفَقُ لِكِتَابِ اللَّهِ مِنَ الرِّوَايَتَيْنِ اللَّتَيْنِ رُوِيَتَا مُخْتَلِفَتَيْنِ، أَوْ يَكُونُ إِنَّمَا سَمِعَ آيَةَ التَّيَمُّمِ عِنْدَ حُضُورِ الصَّلَاةِ، فَتَيَمَّمُوا وَاحْتَاطُوا، فَأَتَوْا عَلَى غَايَةِ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْيَدِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّهُمْ كَمَا لَا يَضُرُّهُمْ لَوْ فَعَلُوهُ فِى الْوُضُوءِ. فَلَمَّا صَارُوا إِلَى مَسْأَلَةِ النَّبِى أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يُجْزِيهِمْ مِنَ التَّيَمّمِ أَقَلّ مِمَّا فَعَلُوا. وَهَذَا أَوْلَى الْمَعَانِى عِنْدِى بِرِوَايَةِ ابْنِ شِهَابٍ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارٍ بِمَا وَصَفْتُ مِنَ الدَّلَائِلِ، قَالَ: وَإِنَّمَا مَنَعَنَا أَنْ نَأْخُذَ بِرِوَايَةِ عَمَّارٍ فِى أَنْ نُيَمِّمَ الْوَجْهَ وَالْكَفَّيْنِ ثُبُوتُ الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ مَسَحَ وَجْهَهُ وَذِرَاعَيْهِ، وَأَنَّ هَذَا التَّيَمُّمَ أَشْبَهُ بِالْقُرْآنِ، وَأَشْبَهُ بِالْقِيَاسِ بِأَنَّ الْبَدَلَ مِنَ الشَّىء إِنَّمَا يَكُونُ مِثْلَهُ".

وأرى أنْ لو كان الله يريد منا مسح اليدين إلى المرفقين لقال سبحانه ذلك فى آية التيمم كما قاله فى آية الوضوء، لكنه اكتفى بـ"فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه". ثم إن قول الشافعى بأن بدل الشىء يكون مثله غير مسلَّم، وإلا لقد كان ينبغى أن يشمل المسح فى التيمم كل أعضاء الوضوء، لكنه سبحانه أسقط الشعر والرجلين، كما أسقط النبى مسح الأذنين والأنف وتخليل ما بين أصابع اليدين والرجلين. ثم إن الله إنما شرع التيمم نفيا للحرج وتيسيرا على المسلمين، فبأى معنى نأتى نحن ونصعِّبه على أنفسنا

فنصرّ على مسح يدينا إلى المرفقين؟ ولا ينبغى أن ننسى أن اليد لا تعنى أكثر من العضو الذى يحتوى على خمس أصابع وراحة، ولا يدخل فيها الذراعان اللتان هما أكبر من اليدين مرات. ويمكن النظر إلى الحديث الذى يذكر المرفقين فى التيمم بأنه منسوخ بحديث الوجه والكفين. ومع ذلك فأقصى ما يمكن أن يقال أن الآية مفتوحة على أكثر من فهم: فمن أراد الاكتفاء بمسح الكفين فلا بأس، ومن أراد القياس على الوضوء وإيصال المسح بالتراب إلى المرفقين فلا حرج. وكفى الله المؤمنين القتال.

ومما وقف ابن القيم إزاءه من نصوص السنة المتعارضة أحاديث الإذن فى الرُّقْيَة، كحديث عائشة رضى الله عنها أَنَّ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم كان يأمرها أن تَسْتَرْقِى من العين، وحديث جابر رضى الله عنه: "رَخَّصَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لآل حزم فى رقية الحَيَّة"، وغير ذلك من الأحاديث، وما جاء فى النهى عن ذلك، كما فى حديث جابر رضى الله عنه: "أَنَّ رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم نَهَى عن الرُّقَى". وكان رأيه أن "هذا لا يعارضُ هذه الأحاديث، فَإِنَّه إنما نَهَى عن الرُّقى التى تتضمنُ الشِّرْكَ وتعظيمَ غيرِ الله سبحانه كغالبِ رُقَى أهل الشرك". والدليل على هذا ما رواه مسلم فى "صحيحه" من حديث عوف بن مالك الأشجعى قال: "كنا نرقى فى الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى فى ذلك؟ فقال: اعرضوا على رُقَاكُمْ! لا بأَسَ بالرُّقَى ما لم يكن فيه شرك". وهذا الرد الأخير هو الأشبه بأن يكون الرسول قد قاله، أما أن ينهاهم عن الرُّقَى الشِّرْكِية دون أن يعوضهم عنها رُقًى إيمانية فهو ما لا أظن الرسول فعله. ثم هل كان المسلمون ليستعينوا برقى شركية، وهم الذين أداروا ظهورهم للشرك وأهل الشرك وأسرهم وأصدقائهم وجيرانهم ومعارفهم المشركين؟ ثم أين نصوص تلك الرقى الشركية؟ إننا نسمع بها لكننا لا نراها. ولقد كان معروفا عن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم أنه إذا كان كارها لأى شىء ولا يحب أن يفعله المسلمون فإنه كان يستبدل به شيئا طيبا ولا يتركهم معلقين فى الفضاء.

وهناك حديثان أخريان قد يبدوان للمتعجل السطحى متعارضين، إلا أنهما بشىء من التدقيق يظهران على حقيقتهما، إذ يتناول كل منهما الموضوع من ناحية مختلفة مما أدى إلى اختلاف الحكم فى كل منهما. وهذان الحديثان هما حديث "من كان له شَعْرٌ فليكرمه" وحديث النَّهْى عن التَّرَجُّلِ إلا غِبًّا. والصواب فى رأى ابن القيم "أنه لا تعارض بينهما بحال، فإن العبدَ مأمورٌ بإكرامِ شعره، وَمَنْهِى عن المبالغةِ والزيادةِ فى الرفاهية والتنعيم، فيكرم شعره ولا يتخذُ الرَّفَاهِية والتنعيم ديدنه، بل يترجل غبًا". ذلك أن الترجل معناه التمشيط والتزيين واستعمال الدهانات وما إلى ذلك، أما إكرام الشعر فغسله والحرص على نظافته وخلوه من الآفات والعمل على أن يكون حسنا. ومعروف أن هناك من يعكف على شعره مضيعا جزءا غير قليل من وقته فى تجميله بحيث يعجب النساء ويفتنهن، وكأنه وثنى عاكف على صنم. فهذا مما لا يرحب به الدين، إذ شخصية الإنسان لا تنحصر فى شعره بحيث ينشغل الواحد منا به على هذا النحو غير المقبول.

لقد كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يهتم بأن يكون مظهر المسلم طيبا بما فى ذلك شعره فلا يكون ثائرا قبيحا منفرا، ولكنه من الناحية الأخرى لا يحب للمسلم أن يكون ناعما أكثر مما ينبغى بل عليه أن يكون على شىء من الخشونة حتى لا ينهار أمام مصاعب الحياة. كما أن الرجل غير المرأة، ولا

يصح أن يتشبه بالنساء فى الانشغال الشديد بشعورهن بحيث يرجّله كل لحظة، بل عليه أن يفعل ذلك كلما كان هناك ما يدعو إليه لا عمالا على بطال وفى هوس لا يليق بالرجال. فمن ناحية "عن عطاء بن يسار: كانَ رسولُ اللّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى المسجدِ، فدخلَ رجلٌ ثائرُ الرَّأسِ واللِّحيةِ، فأشارَ إليهِ رسولُ اللّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بيدِهِ كأنَّهُ يأمرُهُ بإصلاحِ شعرِهِ ولحيتِهِ، ففعلَ ثمَّ رجعَ، فقالَ رسولُ اللّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أليسَ هذا خيرًا من أن يأتى أحدُكم وهوَ ثائرُ الرَّأسِ كأنَّهُ شيطانٌ؟". ومن ناحية أخرى أمر الرسول المسلمين بالاخشيشان. كما نهاهم عن التشبه بالنساء. وواضح أن الموفِّق بين الأحاديث التى تبدو متعارضة يحتاج إلى خيال حى حتى يستطيع تصور الموقف الذى قيل فيه كل حديث، فضلا عن وجوب الاسترشاد فى ذلك بمقاصد الدين وروحه وقيمه العالية والنصوص الدينية المختلفة والأسباب التى دعت إلى نزولها إذا كانت قرآنا أو التلفظ بها إذا كانت حديثا نبويا، وكذلك بالمنطق الإنسانى العام والقوانين التى تحكم الكون.

ومن كتاب "مشكل الحديث وبيانه" لابن فورك نقرأ له ما يلى فى اجتهاده للتوفيق بين أحاديث يفهم منها أن الله ينزل إلى السماء الدنيا وبين ما يليق به سبحانه من أنه لا يحل فى مكان كى يقال إنه يتحول عنه وينزل منه إلى مكان آخر: "عَن عبادَة بن الصَّامِت قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "ينزل رَبنَا تبارك وَتَعَالَى كل لَيْلَة إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا"... وَذكر الحَدِيث وَقَالَ فِيهِ: "فَيكون كَذَلِك حَتَّى يصبح الصُّبْح ثمَّ يَعْلُو رَبنَا إِلَى كرسيه"، وَعَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ: جَاءَ رجل من بنى سليم إِلَى رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وَلم يكن رَآهُ إِلَّا بِمَكَّة يُقَال لَهُ: عَمْرو بن عبسة فَقَالَ: يَا رَسُول الله، عَلمنى مِمَّا أَنْت بِهِ عَالم، وَأَنا بِهِ جَاهِل: أَى صَلَاة المتطوعين أفضل؟ فَقَالَ رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إِذا مضى نصف اللَّيْل أَو ثلث اللَّيْل فَتلك سَاعَة ينزل الله فِيهَا إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا فَيَقُول: هَل من مُسْتَغْفِر فَأَغْفِر لَهُ؟"... إِلَى أَن قَالَ: "حَتَّى ينفجر الصُّبْح. فَإِذا انفجر الصُّبْح صعد الرَّحْمَن إِلَى الْمَلإِ الْأَعْلَى".

الْجَواب عَن هَذَا الْبَاب وَبَيَان تَأْوِيله: أعلم أَنا قد بَينا فِيمَا قبل معنى هَذَا الْخَبَر وَأَن النُّزُول يَنْقَسِم إِلَى أَقسَام، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ يخْتَص النُّزُول بالنقلة والتحويل فَقَط، بل مَعْنَاهُ فِي غير الْحَرَكَة أَكثر مِنْهُ. يُقَال: نزل فلَان من معالى الْأُمُور ومكارمها إِلَى سفاسفها. وَيُقَال: نزل فلَان عَن رَأْيه، وَأنزل فلَانٌ فلَانًا عَن دَرَجَته ورتبته. وَقَالَ الله تَعَالَى: "هُوَ الَّذِى أنزل السكينَة فِي قُلُوب الْمُؤمنِينَ"، وَقَالَ: "إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة الْقدر" فِي صفة الْقُرْآن، وَأخبر عَن الْمُشْركين أَنهم قَالُوا: سَأُنْزِلُ مثل مَا أنزل الله". وَيُقَال: "نزَل بنى فلَان خيرٌ وخصبٌ، وارتفع عَنْهُم جَدْبٌ وقحط". وَلَيْسَ يُرَاد بذلك معنى النقلَة والتحويل من مَكَان إِلَى مَكَان. وَمَعَ ذَلِك فَمَعْنَى النُّزُول فِيهِ صَحِيح على الْوَجْه الَّذِى يَلِيق بِهِ. كَذَلِك معنى مَا وُصِف بِهِ الرب من النُّزُول، وَإِن لم يكن معنى النقلَة، سَائِغ فِي لُغَة الْعَرَب. وَذكرنَا أَن ذَلِك يرجع تَأْوِيله إِلَى إِظْهَار فعل وتدبير فِي عباده يُسَمِّيه: "نزولا" وَأَنه يحْتَمل أَن يُقَال إِن مَعْنَاهُ أَن يظْهر رَحمته لَهُم وإجابته لدعائهم وَأَنه من لَهُ أَلَّا يُجيب وَلَا يرحم لِأَن الْإِجَابَة مِنْهُ فضل، وَتركهَا مِنْهُ عدل. فَإِذا أجابهم فقد نزل عمّا له أَن يفعل بهم من ترك الْإِجَابَة إِلَى أَن يفعل بهم مَا يكون من فعله متفضلا.

وَيحْتَمل أَيْضا أَن يكون مَعْنَاهُ نُزُول مَلَائِكَته بأمْره، فيضاف إِلَيْهِ النُّزُول على معنى مَا وَقع بأَمْره، كَمَا يُقَال: "نزل الْأَمِير بِموضع كَذَا" إِذا نزل أَصْحَابه بأَمْره وَنفذ فِيهِ حكمه وسلطانه. وَإِذا كَانَ ذَلِك مِمَّا يحْتَملهُ اللَّفْظ وَيصِح مَعْنَاهُ وَكَانَ حمله على بَعْضهَا لَا يُؤَدِّي إِلَى وصف الله جلّ ذكره مِمَّا لَا يَلِيق بِهِ كَانَ أولى مِمَّا قَالُوا".

وفى "تأويل مختلف الحديث" يقول ابن قتيبة مشيرا إلى المشككين فى الإسلام وأحاديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "قَالُوا: رويتُم عَن ابن لُهَيْعَةَ عَنْ مِشْرَحِ بِنِ عَاهَانَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقُولُ: "لَوْ جُعِلَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ مَا احْتَرَقَ". قَالُوا: وَهَذَا خَبَرٌ لَا نَشُكُّ فِي بُطْلَانِهِ لِأَنَّا قَدْ نَرَى الْمَصَاحِفَ تَحْتَرِقُ، وَيَنَالُهَا مَا يَنَالُ غَيْرَهَا مِنَ الْعُرُوضِ وَالْكُتُبِ. قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ لِهَذَا تَأْوِيلًا ذَهَبَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَأَنَا مُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ: سَأَلْتُ الْأَصْمَعِيَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، فَقَالَ: يَعْنِي لَوْ جُعِلَ الْقُرْآنُ فِي إِنْسَانٍ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّار مَا احْتَرَقَ. وَأَرَادَ الْأَصْمَعِي أَنَّ مِنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَحَفَّظَهُ إِيَّاهُ لَمْ تَحْرِقْهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ أُلْقِيَ فِيهَا بِالذُّنُوبِ كَمَا قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: احْفَظُوا الْقُرْآن، أَو اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ الْمَصَاحِفُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ". وَجَعَلَ الْجِسْمَ ظَرْفًا لِلْقُرْآنِ كَالْإِهَابِ. وَالْإِهَابُ: الْجِلْدُ الَّذِي لَمْ يُدْبَغْ. وَلَوْ كَانَ الْإِهَابُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَدْبُوغًا مَا جَازَ أَنْ يَجْعَلَهُ كِنَايَةً عَنِ الْجِسْمِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا حِينَ خَطَبَتْ وَوَصَفَتْ أَبَاهَا فَقَالَتْ: قَرَّرَ الرُّؤوس عَلَى كَوَاهِلِهَا، وَحَقَنَ الدِّمَاءَ فِي أُهُبِهَا". تَعْنِي: فِي الْأَجْسَادِ. وَفِيهِ قَوْلٌ آخَرُ، قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ هَذَا فِي عَصْرِ النَّبِي صلَّى الله عليه وسلَّم عَلَمًا لِلنُّبُوَّةِ، وَدَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ عِنْدِهِ نَزَلَ، أَبَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي وَقْتٍ مِنْ تِلْكَ الْأَوْقَاتِ، وَعِنْدَ طَعْنِ الْمُشْرِكِينَ فِيهِ، ثُمَّ زَالَ ذَلِكَ بَعْدَ النَّبِي صلَّى الله عليه وسلَّم كَمَا تَكُونُ الْآيَاتُ فِي عُصُورِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ مَيِّتٍ يَحْيَا، وَذِئْبٍ يَتَكَلَّمُ، وَبَعِيرٍ يَشْكُو، وَمَقْبُورٍ تَلْفِظُهُ الْأَرْضُ، ثُمَّ يُعْدَمُ ذَلِكَ بَعْدَهُمْ. وَفِيهِ قَوْلٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ يُرَدَّ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: "مَا احْتَرَقَ" إِلَى الْقُرْآنِ لَا إِلَى الْإِهَابِ. يُرِيدُ أَنَّهُ إِنْ كُتِبَ الْقُرْآنُ فِي جِلْدٍ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ احْتَرَقَ الْجِلْدُ وَالْمِدَادُ، وَلَمْ يَحْتَرِقِ الْقُرْآنُ، كَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرْفَعُهُ مِنْهُ وَيَصُونُهُ عَنِ النَّارِ. وَلَسْنَا نَشُكُّ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ فِي الْمَصَاحِفِ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ كَمَا يَقُولُ أَصْحَابُ الْكَلَامِ: إِنَّ الَّذِي فِي الْمُصْحَفِ دَلِيلٌ عَلَى الْقُرْآنِ وَلَيْسَ بِهِ". وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ". والنَّبِي صلَّى الله عليه وسلَّم يَقُولُ: "لَا تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرض الْعَدو". يُرِيد الْمُصحف".

وعلى عكس توفيق ابن القيم للنص السابق نرى ابن قتيبة هنا يتكلف الرد تكلفا لا يدخل العقل. فالقرآن والإهاب إذا تعرضا للنار اشتعلت فيهما النار بطبيعة الحال. والإنسان الحافظ للقرآن متى اشتعلت فيه النار ولم يدركه منقذ فى الوقت المناسب احترق ومات. أما أن القرآن المكتوب فى ورق أو على جلد إذا ما احترق فإن الجلد وما فيه من كتابة يحترقان لكن الله سبحانه يرفع القرآن فلا يحترق فهذا كلام غير مفهوم، إذ الكلام عن القرآن فى سياقنا هذا هو الكلام عن القرآن المكتوب لا القرآن

المجرد، وإلا فإن هذا يصدق على كل فكرة مجردة مهما تكن تفاهتها أو جلالتها، أو صدقها أو كذبها. والرسول لا يقصد هذا، وإلا لم يكن لأى كلام معنى. فالرسول عليه السلام حين يخاطب المسلمين لا يجرى على طريقة النحويين الملغزين، إذ هو قد جاء للإبانة والإيضاح لا للتعمية والإرباك وشغل الناس بحل الألغاز.

كذلك ليس المقصود بقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: "لَوْ جُعِلَ الْقُرْآنُ فِى إِهَابٍ ثُمَّ أُلْقِى فِى النَّارِ مَا احْتَرَقَ" هو حفظ الإنسان للقرآن، فوضْع القرآن فى إهاب ليس هو الحفظ فى الدماغ كما هو واضح. ولو كان الرسول يقصد هذا التوجيه لقال: لو حفظ/ تعلَّم أحدكم القرآن..." مثلا. كما أن الإنسان قد يكون حافظا للقرآن لكنه لا يعمل بشىء منه، وحينئذ يعذب فى النار رغم حفظه له. فـ"عن جد عمرو بن شعيب: يمثلُ القرآنُ يومَ القيامةِ رجلًا فيقولُ: حملَ هذا إياى، فبئسَ الحاملُ! تعدَّى حدودى وضيَّعَ فرائضِى".

والأمر ببساطة أن النبى لا يمكن أن يكون قد قال هذا الحديث. وبهذا تنتهى تلك الزوبعة التى لا معنى لها. ورسولنا أعظم من أن يتورط فى مثل تلك التصريحات التى لا يسندها الواقع بل يعارضها معارضة عنيفة. إن هذا التكلف فى التوفيق بل فى التلفيق ليس له من معنى سوى أن صاحبه وأمثاله يرون أن من جمعوا تلك الأحاديث لا يمكن أبدا أن يخطئوا فى نسبتها للنبى عليه السلام وكأنهم معصومون فلا يصححون حديثا وهو غير صحيح. فأما نحن فنعيذ نبينا أن يقول هذا الكلام المدابر للمنطق والواقع، ولهذا ننفيه عنه ونرى أنه لا يمكن أن يقوله.

وفى الحلف بغير الله تعالى يقول الطحاوى فى "تأويل مشكل الآثار": "روى أن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم. من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت". ولا يعارضه قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: "أفلحَ وأبيه إن صدق" لما جاءه أعرابى يسأل عن الإسلام، فأخبره بشرائع الإسلام، وقال الأعرابى: "والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه"، فإنه كان مباحا وانتسخ بالنهى.ويؤيده ما روى أن حبرا أتى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: يا محمد، نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون. فقال: سبحان الله. قال: إنكم تقولون إذا حلفتم: والكعبة. قال فأمهل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثم قال: إنه قد قال. فمن حلف فليحلف برب الكعبة". ومنه ما روى عن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم من قوله: "من حلف بغير الله فقد أشرك". يعنى: جعل ما حلف به محلوفا به كما أن الله تعالى محلوف به. وذلك ذنب، ولكن لا يريد به الشرك الذى يكون به خارجا عن الإسلام، نظير ما روى من قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: "الطِّيَرَة شرك. وما منا إلا. ولكن الله يُذْهِبه بالتوكل" فى أن المراد به أن شيئا تولى الله فعله قيل فيه إن سبب فعله كذا وكذا مما يُتَطَيَّر به. فمثل ذلك الشركُ المذكور فى الحلف بغير الله لا الشرك الذى يوجب الكفر.

ومنه ما روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: "حلفتُ باللات والعزى، وكان العهد حديثا، فأتيت النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فقلت: إنى حلفت باللات والعزى، وكان العهد حديثا. قال: قلتَ هُجْرًا. اُتْفُلْ عن يسارك ثلاثا وقل: لا إله إلا الله وحده، واستغفر الله ولا تَعُدْ". وفيه ما يدل على أن

سعدا لم يحلف إلا على ما اعتاده لسانه ساهيا عن تحريم الله ذلك عليه بإسلامه. وذلك من اللغو. وقول النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "لا تَعُدْ" معناه، والله أعلم، أن يتحفظ من نفسه والأخذ بالحزم لئلا يقع فى مثله، وأمره بالاستغفار مخافة أن يكون قد قصَّر فى التحفظ".

والذى أفهمه أن النهى عن الحلف بالآباء سببه أن العرب كانوا يفعلون ذلك تعظما بآبائهم وتفاخرا بهم، فشدد الإسلام عليهم فى ذلك كى يخلصهم من عنجهيات الجاهلية. أما قول النبى للإعرابى: "وأبيه" فليس فيه شىء من ذلك إذ إن الرسول لم يقل ذلك تفاخرا بأبى الأعرابى بطبيعة الحال. وهناك أحاديث أخرى تتضمن هذه الكلمة: "عن أبى هريرة: أتاهُ رجُلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، أى الصَّدَقةِ أفضَلُ؟ قال: أمَا وأبيكَ لَتُنَبَّأَنَّهُ. أنْ تَصدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ تَخشى الفَقرَ وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِل حتى إذا بلَغتِ الحُلْقومَ قُلْتَ: لِفُلانٍ كذا، ولفُلانٍ كذا، وهو لِفُلانٍ"، و"عن والد أبى العشراء الدارمى: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَما تَكونُ الذكاةُ إلّا فى اللبَّةِ؟ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: لوْ طعنتَ فى فَخِذِها لأجزأَ عنكَ. ولفظُ يعقوبَ مِثلُهُ، إلّا أنَّهُ قال: لوْ طَعَنْتَ فى فَخِذِها وأبيكَ لأجزأَ. ولفظُ أبى عمرَ: لو قلتَ: "بسمِ اللهِ" ثمَّ طَعنتَ فى فَخِذِها لأجزأَ عنكَ"، "عن القاسمِ: أنَّ رجُلًا من أَهْلِ اليمنِ أقطعَ اليدِ والرِّجلِ قدِمَ على أبى بكرٍ الصِّدِّيقِ رضى اللَّهُ عنهُ فشَكا إليهِ أنَّ عاملَ اليَمنِ ظلمَهُ، فكانَ يصلِّى منَ اللَّيلِ، فيقولُ أبو بَكْرٍ: وأبيكَ ما ليلُكَ بليلِ سارقٍ. ثمَّ إنَّهمُ افتقدوا حليًّا لأَسماءَ بنتِ عُمَيْسٍ امرأةِ أبى بَكْرٍ، فجعلَ الرَّجلُ يطوفُ معَهُم ويقولُ: اللَّهمَّ عَليكَ بمن بيَّتَ أَهْلَ هذا البيتِ الصّالحِ. فوَجدوا الحلى عِندَ صائغٍ زعمَ أنَّ الأقطعَ جاءَ به، فاعترفَ به الأقطعُ أو شُهِدَ عليهِ...". ومثل ذلك كلمة "لَعَمْرِى/ لَعَمْرُك"، وإلا ما استعملها القرآن مخاطبا النبى عليه السلام: "لَعَمْرُكَ إنهم لفى سَكْرتهم يَعْمَهون". والدليل على ذلك أننا نجد الصحابة تستعملها حتى بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام: "عنِ الزُّهرِى أنَّهُ سمِعَ سعيدَ بنَ مَرجانَةَ يقولُ: كنتُ عندَ ابنِ عمرَ، فتلا هذِهِ الآيةَ: "وإنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ"، فقال: واللَّهِ لَإنْ واخذَنا اللَّهُ بهذِهِ لنَهْلِكَنَّ. ثمَّ بكى حتّى سُمِعَ نَشيجُهُ، فقمتُ حتّى أتيْتُ ابنَ عبّاسٍ فذكَرْتُ له ما قال ابنُ عُمرَ وما فعلَ حينَ تلاها، فقال: يغفِرُ اللَّهُ لأبى عبدِ الرَّحمَنِ. لَعَمْرى لقد وجدَ المسلمونَ حينَ نزلتْ مثلَ ما وجدَ، فأنزل اللَّهُ: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلّا وُسْعَها"، "عن عروة بن الزبير عَنْ عائِشَةَ رَضِى اللَّهُ عَنْها، قالَتْ له وهو يَسْأَلُها عن قَوْلِ اللَّهِ تَعالى: "حتّى إذا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ"، قالَ: قُلتُ: أكُذِبُوا أمْ كُذِّبُوا؟ قالَتْ عائِشَةُ: كُذِّبُوا. قُلتُ: فَقَدِ اسْتَيْقَنُوا أنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ. فَما هو بالظَّنِّ؟ قالَتْ: أجَلْ لَعَمْرِى لَقَدِ اسْتَيْقَنُوا بذلكَ..."، "عن أم بكير عنْ بُكَيرٍ أنَّ أُمَّهُ حدَّثَته أنَّها أَرسَلَتْ إلى عائشةَ رَضى اللهُ عنها بأخيهِ مَخْرَمَةَ، وكانت تُداوى مِن قُرْحةٍ تكونُ بالصِّبْيانِ، فلمّا داوَتْه عائشةُ وفَرَغَتْ منهُ رأَتْ فى رِجْلَيه خَلْخالَيْنِ حَدِيدٍ فقالتْ عائشةُ: أظَنَنْتُم أنَّ هذَيْن الخَلْخالَيْنِ يدْفَعانِ عنْهُ شيئًا كَتَبَه اللهُ عليهِ؟ لو رَأَيْتُها ما تَداوى عندى، وما مَسَّ عِندى.لَعَمْرى لَخَلْخالانِ مِن فِضَّةٍ أطْهَرُ مِن هذَيْنِ"... فالناس حين تستعمل مثل تلك الكلمة لا يقصدون من ورائها التعظم بالنفس، بل هى فى كلامهم أقرب إلى أن تكون حشوا، أو فلنقل إنها من اللغو. أما الحلف فى أول الإسلام باللات والعزى فإن الإسلام لا يؤاخذ معتنقيه بسهوات اللسان وغلبة النسيان وما إليه. ولهذا أمر النبى سعد بن أبى

وقاص أن يردد كلمة التوحيد ويتفل عن يساره ثلاثا حتى يستقر فى لسانه وجَنَانه أنه لا يصح الحلف بالأصنام، الذى كانت الألسنة قد اعتادته فى الجاهلية.

وفى بحث "مرجحات المتن للأحاديث المتعارضة ظاهرا" للدكتور بدر محمد قبلان العازمى والدكتور محمد أبو الليث الخيربادى، وهو يتخذ من "فتح البارى" لابن حجر مثالا يطبق عليه، نقرأ "لما أخذ الحافظ يشرح حديث أبى سعيد الخدرى فى بيع الدينار بالدينار ذكر أن هناك حديثا يتوهم أنه يعارضه، وهو حديث ابن عباس عن أسامة أنه لا ربا إلا النسيئة، الذى كان يفتى به ابن عباس حين ظن أنه ليس هناك ربا إلا فى النسيئة، فذكر الحافظ أن العلماء ذكروا التوفيق بين الحديثين كما سأبينه بعد التخريج. الحديث الأول والحديث الثانى: حديث أبى سعيد وحديث ابن عباس عن أسامة أخرجهما البخارى ومسلم فى صحيحيهما بإسناديهما من طريق عمرو بن دينار عن أبى صالح، قال: سمعت أبا سعيد الخدرى يقول: "الدينار بالدينار، والدرهم بالدرهم"، فقلت له: فإن ابن عباس لا يقوله! فقال أبو سعيد: سألته فقلت: سمعتَه أو وجدتَه فى كتاب االله؟ قال: كلَّ ذلك لا أقول، وأنتم أعلم برسول الله منى، ولكننى أخبرنى أسامة أن النبى قال: "لا ربا إلا فى النسيئة". وهذا لفظ البخارى، وللحديث ألفاظ أخرى عند مسلم. وقد أخرج مسلم أيضًا حديث أسامة مستقلا من طرق عنه من غير ذكر حديث أبى سعيد. وجه التعارض بين الحديثين هو أن حديث أبى سعيد فى ربا الفضل، وحديث ابن عباس عن أسامة فى ربا النسيئة، وهما نوعان للربا كما هو معلوم، لكن لفظ حديث ابن عباس عن أسامة يذكر أنه لا ربا إلا النسيئة، فكأنه ينفى ربا الفضل الذى فى حديث أبى سعيد فيتوهم تعارضهما.

دفع التعارض بين الحديثين- الجمع: ذكر الحافظ ابن حجر فى التوفيق بين الحديثين وجهين للجمع: ١- أن المعنى فى قوله: "لا ربا" فى حديث ابن عباس عن أسامة، أى الربا الأغلظ الشديد التحريم المتوعَّد عليه بالعقاب الشديد كما تقول العرب: "لا عالم فى البلد إلا زيد" مع أن فيها علماء غيره، وإنما القصد فى الأكمل لا نفى الأصل. وقد ذكر هذا الوجهَ القرطبى فى "المفهم". ٢ -ونقل عن الطبرى قوله: معنى حديث أسامة "لا ربا إلا فى النسيئة" إذا اختلفت أنواع البيع والفضل فيه يدًا بيد ربا جمعًا بينه وبين حديث أبى سعيد. ثم قال ابن حجر (تنبيه): وقع فى نسخة الصغانى هنا "قال أبو عبد الله" يعنى البخارى: "سمعت سليمان بن حرب يقول: لا ربا إلا فى النسيئة. هذا عندنا فى الذهب بالوَرِق، والحنطة بالشعير متفاضلًا، ولا بأس به يدًا بيد ولا خير فيه نسيئة". قلت (ابن حجر): هذا موافق. وقد وجه الإمام الشافعى هذا الوجه فى اختلاف الحديث بقوله: قد يحتمل أن يكون سمع رسول الله يُسْأَل عن الربا فى صنفين مختلفين: ذهب بفضة، وتمر بحنطة، فقال: "إنما الربا فى النسيئة" فحفظ فأدى قول النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يؤد مسألة السائل، فكان ما أدى منه عند مَنْ سَمِعَه أنْ لا ربا إلا فى النسيئة. وذكر هذا الوجه ورجحه ابن بطال فى شرحه لـ"صحيح البخارى"، وابن عبدالبر فى "الاستذكار"، وذكره الحازمى فى "الاعتبار فى بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار"، والنووى فى "المنهاج"...".

ومن هذا يتضح أن نقل الحديث دون توضيح السياق الذى قيل فيه، أى الظروف التى لابسته، يوقع فى الارتباك والاضطراب. فقد يكون الكلام فى الحديثين لا عن جانب واحد من الشيء بل عن جانبين من جوانبه، ومن ثم بدا وكأن فى الحديثين تعارضا يحتاج إلى رفع. وإلى جانب السياق لا بد من معرفة تواريخ الأحاديث حتى نتمكن من معرفة السابق من اللاحق فنعرف هل هناك نسخ أو لا. كذلك نستطيع أن نعتمد على سلاسل الإسناد، فالحديث ذو الإسناد الأقوى تكون فرصته فى القبول أقوى. وبالمثل فإن الحديث الذى يسانده المنطق وقوانين الكون ويتسق مع ما تقول به حقائق العلم ويصمد للتجربة ويعطى صورة صحيحة لعادات البيئة التى يتحدث عنها وتقاليدها وأوضاعها وقيمها ونحو ذلك هو الحديث الذى ينبغى أن يحظى بالقبول على عكس الحديث الآخر الذى يَعْرَى عن هذا كله.

هل يصلح الاستشهاد بالحديث فى التقعيد للغة؟

هناك مقولة شائعة محورها أن الحديث النبوى لا يستشهد به فى النحو والصرف واللغة لأن فى رواته أحيانا كثيرة أعاجم ولأنه كثيرا ما يُرْوَى بالمعنى. وكنت أستغرب هذين التعليلين وأقول: ألم يَصِرْ هؤلاء الأعاجم عربا؟ بل ألم يكن بين رواة اللغة وعلماء النحو والصرف أنفسهم أعاجم؟ فكيف قُبِل الأعاجم هنا ورُفِضوا هناك؟ ثم فليكن الحديث قد رُوِىَ بالمعنى، أليس الذى رواه بالمعنى عربيا أو أعجميا تعرَّب؟ وهل الشعر الجاهلى مثلا قد رُوِىَ كله كما قاله الشعراء بالضبط لم يتغير من ألفاظه وعباراته شىء؟ فكيف نعلل، على الأقل فى بعض الأحيان، ورود روايات مختلفة فى كثير من تلك الأشعار؟ ثم إن رواية الحديث بالمعنى دون التقيد بالألفاظ التى تكلم بها النبى عليه السلام ليست هى القاعدة. كما أن اختلاف روايات الحديث لا تعنى بالضرورة أنها رويت بالمعنى، إذ الواحد منا كثيرا ما يكرر ما يقول فى الجلسة الواحدة ومع الشخص الواحد أو فى جلسات متعددة ومع أشخاص مختلفين دون أن يستعمل نفس الألفاظ فى كل مرة.

وقد أكدت د. خديجة الحديثى فى كتابها: "موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث الشريف" أن أصحاب المعاجم منذ بدايات تصنيفها يستشهدون بالأحاديث الشريفة. أما بالنسبة للاستشهاد بها فى النحو والصرف فقد ذكرتْ أن ذلك بدأ مبكرا مع أبى عمرو بن العلاء على الأقل، وإن لم يمنع هذا من أن يكون قد سبقه علماء آخرون إلى هذا الاستشهاد. وبالمثل استشهد الخليل بن أحمد بالحديث النبوى عند مناقشة بعض مسائل القواعد. كما انتهت إلى أن سيبويه فى "الكتاب" قد فعل نفس الشىء. وهو ما ينطبق على الفراء وأبى عبيدة وابن قتيبة والمبرد والزَّجّاج وابن الأنبارى وابن درستويه والرمّانى وابن جنى والزمخشرى... إلخ. وبهذا يتضح خطأ المقولة الشائعة بأن الحديث النبوى لا يستشهد به فى النحو والصرف واللغة.

ولست أوافق من يتهمون رواة الحديث الأعاجم بأنهم لا يحسنون العربية ويقعون من ثم فى الأخطاء النحوية والصرفية بما يترتب على ذلك من عدم صلاح الأحاديث للاستشهاد بها فى مجال قواعد اللغة. لقد فات من يقولون هذا أن من الأعاجم من كانوا صحابة للنبى عليه السلام ورووا عنه الأحاديث وأَدَّوْها تأدية سليمة ليس فيها ما يؤخذ عليهم. فلدينا بلال الحبشى، وقد روى بضعة أحاديث، وسلمان الفارسى، ويبلغ مسنده قريبا من ستين حديثا، وصهيب الرومى، وروى نحو ثلاثين من أحاديث رسول الله عليه السلام، كما روى عنه بعض أبنائه. وكان من الأعاجم كذلك شعراء مبدعون: فعنترة نصف عربى، ونصف حبشى، ولم يمنعه نصفه الأعجمى أن يكون من أصحاب المعلقات، والمعلقات كما هو معروف تمثل قمة الشعر العربى بوجه عام. ومن أولئك الأعاجم سُحَيْم عبد بنى الحسحاس، ونُصَيْب وزياد الأعجم، وإسماعيل بن يسار الشاعر الأموى، وقد نشأ فى أسرة عُرِفَتْ بقول الشعر: فكان أبوه يسار شاعرًا، وكان له أخوان شاعران، وكان ابنه محمد شاعرًا، ثم نشأ حفيده عبيد الله بن محمد شاعرًا. ومنهم صالح بن عبد القدوس وبشار وحماد عجرد وأبو نواس والخُرَيْمِىّ وابن الرومى ومهيار الديلمى والطغرائى وكشاجم. وهؤلاء ليسوا سوى قلة قليلة جدا من الشعراء الأعاجم.

ويتصل بالدعوى القائلة بأن الأعاجم لا يُطْمَأَنّ إلى صحة لغتهم وسلامة نحوهم وصرفهم ما وقع لبشار فى بيت أحد العرب حين كان ينشد الحاضرين شعره، ودخل عليهم أعرابى لم يعجبه أن يقول بشار الأعجمى الشعر، إذ كان يرى أن الأعاجم لا يحسنون نظم القريض بل العرب فقط، فما كان من بشار إلا أن رد عليه شعرا ردا صاعقا مسح به الأرض وجعله عبرة لمن يعتبر ومن لا يعتبر حتى اليوم وإلى ما شاء الله. فهذا البدوى يذكرنا بما يقوله بعض العلماء من أن الحديث، جراء دخول بعض الأعاجم فى روايته، لا يصلح للاستشهاد به فى اللغة: مفرداتها وقواعدها.

لقد خدم الأعاجم لغة القرآن كما خدمها أبناء العرب. ومنهم سيبويه، عالم اللغة الكبير الذى صار اسمه عنوانًا على قواعد اللغة العربية، بحيث لا تذكر تلك القواعد إلا ويذكر اسمه وكتابه المسمى بـ"الكتاب" وكأنه هو الكتاب الوحيد فى النحو والصرف أو الكتاب الوحيد الذى يستحق أن يسمى: "كتابا" فى هذا المجال. وقال محمد بن سلام عنه: "كان سيبويه النحوى غاية فى الخلق، وكتابه فى النحو هو الإمام فيه". ومنهم كذلك أبو على الفارسى، ومن أشهر كتبه "التذكرة فى علوم العربية" و"جواهر النحو" و"المقصور والممدود" و"التعليقة على كتاب سيبويه" و"المسائل البصريات" و"كتاب الشعر"... إلخ. وعندنا ابن جنى الموصلى الرومى الأصل، وهو نحوى شهير، وكان "إمامًا فى علم العربية"، وصنف كتبًا هامة أشهرها "اللمع فى العربية" و"الخصائص" و"المنصف" و"سر صناعة الإعراب" و"المبهج فى تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة" و"عقود الهمز" وغيرها. ومنهم أيضا أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد الرازى، القزوينى الأصل، ويعده مصنّفو الأدب من أئمة اللغة، وأشهر مصنفاته "معجم مقاييس اللغة" و"المجمل" و"جامع التأويل" و"الفصيح"، وغيرها كثير. ومنهم أبو عبيدة اللغوى مَعْمَر بن المثنَّى، وتصانيفه تقارب المائتين فى التفسير والحديث واللغة والتراجم والحيوان وبيوت العرب وأيامهم وغير ذلك. ومنهم الزمخشرى صاحب "الكشاف" و"أساس البلاغة" و"المفصَّل فى النحو" و"متشابه أسماء الرواة" وغيرها. ويُعَدّ من أئمة اللغة والنحو والحديث. ولو مضينا فى تعداد أسمائهم فلن ننتهى. ثم فلنفترض أن وجود أعاجم بين رواة الحديث النبوى الشريف يمنع الاستشهاد به لغويا ونحويا وصرفيا، فهل هذا يمنع الاستشهاد بالأحاديث التى ليس بين رواتها أعاجم؟ أيا ما يكن فإن تلك المقولة غير صحيحة كما بينت لنا بالتفصيل د. خديجة الحديثى. وبالمناسبة لم يقل أحد من العلماء القدماء بعدم صحة الاستشهاد بالحديث طبقا لما أثبتته الأستاذة الدكتورة.

هذا، وقد وقعت فى الأحاديث بعض الأساليب اللغوية التى قد يظن بعض المتسرعين أنها تخالف قواعد النحو والصرف فى حين أن لها توجيهات صحيحة. فمن ذلك على سبيل التمثيل قوله عليه السلام: "إن قعر جهنم سبعين خريفا". وقد جاءت "سبعين" منصوبة رغم أنها خبر "إن". وتوجيه نصبها هو أن بين العرب القدامى من كانوا ينصبون اسم "إن" وخبرها جميعا. وهنا قد نُصِبَتْ كل من "قعر" و"سبعين" بوصفهما اسم "إن" وخبرها على لغة من يفعل ذلك. وسواء بعد ذلك أرُوِىَ الحديث بنص ألفاظه أم حدث تصرف فى روايته. وهناك رواية أخرى تقول: "إن قعر جهنم لَسَبْعُون خريفا" برفع الخبر على القاعدة النحوية الشائعة التى تنصب اسم "إن" وترفع خبرها. ومن ثم فلا مشكلة.

ومن هذه الأحاديث قوله: "إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون" حيث جاء اسم "إن" المتأخر مرفوعا، وكان ينبغى أن يكون منصوبا: "المصورين". لكن ثم توجيها للجملة يقوم على أن هناك ضمير شأن عقب "إن" مقدَّرا بمعنى "إنه أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون". وعلى هذا فاسم "إن" ليس هو "المصورون" بل الهاء (ضمير الشأن)، وجملة "أشد الناس عذابا... المصورون" مبتدا وخبر مرفوعان، والجملة كلها فى محل رفع خبر "إن". فاسم "إن" هو الهاء، وخبرها هو الجملة.

ومنها "كل أمتى معافًى إلا المجاهرون". والمفترض أن تنصب "المهاجرون" لأن الاستثناء تام موجب، فينبغى نصب المستثنى فى هذه الحالة. لكن هناك لغة أخرى تجيز رفع المستثنى رغم ذلك. فالذين لا يعرفون هذه اللغة يستغربون رفع "المجاهرون"، والذين يعرفونها لا يرون فى الحديث ما يقلق. وثم قراءة قرآنية تشبه هذا الحديث قرأ بها ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب، وهى "فشربوا منه إلا قليلٌ منهم" بدل "إلا قليلا منهم".

وللرسول حديث يقول فيه بلغة حمير: "ليس من امْبِرّ امْصِيامُ فى امْسَفَر"، أى "ليس من البر الصيام فى السفر". وقد قال بعضهم إن "ام" تأتى بدلا من "ال" ما لم تكن لاما شمسية. ومعنى هذا أنه ما كان ينبغى أن يقال: "امصيام، امسفر" لأن اللام فيهما لام شمسية. لكن اتضح أن هذا الاعتراض قائم على غير أساس بدليل استعمال الشاعر فى البيت التالى "ام" رغم أن اللام شمسية:

ذاك خليلى، وذو يواصلنى يرمى ورائى بامْسَهْم وامْسَلَمَهْ

أى "يرمى ورائى بالسهم والسلمة"، و"السلمة" هى "الحجر". وهناك أيضا قوله عليه السلام: "فإمّا أدركَنّ أحدٌ منكم الدجال..."، وفيه دخلت نون التوكيد على فعل ماض، فى حين أنها إنما تدخل على المضارع والأمر فقط حسب القواعد الشائعة. لكن استشهد النحاة على هذا الاستعمال بقول الشاعر:

دامَنَّ سَعْدُك لو رحمتَ متيَّما لولاك لم يَكُ للصبابة جانحا

وعلى هذا فلا مشكلة فى "أَدْرَكَنَّ".

وبعض الناس يظنون أن "هَنٌ" لا تعرب إلا بالحروف: "هَنُوك، هَنَاك، هَنِيك". لكنّ ثم حديثا لنبينا عليه الصلاة والسلام يقول فيه: "من تعزَّى بعزاء الجاهلية فأَعِضُّوه بِهَنِ أبيه ولا تُكَنُّوا"، فاستعملها معربة بالحركات لا بالحروف. وهى لغة قوم من العرب حسبما ورد فى كتب النحو المبسوطة.

ويقول صلَّى الله عليه وسلَّم فى حديث آخر: "لا وِتْرانِ فى ليلة" بإعراب "وتران" بالألف رغم أنها اسم "لا النافية للجنس"، واسمها يبنى على ما ينصب به، فكان ينبغى أن يقال: "لا وِتْرَيْن فى ليلة". لكن فات من يَرَوْن هذا أن ثَمَّ لغة عربية قديمة كانت تعرب المثنى بالألف فى كل الأحوال، أى فى الرفع والنصب والجر. وبناء على هذا ليس فى الحديث ما يسبب أى توجس. ومن الشواهد الشعرية على هذا الاستعمال قول الشاعر:

فأطرقَ إطراق الشجاع، ولو رأى مَسَاغًا لِنَابَاه الشجاعُ لصمَّما

بدلا من "لِنَابَيْه". ومن الشواهد أيضا قول أوس بن حجر:

تُوَاهِقُ رجلاها يداها، ورأسه لها قتبٌ خلف الحقيبة رادفُ

عوضا عن "يديها". ومن هذه الشواهد:

تزوّد منّا بين أُذناه طعنةً دعته إلى هابى التّراب عقيم

بدلا من "أذنيه". ومنها كذلك:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

عوضا عن "غايتَيْها".

ويقول عليه الصلاة والسلام ليهود: "فهل أنتم صادِقُونِي؟" بدلا من "فهل أنتم صادِقِيَّ؟" لأن نون الوقاية التى تسبق ياء المتكلم لا تدخل على الصفات المضافة إلى تلك الياء. وليس فيما قال النبى مع ذلك غرابة لأن هذا معروف عند بعض العرب كقول الشاعر:

وليس بمُعْيِينى، وفى الناس ممتعٌ، صديقٌ إذا أعيا علىَّ صديقُ

وقول شاعر آخر:

وليس المُوَافِينى لِيُرْفَد خائبا فإن له أضعافَ ما كان أَمَّلا

وقول ثالث:

ألا فَتًى مِن بَنِى ذُبْيَانَ يَحْمِلُنِى وليسَ حَامِلَنِى إلَّا ابنُ حَمَّالِ؟

بل من الشعراء من يبقى نون جمع المذكر السالم عند إضافته إلى الضمير كما فى البيت التالى:

هم القائلون الخير والآمرونه إذا ما خَشُوا يومًا من الأمر معظما

والبيت التالى أيضا:

ولم يرتفق والناس محتضرونـه جميعًا، وأيدى المعتفين رواهقه

ويقول صلَّى الله عليه وسلَّم: "أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد" حيث "أقرب ما يكون العبد من ربه" مبتدأ، وجملة "وهو ساجد" حال، وهى تقوم بدور الخبر على معنى "أقرب ما يكون العبد من ربه قُرْبه منه وهو ساجد". وهذا مثل قول الشاعر:

خير اقترابى من المولى حليف رضا وشرّ بُعْدِى عنه وهو غضبانُ

حيث سد الحال "حليف رضا" فى الشطر الأول، والحال "وهو غضبان" فى الشطر الثانى مسد الخبر... إلخ.

وهناك الحديث التالى: "عن جد عمرو بن شعيب: يمثلُ القرآنُ يومَ القيامةِ رجلًا فيقولُ: حملَ هذا إياى.فبئسَ الحاملُ! تعدَّى حُدُودى، وضَيَّعَ فرائِضِى" (الذهبي- ت ٧٤٨، أحاديث مختارة ١٥٠ • سنده صالح)، وقد ورد فيه ضمير النصب الذى حقه الاتصال منفصلا: "حَمَلَ هذا إياى". وقد عثرت على الحديث فى المجلد الثانى عشر من "موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة" (إعداد على حسن على الحلبى ود. إبراهيم طه القيسى ود. حمدى محمد مراد- مكتبة المعارف للنشر والتوزيع بالرياض/ ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م). وقد قرات فى "العقد الفريد" لابن عبد ربه ما يلى: "ومما لا

يجوز فى الرّسائل وكَرهوه فى الكلام أيضًا مثلُ قولهم: "كلّمتُ إياك"، و"أعنى إيّاك"، وهو جائز فى الشعر. وقال الّشاعر:

وأحْسِنْ وَأَجْمِلْ فى أسيرك. إنّه ضعيفٌ، ولم يأسِر كإياكَ آسرُ

وقال الراجز:

إليكَ حتى بلَغَتْ إياكَ"

ويقول ابن جنى فى كتابه: "اللمع فى العربية": "فإذا قدرت على الضمير المتصل لم تأت بالمنفصل. تقول: "قمت"، ولا تقول: "قام أنا" لأنك تقدر على التاء. وتقول: "رأيتك"، ولا تقول: "رأيت إياك" لأنك تقدر على الكاف. وربما جاء ذلك فى ضرورة الشعر. قال الراجز:

أتتكَ عِيرٌ تحمل الأراكَ إليك حتى بلغتْ إياكَ"

وفى "المفصَّل فى صناعة الإعراب" للزمخشرى تحت عنوان "عدم تسويغ ترك المتصل إلى المنفصل": "ولأن المتصل أخصر لم يسوِّغوا تركه إلى المنفصل إلا عند تعذر الوصل. فلا تقول: "ضَرَبَ أنت" ولا "هو ضرب إياك" إلا ما شذ من قول حميد الأرقط:

إليك حتى بلغت إياكَ

وقول بعض اللصوص:

كأنّا يوم قرّى إنـ ـما نقتل إيّانا"

وقال الراجز:

إنى لأرجو محرزا أن ينفعا = إياى لما صرت شيخا قَلِعا

وقال ا لشاعر:

أما عطاؤك يا ابن الأكريم فقد = جعلت إياه بالتعليم مبذولا

وفى "شرح الأشمونى لألفية ابن مالك" توضيحا للبيت التالى من الألفية:

وفى اختيار لا يجىء المنفصل إذا تأتى أن يجىء المتصل

نقرأ ما يلى: "وَفِى اخْتِيَارٍ لاَ يَجِىء" الضمير "الْمُنْفَصِل إذا تَأَتَّى أَنْ يَجِىء" الضمير "الْمُتَّصِل" لأن الغرض من وضع المضمرات إنما هو الاختصار، والمتصل أخصر من المنفصل، فلا عدول عنه إلا حيث لم يتأت الاتصال: لضرورة نظم، كقوله:

وَمَا أُصَاحبُ مِنْ قَوْمٍ فأذكُرَهُم إلَّا يَزِيدُهُمُو حُبًّا إلى هُمَو

وقوله:

بِالْبَاعِثِ الْوَارِثِ الأَمْوَاتِ قَدْ ضَمِنَتْ إيَّاهُمُ الأرضُ فِى دهر الدَّهَارِيرِ

الأصل: "إلا يزيدونهم"، و"قد ضمنتهم"...".

وفى "خزانة الأدب" للبغدادى تحت عنوان "الشاهد الخامس والثمانون بعد الثلاثمائة": "وهو من شواهد س- الهزج:

كأنّا يوم قرّى إنـ ـما نقتل إيّانا

على أن "إيانا" فصل من عامله لوقوعه بعد معنى "إلا"، وهو شاذ. قال سيبويه فى باب من أبواب المضمر: هذا باب ما يجوز فى الشعر من "إيّا" ولا يجوز فى الكلام. فمن ذلك قول حميد الأرقط:

إليك حتّى بلغت إيّاكا

وقال الآخر، لبعض اللصوص:

كأنّا يوم قُرَّى إنّما نقتل إيّانا

انتهى. قال الأعلم: الشاهد فى وضع "إيانا" موضع الضمير المتصل فى "نقتلنا"، وفى وضع "إياك" موضع "الكاف" ضرورة. وقال الزجاج: أراد "بلغتْك إياك"، فحذف الكاف ضرورة. وهذا التقدير ليس بشىء لأنه حذف المؤكد وترك التوكيد مؤكِّدًا لغير موجود، فلم يخرج من الضرورة إلا إلى أقبح منها. والمعنى: سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك. انتهى. وقبله:

أتتك عنسٌ تقطع الأراكا

والعنس، بسكون النون، الناقة الشديدة، أى تقطع الأراضى التى هى منابت للأراك. وكان حق الكلام فى البيت الشاهد أن يقول: "نقتل أنفسنا" لأن الفعل لا يتعدى فاعله إلى ضميره إلا أن يكون من أفعال القلوب. لا تقول: ضربتُنى، ولا أضربنى، ولا ضربتَك بفتح التاء، ولا زيد ضربه على إعادة الضمير إلى زيد، ولكن تقول: ضربت نفسى، وضربت نفسك، وزيد ضرب نفسه".

وفى "ضرائر الشعر" لابن عصفور: "ومنه (أى ومن الضرورات الشعرية) وضع ضمير الرفع المنفصل بدل ضمير الرافع المتصل، نحو قول المرار بن منقذ:

لم آت بعدهمو حيًّا فأخبرهمُ إلا يزيدُهُمو حُبًّا إلى هُمُو

يريد "إلا يزيدونهم حبًّا إلىَّ"، فوضع الضمير المنفصل، وهو "هم"، موضع الضمير المتصل، وهو "الواو"، للضرورة. وقول طرفة:

أصَرَمْت حَبْلَ الحى أم صرموا يا صاح؟ بل صَرَم الحبالَ هُمُو

يريد "بل صرموا الحبال"، فوضع أيضًا الضمير المنفصل موضع الضمير المتصل لمّا اضْطُرَّ إلى ذلك. ومنه وضع ضمير النصب المتصل بدل ضمير النصب المنفصل أو بدل النفس. فمن الأول قول أمية:

بالوارثِ الباعثِ الأموات قد ضمنت إياهم الأرضُ فى دَهْرِ الدهارير

يريد "قد ضمنتهم". وقول حميد الأرقط:

إليكَ حتى بَلغَتْ إياكا

يريد "حتى بلغتك"، فوضع "إياك" موضع "الكاف" للضرورة. وقول بعض اللصوص:

كأنّا يَوْم قُرَّى إنـ ـما نقتل إيّانا
قتلنا منهُمُو كُلّ فتى أبيضَ حُسَّانا

كان الوجه أن يقول: "إنما نقتل أنفسنا" كما قال تعالى: "ربنا ظلمنا أنفسنا"، فوضع الضمير المنفصل موضعه لما اضْطُرَّ إلى ذلك". وفى "الجيم" للشيبانى أن اسم صاحب البيت هو حرثان. وفى

"الخصائص" لابن جنى أنه أبو بجيلة. والبيت منسوب أيضا لذى الإصبع العدوانى الشاعر الجاهلى المشهور. وقد وجدت الأمثلة التالية أيضا: للباخرزى (ت٤٦٧هـ)

وأنتَ يا هاتفَ الطرفاء، خُذْ طرفًا منّا ولا تشكُ أشواقًا وأشجانا
فاسكتْ فأنتَ، وإن أسمعتَ جارتنَا، فقد عَنَيْتَ بشجوِ الشَّدوِ إيّانا

ولإبراهيم الأحدب (ت٤٧٥هـ):

وافاه إخوتنا الأخيار إذ قصدوا إياه معتصَمًا للدين كالجبل

ولأبى حامد الغزالى (ت٥٥٥هـ):

فكلما قلت: نفسُ، ازدجرى وراقبى فى أمورك اللهَ
صَمَّتْ عن الحق وهى سامعة كأننى ما أريد إياها

ولكاظم الأزرى العراقى (ت١٧٩٦م):

أَنِخْ فى مغانيه ورِدْ من حياضه ولا تَعْدُ إياه، فأحمد أحمد

وللحراق المغربى (ت١٨٤٥م):

فإنَّ حياة الفضل مقرونة به فلا عَدِمِ الإسلام إياه منجدا

ولأبى مسلم العمانى (ت١٩١٩م):

أيها النفس، علم معناكِ بَحْرٌ فى عميقات غَمْرِه العقلُ تاها
...
فأميطى قذاة عينك من بين زواياه تدركى إياها

أما الرواية الأخرى للحديث، وهى أشد تفصيلا، فتخلو من هذا التركيب: "عن جد عمرو بن شعيب: يتمثَّلُ القرآنُ يومَ القيامةِ، فيُؤْتَى بالرَّجلِ قد كان حملَه فخالَف أمرَه، فيتمثَّلُ خصما دونَه، قال: فيقولُ: يا ربِّ، حَمَّلتَه إيّاى، فشرُّ حاملٍ! تعدّى حدودى، وضيَّع فرائِضى، وركِب معصيتى، وترَك طاعتى.فما يزالُ يقذِفُ عليهِ بالحُجَجِ حتّى يُقالَ: فشأنَك بهِ. فيأخذُ بيدِه ما يُرسلُه حتّى يَكُبَّه على صخرةٍ فى النّارِ. ويُؤْتَى بالعَبدِ الصالِحِ قد كان حملَه فحفِظ أمرَه، فيتمثَّلُ خصمًا دونَه فيقولُ: يا ربِّ، حمَّلتَه إيّاى، فكان خيرَ حاملٍ! حفِظ حدودى، وعمِلَ بفرائضى، واجتنَب معصيتى، وعمِل بطاعَتى، وما يزالُ يقذفُ لهُ بالحُججِ حتّى يُقالَ لهُ: شأنُك بهِ! فيأخذُ بيدِه فما يُرسلُه حتّى يكسوَه حُلَّةَ الإستَبرقِ، ويَعْقِدَ عليهِ تاجَ الملكِ، ويَسقيَه كأسَ الخَمرِ" (ابن حجر العسقلاني- ت ٨٥٢، المطالب العالية ٧٣/٤ • إسناده حسن).

ومع هذا كله نرى د. صبحى الصالح، تحت عنوان "رواية الحديث بالحفظ" فى الفصل السابع من كتابه: "علوم الحديث ومصطلحه"، يؤكد أن "بعض الرواة كانوا يتحرجون من تغيير اللحن، ويبقى كلام الراوى، صحابيا كان أو تابعيا، على حاله لأن القوم حدثوه هكذا، فلا ضير من استعمال "حَوْث" بدلا من "حيث"، أو "لغيت" بدلا من "لَغَوْت"، و"عوثاء السفر" بدلا من "وعثائه". ولذلك رووا عن ابن سيرين أنه "كان يلحن كما يلحن الراوى"... ثم رأى العلماء أن يميزوا فى هذا الموضوع بين لحن

يحيل المعنى وآخر لا يحيله، فرأَوْا أنه لا بد من تغيير اللحن الذى يفسد المعنى، وقالوا بضرورة رد الحديث إلى الصواب إذا كان راويه قد خالف موجب الإعراب...".

فأما بالنسبة لـ"حَوْث" فهذا ما يقوله "لسان العرب" فى هذه المادة: "حَوْثُ: لغة فى حَيْثُ، إما لغة طَيِّئٍ وإما لغة تميم. وقال اللحيانى: هى لغة طَيِّئٍ فقط. يقولون: حَوْثُ عبدُ اللهِ زيدٌ. قال ابن سيده: وقد أَعلمتك أَن أَصل "حيث" إنما هو "حَوْثُ" على ما سنذكره فى ترجمة "حيث". ومن العرب من يقول: "حَوْثَ" فيفتح. رواه اللحيانى عن الكسائى.كما أَن منهم من يقول: "حَيْثَ". روى الأَزهرى بإسناده عن الأَسود قال: سأَل رجل ابنَ عمر: كيف أَضَعُ يَدَى إذا سَجَدْتُ؟ قال: ارْمِ بهما حَوْث وقَعَتا. قال الأَزهرى: كذا رواه لنا، وهى لغة صحيحة. حَيْثُ وحَوْثُ: لغتان جيدتان، والقرآن نزل بالياء، وهى أَفصح اللغتين". ولا يختلف عنه ما جاء فى "تاج العروس": "حَوْثُ بالواو: لُغَةٌ فى حَيْثُ، طائِيَّة". صَرّح به شَيْخُهُ ابنُ هِشَامٍ فى "المغنى"، أَو تَمِيمِيَّة. وقال اللِّحْيَانِّى: هى لُغَةُ طَيِّئٍ فقط. قال ابنُ سِيده: وقد أَعْلَمْتُك أَنّ أَصلَ "حَيْثُ" إِنّمَا هُو "حوْثُ" على ما نَذْكُره فى تَرْجَمَةِ "حيث". ومن العَرَبِ من يَقُول: "حَوْثَ"، فيفتح. رواه اللِّحْيَانى عن الكِسَائِى.كما أَنّ منهم من يقول: "حَيْثَ". رَوى الأَزْهَرِى بإِسْنَادِه عن الأَسوَدِ قال: سَأَلَ رَجُلٌ ابنَ عُمَرَ: كيْفَ أَضَعُ يَدَى إِذا سَجَدْتُ؟ قال: ارْمِ بِهِمَا حَوْثُ وَقَعَتَا. قال الأَزْهَرِى: كذا رَوَاهُ لَنَا، وهى لغةٌ صحِيحَةٌ. حَيْثُ وحَوْثُ: لُغَتَان جَيِّدتانِ. والقرآنُ نزلَ باليَاءِ، وهى أَفصحُ". فأين اللحن الذى أشار إليه د. الصالح وقال إن رواة الحديث كانوا حريصين على الإبقاء عليه أمانةً منهم فى تأدية الحديث كما هو؟ ثم لو كان هذا لحنا فَمَنْ لحنه؟ وهل يعجز أى إنسان، مهما يكن جهله باللغة العربية، أن يؤدى "حيث" بالياء إذا كان قد سمعها بالياء؟ ترى أين وجه العجز فى هذا؟ وكيف لم يتقصَّ من سمعها من اللاحن: أهكذا قالها النبى عليه السلام؟ أهكذا قالها فلان أو علان من الرواة؟ واضح أن الأمر خلاف ما كتبه د. صبحى الصالح فى كتابه القيم.

وأما فى "لغيت" فقد وجدت الحديثين التاليين: "عن أبى هريرة: إذا قالَ الرَّجلُ لرَجلٍ والإمامُ يخطُبُ: "أنصِت" فقَد لغيتَ. وإنَّما هى لُغةُ أبى هُرَيْرةَ. قالَ المخزومى: إذا قلتَ لصاحبِكَ: "أنصِت" يومَ الجُمعةِ والإمامُ يخطبُ فقَد لغيت.َ قالَ سفيانُ: وقولُ أبى هُرَيْرةَ: "لغيتَ" لغةُ أبى هُرَيْرةَ، وإنَّما هوَ: لغَوْتَ" (ابن خزيمة- ت ٣١١، صحيح ابن خزيمة ٣/ ٢٧٨ • أخرجه فى صحيحه)، "عن أبى هريرة:إذا قُلْتَ لِصاحِبِك يَوْمَ الجُمُعةِ والإمامُ يَخْطُبُ: "أَنْصِتْ" فقد لَغيتَ. قال سُفيانُ: قال أَبو الزِّنادِ: هى لُغَةُ أَبى هُريرةَ" (شعيب الأرنؤوط- ت ١٤٣٨، تخريج المسند ٧٣٣٢ • إسناده صحيح على شرط الشيخين • أخرجه البخارى ٩٣٤، ومسلم ٨٥١، وأبو داود ١١١٢، والترمذى ٥١٢، والنسائى ١٤٠١، وابن ماجه ١١١٠ باختلاف يسير، وأحمد ٧٣٣٢). والسؤال هو: هل يلحن أبو هريرة، وهو عربى أصيل؟ ولنفترض أنه قد لحن رغم ذلك فكيف سكت من سمعه من الصحابة فلم يفاتحوه فى هذا اللحن؟ ثم إن الرواية تقول إن هذه لغة أبى هريرة، ولا تقول إنها لحن. فهل لأبى هريرة لغة خاصة به؟ أم هل المقصود أنها لغة قومه؟ وهل هناك ألفاظ أخرى فى غير هذا الحديث نطقها أبو هريرة على نحو مخالف؟ وفى "القاموس المحيط": "لَغَى فى قوله، ولَغِى لَغًا ولاغِيَةً ومَلْغاةً: أَخْطأَ". وفى "لسان

العرب": "ولَغا فى القول يَلْغُو ويَلْغَى لَغْوًا ولَغِى، بالكسر، يَلْغَى لَغًا ومَلْغاةً: أَخطأَ وقال باطلًا. قال رؤبة، ونسبه ابن برى للعَجّاج:

ورَبِّ أَسْرابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ   عن اللَّغا، ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

وهو اللَّغْو واللَّغا... وأَنشد ابن برى لعبد المسيح بن عسلة قال:

باكَرْتُه قَبْلَ أَن تَلْغَى عَصافِرُه   مُسْتَحْفِيًا صاحبى، وغيره الحافِي

قال: هكذا روى: تَلْغَى عَصافِرُه. وهذا يدل على أَن فعله لَغِى، إلا أَن يقال إنه فُتِحَ لحرف الحلق فيكون ماضيه "لَغَا"، ومضارعه "يَلْغُو ويَلْغَى"... واللَّغْو: ما لا يُعْتَدّ به لقلته أَو لخروجه على غير جهة الاعتماد من فاعله كقوله تعالى: "لا يُؤاخِذُكم الله باللَّغْوِ فى أيمانكم"... وقال الفراء فى قوله تعالى: "لا تَسْمَعُوا لهذا القرآن والغَوْا فيه": قالت كفار قريش: إذا تَلا محمد القرآن فالغَوْا فيه أَى الغطُوا فيه، يُبَدَّل أَو يَنْسى، فَتَغْلِبوه. قال الكسائى: لَغَا فى القول يَلْغَى، وبعضهم يقول يَلْغُو، ولَغِى يَلغَى، لُغةٌ، ولَغا يَلْغُو لَغْوًا: تكلم".

ومعنى هذا أنه إذا كان هناك "لغا (لغوت) فهناك أيضا "لَغِىَ" (لغيت). أليس كذلك؟ لكننا نفاجأ بروايات أخرى للحديث على النحو التالى: "عن أبى هريرة: خطبَنا النبى صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ جمعةٍ فذكر سورةً، فقال أبو ذرٍّ لِأُبَى: متى أُنزِلَتْ هذهِ السورةُ؟ فأعرَضَ عنه. فلمّا انصرَفَ قال: ما لَكَ من صلاتِكَ إلّا ما لَغيتَ. فسألَ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: صدَقَ" (الهيثمي- ت ٨٠٧، مجمع الزوائد ١٨٨/٢ • فيه محمد بن عمرو، وقد حسن الترمذى حديثه، وفيه اختلاف • أخرجه البزار كما فى "مجمع الزوائد" للهيثمى ١٨٨/٢، واللفظ له، وابن عدى فى "الكامل فى الضعفاء" ٤٦/٥ بمعناه). "عن أبي الدرداء: جلس رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يومًا على المنبرِ فخطَب الناسَ وتلا آيةً، وإلى جنبى أُبَى بنُ كعْبٍ، فقلْتُ له: يا أُبَى، متى أُنزلَتْ هذهِ الآيَةُ؟ قال: فَأَبى أنْ يُكَلِّمَنِى، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فأبى أنْ يُكَلِّمَنى حتى نزل رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال أُبَى: ما لَكَ من جمعتِكَ إلّا ما لَغيتَ. فلمّا انصرفَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم جئتُهُ فأخبرتُهُ فقلْتُ: أى رسولَ اللهِ، إنكَ تَلَوْتَ آيةً، وإلى جنْبِى أُبَى بنُ كعبٍ، فقلْتُ له: متى أُنْزِلَتْ هذِهِ الآيَةُ؟ فأَبى أنْ يكلمَنى حتى إذا نزلْتَ زعم أُبَى أنه ليس لى من جمعتى إلّا ما لَغَيْتَ. فقال: صَدَقَ أُبَى.إذا سمعْتَ إمامَكَ يَتَكَلَّمُ فَأَنْصِتْ حتى يفرغَ" (الهيثمي- ت ٨٠٧، مجمع الزوائد ١٨٧/٢ • رجال أحمد موثقون). "عن أبى الدرداء: جَلَسَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يومًا على المِنبرِ، فخَطَبَ النّاسَ وتَلا آيةً، وإلى جَنبى أُبَى بنُ كَعبٍ، فقُلْتُ له: يا أُبَى، متى أُنزِلَتْ هذه الآيةُ؟ قال: فأبى أنْ يُكلِّمَنى، ثُمَّ سَأَلْتُه، فأبى أنْ يُكلِّمَنى حتى نَزَلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال لى أُبَى: ما لك مِن جُمعتِكَ إلّا ما لَغيتَ. فلمّا انصرَفَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم جِئتُه فأخبَرتُه، فقُلتُ: أى رسولَ اللهِ، إنَّكَ تَلَوتَ آيةً، وإلى جَنْبى أُبَى بنُ كَعبٍ، فسَأَلْتُه: متى أُنزِلَتْ هذه الآيةُ؟ فأبى أنْ يُكلِّمَنى حتى إذا نَزَلْتَ زَعَمَ أُبَى أنَّه ليس لى مِن جُمعتى إلّا ما لَغيتُ. فقال: صَدَقَ أُبَى.فإذا سَمِعتَ إمامَكَ يَتكلَّمُ فأَنصِتْ حتى يَفرغَ" (شعيب الأرنؤوط- ت ١٤٣٨، تخريج المسند ٢١٧٣٠ • صحيح لغيره • أخرجه أحمد ٢١٧٣٠، واللفظ له، والطحاوى فى "شرح معانى الآثار"

٢١٦٠، والبيهقى فى "معرفة السنن والآثار" ٦٥٢٢). "عن أبى الدرداء: جَلَس رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَومًا على المِنبرِ، فخَطَبَ الناسَ وتَلا آيةً، وإلى جَنْبى أُبَى بنُ كَعبٍ، فقُلتُ له: يا أُبَى، ومَتى أُنزِلَتْ هذه الآيةُ؟ قال: فأبى أنْ يُكَلِّمَنى، ثم سألتُه فأبى أنْ يُكلِّمنى، ثم سألتُه فأبى أنْ يُكَلِّمَنى، حتى نَزَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقالَ أُبَى: ما لكَ مِن جُمُعَتِكَ إلّا ما لَغيتَ. فلَمّا انصَرَفَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم جِئتُه فأخبَرتُه، فقُلتُ: أى رَسولَ اللهِ، إنَّكَ تَلوْتَ آيةً، وإلى جَنْبى أُبَى بنُ كَعبٍ، فقُلتُ له: مَتى أُنزِلتْ هذه الآيةُ؟ فأبى أنْ يُكلِّمَنى، حتى إذا نَزَلتَ زَعَمَ أُبَى أنَّه ليس لى مِن جُمُعَتى إلّا ما لَغيتُ. فقال: صَدَقَ أُبَى.إذا سَمِعتَ إمامَكَ يَتكَلَّمُ فأنصِتْ حتى يَفرُغَ" (المنذري- ت ٦٥٦، الترغيب والترهيب ٣٤٨/١ • فيه حرب بن قيس عن أبى الدرداء، ولم يسمع منه). "عن أبى الدرداء: جَلَس النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم يومًا على المنبَرِ يخطُبُ النّاسَ، وتلا آيةً، وإلى جنبى أبى بنُ كَعبٍ، فقُلتُ له: يا أُبَى، متى أُنزِلَت هذه الآيةُ؟ فأبى أن يكلِّمَنى، ثمَّ سألتُه فأبى أن يكلِّمَنى، حتى نزل رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال له أُبى: ما لك مِن جُمُعتِك إلّا ما لَغيتَ. فلمّا انصَرَف رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم جِئتُه فأخبَرْتُه فقال: صَدَق أُبَى.إذا سَمِعتَ إمامَك يتكَلَّمُ فأنصِتْ حتى يَفرغَ" (الرباعي- ت ١٢٧٦، فتح الغفار ٢/٦٣٢ • روى عن جابر نحوه بإسناد. رجاله ثقات). وفى هذه الروايات نجد أن الكلام لا يستقيم، إذ يقال فيها إنه ليس للمصلى يوم الجمعة من صلاته إلا ما لغى، وهذا عكس المراد تماما كما هو واضح، وإلا فمن يقول إن ما يحسب للشخص اللاغى يوم الجمعة هو لغوه فقط؟

ثم نأتى إلى "عوثاء السفر"، التى نجدها فى الرواية التالية: "عن أبى هريرة: إنِّى لآخِذٌ بخِطامِ النّاقةِ لازِمُها حتّى استَوى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عليها، فقالَ: اللَّهُمَّ أنتَ الصّاحِبُ فى السَّفرِ، والخليفةُ فى الأهلِ. اللَّهُمَّ اصْحَبْنا بصُحبةٍ، واقْلِبْنا بذِمَّةٍ، اللَّهُمَّ ارزُقْنى قُفْلَ الأرضِ، وهَوِّنْ علينا السَّفرَ، اللَّهُمَّ إنِّى أَعوذُ بكَ مِن عَوْثاءِ السَّفرِ وكآبةِ المُنقَلَبِ (قالَ أبو زُرْعَةَ: وكان أبو هُريرةَ رَجلًا عربيًّا. لوْ أرادَ أنْ يقولَ: وَعْثاءَ السَّفرِ لقالَ). اللَّهُمَّ اقلِبْنا بذِمَّةٍ، اللَّهُمَّ ازْوِ لنا الأرضَ، وسَيِّرْنا فيها" (الحاكم- ت ٤٠٥، المستدرك على الصحيحين ٢٥١٩ • سكت عنه، وقال فى المقدمة: رواته ثقات. احتج بمثله الشيخان أو أحدهما). وفى الحديث نجد نصا صريحا على أن ما قاله أبو هريرة صحيح، فهو عربى لم يخطئ حين قال: "عوثاء"، وكان يستطيع أن يقول: "وعثاء". ومعنى هذا أن "عوثاء" ليست لحنا بل هى عربية. وإذا كانت "وعثاء" تعنى "المشقة" فقد جاء فى "لسان العرب" (مادة "ع و ث"): "تَعَوَّثَ القوْمُ تَعَوُّثًا: إذا تَحَيَّرُوا. وتقول: عَوَّثَنى حتى تَعَوَّثْتُ، أَى صَرَفَنى عن أَمرى حتى تَحَيَّرْتُ... وتقول: وَعَّثْتُه عن كذا، وعَوَّثْتُه: أَى صَرَفْتُه". وفى "تاج العروس" (نفس المادة): "عَوَّثَه تَعْوِيثًا: أَهمله الجَوْهَرِى، وفى "نوادر الأَعراب"، أَى "ثَبَّطَهُ" عنه. يقال: عَوَّثَهُ عن الأَمْرِ: صَرَفَهُ عنه حتّى تَعَوَّثَ، أَى تَحَيَّر، كـ"عَاثَهُ" ثُلاثيًّا، ووَعَّثَهُ... وتَعَوَّثَ القومُ: تَحَيَّروا، نَقَلَهُ الصّاغَانى". وعلى ذلك فإن "عوثاء" ليست لحنا كما جاء فى كلام د. صبحى الصالح تحت عنوان "رواية الحديث بالحفظ" من الفصل الرابع من كتابه: "علوم الحديث ومصطلحه".

واللافت للنظر أن د. صبحى الصالح يورد ما يقول إنه الحرص على تأدية الكلام كما هو بما فيه من لحن جنبا إلى جنب مع ما يرى أنه حرص على إيراد كلام النبى بنصه لا بمعناه مثلما هو الحال حين قال الصحابى وراءه فى دعاء النوم: "ورسولك الذى أرسلت"، فصححها له النبى إلى: "ونبيّك الذى أرسلت" كما قالها له بالضبط، فجاء راوى الحديث ولفت نظرنا إلى ما قاله النبى أولا وما قاله هو بعده ثم ما قاله له النبى تصحيحا لما قال. واضح أن الأمرين لا يجريان فى اتجاه واحد، ومع هذا أوردهما د. الصالح على أنهما يسيران فى نفس الوجهة. هذا، وقد كتبت ما كتبته هنا لأن فى موقف د. الصالح فيما يبدو لى تناقضا، إذ هو من أنصار الاستشهاد بالحديث فى النحو والصرف والمعجم فى الوقت الذى يرى أن فى الأحاديث لحنا يحرص الرواة على إبقائه.

وبالمناسبة فهذا يذكرنا بما يقوله بعض البلاغيين من أن القرآن قد يخرج عن القاعدة النحوية أو الصرفية من أجل الإبقاء على الفاصلة، إذ لما درستُ هذه النقطة تبين لى بكل جلاء أن القرآن لا يكسر القاعدة فى هذه الحالة بل يستعمل إمكانة أخرى من إمكانات العربية، وإلا فهل نقبل أن يقول مستشرق فى هذا الأمر: ولماذا لم يحافظ الله على القاعدة والفاصلة جميعا؟ أليس هو الله القادر العليم؟ وكان ردى فى كتاب "السجع فى القرآن"، الذى ألفه ديفين ستيوارت وترجمتُه ودرستُه وفليته، أن ذلك هو ما حدث فى القرآن، لكن بعض المتعجلين حتى من بين المسلمين قد تسرعوا وقالوا ما قالوا عن كسر القاعدة فى سبيل الفاصلة.

أهم كتب السنة وأصحابها

البخارى (١٩٤- ٢٥٦هـ): محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبه الجُعْفى البخارى صاحب "الجامع الصحيح". ونُسِب إلى مدينة بخارى لولادته فيها، وقيل له: الجُعْفى لأن المغيرة والد جده أسلم على يدى اليمان الجعفى والى بُخارَى، فنُسِب إليه بوصفه مولاه. وقد توفى والده وهو صغير، وترك له مالًا كثيرا، وقامت أمه بتربيته. وبدأ بطلب الحديث وهو ابن عشر سنين أو أقل، وظهرت أمارات نبوغه منذ الصغر. ومع بلوغه السادسة عشرة كان قد حفظ كتب عبد الله بن المبارك من أئمة الحديث والفقهاء، واطلع على فقه المذاهب الأربعة. ثم خرج إلى مكة للحج، وبعد قضاء المناسك بقى فى مكة والحجاز ست سنوات يطلب الحديث، ثم تنقل فى البلدان وأخذ عن شيوخ الحديث ورواته. وبدأ الناس يأخذون الحديث عنه، وصنف فى فضائل الصحابة والتابعين وأقوالهم وعمره ثمانى عشرة سنة، وصنف كتاب "التاريخ" عند قبر الرسول. ورحل إلى البلدان، فتحلَّق حوله طلاب العلم، وزاد فى شهرته امتحان علماء بغداد له، فأقرّوا له بالعلم. وقد اختار نيسابور مقرًا لإقامته، وسمع منه كثيرون منهم مُسلِم بن الحجّاج صاحب "الصحيح" ومحمد بن عيسى الترمذى وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى وابن ماجه القزوينى أصحاب كتب السنن المشهورة.

وامْتُحِن البخارى فى آخر عمره حين سئل فقال: "ألفاظنا من أفعالنا، وأفعالنا مخلوقة"، فشغب الناس عليه. كما أثار غضب الوالى حين رفض أن يقرأ كتابه: "الصحيح" فى قصره، فترك مدينة نيسابور وذهب إلى بلدته بخارى حيث استقبل أحسن استقبال، ثم توجه إلى سمرقند ومرض فى الطريق فلبث عند أقربائه فى قرية هناك وتوفى بها. وكان للبخارى منذ ظهور أمره مكانة العمدة فى علم الحديث حتى لقد لقب بـ"أمير المؤمنين فى الحديث". وكان رحمه الله سخى الإنفاق فى وجوه الخير يكثر من العبادة وتلاوة القرآن، كما أخذ فى معاملاته بالبعد الشديد عن الشبهات، واشتهر عنه أنه قلما يصرح بتجريح الرواة، وأكثر ما يقول: "اسكتوا عنه"، "فيه نظر"، "منكر الحديث". ويتميز بكثرة محفوظه من الأحاديث وعمق النظر فى عللها وسعة اطلاعه على الرجال والأسانيد، إلى جانب اطلاعه على الفقه بمختلف مذاهبه، حتى صار صاحب اجتهاد مستقل.

وللبخارى سهم كبير فى الارتقاء بعلم الحديث لأنه خرَّج طائفة كبيرة من الأئمة الذين أَغْنَوْا مكتبة الحديث بمصنفاتهم المتميزة بحسن التخير والتهذيب والترتيب. وقد تجاوزت مؤلفاته العشرين، ومنها "التاريخ الكبير"، وهو مرجع حافل مرتب على الأسماء يعرِّف فيه برجال الحديث تعريفا موجزا، ويقع فى ثمانية أجزاء. ومنها أيضًا "الأدب المفرد"، وهو كتاب فى الأحاديث التى تتناول آداب الحياة اليومية والاجتماعية يرويها بأسانيدها مرتبة على الموضوعات، وفيها الصحيح والحسن والضعيف. ومنها كذلك كتاب "الجامع الصحيح" المعروف باسم "صحيح البخارى"، واسمه الكامل "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه". وقد جمع فيه طائفة كبيرة من الأحاديث، ورتبها على الأبواب، وقسم الأحاديث إلى كتب كل منها يشتمل على جملة من الأبواب جعل لكل منها عنوانًا يدل على مضمونه. وقد أورد بعض الآيات والأحاديث وآثار الصحابة ومن بعدهم فى تراجم الأبواب بقصد

تقوية الاستدلال للحكم أو الفائدة التى جعلها ترجمة للكتاب، أو ترجيح بعض الآراء. وأورد كذلك الأحاديث والآثار فى التراجم معلقةً، أى محذوفةَ أولِ السند أو السندِ كله لأنه أوردها استئناسًا وتقوية لاستنباطه، وهذا يتساهل فيه العلماء، فعلقها إشارة إلى أنها ليست داخلة فى شرط كتابه. وقد تخير أحاديث كتابه من زهاء ستمائة ألف حديث، وقال: "ما أَدْخَلْتُ فى كتابى: "الجامع" إلا ما صحّ، وتركْتُ من الصحاح لحال الطول". وعلى هذا فالظنّ بأنه جمع كل الأحاديث الصحيحة أو أنها جمعت كلها فى "الصحيحين" ليس له حقيقة. وقد قام العلماء باختبار أحاديث الكتاب. وانتقد بعضهم بعض الأحاديث فيه، ثم قرروا بالمناقشة والبحث صحة كل أحاديثه المسندة، أما المعلّقة فإنها ليست من موضوع الكتاب وشروطه، إنما هى بمنزلة الحواشى للاستئناس والتقوية.

ولأهمية الكتاب عند المسلمين اعتنى العلماء بشرحه. فمن ذلك "شرح البخارى" للنووى المتوفى سنة ٦٧٦هـ، وقد شرح فيه كتابى "بدء الوحى، والإيمان"، ولم يكمله، و"التنقيح فى شرح الجامع الصحيح" لمحمد بن بهادر الزركشي المتوفى سنة ٧٩٦هـ، و"الإفهام شرح صحيح البخارى" لجلال الدين البلقيني المتوفى سنة ٨٢٤هـ، و"مصابيح الجامع الصحيح" لمحمد بن أبى بكر الدمامينى المتوفى سنة ٨٢٧هـ، و"فتح البارى بشرح صحيح البخاري" لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ، وهو أشهر تلك الشروح، و"إرشاد السارى شرح صحيح البخاري" لشهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣هـ، و"النور السارى من فيض البخارى" لحسن العِدْوِى الحمزاوى المالكى المتوفى سنة ١٣٠٣هـ، و"منح البارى بالسيح الفسيح المجارى فى شرح البخارى" لمجد الدين الشيرازي صاحب "القاموس المحيط".

مسلم بن الحجاج (٢٠٤ ـ ٢٦١هـ): مسلم بن الحجّاج القُشَيْرى النيسابورى أحد أئمة أهل الحديث، ولد بنيسابور، وطلب العلم صغيرًا فسمع شيوخ بلده، ثم رحل فى طلب العلم إلى الحجاز ومصر والشام والعراق مرارًا. ولقى كثيرًا من أئمة الحديث فى أثناء رحلاته كالبخارى وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وقتيبة بن سعيد وإسماعيل بن أبى أويس ويحيى بن يحيى... إلخ. وروى عنه كثير من أهل العلم كالترمذى وأبى حاتم الرازى وابن خزيمة ويحيى بن صاعد وعبد الرحمن بن أبى حاتم وإبراهيم بن محمد بن سفيان راوية صحيح مسلم وغيرهم. وانتقل إلى رحمة ربه وعنده ٥٥ سنة.

وقد خلّف وراءه أكثر من عشرين مصنفًا فى الحديث وعلومه أشهرها "صحيح مسلم"، ويضم اثنى عشر ألف حديث كتبها فى خمس عشرة سنة، ومجموعها عدا المكرر ٣٠٣٠ حديثًا. وهو أحد الصحيحين المعوَّل عليهما عند أهل السنة فى الحديث. وقد شرحه كثيرون أشهرهم الإمام النووى فى ١٨ جزءًا. ووصف مسلم كتابه بقوله: "ما وضعت شيئًا فى كتابى هذا إلا بحجة، وما أسقطت منه شيئًا إلا بحجة". وقد اختصر الحافظ المنذرى "صحيح مسلم" فى مجلد واحد. ومن كتب مسلم أيضا "المسند الكبير فى الرجال" و"الجامع" مرتبًا على الأبواب، و"الأسماء والكُنَى" أربعة أجزاء، و"الأفراد والوُحْدان" و"الأقران" و"مشايخ الثورى" و"كتاب المخضرمين" و"كتاب أولاد الصحابة" و"أوهام المحدثين" و"الطبقات" و"التمييز" و"العلل".

وإذا كان الإمام البخارى قد التزم فى "صحيحه" المعاصرة واللقاء ولو مرة واحدة بين الراوى والمروى عنه فقد اكتفى الإمام مسلم بالمعاصرة بين الرواة، ورأى أنها تكفى لقبول الحديث المعنعن (عن فلان...) وإن لم يثبت اجتماع الراوى والمروى عنه لأن الراوى الثقة لا يروى إلا عمن سمع منه. ومع هذا فـ"صحيح مسلم" أجمل تنظيمًا وأجود إسنادًا. وعلى كل حال لم يستوعب "الصحيحان" جميع الأحاديث الصحيحة، واعترف مؤلف كل منهما بأنه لم يجمع فى كتابه كل الصحيح، وإنما انتقى الأصح المجمع عليه بدليل ما ينقل الترمذى وغيره عن البخارى تصحيح أحاديث ليست فى كتابه، وأقر مسلم بأنه لم يضع فى كتابه كل حديث صح عنده. ويقول الدارقطنى عن تقدم البخارى على مسلم: "لولا البخارى ما راح مسلم ولا جاء".

وقد أجمع العلماء على جلالة قدر مسلم وإمامته وتفوقه فى علم الحديث وتفننه فى تنظيم الأحاديث وترتيبها كما يظهر من كتابه: "الصحيح"، الذى لم يوجد مثله فى حسن الترتيب وتلخيص طرق الحديث من غير زيادة ولا نقصان، والاحتراز من التحول فى الأسانيد عند اتفاقها من غير زيادة، وتنبيهه على ما فى ألفاظ الرواة من اختلاف فى متن أو إسناد ولو فى حرف، واعتنائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلِّسين، وغير ذلك. وعن صحيح مسلم قال أبو على النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج فى علم الحديث. وقال مسلمة بن القاسم القرطبي: مسلم بن الحجاج النيسابورى جليل القدر ثقة من أئمة المحدثين له كتاب فى الصحيح لم يضع أحد مثله. وقال النووى: من حقق نظره فى "صحيح مسلم" رحمه الله واطلع على ما أودعه فى أسانيده وترتيبه وحسن سياقته وبديع طريقته من نفائس التحقيق وجواهر التدقيق وأنواع الورع والاحتياط والتحرى فى الرواية وتلخيص الطرق واختصارها وضبط متفرقها وانتشارها وكثرة اطلاعه واتساع روايته وغير ذلك مما فيه من المحاسن والأعجوبات واللطائف الظاهرات والخفيات عَلِمَ أنه إمامٌ لا يلحقه مَنْ بَعْدَ عصره، وقل من يساويه بله يدانيه من أهل وقته ودهره. وقال ابن حجر العسقلانى: حصل لمسلم فى كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحدٍ مثله بحيث إن بعض الناس كان يفضله على "صحيح" محمد بن إسماعيل، وذلك لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ كما هى من غير تقطيع ولا رواية بمعنى.

وقد بلغت شروح "صحيح مسلم" نحو ٦٤ شرحًا بالعربية، وخمسة بغير العربية. ومن أهمّ هذه الشروح "المعلم بفوائد كتاب صحيح مسلم" للمازري المتوفى عام ٥٣٦ هـ، و"إكمال المعلم فى شرح صحيح مسلم" للقاضى عياض المتوفى عام ٥٤٤هـ، و"المنهاج فى شرح الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج" للإمام النووي المتوفى عام ٦٧٦ هـ، و"الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج" لجلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ، و"السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج" لصديق حسن خان القنوجى المتوفى عام ١٣٠٧ هـ، وهو شرح على "مختصر صحيح مسلم" للحافظ المنذري المتوفى سنة ٦٥٦ هـ، و"الكوكب الوهاج والروض البهّاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجّاج" لمحمد أمين بن عبد الله الهرري الأثيوبي.

أحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ): هو أحمد بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى.وكانت قبيلته شيبان تتميز بكثرة القادة والعلماء والأدباء والشعراء. فالإمام أحمد عربى أصيل ينتمى إلى هذه القبيلة. ولد ببغداد وتربى فيهَا، وسمع شيوخها، ثم رحل إِلَى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة، وسمع من علماء كثيرين. وكان محدثا فقيها، وظهرت عليه مخايل النجابة من الصغر، وَكَانَ أشياخه يعرفون قدره. ونشأ يتيمًا، وتعلم القرآن فى صغره، وحفظه عن ظهر قلب، وعندما تجاوز الخامسة عشرة من عمره بدأ يطلب العلم، وأول من طلب العلم عليه هو الإمام أبو يوسف القاضى، الذى كان من أئمة الرأى إلى جانب كونه محدِّثًا، ولكن مع مرور الوقت وجد الإمام أحمد أنه يرتاح لطلب الحديث أكثر، فتحوَّل إلى مجالس الحديث، ورحل جراء ذلك إلى الشامات والسواحل والمغرب والجزائر ومكة والمدينة والحجاز واليمن والعراق وفارس وخراسان والجبال والأطراف والثغور. والتقى بالشافعى فى أول رحلة من رحلاته الحجازية فى الحرم، وأُعجِبَ به. ولكن حِيلَ بينه وبين مالك بن أنس فلم يوفَّق للقائه. ومن تلامذته البخارى ومسلم وأبو داود وأبو بكر المروزى الفقيه وأبو زرعة الدمشقى ويحيى بن معين وغيرهم.

ومن مؤلفات ابن حنبل كتاب "المسند"، وهو أكبر كتب السنة، إذ يحوى أربعين ألفًا من الأحاديث النبوية اختارها من سبعمائة وخمسين ألف حديث. وله من الكتب أيضًا كتاب "الأشربة"، وكتاب "الزهد"، وكتاب "فضائل الصحابة"، وكتاب "المسائل" وكتاب "الناسخ والمنسوخ"، وكتاب "السنن فى الفقه". واشتُهِرَ الإمام أحمد بأنه محدِّث أكثر من اشتهاره بأنه فقيه. ومن شدة ورعه لم يكن يأخذ من القياس إلا الواضح، وعند الضرورة فقط، ومن ثم عُرِفَ فقهه بأنه الفقه بالمأثور، فكان لا يفتى فى مسألة إلا إن وجد لها من أفتى بها من قبل: صحابيًّا كان أو تابعيًّا أو إمامًا. وإذا وجد للصحابة قولين أو أكثر اختار واحدًا من هذه الأقوال، وقد لا يترجَّح عنده قول صحابى على الآخر، فيكون له فى هذه المسألة قولان. وهكذا تميز فقهه أنه فى العبادات لا يخرج عن الأثر قيد شعرة، فليس من المعقول عنده أن يعبد أحدٌ ربه بالقياس أو بالرأى، ألم يقل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِى أُصَلِّى"، وفى الحج: "خُذُوا عَنِّى مَنَاسِكَكُمْ"؟ أما فى المعاملات فيتميز فقهه بالسهولة والمرونة والصلاح لكل بيئة وعصر، إذ كان يلتزم نصوص الشرع التى غلب عليها التيسير لا التعسير. مثال ذلك: "الأصل فى العقود عنده الإباحة ما لم يعارضها نص"، بينما عند بعض الأئمة الأصل فى العقود الحظر ما لم يرد على إباحتها نص. وكان شديد الورع فى الفتاوى، ومن أقواله: "إذا روينا عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا فى الأسانيد، وإذا روينا عن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فى فضائل الأعمال وما لا يضع حكما ولا يرفعه تساهلنا فى الأسانيد". وقد كتب تلاميذه عنه أكثر من ستين ألف مسألة. وكان يأخذ بمبدإ "الاستصحاب" وبالأحاديث المرسلة.

وكان ابن حنبل على موعد مع محنة "خلق القرآن"، التى تحملها فى شجاعة، وكان المأمون قد أعلن فى سنة ٢١٨هـ القول بأن القرآن مخلوق كغيره من المخلوقات، وحمل الفقهاءَ على قبوله ولو اقتضى ذلك تعريضهم للتعذيب، فامتثلوا خوفًا ورهبًا، وامتنع أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح عن القول بما يطلبه الخليفة، فكُبّلا بالحديد، وبُعِث بهما إلى المأمون، الذى كان فى طرسوس، لينظر فى أمرهما، غير

أنه توفِّى وهما فى طريقهما إليه، فأعيدا مكبّلين إلى بغداد. وتوفى ابن نوح، وبقى ابن حنبل متمسكا بموقفه فمكث فى المسجد عامين وثلثا صامدا وحُمِل إلى الخليفة المعتصم، وكان هو أيضا يحمل الناس حملا على القول بخلق القرآن، واتخذت معه فى حضرة الخليفة وسائل الترغيب والترهيب ليظفر المجتمعون منه بكلمة واحدة تؤيدهم فيما يريدون، فكانوا يقولون له: ما تقول فى القرآن؟ فيجيب: هو كلام الله. فيقولون له: أمخلوق هو؟ فيجيب: هو كلام الله. ولا يزيد على ذلك. فعلَّقوه من رجليه، وراحوا يضربونه بالسياط، ولم تأخذهم شفقة حتى أغمى عليه، ثم أُطْلِق سراحه وعاد إلى بيته، ثم مُنِع من الاجتماع بالناس فى عهد الخليفة الواثق (٢٢٧- ٢٣٢هـ) لا يخرج من بيته إلا للصلاة، حتى ولى المتوكل الخلافة سنة (٢٣٢هـ)، فمنع القول بخلق القرآن، ورد للإمام أحمد اعتباره، فعاد إلى التحديث فى المسجد.

وفى ابن حنبل يقول أبو داود: كانت مجالس أحمد مجالس آخرة، لا يُذْكَر فيها شيء من أمر الدنيا، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قَط. وقال إبراهيم الحربى: رأيت أحمد بن حنبل كأن الله قد جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف، يقول ما شاء ويمسك ما شاء. وقال ابن مهدى: ما نظرت إليه إلا ذكرت به سفيان الثورى. ولقد كاد هذا الغلام أن يكون إمامًا فى بطن أمه. وقال الشافعى: خرجت من بغداد فما خلَّفت بها أفقه ولا أزهد ولا أورع ولا أعلم منه. وقال الذهبى: المعتدلُ فيهم (أى فى علماء الجرح والتعديل) أحمد بن حنبل. وعن بنان بن أحمد القصبانى أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل فيمن حضر، "فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة، وحُزِر مَنْ حضرها من الرجال، فكانوا ثمانمائة ألف، ومن النساء ستين ألفًا". وقد أوردتُ هذه الشهادات كما هى مع ما فيها من المبالغات.

وكتابه: "المسند" من أشهر كتب الحديث وأوسعها، إذ يحتوى على ما يزيد على ٢٦ ألف حديث نبوى منها كثير من الأحاديث الصحيحة التى لا توجد فى "الصحيحين". وقد رتبه على أسماء الصحابة الذين يروون الأحاديث كما هى طريقة المسانيد، ومن أحاديثه ثلاثمائة حديث ثلاثية الإسناد (أى بين راويها وبين النبى ثلاثة رواة). ورتب كتابه على المسانيد فجعل مرويات كل صحابى فى موضع واحد، وعدد الصحابة الذين لهم مسانيد فى مسند الإمام أحمد ٩٠٤ صحابي.

مالك بن أنس (١٧٩-٩٣هـ): مالك بن أنس صاحب "الموطأ" وإمام دار الهجرة. جمع بين علم الحديث وعلم الفقه، وبرع فى كل منهما. وهو ثانى أئمة المسلمين السنة الأربعة الذين يجمع على إمامتهم أهل السنة. وكان الشافعى وابن حنبل من تلاميذ الإمام مالك. واشتُهر مالك بعلمه الغزير وقوة حفظه للحديث النبوى، وكان معروفًا بالصبر والذكاء والهيبة والوقار والأخلاق الحسنة. واعتمد فى فتواه على القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع وعمل أهل المدينة والقياس والمصالح المرسلة والاستحسان والعرف والعادات وسد الذرائع والاستصحاب. ويُعدّ "الموطأ" من أوائل كتب الحديث النبوى وأصحِّها حتى ليقول الشافعى: ما بعد كتاب الله تعالى كتابٌ أكثرُ صوابًا من "موطأ" مالك.

وُلد مالك بالمدينة المنورة، ونشأ فى بيت كان مشتغلًا بعلم الحديث وأخبار الصحابة وفتاواهم، فحفظ القرآن الكريم فى صدر حياته، ثم اتجه إلى حفظ الحديث النبوى وتعلُّمِ الفقه الإسلامى.وبعد أن

اكتملت دراسته للآثار والفُتْيا اتخذ له مجلسًا فى المسجد النبوى للدرس والإفتاء. وكان يتحرزُ أن يُخطئ فى إفتائه ويُكثرُ من قول "لا أدرى"، وكان يقول: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا فى رأيى، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه. وفى سنة ١٧٩هـ مرض الإمام مالك اثنين وعشرين يومًا ثم مات، ودُفن فى البقيع.

وكان الإمام إذا استمع إلى شيء استمع إليه بحرص ووعاه وعيًا تامًا، حتى إنه ليسمع نيفًا وأربعين حديثًا مرة واحدة من ابن شهاب الزهرى، فيجيء فى اليوم التالى ويُلْقِى عليه منها أربعين حديثًا، مما يدل على قوة ذاكرته حتى قال له الزهرى: إنك لنعم المستودَع للعلم. وكان مالك صبورًا مثابرًا مغالبًا لكل الصعاب فى سبيل العلم، وكان يعمل فى نفسه ما لا يُلْزِمه الناس. كما اتصف بقوة الفراسة. وكان ذا هيبة ووقار، ويهابه أولاد الخلفاء، ويُعْنَى بملابسه عنايةً تامةً، ويَرَى فى ذلك إعظامًا للعلم ورفعةً لصاحبه.

وظهر مذهب مالك الفقهى فى كتابين هما "الموطأ" و"المدوَّنة الكبرى"، التى ذكر فيها كل ما عرض له من أحكام وقضايا فقهية. لكنه عرف بكتاب "الموطأ" رغم أن له تآليف أخرى كرسالته فى القدر والرد على القدرية وكتابه فى النجوم، وحساب مدار الزمان ومنازل القمر، ورسالته فى الأقضية، ورسالته المشهورة فى الفتوى، ورسالته إلى هارون الرشيد فى الآداب والمواعظ، وكتابه فى التفسير لغريب القرآن.

وكتاب "الموطأ" هو جوهر فقه مالك، وهو من أوائل كتب الحديث وأشهرها فى ترتيبه وتركيبه، وكان أعظمَ مرجع فى عصره، واعتنى بالكلام على رجاله وحديثه عددٌ كثيرٌ من المالكيين وغيرهم. وأثنى كثيرٌ من العلماء عليه كالشافعى وابن مهدى.وسُئِل أحمد بن حنبل عن كتاب مالك بن أنس فقال: "ما أحسنه لمن تَديَّن به". وقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصور (ت١٥٨هـ) إلى الإمام مالك فى موسم الحج تأليف كتاب فى الفقه مقترحا عليه أن يجمع الناس على كتابه، فلم يجبه مالك إلى ذلك، وقال: إن الناس قد جمعوا واطلعوا على أشياء لم نطلع عليها. وفى "الموطأ" أحاديث صحيحة مسندة، وفيه البلاغات والمنقطعات والمراسيل، إذ كان مالك يرى حجية الحديث المرسل. وقام ابن عبد البر وابن الصلاح بوصل البلاغات كما هو معروف.

وكان مالك متحريا فى الرواية منتقيا ومنتقدا للرجال، لذلك اعتمد عليه أهل الحديث آنذاك حتى ظهر "صحيح البخاري" المتقدم عليه فى الصحة، إذ جرد البخاري صلب الكتاب من البلاغات والمراسيل، وإن كان قد ذكرها فى تراجم الأبواب على سبيل الاستشهاد بها لا أكثر. ومع تقدم "صحيح البخارى" فى الصحة لم يفقد "الموطأ" تلك المكانة كمصدر من مصادر السنة المشهورة.

وقد رتب مالك "موطأه" على أبواب الفقه مسميا كل باب: "كتابا": "كتاب وقوت الصلاة، كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب السهو، كتاب الجمعة، كتاب الصلاة فى رمضان، كتاب صلاة الليل، كتاب صلاة الجماعة، كتاب قَصْر الصلاة فى السفر، كتاب العيدين، كتاب صلاة الخوف، كتاب صلاة الكسوف، كتاب الاستسقاء، كتاب القبلة، كتاب القرآن، كتاب الجنائز،، كتاب الزكاة،، كتاب الصيام،، كتاب الاعتكاف، كتاب الحج،، كتاب الجهاد، كتاب النذور والأيمان، كتاب

الضحايا، كتاب الذبائح، كتاب الصيد، كتاب العقيقة، كتاب الفرائض، كتاب النكاح، كتاب الطلاق، كتاب الرضاع، كتاب البيوع، كتاب القراض، كتاب المساقاة، كتاب كراء الأرض، كتاب الشُّفْعة، كتاب الأقضية، كتاب الوصية، كتاب العتق والولاء، كتاب المُكَاتَب، كتاب المدبّر، كتاب الحدود، كتاب الأشربة، كتاب العقول، كتاب القَسَامة، كتاب الجامع، كتاب القدر، كتاب حسن الخلق، كتاب اللباس، كتاب صفة النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، كتاب العين، كتاب الشعر، كتاب الرؤيا، كتاب السلام، كتاب الاستئذان، كتاب البيعة، كتاب الكلام، كتاب جهنم، كتاب الصدقة". وقام عدد كبير من العلماء بشرحه، ومن أشهر هذه الشروح: "القبس فى شرح موطإ مالك بن أنس" لمحمد بن عبد الله بن العربى المعافر المتوفى ٥٤٣هـ، و"التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد"، و"الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معانى الرأى والآثار" لابن عبد البر القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣هـ، و"المقتبس شرح موطأ مالك بن أنس" لابن السِّيد البَطَلْيوسى المالكى المتوفى سنة ٥٢١هـ، و"كشف المُغطَّى عن الموطَّا"، و"تنوير الحوالك" و"تجريد أحاديث الموطأ" لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ.

ورُوى عن عبد السلام بن عاصم أنه قال: قلت لأحمد بن حنبل: الرجل يريد حفظ الحديث، فحديث من يحفظ؟ قال: حديث مالك بن أنس. قلت: فالرجل يريد أن ينظر فى الرأى، فبرأى من؟ قال: فبرأى مالك بن أنس. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبى: من أثبتُ أصحاب الزهرى؟ قال: مالك أثبت فى كل شىء. قال الإمام النووى: أجمعت طوائف العلماء على إمامة مالك وجلالته، وعظيم سيادته وتبجيله وتوقيره، والإذعان له فى الحفظ والتثبت، وتعظيم حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. وأخرج البخارى عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: مالك أمير المؤمنين فى الحديث. وأخرج الغافقى عن ابن مهدى أنه قال: ما رأيت أعقل من مالك.

الطبرانى (٢٦٠- ٣٦٠هـ): هو سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمى الشامى، أبو القاسم الطبرانى.وُلِدَ فى مدينةِ عكا بفلسطين، وأُمُّهُ عكاويَّة، وأُطلق عليه اسمُ الطبرانى نسبةً إلى منطقةٍ فى بلادِ الشامِ تُدعى طبرية، وبرَّزَ فى علم الحديث الشريف وعلم التفسير والعقيدة. وقد أخذ العلم منذ الصغر وأمضى حياته كُلها فى ذلك، وارتحلَ فى طلب العلم إلى بلاد الشام وبغداد والبصرة والكوفة وأصبهان واليمن والحجاز ومِصر وبلاد الجزيرة وخوزستان وأصبهان وغيرها من المُدن والأقطار، وكتبَ عمن سبقوه ومن جاؤوا بعده. وعاشَ مُدةً طويلةً من الزمن، وتوفى سنة ثلاثمائة وستين هجرية، وقيلَ إنّه توفى وهو يبلغُ من العُمر ١٠٠ عامٍ وعشرةَ أشهر. وسمِع من مئات العلماءِ والشيوخ. وسُئل عن كثرةِ ما رواه من حديث فقال: "كنت أنام على البوارى (أى الحصير) ثلاثين سنة". ووضعَ كثيرا من المؤلفات التى اشتهرت بينَ المسلمين ما بينَ تفسيرٍ وروايةِ حديث وعقيدة وغير ذلك. وقد أُطلقَ عليه عدة ألقابِ منها "الإمام، الحافظ، الرحال، محدّث الإسلام، علَمُ المعمَّرين، صاحب المعاجم الثلاثة". وامتدحَ الإمامَ الطبرانى العلماءُ، فوصفه الذهبى بأنه "الحافظ المشهور مُسْنَد الدنيا"، وقال ابن الجوزى: "كان الطبرانى من الحفّاظ الكبار، وله التصانيف الحسان". وقال الوزير ابن العميد: "ما كنت أظن أن فى الدنيا حلاوة

ألذ من الرئاسة والوزارة التى أنا فيها حتى شاهدت مذاكرة سليمان بن أحمد الطبرانى وأبى بكر الجعابى بحضرتى، فكان الطبرانى يغلب الجعابى بكثرة حفظه، وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته وذكاء أهل بغداد، حتى ارتفعت أصواتهما ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابى: عندى حديث ليس فى الدنيا إلا عندى.فقال: الطبرانى: هاته. فقال الجعابى: حدثنا أبو خليفة حدثنا سليمان بن أيوب، وحدّث بالحديث، فقال الطبرانى: أنا سليمان بن أيوب، ومنى سمع أبو خليفة، فخجل الجعابى، وغلبه الطبرانى، قال ابن العميد: فوددت أن الوزارة والرئاسة لم تكن لى، وكنت أنا الطبرانى، وفرحت مثل الفرح الذى فرح الطبرانى لأجل الحديث". وأشهر مؤلفات الطبرانى هى المعاجم الثلاثة، وموضوعها هو علمُ الحديث. وهناك تفسيرٌ منسوبٌ للطبرانى فى ستة مجلدات. وله أيضا "كتاب الدعاء، معرفة الصحابة، كتاب عشرة النساء، كتب دلائل النبوة، كتاب الفرائض...".

والآن إلى معاجم الطبرانى، وهى ثلاثة من كتب الحديث الشريف جمعها ورتبها على حروف المعجم. وهذه المعاجم هى المعجم الكبير والمعجم الأوسط والمعجم الصغير. وهناك فرق بين المعاجم والمسانيد كمسند ابن حنبل مثلا: ففى المسانيد تسرد أحاديث كل صحابى وحده كاملة ما أمكن دون ترجمة الصحابى، وأما فى المعاجم فتذكر ترجمة الصحابى أولا ثم بعض أحاديث الصحابى أو كلها. فكتب المعاجم تدخل فى كتب التراجم والرجال، وترتب غالبا على حروف المعجم سواء بالنسبة للصحابة أو بالنسبة لشيوخ المصنف. وبالنسبة لـ"معاجم الطبرانى" فهى مرتبة على النحو التالى: المعجم الكبير مرتب على مسانيد الصحابة بحسب حروف المعجم عدا مسند أبى هريرة لأنه أفرده فى مصنف مستقل بسبب كثرة أحاديثه. وقد وُصِف هذا المعجم بأنه أكبر معاجم الدنيا حتى لقد قال بعضهم إنه يضم ثمانين ألفا رغم أن هناك جزءا ضائعا منه. ثم يأتى المعجم الأوسط، وهو مرتب على أسماء شيوخ الطبرانى، وعددهم نحو ألفين، وتقدر أحاديثه بثلاثين ألف حديث. وأخيرا يأتى المعجم الصغير، وقد خرَّج فيه عن ألف شيخ من شيوخه مُورِدًا لكل منهم فى الغالب حديثا واحدا.

وقسم الطبرانى الصحابة قسمين: مَنْ لهم رواية، ومن ليس لهم رواية. وهؤلاء الأخيرون يعرّف الطبرانى بهم من خلال كتب السير والمغازى. وبالنسبة لمن لهم رواية فالمكثرون منهم لا يخرِّج لهم إلا القليل أو لا يخرِّج لهم شيئا لأنه يفردهم بمسانيد خاصة كأبى هريرة رضى الله عنه. ومن أبرز الأمثلة على عدم استيعابه لأحاديث الصحابة المكثرين أنه لم يخرِّج لأنس رضى الله عنه إلا نحو ٤٠ حديثا فقط. ومع ذلك قد يسهب أحيانا فى ذكر أحاديث هؤلاء كما هو الحال مع عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو رضى الله عنهم. والملاحظ أن الطبرانى يورد الأحاديث دون ترتيب إلا فى الصحابة المكثرين ممن لهم تلاميذ كثيرون، وهؤلاء التلاميذ بدورهم مكثرون من الرواية. فهو يرتب أحاديث الصحابى تبعا لمن رووا عنه، فيرتب مثلا أحاديث ابن عباس رضى الله عنهما طبقا للرواة عنه كعكرمة وسعيد بن جبير بخلاف المقلين من الرواية، إذ يحرص كل الحرص على استيفاء مروياتهم.

وهو يبدأ بتعريف الصحابى ذاكرا اسمه كاملا وكنيته وأوصافه... إلخ، ثم يذكر فضائله ومغازيه ثم أحاديثه مسندا كل قول يرويه فى ترجمة أحد الصحابة إلى قائله. وقد بدأ بذكر أحاديث الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، لكنه لم يلتزم الترتيب الألفبائى فى ذكر أولئك العشرة، ثم أتبعهم بإيراد أحاديث الصحابة الآخرين مبتدئا بأحاديث من عُرِفَتْ أسماؤهم فأحاديث من عرفت كُنَاهُمْ فأحاديث المبهَمين، ثم أحاديث من عُرِفَتْ أسماؤهن من الصحابيات فأحاديث من عرفت كُنَاهُنَّ فأحاديث المُبْهَمات كما صنع مع الرجال. وقد اعتمد على الحرف الأول فقط فى ترتيبه الأَلِفْبَائى لأسماء من يروى عنهم. كما أنه قد يرتب أحاديث معاجمه على الأبواب الفقهية أحيانا.

عبد الرزاق (١٢٦- ٢١١هـ): عبد الرزاق بن همام بن نافع الحِمْيَرِى، أبو بكر الصنعانى نسبة إلى صنعاء، وكان من أهلها. ومن حفّاظ الحديث الثقات، وقيل إنه كان يحفظ نحوا من سبعة عشر ألف حديث. وأما مصنفه المعروف بـ"مصنف عبد الرزاق" فهو أحد كتب الحديث عند أهل السنة، ومن أوائل كتب رواية الحديث فى تاريخ الإسلام. وقد جمع الصنعانى أحاديثه ورتبها على أبواب الفقه، فقسم الكتاب إلى ٣١ كتابًا فقهيًا متفرعًا إلى أبواب اشتملت على ١٩٢٠٢ نصًا مسندًا على النحو التالى: كتاب الطهارة، كتاب الحيض، كتاب الصلاة، كتاب الجمعة، كتاب صلاة العيدين، كتاب فضائل القران، كتاب الجنائز، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب العقيقة، كتاب الاعتكاف، كتاب المناسك، كتاب الجهاد، كتاب المغازي، كتاب أهل الكتاب، كتاب النكاح، كتاب الطلاق، كتاب البيوع، كتاب الشهادات، كتاب المكاتَب، كتاب الأيمان والنذور، كتاب الولاء، كتاب الوصايا، كتاب المواهب، كتاب الصدقة، كتاب المدبّر، كتاب الأشربة. ونظرًا لأهميته الشديدة وصف الحافظُ الذهبى هذا الكتابَ بأنه خزانة علم. ولم يقتصر الصنعانى على رواية الأحاديث المرفوعة فقط، بل روى أيضًا أحاديثَ موقوفة ومقطوعة، ولم يشترطِ الترتيبَ بينها. كما أكثر من رواية آراء شيخه الإمام مَعْمَر فى المسائل التى ينقلها. ولم يشترط الصحة لرواية الأحاديث والأخبار، فروى الصحيح والحسن والضعيف. وتميز الكتاب بعلو أسانيده، إذ أغلب الأسانيد ثلاثية. وقد روى الكتاب إسحاق بن إبراهيم الدبرى، وإبراهيم بن منصور الرمادى، ومحمد بن يوسف الجذافى، ومحمد بن على النجار. وقام العالم ابن مفرج الأندلسى بإصلاح الحروف التى صحفها إسحاق بن إبراهيم الدبرى.وثم رسالة جامعية موضوعها "زوائد عبد الرزاق على الكتب الستة".

ابن أبى شيبة (١٥٩- ٢٣٥هـ): أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة إبراهيم بن عثمان بن خُوَاسْتى العبسى الكوفى، ويلقب بـ"سيد الحُفّاظ". وهو أحد علماء الحديث عند أهل السنة ومن أعلام المحدِّثين، وصاحب كتاب" مصنف ابن أبى شيبة". كما جمع مسندًا وصنف تفسيرًا للقرآن. وكان جده إبراهيم قاضى واسط، وأما أبوه محمد فكان على قضاء فارس. وهو واسطى الأصل، ونزل الكوفة ومات بها، واشتهرت نسبته إليها. وكان من أقران أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وعلى بن المديني فى السن والمولد والحفظ. وسمع من عبد الله بن المبارك، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، ويحيى بن سعيد القطان، وخلق كثير غيرهم بالعراق والحجاز وغير ذلك. وروى عنه الحديثَ

الشيخان: البخاري ومسلم، وأبو داود ومحمد بن ماجه، وروى النسائي عن بعض أصحابه. كما روى عنه أيضًا أحمد بن حنبل، وأبو زرعة الرازي، وابن أبى عاصم، وبقى بن مخلد، وأبو يعلى الموصلي، وصالح جزرة، وأبو القاسم البغوي، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: أبو بكر صدوق. وقال الفلاس: ما رأيت أحفظ من أبى بكر بن أبى شيبة. وقال أبو عبيد: انتهى الحديث إلى أربعة: فأبو بكر ابن أبى شيبة أسردهم له، وأحمد أفقههم فيه، وابن معين أجمعهم له، وابن المدينى أعلمهم به. وقال الخطيب: كان أبو بكر متقنا حافظا صنف المسند والأحكام والتفسير. وقال ابن كثير فى "البداية والنهاية": أحد الأعلام وأئمة الإسلام وصاحب المصنَّف الذى لم يصنِّف أحد مثله قط لا قبله ولا بعده.

أما "مصنفه" فهو واحد من كتب السنة الهامة المعوَّل عليها لدى أهل السنة لسعة ما يشتمل عليه من أحاديث. وقد رتبه على الكتب الفقهية التى اندرج تحت كل منها عدد من الأبواب، وتحت كل باب عدد من النصوص. وبلغت نصوص الكتاب فى جملتها ٣٧٢٥١ نصًّا مسندًا منها ما هو مرفوع وما هو موقوف وما هو مقطوع. وقد حرص ابن أبى شيبة على جمع كل ما يجد من النصوص التى تطابق الترجمة الموضوعة للباب بغض النظر عن صحة هذه النصوص أو ضعفها، اللهم إلا إذا كان وضعها ظاهرا.

وقد رتب ابن أبى شيبة "مصنفه" على الأبواب الفقهية المختلفة، فبدأ بـ"كتاب الطهارات" وانتهى بـ"كتاب الجَمَل وصفين والخوارج"، لكنه رغم ذلك لم يرتبه كما رتبت الكتب الفقهية، إذ ذكر كتاب الزكاة ثم كتاب الجنائز ثم كتاب الأيمان والنذور ثم كتاب الحج. وكسائر المصنفات الحديثية يتركز موضوع المصنف على الآثار الموقوفة على الصحابة أو من دونهم من التابعين وأتباعهم من الفقهاء فى الفتاوى والأحكام ورواية ذلك بالأسانيد إليهم. وقد يذكر فى كل باب حديثا مرفوعًا أو عدة أحاديث. ويضم الكتاب كتبا فى الزهد والتاريخ والفضائل والفتن والأوائل رغم أنه لم يكن فى خطة المؤلف شىء من هذا. وقيل إنها ليست منه، لكنْ أدخلها بعض تلاميذ ابن أبى شيبة فى "المصنف".

وينبه ابن أبى شيبة على صيغ التحمل والأداء عند رواة السند أو الرواة إذا اختلفوا، ويضبط لفظ كل واحد. كما يحرص على التنبيه على الزيادة والنقص فى السند من قبل الرواة، وكذلك التنبيه على وقف الحديث ورفعه. وهو يتبع طريقة عرض الرواية بالمعنى. ولهذا يختصر المتن فى بعض المواضع، ويجمع بين عدة آثار بمتن واحد، ويحيل فى المتن على ما قبله بقوله: "بمثله أو بنحوه". ونراه يقطّع المتون حسب الأبواب، ويشرح المقصود بالمتن، ويفسر الغريب من الألفاظ.

قال حاجى خليفة: هو كتاب كبير جدا جمع فيه فتاوى التابعين وأقوال الصحابة وأحاديث الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم على طريقة المحدثين بالأسانيد مرتبا على الكتب والأبواب على ترتيب الفقه. وقال ابن خير: مصنف أبى بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة تسعون جزءًا. والجزء هنا لا يراد به الجزء فى اصطلاح المحدثين الذى هو تأليف صغير يشتمل على مطلب معين من المطالب، بل المراد به ما يعادل الجزء الحديثى فى الحجم، وهو تقريبا عشر ورقات من ورقات المخطوطات التى تكون الورقة فيها ذات وجهين، أى ما يقارب عشرين ورقة.

التِّرْمِذِى (٢٠٩- ٢٧٩هـ): هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحّاك. ولد فى قرية تابعة لمدينة ترمذ، ومن هنا سمى بـ"الترمذى". وكان قوى الذاكرة، وارتحل فى طلب الحديث، فذهب إلى خراسان والعراق ومكة والمدينة. وله عدة مؤلفات منها "كتاب الجامع للسنن"، و"كتاب العلل الصغرى"، و"كتاب العلل الكبرى"، و"كتاب الشمائل المحمدية"، و"كتاب الزهد"، و"كتاب التاريخ"، و"كتاب الأسماء والكُنَى". وفقد بصره فى آخر حياته، وتوفى فى قريته: بوغ. ومن شيوخه البخارى ومسلم. وقد أجمع أهل العلم على عدالته وثقته إلا ابن حزم الأندلسى، الذى قال فيه: "مجهول"، إذ لم يكن يدرى بوجود كتابيه: "الجامع" و"العلل" كما ذكر الذهبى.ويعرف كتاب "جامع الترمذى"، حسب تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة لهذه المسألة، بـ"الجامع المختصر من السنن عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل".

وقال الترمذى عن هذا الكتاب: "صنفت هذا الكتاب، فعرضته على علماء الحجاز والعراق وخراسان، فرَضُوا به. ومن كان فى بيته هذا الكتاب فكأنما فى بيته نبى يتكلم". وقال القاضى أبو بكر بن العربى فى "روضة الأَحْوَذِى شرح سنن الترمذى": "وليس فيهم مثل كتاب أبى عيسى حلاوة مقطَّع، ونفاسة منزع، وعذوبة مشرع. وفيه أربعة عشر علمًا، وذلك أقرب إلى العمل وأسلم: أسند، وصحّح، وضعَّف، وعدَّد الطرق، وجرح، وعدَّل، وأسمى، وأكنى، ووصل، وقطع، وأوضح المعمول به، والمتروك، وبين اختلاف العلماء فى الرد والقبول لآثاره، وذكر اختلافهم فى تأويله. وكل علم من هذه العلوم أصل فى بابه، وفَرْدٌ فى نصابه. فالقارئ له لا يزال فى رياضٍ مُونِقَة، وعلوم متفِّقة متسقة". ويبلغ عدد أحاديث "جامع الترمذى" ٣٩٥٦ حديثًا.

وذكر الشيخ أحمد محمد شاكر، فى مقدمة تحقيقه لـ"سنن الترمذى" أن هذا الكتاب يمتاز بثلاثة أشياء لا تجدها فى كتب السنة كلها: فهو يختصر طرق الحديث اختصارًا لطيفًا، فيذكر واحدًا ويومئ إلى ما عداه، إذ بعد أن يروى حديث الباب يذكر أسماء الصحابة الذين رويت عنهم أحاديث فى هذا الباب: سواءً كانت بمعنى الحديث الذى رواه أو بمعنى آخر أو بما يخالفه أو بإشارة إليه ولو من بعيد. كما أنه فى أغلب الأحيان يورد اختلاف الفقهاء وأقوالهم فى المسائل الفقهية، وكثيرًا ما يشير إلى أدلتهم، ويذكر الأحاديث المتعارضة فى المسألة. وبالمثل نراه يُعْنَى عناية شديدة بتعليل الحديث، فينص على درجته من الصحة أو الضعف، ويفصل القول فى التعليل والرجال تفصيلًا جيدًا. وبذلك صار كتابه هذا كأنه تطبيق عملى لقواعد علوم الحديث، وبخاصة علم العلل.

أما بالنسبة لمنهج الإمام الترمذى فى "الجامع" فقد توسع فى الرواية عن طبقة من الرواة لم يخرّج لها الشيخان. كما قسم الحديث إلى ثلاثة أنواع: صحيح، وضعيف، وحسن. وهو أول من شهر هذا النوع الأخير من الأحاديث، إذ قال: وما ذكرنا فى هذا الكتاب "حديث حسن" فإنما أردنا به حسن إسناده عندنا. كل حديث يروى لا يكون فى إسناده من يتهم بالكذب، ولا يكون الحديث شاذًّا، ويروى من غير وجه نحو ذاك، فهو عندنا "حديث حسن". ولا يكتفى الترمذى بإيراد الأحاديث فقط، بل يتناول أيضا درجتها من الصحة أو الضعف، ويورد مذاهب الفقهاء وأقوالهم فى الأحاديث الخاصة

بالأحكام كما وضح الشيخ أحمد شاكر آنفا. ليس ذلك فحسب بل هناك اهتمام واضح عند الترمذى بشرح الألفاظ الغريبة فى الحديث، بالإضافة إلى اهتمامه بكتابة بعض الفوائد لكل حديث يورده.

وثم شروح متعددة لـ"سنن الترمذى": "تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي"، "معارف السنن شرح جامع الترمذي"، "العَرْف الشَّذِى شرح سنن الترمذي"، "عارضة الأحوذى بشرح جامع الترمذي" لأبى بكر ابن العربى المالكى، "النفح الشذي" لابن سيد الناس، "قوت المغتذى على جامع الترمذى" لجلال الدين السيوطى، "الكوكب الدري" لمولانا رشيد أحمد الكنكوهى، "جائزة الأحوذى فى التعليقات على شرح الترمذى" لثناء الله المدني، "تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى" للعلامة محمد المباركفورى.

البيهقى (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ): أبو بكر أحمد بن الحسين بن على بن موسى الخراسانى البيهقى نسبة إلى بيهق. بدأ طلبَ العلم وسماعَ الحديث منذ الخامسة عشرة من عمره. وقال: إنى منذ نشأت وابتدأت فى طلب العلم أكتب أخبار الرسول، وأجمع آثار الصحابة الذين كانوا أعلام الدين، وأسمعها ممن حملها، وأتعرف أحوال رواتها من حفاظها، وأجتهد فى تمييز صحيحها من سقيمها، ومرفوعها من موقوفها، وموصولها من مرسلها، ثم أنظر فى كتب هؤلاء الأئمة الذين قاموا بعلم الشريعة وبنى كل واحد منهم مذهبه على مبلغ الكتاب والسنة، فأرى كل واحد منهم قصد الحق فيما تكلف واجتهد فى أداء ما كلف. وقد وعد رسول الله فى حديث صحيح عنه لمن اجتهد فأصاب أجرين، ولمن اجتهد وأخطأ أجرا واحدا، ولا يكون الأجر على الخطإ، وإنما يكون على ماتكلف من الاجتهاد، ويُرْفَع عنه إثم الخطإ بأنه إنما كُلِّف الاجتهاد فى الحكم على الظاهر دون الباطن، ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل. ومن مؤلفاته "دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة" و"السنن الكبرى" و"أحكام القرآن" و"أحاديث الشافعى" و"فضائل الصحابة" و"الجامع لشُعَب الإيمان" و"البعث والنشور" و"الأسماء والصفات".

ويهمنا من هذه المؤلفات "سنن البيهقى"، وهو واحد من أجمع الكتب التى تناولت نصوص الأحكام بكافة صورها المرفوعة وغير المرفوعة، إذ رتبه صاحبه على الأبواب الفقهية، وأورد تحت كل باب ما يناسبه من نصوص، وذكر النص بسنده، وبين وجوه الخلاف فى الرواية، وبين علل الأحاديث التى يرويها، وما يصح منها وما لا يصح، وبين غريب الألفاظ، وقام ببيان وجوه التعارض الظاهرى بين النصوص، واعتمد فيه طريقة الكتب والأبواب بالإضافة إلى أنه يحكم على رواة النصوص فى أحيان كثيرة. قال عنه ابن الصلاح: لا نعلم مثله فى بابه، وجعله سادس الكتب الستة فى القيمة والأهمية بعد البخاري ومسلم وسنن أبى داود وسنن النسائي وسنن الترمذي. وقال الإمام السبكي: أما "السنن الكبير" فما صُنِّف فى علم الحديث مثله تهذيبًا وترتيبًا وجودةً. وذكره الذهبي فى الكتب التى إن أدمن فيها أحد القراءة والمطالعة والدراسة فهو العالم حقًا. وقال إنه انقطع بقريته مُقْبِلًا على الجمع والتأليف، فعمل "السنن الكبير" فى عشرة مجلدات. ويضم "السنن" فوق العشرين ألف خبر، ويعد مصدرا مهما لمعرفة النصوص والأدلة فى كثير من المسائل الفقهية. بل قد يقابل فيه الباحث مسائل فى كتب الفقه يندر وجود أدلتها فى الكتب الستة، بل ربما لا توجد البتة كمسألة الاستجمار بالجِلْد. واختصر الذهبى كتاب

"السنن الكبرى" فى كتاب بعنوان "المهذب فى اختصار السنن الكبير للبيهقي"، فنزلت العشرون ألف حديث الموجودة فيه إلى ٤٤٧٨ حديثًا.ومن الكتب التى خدمته كتاب "الجوهر النقى على سنن البيهقى" لابن التركمانى، وكتاب "فوائد المنتقى لزوائد البيهقى"، الذى جمع فيه الحافظ شهاب الدين أحمد بن أبى بكر بن إسماعيل البوصيرى زوائدَ "السنن الكبرى" على الكتب الستة.

نقد المتن عند المحدّثين القدماء

ونبدأ بالحديث التالى: "عن سلمان الفارسى: أنَّ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم أمْلى الكتابَ على على بنِ أبى طالبٍ: هذا ما فادى محمدُ بنُ عبدِ اللهِ رسولُ اللهِ فدى سَلمانَ الفارسِى من عُثمانَ بنِ الأشْهَلِ اليهودى ثم القُرَظِى بِغَرْسِ ثلاثمائةِ نخلةٍ وأربعينَ أوقيةً ذَهَبًا، وقد بَرِئَ محمدُ بن عبد الله رسول اللهِ لِثَمَنِ سلمانَ الفارسى، وولاؤُهُ لُحمدِ بنِ عبد الله رسولِ الله وأهلِ بيتِه فليسَ لأحَدٍ على سلمانَ سبيلٌ. شَهِدَ على ذلك أبو بكرٍ الصدِّيقُ، وعمرُ بنُ الخطابِ، وعلى بنُ أبى طالبٍ، وحُذيفةُ بنُ سعدِ بنِ اليَمانِ، وأبو ذرٍ الغِفارى، والمِقْدادُ بنُ الأسودِ، وبلالٌ مولى أبِى بكرٍ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ. وكَتَبَ على بنُ أبى طالبٍ يومَ الاثنَيْنِ فى جُمادى الأُولى من سَنَةِ مُهاجرِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم".

وقد أورد الخطيب البغدادى هذا الحديث فى "تاريخ بغداد" وقال: "فى هذا الحديث نظر، وذلك أن أول مشاهد سلمان مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم غزوة الخندق، وكانت فى السنة الخامسة من الهجرة. ولو كان تخلَّص سلمان من الرق فى السنة الأولى من الهجرة لم يفته شىء من المغازى مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. وأول من أرخ بها عمر بن الخطاب فى خلافته، والله أعلم". وهناك حديث لسلمان يحكى فيه واقعة استرقاقه قبل الهجرة، وعتقه بعد أن وقعت غزوتا بدر وأحد، ويقول إن أول غزوة غزاها مع رسول الله هى غزوة الخندق كما ذكر الخطيب البغدادى.

ومن نقد المتن عند الخطيب البغدادى أيضا أن بعض اليهود أظهر كتابا بإسقاط النبى صلَّى الله عليه وسلَّم الجزية عن الخيابرة (يعنى يهود خيبر)، وفيه شهادة الصحابة، فعرضها الوزير أبو القاسم على وزير الخليفة القائم على أبى بكر الخطيب، فقال: هذا مزوَّر. قيل: من أين قلت هذا؟ قال: فيه شهادة معاوية، وهو أسلم عام الفتح بعد خيبر. وفيه شهادة سعد بن معاذ، ومات قبل خيبر بسنتين". فاستحسن الوزير ذلك منه، ولم يقبل منهم ما فى هذا الكتاب. وقد نقلت هذا عن د. نور الدين عتر من مقدمته لتحقيق كتاب "الرحلة فى طلب الحديث" للخطيب البغدادى. وقرأت لبعض علماء الحديث أن استخدام التاريخ على هذا النحو فى الحكم بفساد حديث هو أمر شائع بينهم يعتمدون عليه فى كشف ما فيه من تزوير.

وأستطيع أن أورد هنا حديثا آخر نعرف من مجرد قراءة متنه وما فيه من عدم الاتساق التاريخى بين بعض الأحداث وبعض أنه حديث غير صحيح، وهذا هو: "عن أنس بن مالك: دخلتُ على النبى صلَّى الله عليه وسلَّم غداةَ أُعْطِى الكَوْثَرَ. قال: ووجهُهُ مثلُ القمرِ ليلةَ البدرِ أو مثلَ الشّمسِ عند طلوعِها، فأخذ يمسحهُ بيمينهِ فأقعدنِى عن يمينِه، ثم دخلَ عليهِ عمر، فأقعدهُ عن يسارهِ، ثم نظر إلى فقالَ: يا أنَسُ، إن اللهَ عز وجل أعطانِى الكوثرَ الليلة. قال: قلتُ: وما الكوثرُ؟ قال: نَهْرٌ فى الجنةِ طولُهُ ستمائةِ عامٍ، وعرضهُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ لا يشربُ أحدٌ منهُ قبلى.وترى عليهِ نضرةَ النعيمِ، فلا يَطْعَمهُ مَنْ خفرَ ذِمّتى ووَتَرَ عتْرتِى وقتَلَ أهل بَيْتِى". ذلك أن تبشير الله سبحانه لرسوله بإعطائه الكوثر إنما كان بمكة وفى بدايات الدعوة المحمدية حين نزلت سورة "الكوثر"، بينما أنس طفل من

الأنصار وهبته أمه للنبى يخدمه حين هاجر إلى يثرب، فلم يكن يعرف النبى قبل ذلك ولا كان النبى يعرف شيئا عنه. بل ربما لم يكن أنس قد وُلِدَ بَعْدُ لَدُنْ نزول السورة.

ومن نتائج التعويل الشديد على السند فى الحكم بصحة حديث أو ضعفه أو بطلانه أننا نجد كثيرا من الأحاديث صحيحة على سند معين، وهى نفسها ضغيفة على سند آخر رغم أن المعنى واحد هنا وهناك بل رغم أن النص قد يكون هو هو فى الحديثين. فعلى سبيل المثال نحن نعرف أن أم أنس بن مالك عقب هجرته عليه السلام إلى يثرب قد وهبته للنبى يخدمه. والأحاديث فى ذلك متعددة. وهذان حديثان من تلك الأحاديث حُكِم على أحدهما بالصحة، وعلى الآخر بالإدانة، واعتمد الحكمان على الإسناد رغم أن المعنى واحد فى الحالين. وهذا هو نص الحديث الأول: "عن أنسٍ رضى اللهُ عنه قال: لما قدمَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم المدينةَ أخذَتْ أمُّ سُلَيْمٍ بيدى، فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ، هذا أنسٌ غلامٌ لبيبٌ كاتبٌ يَخدمُكَ. قال: فقبلَنى رسولُ اللهِ" (صحيح رجاله كلهم ثقات • أخرجه أحمد (١٢٢٥١)، وابن سعد فى "الطبقات الكبرى" (٨٤٥٠) مطولًا بنحوه، ومحمد بن عبد الله الأنصارى فى "حديثه" (١٩) واللفظ له). ثم هذا نص الحديث الثانى: "إنَّ أمَّ سليمٍ قالتْ: يا رسولَ اللهِ، ليس لى إلا ولدى هذا أنسٌ، فأحبُّ أنْ تَقْبَلَه يخدمُك" (ابن القيسراني- ت ٥٠٨، معرفة التذكرة ١٢٠ • فيه كثير بن سليم أبو هاشم الإيلى كان يضع الحديث، وفيه صحو بن محمد المنقرى، وهو كذاب أيضا). ومعنى هذا بكل وضوح أن من يُتَّهم بالكذب ليس كذابا فى كل ما يروى، ومن يتهم بوضع الحديث ليس شرطا أن كل ما يرويه قد وضعه أو عبث به.

والآن إلى حديثين آخرين نصهما واحد دون أى اختلاف، بل هما فى الوقع حديث واحد، ومع هذا فهو صحيح مرة، وضعيف أخرى: "عن حبة بن خالد وسواء بن خالد الأسدى: لا تيأَسا من الرزقِ ما تهزهزت رؤوسُكُما، فإنَّ الإنسانَ تلدهُ أمُّهُ أحمرَ لا قشرَ عليهِ ثمَّ يرزقُهُ اللهُ" (السيوطي- ت ٩١١، الجامع الصغير ٩٨٥٤ • صحيح). "عن حبة بن خالد وسواء بن خالد الأسدى: لا تيأَسا مِنَ الرِّزْقِ ما تَهَزْهَزَتْ رؤوسُكُما، فإنَّ الإنسانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أحْمَر لا قِشْرَ عليْه ثُمَّ يرْزُقُهُ اللهُ" (الألباني- ت ١٤٢٠، ضعيف الجامع ٦٢٨١ • ضعيف).

ثم للمرة الثالثة هذان حديثان موضوعهما واحد، ونصاهما واحد أو يكادان أن يكونا واحدا، ومع ذلك حُكِم على أولهما بأنه صحيح، وحكم على الآخر بالضعف: "عن عبد الله بن عباس: اللهم إنى أسأَلُك العِفَّةَ والعافيةَ فى دُنياى ودِينِى وأهلى ومالى.اللهمَّ استُرْ عَوْرتى وآمِنْ رَوْعَتى، واحفَظْنى من بين يدى ومِن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى ومن فوْقى، وأعوذُ بك أن أُغْتالَ مِن تحتى" (الألباني- ت ١٤٢٠، صحيح الجامع ١٢٧٤ • صحيح • أخرجه البخارى فى "الأدب المفرد" (٦٩٨)، والبزار كما فى "الجامع الصغير" للسيوطى (١٤٩٢) واللفظ له". "عن عبد الله بن عباس: اللَّهُمَّ إنِّى أسألُك العِفَّةَ والعافيةَ فى دُنْياى ودِينِى وأهلى ومالى، اللَّهُمَّ استُرْ عَوْرتى، وآمِنْ رَوْعتى، واحفَظْنى مِن بيْنِ يَدَى ومِن خَلْفى، وعن يمينى وعن شِمالى ومن فوقى، وأعُوذُ بك أن أُغْتالَ مِن تحتى" (الصنعاني- ت ١١٨٢، التنوير شرح الجامع الصغير ٣/١٣٠ • ضعيف).

هذا، وفى موقع "بيان الإسلام" بحث حول هذا الموضوع تحت عنوان "دعوى أن نقد علماء الحديث كان منصبا على السند دون المتن" اجتهد فيه صاحبه فى إثبات أن علماء الحديث القدماء قد عُنُوا بنقد إسناد الأحاديث وتركوا متنها، إذ وضعوا قواعد للجرح والتعديل وغير ذلك مما يخص جانب الإسناد، بخلاف نقد المتن، الذى لم نظفر منهم فيه بعشر معشار ما عُنُوا به من جرح الرجال وتعديلهم. وردَّ بأن معرفة ضبط الراوى لا تتم إلا بعرض متون مروياته على متون الثقات من الرواة، فإن كانت موافقة لهم عرفنا أنه ضابط، وإن كانت مخالفة عرفنا أنه غير ضابط. كما أن هناك علوما تختص بالمتن مثل علم غريب الحديث، ومهمته شرح ما يحتاج إلى شرح من ألفاظ متن الحديث وعباراته والتوفيق بين الأحاديث المختلفة، والعلم بالناسخ والمنسوخ وغيرها، بالإضافة إلى أنهم قد وضعوا شروطا صعبة لنقد متون الأحاديث. ومضى مؤكدا أن كبار علماء الجرح والتعديل إنما حازت كتبهم التقدير والأهمية القصوى لاعتمادهم فى الحكم على الراوى على مقابلة أحاديثه ومقارنتها بروايات الكبار من الرواة: فإن كانت روايته متفقة مع روايات الكبار حكمنا عليه بالضبط، أما إذا خالفت روايته روايات الكبار كان غير ضابط. وأضاف قائلا إن جل أحكام علماء الجرح والتعديل مبنية فى حقيقتها على تتبع أداء الرواة للمتون. ومن ذلك أن ابن أبى حاتم الرازى على سبيل المثال يسأل أباه عن راو فلا يعرفه، فيقول له الابن: هو الذى روى حديث كذا وكذا. فإن كان الحديث صحيحا يقول: هو صالح، وإن كان غير ذلك يقول: اضرب عنه. وفى هذا المثال دلالة كافية على اعتماد نقاد الحديث فى حكمهم على الأحاديث على المتون لا على الإسناد فقط.

كذلك وضع علماء الحديث شروطا فيما يخص متن الأحاديث، فاشترطوا فى قبول الحديث ألا يكون ركيك اللفظ غير بليغ أو فصيح بحيث يدرك العليم بأسرار البيان العربى أنه لا يصدر عن سيد الفصحاء صلَّى الله عليه وسلَّم. ومن تلك الشروط ألا يكون الحديث مخالفا لبدهيات العقول بحيث لا يمكن تأويله. فإذا كان الحديث يخالف بدهيات العقول فإنه موضوع بلا شك، ومنه "أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعا، وصَلَّتْ عند المقام ركعتين"، أو أن يكون مخالفا للقواعد العامة فى الحكم والأخلاق مثل: "جور الترك ولا عدل العرب"، أو داعيا إلى الشهوة والمفسدة مثل "النظر إلى الوجه الحسن يجلى البصر"، أو مخالفا للحس والمشاهدة مثل "لا يولد بعد المائة مولود لله فيه حاجة"، أو مخالفا لقواعد الطب المتفق عليها مثل "الباذنجان شفاء من كل داء"، أو مخالفا لما يوجبه العقل لله من تنزيه وكمال نحو "إن الله خلق الفَرَس فأجراها فعَرِقَتْ فخلق نفسه منها"، أو يكون مخالفا لقطعيات التاريخ أو سنة الله فى الكون والإنسان، مثل حديث عوج بن عنق وأن طوله ثلاثة آلاف ذراع، وأن نوحا لما خوَّفه الغرقَ قال: "احملنى فى قصعتك هذه" يعنى السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى كعبه، وأنه كان يدخل يده فى البحر فيلتقط السمكة من قاعه ويشويها قرب الشمس". ومنها كذلك ألا يكون مخالفا لصريح القرآن أو محكم السنة أو المعلوم من الدين بالضرورة.

ومن الأحاديث التى تخالف القرآن، ومن ثم لا تصح، الحديث القائل بأن "ولد الزنا لا يدخل الجنة إلى سبعة أبناء"، إذ هو مخالف لقوله سبحانه وتعالى: "ولا تزر وازرة وزر أخرى" (الإسراء/

١٥)، ومن الأحاديث التى تخالف السنة المتواترة الحديث التالى: "إذا أخذتم عنى بحديث يوافق الحق فخذوا به: حدَّثتُ به أو لم أحدِّث"، فإنه مخالف لما هو معلوم من الدين بالضرورة، ومثل "من وُلِد له ولد فسماه: محمدا كان هو ومولوده فى الجنة"، فإن هذا مخالف للمعلوم المقطوع به من أحكام القرآن والسنة من أن النجاة بالأعمال الصالحة لا بالأسماء والألقاب. ومن تلك الشروط أيضا ألا يكون الحديث مخالفا لحقائق التاريخ المعروفة فى عصر النبى صلَّى الله عليه وسلَّم. ومثاله ما أورده مسلم فى خطبة كتابه على النحو التالى: "قال المعلى بن عرفان: حدثنا أبو وائل قال: خرج علينا ابن مسعود بصفين. فقال أبو نعيم: أتراه بعث بعد الموت؟". ذلك أن ابن مسعود توفى قبل صفين، فكيف يخرج بعد موته؟ ومما يعتمدون عليه فى نقد المتن صدور الحديث من راو تأييدا لمذهبه كما هو الحال فى الأحاديث الصادرة من أتباع المذاهب الفقهية والكلامية المغالين فى تعصبهم مثل "من لا يرفع يديه فى الصلاة فلا صلاة له"، أو قول حبة بن جوين: "سمعت عليا رضى الله عنه قال: عبدت الله مع رسوله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين أو سبع سنين"، وكان حبة غاليا فى التشيع واهيا فى الحديث. وبالمثل إذا تضمن الحديث أمرا من شأنه أن تتوافر الدواعى على نقله لأنه وقع بمشهد عظيم ثم لا يشتهر ولا يرويه إلا واحد. وبهذا حكم أهل السنة على الأحاديث التى نصت بالخلافة لعلى بن أبى طالب بالوضع والكذب. كما أنه إذا اشتمل الحديث على إفراط فى الثواب العظيم، أو العقاب الشديد على عمل صغير فإنه لا يقبل.

هذه هى أهم القواعد التى وضعها العلماء لنقد الحديث ومعرفة صحيحه من ضعيفه وموضوعه، ومنه ترى أنهم لم يقصروا جهدهم على نقد السند فقط، أو يوجهوا جل عنايتهم إليه على حساب المتن، بل كان نقدهم منصبا على السند والمتن على السواء، وكان لذوقهم الفنى مجال فى نقد الأحاديث وردها أو قبولها، فكثيرا ما ردوا أحاديث لمجرد سماعهم لها لأن ملكتهم الفنية لم تستسغها ولم تقبلها، ومن هنا فإنهم كانوا كثيرا ما يقولون: "هذا الحديث عليه ظلمة" أو "متنه مظلم" أو "ينكره القلب" أو "لا تطمئن له النفس".

ومن رأى الكاتب أن علماء الحديث كانوا أبعد غورا، وأدق نظرا حينما لم يُجْرُوا فى نقد المتن ما أَجْرَوْه فى نقد السند، وذلك لاعتبار دينى لاحظوه فى السنة عند الاكتفاء بصلاح الراوى وتقواه وعدالته وضبطه وحفظه وتوقِّيه الكذب على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إذ متى توافرت العدالة بشروطها مع الضبط والحفظ والأمانة والتحرج من التزيد والتغيير كان احتمال الكذب والاختلاف بعيدا جدا إن لم يكن ممتنعا، وإذن فلم يبق بعدُ من حاجة للمبالغة فى نقد المتن لأن متن الحديث قد يكون متشابها غير مفهوم العبارة لتحكيم النقد العقلى المجرد فى المتن، إذ هو مما لا تستقل العقول بإدراكه، ولا يُدْرَك المراد منه إلا من الله أو عن رسوله. والواجب فى رأيه إما الإيمان به كما ورد مع تفويض علم حقيقته إلى الله والتنزيه عن الظاهر المستحيل، وإما التأويل بما يوافق العقل وما أحكم من النقل، وذلك مثل أحاديث الصفات ونحوها. وقد يكون متن الحديث، كما يقول، من الأخبار التى كشف العلم عن مساتيرها واعتبرت من المعجزات النبوية التى جاءت الأيام بتصديقها، وذلك مثل حديث "طهور

إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب"، فقد أثبت بعض الأطباء أثر التراب الفعال فى قتل الميكروب المتخلف عن سؤر الكلب، على حين كان بعض المارقين يعتبرون مثل هذا مجازفة وتعنتا فى التشريع، وأما المؤمنون فكانوا يعتبرونه من قبيل التعبد حين خفيت عنهم الحكمة.

وفى موقع "إسلام ويب" كتب د. عبد الله عطا عمر مقالا بعنوان "ضوابط ومعايير فى نقد المتن والإسناد" جاء فيه "أن علماء الحديث منذ نشأة هذا العلم كانوا ولا زالوا يهتمون بالمتن اهتمامًا لا يقل عن اهتمامهم بالسند، وقرروا منذ اليوم الأول أن الحديث قد يكون صحيح السند ضعيف المتن، وقد يكون ضعيف السند صحيح المتن. من هنا فإن أهمية هذا الأمر تزداد وتظهر من خلال الوقوف على هذه المعايير التى أخذ بها المحدِّثون فى نقدهم لمتن الحديث، والوقوف على حجم الأحاديث الكثيرة التى ردوها بالنظر إلى متنها رغم إقرارهم بصحة إسنادها، والوقوف على عدد الرواة الذين حكم عليهم العلماء بالضعف من خلال النظر فيما يروونه من أحاديث، وعدد الرواة الذين نفَوْا عنهم الضعف من خلال النظر فى مروياتهم.

ويمكن إجمال هذه الضوابط التى وضعها علماء الحديث فى عدة أمور منها مخالفة الحديث لصريح القرآن، ولما هو صحيح ثابت من الحديث النبوى، ولصريح العقل والحس، وللحقائق التاريخية، وكون الحديث مما لا يشبه كلام النبوة. ولا يتسع المجال لإيراد الأمثلة والنماذج على مثل هذه الأحاديث التى ردها العلماء بمخالفتها لواحد من هذه القواعد، ومن هذه النماذج حديث "لا يدخل الجنة عاقٌّ، ولا مدمن خمر، ولا منّان، ولا ولد زنية" (أخرجه الإمام أحمد) حيث قال العلماء: ما ذنب هذا الطفل بكونه ابن الزنا حتى لا يدخل الجنة؟ فالذنب ذنب غيره، والله تعالى لا يظلم أحدًا مثقال ذرة، فهو مخالف لقوله تعالى: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى" (الأنعام/ ١٦٤)".

ومضى الكاتب فضرب أمثلة على الحكم بضعف الأحاديث من خلال النظر إلى متنها: فمن الأمثلة على مخالفة الحديث لصريح العقل والحس أورد قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: "أكذب الناس الصباغون والصواغون" (رواه ابن ماجه)، فهو حديث ضعيف من حيث الإسناد لأن فيه الراوى فرقد السبخى، وهو ضعيف، وفيه عمر بن هارون كذَّبه ابن معين، ولكنهم قالوا: كيف يمكن أن يكون أصحاب هذه الحرفة هم أكذب الناس؟ وهل من المعهود أن يذم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أحدًا من أصحاب الحرف والصنائع من أجل نوع حرفته؟ ومن الأمثلة التى ضربها على مخالفته للواقع والتاريخ ما جاء من أن بعض اليهود أظهروا كتابًا فى زمن الخطيب البغدادى ادعو أنه كتاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنه يقول فيه بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادات لبعض الصحابة، فعرضوه على الخطيب البغدادى، فنظر فيه وقال: إنه مزور، دون أن ينظر فى إسناده، وذلك لأن فيه شهادة سعد بن معاذ، الذى كان قد توفى عقب غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة، ومعلوم أن غزوة خيبر كانت فى السنة السابعة من الهجرة، وفيه شهادة معاوية بن أبى سفيان، الذى كان إسلامه يوم فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة، أى بعد غزوة خيبر. وقد سبق إيراد هذا الحديث والحكم عليه بالتزوير قبل قليل.

أما كيف لا يشبه الحديث كلام النبوة فأن يكون ركيكًا فى صياغته، والرسول صلَّى الله عليه وسلَّم قد أُوتِى جوامع الكلم، أو أن يحتوى على مجازفة، أو مما يشبه كلام المتأخرين. ومن أمثلته الحديث القائل بـ"أن من صلى كذا فله سبعون دارًا فى كل دار سبعون ألف بيت، فى كل بيت سبعون ألف سرير، على كل سرير سبعون ألف جارية"، ثم يقول: وإن كانت القدرة لا تعجز، ولكن هذا تخليط قبيح، أو ما جاء عند أبى داود فى "سننه" من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رأى رجلًا يتبع حمامة فقال: "شيطان يتبع شيطانة"، إذ قال العلماء إن هذا الكلام لا يشبه كلام النبوة.

وأبرز الكاتب كذلك أن الاهتمام بمتن الحديث بدأ مع الصحابة أنفسهم، ومنه ما استدركته عائشة على حديث "إن الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه" (متفق عليه)، الذى يرويه عمر بن الخطاب، إذ قالت رضى الله عنها: رحم الله عمر. والله ما حدَّث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "إن الله ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه"، وقالت: حسبكم القرآن: "وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى" (الأنعام/ ١٦٤).

ويمكن أن نضيف إلى هذا الحديث الحديث التالى: "عن مسروقٍ (مسروق بن الأجدع) قالَ: كنتُ مُتَّكِئًا عندَ عائشةَ، فقالَت: يا أبا عائشةَ (كان مسروق يكنَّى: أبا عائشة)، ثلاثٌ من تَكَلَّمَ بواحِدةٍ منهنَّ فقد أعظمَ على اللَّهِ الفِريةَ: مَنْ زَعَمَ أنَّ محمَّدًا رأى ربَّهُ فقد أعظمَ الفِريةَ على اللَّهِ، واللَّهُ يقولُ: "لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ"، "وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلَّا وَحْيًا أوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ". وَكُنتُ متَّكئًا فجلَستُ فقلتُ: يا أمَّ المؤمنينَ، أَنْظِرِيني ولا تُعْجِلِينِى.أليسَ اللَّهُ تَعالى يقولُ: "وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى"، "وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ"؟ قالَت: أنا واللَّهِ أوَّلُ مَن سألَ رسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ عَن هذا. قالَ: إنَّمَا ذَلكَ جِبريلُ، وما رأيتُهُ فى الصُّورةِ التى خُلِقَ فيها غيرَ هاتينِ المرَّتينِ. رأيتُهُ منهبِطًا منَ السَّماءِ سادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ. ومن زعمَ أنَّ محمَّدًا كتمَ شيئًا مِمّا أنزلَ اللَّهُ عليهِ فقد أعظمَ الفِريةَ على اللَّهِ. يقولُ اللَّهُ: يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ. ومَن زعمَ أنَّهُ يعلَمُ ما فى غدٍ فقد أعظمَ الفريةَ على اللَّهِ، واللَّهُ يقولُ: لا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّماواتِ والْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلّا اللَّهُ".

وبالنسبة للأحاديث الخاصة بالطب، وهذا من الأمور المتصلة بالمتن، فقد قرأت فى كتاب ابن قيم الجوزية: "الطب النبوى" ما يلى: "كانَ مِنْ هَدْيِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فِعْلُ التَّدَاوِى فِى نَفْسِهِ، وَالْأَمْرُ بِهِ لِمَنْ أَصَابَهُ مَرَضٌ مِنْ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَدْيِهِ وَلَا هَدْى أَصْحَابِهِ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ الْمُرَكَّبَةِ الَّتِى تُسَمَّى: أَقْرَبَاذِينَ، بَلْ كَانَ غَالِبُ أَدْوِيَتِهِمْ بِالْمُفْرَدَاتِ، وَرُبَّمَا أَضَافُوا إِلَى الْمُفْرَدِ مَا يُعَاوِنُهُ أَوْ يَكْسِرُ سَوْرَتَهُ. وَهَذَا غَالِبُ طِبِّ الْأُمَمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا مِنَ الْعَرَبِ وَالتُّرْكِ وَأَهْلِ الْبَوَادِى قَاطِبَةً. وَإِنَّمَا عُنِى بِالْمُرَكَّبَاتِ الرومُ وَالْيُونَانِيُّونَ. وَأَكْثَرُ طِبِّ الْهِنْدِ بِالْمُفْرَدَاتِ.

وَقَدِ اتَّفَقَ الْأَطِبَّاءُ عَلَى أَنَّهُ مَتَى أَمْكَنَ التَّدَاوِى بِالْغِذَاءِ لَا يُعْدَلُ عَنْهُ إِلَى الدَّوَاءِ، وَمَتَى أَمْكَنَ بِالْبَسِيطِ لَا يُعْدَلُ عَنْهُ إِلَى الْمُرَكَّبِ. قَالُوا: وَكُلُّ دَاءٍ قُدِرَ عَلَى دَفْعِهِ بِالْأَغْذِيَةِ وَالْحِمْيَةِ لَمْ يُحَاوَلْ دَفْعُهُ

بِالْأَدْوِيَةِ. قَالُوا: وَلَا يَنْبَغِى لِلطَّبِيبِ أَنْ يُوْلَعَ بِسَقْىِ الْأَدْوِيَةِ، فَإِنَّ الدَّوَاءَ إِذَا لَمْ يَجِدْ فِى الْبَدَنِ دَاءً يُحَلِّلُهُ، أَوْ وَجَدَ دَاءً لَا يُوَافِقُهُ، أَوْ وَجَدَ مَا يُوَافِقُهُ فَزَادَتْ كَمِّيَّتُهُ عَلَيْه أو كيفيته، تشبث بِالصِّحَّةِ وَعَبَثَ بِهَا. وَأَرْبَابُ التَّجَارِبِ مِنَ الْأَطِبَّاءِ طِبُّهُمْ بِالْمُفْرَدَاتِ غَالِبًا، وَهُمْ أَحَدُ فِرَقِ الطِّبِّ الثَّلَاثِ. وَالتَّحْقِيقُ فِى ذَلِكَ أَنَّ الْأَدْوِيَةَ مِنْ جِنْسِ الْأَغْذِيَةِ: فَالْأُمَّةُ وَالطَّائِفَةُ الَّتِى غَالِبُ أَغْذِيَتِهَا الْمُفْرَدَاتُ أَمْرَاضُهَا قَلِيلَةٌ جِدًّا، وَطِبُّهَا بِالْمُفْرَدَاتِ، وَأَهْلُ الْمُدُنِ الَّذِينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَغْذِيَةُ الْمُرَكَّبَةُ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْأَدْوِيَةِ الْمُرَكَّبَةِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَمْرَاضَهُمْ فِى الْغَالِبِ مُرَكَّبَةٌ، فَالْأَدْوِيَةُ الْمُرَكَّبَةُ أَنْفَعُ لَهَا، وَأَمْرَاضُ أَهْلِ الْبَوَادِى وَالصَّحَارِى مُفْرَدَةٌ، فَيَكْفِى فِى مُدَاوَاتِهَا الْأَدْوِيَةُ الْمُفْرَدَةُ. فَهَذَا بُرْهَانٌ بِحَسْبِ الصِّنَاعَةِ الطبية.

وَأَيْنَ يَقَعُ هَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْوَحْىِ الَّذِى يُوحِيهِ اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ بِمَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ، فَنِسْبَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الطِّبِّ إِلَى هَذَا الْوَحْىِ كَنِسْبَةِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعُلُومِ إلى ما جاءت به الأنبياء، بل ها هنا مِنَ الْأَدْوِيَةِ الَّتِى تَشْفِى مِنَ الْأَمْرَاضِ مَا لم يهتد إِلَيْهَا عُقُولُ أَكَابِرِ الْأَطِبَّاءِ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا علومهم وتجاربهم وأقيستهم من الْأَدْوِيَةِ الْقَلْبِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ، وَقُوَّةِ الْقَلْبِ وَاعْتِمَادِهِ عَلَى اللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ وَالِانْطِرَاحِ وَالِانْكِسَارِ بين يديه، والتذلل له والصدقة وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ وَالتَّفْرِيجِ عَنِ الْمَكْرُوبِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَدْوِيَةَ قَدْ جَرَّبَتْهَا الْأُمَمُ عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهَا وَمِلَلِهَا، فوجدوا لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِى الشِّفَاءِ مَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ عِلْمُ أَعْلَمِ الْأَطِبَّاءِ وَلَا تَجْرِبَتُهُ وَلَا قِيَاسُهُ.

وَقَدْ جَرَّبْنَا نَحْنُ وَغَيْرُنَا مِنْ هَذَا أُمُورًا كَثِيرَةً، وَرَأَيْنَاهَا تَفْعَلُ مَا لَا تفعل الأدوية الْحِسِّيَّةُ، بَلْ تَصِيرُ الْأَدْوِيَةُ الْحِسِّيَّةُ عِنْدَهَا بِمَنْزِلَةِ أَدْوِيَةِ الطُّرُقِيَّةِ عِنْدَ الْأَطِبَّاءِ. وَهَذَا جَارٍ عَلَى قَانُونِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ لَيْسَ خَارِجًا عَنْهَا، وَلَكِنَّ الْأَسْبَابَ مُتَنَوِّعَةٌ، فَإِنَّ الْقَلْبَ مَتَى اتَّصَلَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقِ الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ وَمُدَبِّرِ الطَّبِيعَةِ وَمُصَرِّفِهَا عَلَى مَا يَشَاءُ كَانَتْ لَهُ أَدْوِيَةٌ أُخْرَى غَيْرُ الْأَدْوِيَةِ الَّتِى يُعَانِيهَا الْقَلْبُ الْبَعِيدُ مِنْهُ الْمُعْرِضُ عَنْهُ. وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْأَرْوَاحَ مَتَى قَوِيَتْ، وَقَوِيَتِ النَّفْسُ وَالطَّبِيعَةُ، تَعَاوَنَا عَلَى دَفْعِ الدَّاءِ وَقَهْرِهِ، فَكَيْفَ يُنْكَرُ لِمَنْ قَوِيَتْ طَبِيعَتُهُ ونفسه، وفرحت بقربها من بارئها، وأنسها به، وَحُبِّهَا لَهُ، وَتَنَعُّمِهَا بِذِكْرِهِ، وَانْصِرَافِ قُوَاهَا كُلِّهَا إِلَيْهِ، وَجَمْعِهَا عَلَيْهِ، وَاسْتِعَانَتِهَا بِهِ، وَتَوَكُّلِهَا عَلَيْهِ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَدْوِيَةِ، وَأَنْ تُوجِبَ لَهَا هَذِهِ الْقُوَّةُ دَفْعَ الْأَلَمِ بِالْكُلِّيَّةِ؟ وَلَا يُنْكِرُ هَذَا إِلَّا أَجْهَلُ النَّاسِ، وَأَغْلَظُهُمْ حِجَابًا، وَأَكْثَفُهُمْ نَفْسًا، وَأَبْعَدُهُمْ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَسَنَذْكُرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ السَّبَبَ الَّذِى بِهِ أَزَالَتْ قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ دَاءَ اللَّدْغَةِ عَنِ اللَّدِيغِ الَّتِى رُقِىَ بِهَا، فَقَامَ حَتَّى كَأَنَّ مَا بِهِ قَلَبَةٌ.

فَهَذَانِ نَوْعَانِ مِنَ الطِّبِّ النَّبَوِى نَحْنُ بِحَوْلِ اللَّهِ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهِمَا بِحَسْبِ الْجَهْدِ وَالطَّاقَةِ، وَمَبْلَغِ عُلُومِنَا الْقَاصِرَةِ، وَمَعَارِفِنَا الْمُتَلَاشِيَةِ جِدًّا، وَبِضَاعَتِنَا الْمُزْجَاةِ، وَلَكِنَّا نَسْتَوْهِبُ مَنْ بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَنَسْتَمِدُّ مِنْ فَضْلِهِ، فإنه العزيز الوهّاب".

وقد تناولت موضوع الاستشفاء بسورة "الفاتحة" من لدغة العقرب فى موضع آخر من هذا الكتاب، وكان رأيي أن الرقية بقراءة القرآن وتلاوة الأدعية وما إلى ذلك هو لون من رفع الروح المعنوية التى يمكن أن تقوى جهاز المناعة وتساعد الدواء ومتناوله على مقاومة المرض وتحفز المريض على التزام تعاليم الطبيب والحرص على عدم الخروج عليها ونحو ذلك. وهذا ما أحسب أن ابن القيم يقوله فى

السطور الأخيرة من الاقتباس السابق بطريقته. أما أن تكون قراءة "الفاتحة" مثلا هى علاج كل لدغة عقرب فهذا ما لا أدرى كيف يكون، وإلا فإذا كانت "الفاتحة" تشفى من لدغة العقرب فما هى السورة التى تشفى من عضة الثعبان؟ وما هى السورة التى تهزم السرطان؟ وما هى السورة التى تشفى من الكورونا؟ وما هى السورة التى تشفى من انسداد الشريان التاجى؟ وما هى السورة التى تغنينا عن عملية القلب المفتوح؟ وما هى السورة التى تجنبنا تركيب مفصل صناعى؟ وما هى السورة التى نقضى بها على مرض التوحد؟ وما هى السورة التى تساعد ضعيف السمع على استرداد قوته السمعية؟ وما هى السورة التى تُنْهِى التأتأة والفأفأة والتلعثم؟ وما هى السورة التى تعالج المياه البيضاء والزرقاء التى تصيب العيون؟ وما هى السورة التى تكافح مرض السكر؟ وما هى السورة التى تمكننا من فصل التوأمين المتلاصقين؟... إلى آخر الأمراض والأوبئة التى تشكو منها البشرية. أقول هذا وأنا أحب دينى وقرآنى ورسولى وأرى أنه أعظم إنسان فى التاريخ، لكنى أحب إقامة الإيمان لدى المسلم على العقل والمنطق لا على العواطف المهوشة والكلام الواسع غير المنضبط. أنا دائما ما أدعو الله فى مرضى وصحتى وأبتهل إليه أن يشفينى إن كنت مصابا أو يديم علىَّ صحتى إن خِفْتُ إصابتى ببعض الأمراض المزعجة، ولكنى أعرف أنه لا بد من زيارة الطبيب كلما شكوت مرضا ولا بد من التزام تناول الدواء حتى أُشْفَى، وخلال ذلك كله أدعو الله أن يشفينى فأُبِلّ من مرضى سريعا وعلى خير.

وعودة إلى الطب النبوى فقد نبه النبى عليه السلام إلى أن الله سبحانه قد خلق لكل داء دواء. وهذا كلام علمى دقيق تمام الدقة، ومعناه أن على المسلمين الاجتهاد فى اكتشاف دواء كل مرض، ولو كانت السور القرآنية تغنى عن الأدوية لصرح عليه السلام بذلك واختصر الوقت والجهد والمال علينا ووضع لنا قائمة بأسماء السور وحدد الأمراض التى تداويها كل سورة. ومع هذا فحتى لو فعل ذلك ما وضع هذا حدا للأمر لأنه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكن يعرف بطبيعة الحال إلا أمراض بيئته. أى أننا سنعود إلى المربع صفر حتى مع وجود القائمة المقترحة. وللأسف فإننا حين ننظر إلى وضع الأدوية والعلاجات الموجودة الآن فى العالم نجد أن معظمها ثمرة اجتهاد العلماء والصيادلة والأطباء الغربيين. وهناك أيضا الحديث القائل بأن يعمل الشخص حسابه بحيث لا يخصص أكثر من ثلث بطنه للطعام ولا أكثر من ثلثها الثانى للشراب ولا أكثر من ثلثها الأخير للتنفس. وهذا كلام رائع، وبخاصة لنا نحن أهل العصر الحديث حيث كل شىء يغرينا بالأكل والشرب فى كل خطوة نخطوها فى البيت أو فى الشارع ما لم نكن ذوى إرادة حديدية. ومعروف أن الأكل الكثير يصيب بالسكر وانسداد الشرايين ويأتى بالسمنة وما تجلبه من أمراض وكسل وخمول: "مَا مَلَأَ آدَمِي وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وثلث لنَفَسِه". ولو كان المسلمون يحبون رسولهم ودينهم حقا لا جعجعة ولا صياحا فارغا لكانوا هم قادة العلم والطب والصيدلة الآن وفى كل زمان ومكان.

على أننا ينبغى أن نحرر البحث فى أحاديث الرسول الخاصة بالأدوية، إذ ليس كل حديث منسوب للنبى صحيحا بالضرورة حتى لو كان مذكورا فى كتب الصحاح، وبخاصة إذا كان يتصل بالطب

والصيدلة مما يمكن اختباره بالتجربة العلمية فى المعامل وفى تطبيقه على المرضى. وأنا أرى أن الأحاديث الطبية الخاصة بالأدوية والعلاجات المنسوبة له صلَّى الله عليه وسلَّم ينبغى أن توضع موضع التمحيص والتدقيق. فهذا هو منهج الإسلام، فالقول الفصل للتجربة والواقع، ومن ثم كان لا بد من تجريب الأدوية المذكورة فى الأحاديث النبوية لنعرف مدى قدرتها على علاج المرض التى ذكرت له، وهل هو علاج من عنده صلَّى الله عليه وسلَّم استقاه من بيئته أم هل هو وحى سماوى. وإذا كان وحيا سماويا فهل هو صالح للمرض المذكور معه فى كل زمان ومكان أم هل هو علاج مخصص لذلك الوقت لعدم وجود دواء أكثر تقدما؟ ومما يلفت الانتباه هنا أن أطباء المسلمين قديما، وكانوا أقرب عهدا بعصر النبى وأحاديثه التى كانت غضة فى ذلك الوقت، بحثوا عن أدوية الأمراض بطريقتهم العلمية ولم يقولوا إن أحاديث رسول الله تشتمل على كل دواء وعلاج لأى مرض. ولم يتهمهم أحد بفساد الدين أو بامّحاء شخصياتهم فى الغرب لأن الغرب الذى يفتتن به كثير منا الآن لم يكن له وجود، إذ كنا نحن المتقدمين المتحضرين، وكان الغربيون هم المتخلفين المتوحشين.

لقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم: "من تطبَّب ولم يعلم منه طب فهو ضامن". كما ورد أنه أوصى المسلمين فى عصره بالاستعانة بالحارث بن كلدة، الذى لقب بـ"طبيب العرب"، وقال القفطى: "وأدرك الحارث بن كلدة الإسلام. وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيسأله عن علته". وقد رفض ابن خلدون فكرة إلهية الطب النبوى ونفى صلة هذا بالوحى، واعتبره مجموعة من الموروثات الجِبِلِّيَّة التى انبثقت من البيئة العربية التى كان يعيش فيها رسول الله لا أكثر، وقال فى مقدمته الشهيرة: "وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره. والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحى فى شىء، وإنما هو أمر كان عاديا للعرب". كذلك أكد لسان الدين بن الخطيب أن الشريعة لا تتعرض لمسائل الطب وحوادث الطبيعة بل يجب على البشر أن يدرسوها بأنفسهم ويستخدموا حواسهم وعقولهم فى سبيل معرفتها. وأكرر ما قلته آنفا فأقول: ينبغى إجراء تجارب علمية معملية على كل وصفة طبية من هذه الوصفات لنرى مدى صحتها من عدمها لا لنثبتها بالقوة والتعسف. وليس فى هذا أدنى إساءة إلى النبى عليه السلام: فإما أنه لم يقل ذلك، وعلى هذا فليس فى الأمر ما يزعج ضمير المسلم لو ثبت أن الأمر ليس له أساس من الصحة، وإما أنه قاله: فإن ثبت أنه صحيح فخير وبركة، ويمكن حينئذ الانتفاع به فى حدوده وعلى نحو علمى دون إفراط، وأما إن ثبت أنه غير صحيح فلا يقدح هذا فى نبوته صلَّى الله عليه وسلَّم على أساس أنه من أمور دنيانا التى نحن أعلم بها.

فهو عليه السلام فى الأمور الدنيوية والعوارض البشرية مثل غيره من البشر، فمن الممكن أن يعتقد صلَّى الله عليه وسلَّم فى أمور الدنيا الشىء على وجه ويظهر خلافه، وهذا بخلاف أمور الشرع. يقول القاضى عياض: "فَمِثْلُ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الَّتِى لَا مَدْخَلَ فِيهَا لِعِلْمِ دِيَانَةٍ وَلَا اعتقادها ولا تعليمها يجوز عليه فيها مَا ذَكَرْنَاهُ ...إِذْ لَيْسَ فِى هَذَا كُلِّهِ نَقِيصَةٌ وَلَا مَحَطَّةٌ، وَإِنَّمَا هِى أُمُورٌ اعْتِيَادِيَّةٌ يَعْرِفُهَا مَنْ جَرَّبَهَا وَجَعَلَهَا هَمَّهُ وَشَغَلَ نَفْسَهُ بِهَا. وَالنَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم مَشْحُونُ الْقَلْبِ بِمَعْرِفَةِ

الرُّبُوبِيَّةِ، مَلْآنُ الْجَوَانِحِ بِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ، قصيد الْبَالِ بِمَصَالِحِ الْأُمَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَلكِنْ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَيَجُوزُ فِي النادر وفيما سَبِيلُهُ التَّدْقِيقُ فِي حِرَاسَةِ الدُّنْيَا وَاسْتِثْمَارِهَا، لَا فى الكثير المؤذن بالعلة والغفلة". وأما ما يعتقده من أُمُورِ أَحْكَامِ الْبَشَرِ الْجَارِيَةِ عَلَى يَدَيْهِ وَقَضَايَاهُمْ، وَمَعْرِفَةِ الْمُحِقِّ مِنَ الْمُبْطِلِ وَعِلْمِ الْمُصْلِحِ مِنَ الْمُفْسِدِ فَبِهَذِهِ السَّبِيلِ لِقَوْلِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِشَيء فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قطعة من النار".

وهذا أمر طبيعى، فلا يعقل أن يكون الرسول، إلى جانب نبوته، مزارعا ونجارا وحدادا وخبازا ومنجّدا وحافر آبار وجيولوجيا وكيميائيا وفيزيائيا وبحارا ولاعب كرة وسباكا وخياطا وبنّاء وقمّاشا وصيدلانيا... إلخ مع التفوق فى ذلك كله والابتكار فيه والإتيان دائما بالطريف الجديد. فلماذا ينبغى أن يكون الرسول طبيبا بالذات وأن يكون ما يقوله مغنيا عما نعرف من الطب الحالى بتقدمه وتعقده الهائلين وأن يكون ما يعرفه منه مغطيا لكل مجالات الطب، ودعنا من العمليات الجراحية التى لم يكن النبى يعرف شيئا منها ولا أشار إليها؟ إن أطعمة النبى وملابسه ومساكنه مثلا تختلف عن نظيراتها الحالية بله المستقبلة ولم نعد نستعملها لأن الأذواق تغيرت، وصناعة الطعام تعقدت، وطرق تناوله اختلفت، فلماذا ينبغى أن يكون طبه بالذات مساويا لطبنا رغم اختلاف الوسيلة والمنهج، ودعنا من التفوق عليه؟ إن فى هذا إهدارا لمبدإ التطور غير مقبول. وكما أننا لن نترك السيارة والقطار والطائرة ونركب الحمار والناقة والحصان فكيف نترك طبنا الحديث ونلجأ إلى ما كان الناس فى وقته صلَّى الله عليه وسلَّم يتداوَوْن به؟ ولقد كان عليه الصلاة والسلام يسكن بيوتا بدائية جدا، فهل نترك بيوتنا الحالية وداراتنا وعمائرنا وقصورنا ونبنى لأنفسنا مساكن ساذجة كمساكنه هو وزوجاته فى المدينة؟ كذلك لم يكن عليه السلام يكوى ملابسه ولا يعرف الناس فى عصره الصابون فى غسيلهم واستحمامهم، فهل نهجر المكاوى والمغاسل والصوابين بأنواعها المختلفة ونرتد إلى تلك الأساليب القديمة فى الملابس والاغتسال؟ ثم إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يكن يقصده المسلمون للتداوى والتطبب؟ ثم إننا الآن قد عرفنا أمراضا كالسل وفيروس الكبد الوبائى والكورونا والأطفال المغوليين والتصاق التوائم والبلهارسيا والإنكلستوما والدودة الشريطية والسكر والدهون وارتفاع الضغط والسرطان ومرض الفيل والحمى الشوكية وأمراض الأعصاب الطرفية، وليس فى أحاديثه أى كلام عنها لا من قريب ولا من بعيد.

وقد سبق أن قلت رأيى فى الرقية وأن دورها هو رفع الروح المعنوية للمريض بإشعاره أن الله معه، لكنها لا يمكن أن تعالج بذاتها شيئا. وهذا بعض ما وجدته من أحاديثها المتعلقة بمعالجة الملدوغ من العقرب: "عن جابر بن عبد الله أنَّ رَجلًا منَ الأنصارِ قال: أفى العَقرَبِ رُقيَةٌ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: مَنِ استَطاعَ منكم أنْ ينفَعَ أخاهُ فلْيَفعَلْ". "عن جابر بن عبد الله: نَهى رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عَنِ الرُّقى، فَجاءَ آلُ عَمْرِو بنِ حَزْمٍ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فَقالوا: يا رَسولَ اللهِ، إنَّه كانَتْ عِنْدَنا رُقْيَةٌ نَرْقِي بها مِنَ العَقْرَبِ، وإنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرُّقَى. قالَ: فَعَرَضُوها عليه، فَقالَ: ما أَرَى بَأْسًا. مَنِ اسْتَطاعَ مِنكُم أَنْ يَنْفَعَ أَخاهُ فَلْيَنْفَعْهُ". "عن أبى سعيد الخدرى: بعثَنا رسولُ اللهِ

صلَّى الله عليه وسلَّم ثلاثينَ راكبًا فى سريَّةٍ فنَزَلنا بقومٍ فسألْناهُم أن يَقْرُونا، فأبَوْا، فلُدِغَ سيِّدُهم، فأتَوْنا فقالوا: أفيكُم أحدٌ يَرقى منَ العَقرب؟ فقُلتُ: نعَم أنا، ولكِن لا أرقيهِ حتّى تُعطونا غنَمًا. قالوا: فإنّا نُعطيكم ثلاثينَ شاةً. فقَبِلناها، فقرأتُ عليهِ "الحَمْدُ" سبعَ مرّاتٍ، فبرِئَ، وقَبَضنا الغنَمَ، فعرَضَ فى أنفسِنا منها شَىء، فقُلنا: لا تعجَلوا حتّى نأتى النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم. فلمّا قدِمنا ذكَرتُ لَه الَّذى صنَعتُ، فقالَ: أوَ ما عِلمتَ أنَّها رُقية؟ اقتَسِموها واضرِبوا لى معَكم سَهْمًا".

الحق أننى لا أدرى كيف تشفى تلك الرقية من لدغة العقرب. كما أن الأحاديث، حسبما وجدنا، تذكر أن النبى كان قد نهى عنها. فلما يا ترى كان يحرمها؟ ولم عاد فأجازها؟ ترى لماذا لم يعلل تراجعه عن حكمه الأول؟ ثم إن الرقية من لدغ العقرب، فيما هو واضح، أسهل شىء، ألا وهى قراءة الفاتحة سبع مرات، فكيف لم تكن معرفة تلك الرقية عامة بحيث يقوم بها كل مسلم وانحصرت فى شخص واحد كأنها أسرار القنبلة الهيدروجينية، وكان ثمنها ثلاثين شاة كاملة؟ ثم من أين أخذ الراقى هذه الرقية؟

وقد قرأت ما يلى عن "لدغة العقرب" فى موقع "مايو كلينيك"، وهذا هو أسوقه بنصه حتى نعرف الفرق بين علاج وعلاج: "لدغات العقرب مؤلمة، ولكنها نادرًا ما تكون مهدِّدة للحياة. الأطفال الصغار والأشخاص المسنّون هم الفئة الأكثر عُرْضَة للإصابة بمضاعفات خطيرة.

فى الولايات المتحدة يعتبر عقرب اللحاء (يوجد بالأساس فى الصحراء الجنوبية الغربية) هو نوع العقارب الوحيد الذى لديه سم قوى لدرجة التسبب فى أعراض حادة. من بين ١٥٠٠ نوع من العقارب التى تُنتِج سُمومًا على مستوى العالم هناك حوالى ٣٠ نوعًا فقط سامَّة بما يكفى لتكون قاتلة. ولكن مع حدوث أكثر من مليون لدغة عقرب كلَّ عام تُمثِّل الوفيات الناجمة عن هذه اللَّدَغات مُشكلة واضحة للصحة العامَّة فى المناطق التى يكون فيها الوصول للرعاية الطبية محدودًا.

لا يحتاج البالِغون الأصحَّاء عادةً إلى علاج للَدغات العقرب، ولكن يمكن أن يكون للدغة العقرب آثار خطيرة فى الأطفال الصغار. قد تشمل المؤشرات والأعراض فى موضع لدغة العقرب ما يلى: الشعور بالألم الذى قد يكون شديدًا، الشعور بالخدر والوخز، التورم البسيط، الدفء.

العلامات والأعراض المرتبطة بتأثير انتشار السم (فى كامل الجسم) التى تحدث عادة للأطفال الذين لُدِغوا: صعوبة فى التنفُّس، ارتعاش العضلات أو تشنجها، حركات غير عادية فى الرأس والرقبة والعين، سيلان اللعاب، التعرُّق، الغثيان والقىء، ارتفاع ضغط الدم (فرط ضغط الدم)، زيادة معدل ضربات القلب (تسرُّع القلب)، التململ أو الاستثارة أو البكاء الشديد لدى الأطفال

كما هو الحال بالنسبة لأنواع الحشرات اللادغة الأخرى، مثل النحل والدبابير، من المحتمل أن يُصاب الأشخاص الذين سبق تعرضهم للدغ العقارب من قبل بتفاعل تحسُّسى إذا تعرضوا للَّدغ مرة أخرى. وتُعَد التفاعلات الناتجة عن هذه اللدغات اللاحقة شديدة بما يكفى لأن تسبب حالة مهدِّدة للحياة تُسمى: التأق. تتشابه العلامات والأعراض فى هذه الحالات مع حالات التأق الناتجة عن لدغات النحل، ويمكن أن تتضمن الطفح، وصعوبة التنفس، والغثيان، والقىء".

ومن النقد المتعلق بالمتن الأحاديث المتصلة بالأمور العلمية. ونبتدئ بهذا الحديث: "عن أبى ذر الغفارى: كُنْتُ مع النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فى المَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقالَ: يا أبا ذَرٍّ، أتَدْرِى أيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟ قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ. قالَ: فإنَّها تَذْهَبُ حتّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَذلكَ قَوْلُهُ تَعالى: والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرّ لَها ذلكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ". وهذه رواية أخرى أكثر تفصيلا: "عن أبى ذر الغفارى: أتَدرونَ أينَ تذهبُ هذهِ الشَّمْسُ؟ إنَّ هذهِ تَجرى حتّى تنتهى إلى مُستقرِّها تَحتَ العَرشِ فتَخرُّ ساجِدةً، فلا تزالُ كذلِكَ حتّى يُقالَ لها: ارتفِعى، ارجِعى مِن حيثُ جئتِ. فتَرجعُ فتُصبحُ طالعةً من مطلَعِها ثمَّ تَجرى حتّى تنتَهى إلى مُستقرِّها تحتَ العَرشِ فتخرُّ ساجِدةً، فلا تزالُ كذلك حتّى يُقالُ لها: ارتفِعى، ارجِعى مِن حيثُ جِئتِ. فتَرجعُ، فتُصبحُ طالِعةً مِن مَطلَعِها، ثمَّ تَجرى لا يستنكرُ النّاسُ مِنها شيئًا حتّى تنتهى إلى مُستقرِّها ذاكَ تحتَ العرشِ، فيُقالُ لها: ارتفِعى، أصبِحى طالعةً مِن مَغرِبِكِ. فتُصبحُ طالِعةً من مغربِها. أتدرونَ متى ذاكم؟ حينَ لا ينفَعُ نَفسًا إيمانُها لَم تكن آمنَت مِن قبلُ أو كسَبت فى إيمانِها خَيرًا".

ومن الواضح أن الشمس، بناء على ما قرأناه فى الحديث، تترك مدارها عند الغروب وتذهب فتسجد تحت العرش حتى يأتى يوم جديد، فتترك موضعها ذاك وتعود إلى الشروق. وهذا غير صحيح. وقد حاولت أن أجد وجها لهذا الكلام فقلت إنه رمز على خضوع الشمس لربها ولسلطانه. لكن سرعان ما ثار السؤال التالى: وهل هى لا تخضع لربها إلا عند الغروب فقط؟ إنها فى سيادته وسلطانه طوال الوقت ليلا أو نهارا، غيما أو صحوا. من هنا فإنى لا أفهم هذا الحديث ولا أقتنع به. وفى هذه الحالة إما أن نقول إن الرسول لم يقله، وإما أن نقول إنه عليه السلام أخبر عن الشمس بما ليس فيها ولا يقع منها. وأنا، إن كان اعتراضى صحيحا، وأراه صحيحا فعلا، أختار الحل الأول.

وهذا شرح الحديث كما ورد فى موقع "الدرر السنية": "قَدَّرَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى مَقاديرَ كُلِّ شَىء مِن أوَّلِ الخَلقِ إلى نِهايَتِه. وفى هذا الحَديثِ يروى أبو ذَرٍّ الغِفارى رَضى اللهُ عنه أنَّ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم سَألَه ذاتَ مَرَّةٍ عِندَما غَرَبَتِ الشَّمسُ: أتَدْرى أينَ تَذهَبُ هذه الشَّمسُ بعْدَ اختِفائِها عِندَ الغُروبِ؟ فأجابَ أبو ذَرٍّ رَضِى اللهُ عنه: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. وهذا مِن أدَبِ أبى ذَرٍّ رَضى اللهُ عنه فلا يَسبِقُ برأْى قبْلَ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم، ووَكَلَ الأمْرَ إلى اللهِ ورَسولِه، فقال النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "فإنَّها تَذهَبُ حتّى تَسجُدَ تَحتَ العَرشِ" سُجُودًا حَقيقيًّا، وهى أيْنما سَجَدتْ سَجَدتْ تَحتَ العَرشِ، فتَستأذِنُ رَبَّها فى الطُّلُوعِ مِنَ المَشرِقِ ومُعاوَدةِ سَيرِها مَرَّةً أُخرى، فيُؤذَنُ لها فى ذلك. وقدْ قَرُبَ الوَقتُ الذى تَسجُدُ وتَستأذِنُ فى الطُّلوعِ مِنَ المَشرِقِ فلا يُقبَلُ منها سُجودُها ولا يُؤذَنُ لها فى الطُّلوعِ مِنَ المَشرِقِ، ويُقالُ لها: ارجِعى مِن حيثُ جِئتِ. فتَطلُعُ مِن مَغرِبِها، وذلك مِن عَلاماتِ السّاعةِ الكُبرى. فذلك هو مَعنى قوله تَعالى: "والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها"، أى تَتحَرَّكُ وتَسيرُ فى طَريقِها المُحدَّدِ لها، ولا تَزالُ تَجرى فى مَسيرَتِها هذه حتى يَنتَهى العالَمُ. "ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (يس/ ٣٨)، فإنَّها إنَّما تَتحرَّكُ حَرَكَتَها هذه بنِظامٍ دَقيقٍ مُحكمٍ يَدُلُّ على وُجودِ اللهِ تَعالى وتَقديرِه وتَدبيرِه لِهذا العالَمِ

تَدبيرًا يَليقُ بعِلمِه وعِزَّتِه وحِكمَتِه. وهذا إثباتٌ لِقَدَرِ اللهِ سُبحانَه، وتَحَكُّمِه فى الكَونِ وجَميعِ المَخلوقاتِ، وفيه تَبكيتٌ لِمَن كان يَعبُدُ الشَّمسَ فى الدُّنيا لِيَعلَموا أنَّ عِبادَتَهم لها كانت باطِلًا".

والواقع أن إشارة الشارح إلى جريان الشمس على قوانين ثابتة يناقض القول بتركها لمدارها وقضائها الليل كله تحت العرش. ثم إن الحديث يتكلم عن الشمس وكأن شروقها شروق على الدنيا كلها فى وقت واحد، وغروبها غروب عن الدنيا كلها فى وقت واحد. وهذا طبعا غير صحيح، فالشمس مستمرة فى مدارها لا تخرج عنه أبدا، وحين تشرق فإنما تشرق على مكان معين يتبعه شروقها على مكان آخر بعده، وهكذا دواليك مع دوران الأرض حولها طوال الوقت كما هو معروف جغرافيا وفلكيا. فالذى يغيب هو الموضع الذى تنحسر عنه الشمس لا الشمس نفسها، فهى مشرقة فى السماء أبدا.

وبالنسبة لانشقاق القمر فإن عدد رواته قليلون، وأهم أولئك الرواة هم أنس وابن العباس وابن مسعود، ولم يكن أنس مكيا، وعليه لم يشاهد الحادثة، بل لم يعرفه الرسول إلا بعد الهجرة، وكان وقتذاك غلاما صغيرا ابن عشر سنين. كما أن ابن مسعود كان صبيا يرعى الغنم. وابن عباس كان رضيعا فى المهد، وكان العباس أقمن بأن يكون هو الرواى لا ابنه. ليس ذلك فقط بل إن هناك رواية عن ابن عباس تذكر انشقاق القمر، ورواية أخرى تقول بكسوف القمر، ورواية ثالثة تتحدث عن كسوف الشمس، ورواية رابعة بأن انشقاق القمر لم يكن للمشركين بل لليهود الذين تحدَّوُا النبى وطالبوه بآية، ثم يتبع كلامه فى كل مرة بنزول قوله تعالى: "اقتربت الساعة وانشق القمر"، فكيف يخبرنا ابن عباس بأربع حوادث مختلفة لا يمكن أن تتسق معا، والنتيجة واحدة، ويمر الأمر على جهابذة الحديث دون أن يستدعى منهم تفسيرا وتوضيحا؟ كذلك لو كان القمر قد انشق وشاهده أهل مكة فكيف لم يحاجج النبى أهل مكة بذلك ويذكره فى حواراته مع عمه أبى طالب حين كان العم يفاتحه فيما يسببه له من مواقف محرجة بمعاداة قومه جراء دينه الجديد؟ بل كيف لم يتحدث المشركون عن ذلك بعد إسلامهم كما تحدث أبو سفيان عن لقائه بهرقل فى الشام حين كان لا يزال مشركا وأراد العاهل البيزنطى الاستفسار منه عن ذلك القرشى الذى بعث إليه برسالة يدعوه فيها إلى اعتناق دينه الجديد، وكما تحدث أبو ذر الغفارى عن الطريقة التى تحقق بها هو وأخوه من نبوة النبى عليه السلام، وكما تحدث عبد الله بن سلام عن الظروف التى أعلن فيها إسلامه بالتفصيل؟

وشىء آخر هو أن القرآن قد أمر النبى بأن يقول للكفار كلما اقترحوا عليه معجزة: "سبحان ربى! هل كنت إلا بشرا رسولا؟"، وقال فى موضع آخر إن الذى منع من الاستجابة للمشركين بإنزال المعجزات أنها قد كذَّب بها الأولون ولم تُجْدِ معهم نفعا. إذن فبنص القرآن لقد أُغْلِق باب المعجزات، فكيف يعود المولى سبحانه فيستجيب للمشركين ويشق لهم القمر؟ كما أن المشركين لم يقترحوا على النبى شق القمر بل طلبوا منه أنواعا أخرى من المعجزات كتفجيره ينبوعا لهم أو أن يكون له بيت من زخرف أو ارتقائه فى السماء أمام أبصارهم ونزوله وفى يده كتاب يقرأونه أو إسقاط السماء عليهم قطعًا حسبما جاء فى أواخر سورة "الإسراء". فإذا كان ثم رجوع عن المبدإ الخاص برفض الاستجابة لطلب المعجزات لقد كان أحرى أن تكون المعجزة واحدة من تلك التى طلبوها لا انشقاق القمر، الذى لم

يقترحوه. وبطبيعة الحال نحن لا نكذب بقوله سبحانه: "اقتربت الساعة وانشق القمر" بل نفهم فى ضوء هذه المعطيات أن التعبير عن انشقاق القمر بصيغة الماضى هو كقوله تعالى: "وإذ قال الله (يوم القيامة): يا عيسى بن مريم، أأنت قلتَ للناس: اتخذونى وأُمِّىَ إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق"، "وعَنَتِ الوجوهُ للحى القيوم"، "ونُفِخَ فى الصور"، "وأشرقت الأرض بنور ربها ووُضِع الكتاب"، "وسِيقَ الذين اتَّقَوْا ربهم إلى الجنة زُمَرًا"، "وسيق الذين كفروا ربهم إلى جهنم زمرا"، "وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله"، "وجاء ربك والملك صفا صفا * وجىء يومئذ بجهنم"... إلخ مما تُسْتَخْدَم فيه الأفعال الماضية رغم أنها أحداث مستقبلية. وذلك مثل قولنا لطالب لا يستذكر دروسه ولم يستعد للامتحان: "جاء الامتحان، ورسبتَ يا كسول"، والامتحان لم يجىء بعد ولا الطالب رسب، بل نتوقع أن يرسب. كذلك ففى بعض الروايات أن المشركين اتهموا الرسول عليه السلام بأنه سحرهم، أى خَيَّل إليهم أن القمر قد انشق فى حين أنه لم ينشق فى الواقع، واقترحوا عليه أن ينتظروا حتى يعود من كان مسافرا من أهل مكة فى تلك الليلة ويسألوهم: هل شاهدوا انشقاق القمر فى الغربة بعيدا عن تأثير محمد الساحر؟ وأن المسافرين المكيين حين عادوا قد أكدوا أنهم قد رأوا القمر فعلا فى تلك الليلة منشقا. وعلى هذا فالسؤال هو: فماذا كان موقف المشركين حين شهد الغائبون بما أنكروه هم؟ وماذا كان تعليق النبى والمسلمين على تلك الشهادة؟ وماذا كان رأى العائدين من السفر فى أمر النبوة؟

وبالمناسبة فقد افترض القاضى أبو بكر العربى فى القصة التى استشهدت بها فى الفقرات التالية أن غير مشركى مكة لم يشاهدوا انشقاق القمر لأن الأمر لم يكن يشغلهم فى قليل أو كثير، وبالتالى لم يدر فى خاطرهم البتة، فلم يرفعوا أعينهم نحو السماء. وهذا يعاكس ما قيل فى بعض روايات الحادثة من أن المسافرين من أهل مكة رَأَوُا القمر فى غربتهم، وما كتبه ابن كثير فى "البداية و النهاية" من أنه "قد شوهد ذلك فى كثير من بقاع الأرض، ويقال: إنه أرخ ذلك فى بعض بلاد الهند، وبنى بناء تلك الليلة وأرخ بليلة انشقاق القمر"، وإن لم يذكر ابن كثير مصادره فى ذلك. وأخيرا وليس آخرا لو أن القمر قد انشق حقا أكان واحد كأبى بكر أو عمر أو عثمان أو الأرقم بن أبى الأرقم أو الزبير أو طلحة أو حمزة أو سعيد بن زيد أو سعد بن أبى وقاص مثلا يسكت فلا يجادل به المشركين ولا يذكره قط طوال عمره لا قبل الهجرة ولا بعدها ولا بعد وفاة النبى؟ وأين كان زيد بن حارثة، وكان ابنا للنبى بالتبنى آنئذ، فهو فى بيته ومعه على الدوام؟ بل أين الرسول ذاته من تلك الحادثة؟ إننا لم نسمع صوته الشريف، فلم يا ترى؟ إن مثل تلك الحادثة ليست من الهوان بحيث تمر هكذا مرور الكرام. ورغم كل ما قلت فقد أكون مخطئا، فالعلم المطلق عند الله سبحانه، أما نحن فنجتهد ولا نألو، لكنا لسنا معصومين.

وفى نهاية هذا المبحث أحب أن أختم كلامى بخبر المناظرة التى قامت بين القاضى أبى بكر ابن الطيب وبين ملك الروم وبعض كبار دولته سنة ثلاثمائة وثمانين ونيف من الهجرة، إذ "وجه عضد الدولة فى بعض سفراته، إلى ملك الروم الأعظم، القاضى أبا بكر بن الطيب واختصه بذلك ليظهر رفعة الإسلام، ويغضّ من النصرانية... قال القاضى: فخرجت، فدخلنا بلاد الروم، حتى وصلت إلى ملك

الروم بالقسطنطينية، وأُخْبِر الملك بقدومنا. فأرسل إلينا من تلقَّانا، وقال: لا تدخلوا على الملك بعمائمكم حتى تنزعوها إلا أن تكون مناديل لطافا، وحتى تنزعوا أخفافكم. فقلت: لا أفعل ولا أدخل إلا بما أنا عليه من الزى واللباس. فإن رضيتم، وإلا فخذوا الكتب تقرأونها، وأرسلوا بجوابها وأعود به. فأخبر بذلك الملك، فقال: أريد معرفة سبب هذا وامتناعه عما مضى عليه رسمى مع الرسل. فسئل القاضى عن ذلك، فقال: أنا رجل من علماء المسلمين، وما تحبونه منا ذلّ وصغار، والله تعالى قد رفعنا بالإسلام وأعزّنا بنبينا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم. وأيضا فإن من شأن الملوك، إذا بعثوا رسلهم إلى ملك آخر، رَفْع أقدارهم لا إذلالهم، سِيَّما إذا كان الرسول من أهل العلم. ووضْع قدره انهدام جانبه عند الله تعالى وعند المسلمين. ونحن ندخل بها على سلطاننا الأكرم، الذى هو تحت يد أمير المؤمنين، وأدخل بها على سلطاننا الأكرم، الذى أمرنا الله تعالى ورسوله بطاعته. فما تنكرون على فى هذا، وأنا رجل من علماء المسلمين؟ فإن دخلت بغير هيئتى ورجعت إلى حكمك أهنت العلم ونفسى، وذهب عند المسلمين جاهى.فعرّف الترجمان الملك بذلك، فقال: دعوه يدخل ومن معه كما يشاؤون. وقل له: قد قبلنا عذرك، ورفعنا منزلتك، وليس محلك عندنا محل سائر الرسل، وإنما محلك عندنا محل الأبرار الأخيار، وقد أخبرَنا صاحبُكم فى كتبه أنك لسان المسلمين والمناظر عنهم، وأنا أشتهى أن أعرف ذلك وأسمعه منك كما ذكروه عنك. قلت: إذا أذن الملك. فقال: انزلوا حيث أعددت لكم، ويكون بعد هذا الاجتماع.

قال القاضى: فنهضنا إلى موضع أُعِدّ لنا. وذكر أبو بكر البغدادى الحافظ أن القاضى، لما وصل إلى مدينة الطاغية، وعرّف به وبمحله من العلم، فكر الطاغية فى أمره وعلم أنه لا يكفر له إذا دخل عليه كما جرى رسم الرعية أن يقبل الأرض بين يدى ملوكها، فرأى أن يضع سريره وراء باب لطيف لا يمكن أن يدخل أحد منه إلا راكعًا، ليدخل القاضى من ذلك الباب. فلما رآه القاضى تفكّر وأدار رأسه، وحنى رأسه راكعًا، ودخل من الباب يمشى مستقبلًا الملك بدبره حتى صار بين يديه. ثم رفع رأسه ونصب ظهره، ثم أدار وجهه إلى الملك حينئذ، فعجب من فطنته، ووقعت له الهيبة فى قلبه. قال القاضى: فلما كان يوم الأحد بعث الملك فى طلبى وقال: من شأن الرسول حضور مائدة الملك. فنحب أن تجيب إلى طعامنا ولا تنقض كل رسومنا. فقلت لرسوله: أنا من علماء المسلمين، ولست كالرسل من الجند وغيرهم الذين لا يعرفون ما يجب عليهم فى هذا الموطن. والملك يعلم أن العلماء لا يقدرون أن يدخلوا هذه الأشياء وهم يعلمون، وأخشى أن يكون على مائدته من لحوم الخنازير وما حرمه الله تعالى على رسوله وعلى المسلمين. فذهب الترجمان، وعاد إلى وقال: يقول لك الملك: ليس على مائدتى ولا فى طعامى شىء تكرهه. وقد استحسنتُ ما أتيتَ به، وما أنت عندنا كسائر الرسل بل أعظم. وما كرهتَ من لحوم الخنزير إنما هو خارج من حضرتى بينى وبينه حجاب. فنهضتُ على كل حال، وجلستُ وقُدِّم الطعام، ومددت يدى وأوهمت الأكل، ولم آكل منه شيئًا مع أنى لم أرَ على مائدته ما يُكْرَه.

فلما فرغ من الطعام بخّر المجلس وعطّره، ثم قال: هذا الذى تدعونه فى معجزات نبيّكم من انشقاق القمر كيف هو عندكم؟ قلت: هو صحيح عندنا، وانشقّ القمر على عهد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى رأى الناس ذلك. وإنما رآه الحضور ومن اتفق نظره إليه فى تلك الحال. فقال الملك:

وكيف لم يره جميع الناس؟ قلت: لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره. فقال: وهذا القمر بينكم وبينه نسبة وقرابة؟ لأى شىء لم تعرفه الروم وغيرها من سائر الناس، وإنما رأيتموه أنتم خاصة؟ قلت: فهذه المائدة (يقصد المائدة التى نزلت من السماء على الحواريين بناء على طلبهم) بينكم وبينها نسبة؟ وأنتم رأيتموها دون اليهود، والمجوس والبراهمة، وأهل الإلحاد، وخاصة يونان جيرانكم، فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم. فتحيّر الملك وقال بكلامه: سبحان الله.

وأمر بإحضار فلان القسيس ليكلمنى، وقال: نحن لا نطيقه لأن صاحبه قال: ما فى مملكتى مثله ولا للمسلمين فى عصره مثله. فلم أشعر إذ جاؤوا برجل كالذئب أشقر الشعر مُسْبَله، فقعد، وحكيت له المسألة، فقال: الذى قاله المسلم لازم. هو الحق لا أعرف له جوابًا إلا ما ذكره. فقلت له: أتقول إن الكسوف إذا كان يراه جميع أهل الأرض أم يراه أهل الإقليم الذى بمحاذاته؟ قال: لا يراه إلا من كان فى محاذاته. قلت: فما أنكرت من انشقاق القمر إذا كان فى ناحية لا يراه إلا أهل تلك الناحية ومن تأهب للنظر له، فأما من أعرض عنه وكان فى الأمكنة التى لا يرى القمر منها فلا يراه؟ فقال: هو كما قلت. ما يدفعك عنه دافع. وإنما الكلام فى الرواة الذين نقلوه. وأما الطعن فى غير هذا الوجه، فليس بصحيح. فقال الملك: وكيف يطعن فى النقلة؟ فقال النصرانى: شبه هذا من الآيات، إذا صح، وجب أن ينقله الجم الغفير، إلى الجم الغفير حتى يتصل بنا العلم الضرورى به. ولو كان كذلك لوقع إلينا العلم الضرورى به. فلما لم يقع لنا العلم الضرورى به دلّ أن الخبر مفتعَل باطل. فالتفت الملك إلى وقال: الجواب! قلت: يلزمه فى نزول المائدة ما يلزمنى فى انشقاق القمر، ويقال له: لو كان نزول المائدة صحيحًا لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهودى ولا نصرانى ولا ثنوى إلا ويعلم هذا بالضرورة. ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة دلّ أن الخبر كذب. فبُهِتَ النصرانى والملك ومَنْ ضمه المجلس. وانفض المجلس على هذا.

قال القاضى: ثم سألنى الملك فى مجلس ثانٍ فقال: ما تقولون فى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؟ قلت: روح الله وكلمته وعبده ونبيه ورسوله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن، فيكون. وتلوت عليه النص. فقال: يا مسلم، تقولون: المسيح عبد؟ فقلت: نعم، كذا نقول، وبه ندين. قال: ولا تقولون إنه ابن الله؟ قلت: معاذ الله، "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله"... الآيتان، "إنكم لتقولون قولًا عظيمًا". فإذا جعلتم المسيح ابن الله فمن أبوه وأخوه وجده وعمه وخاله؟ وعددت عليه الأقارب، فتحيّر وقال: يا مسلم، العبد يخلق ويحيى ويميت ويبرئ الأكمه والأبرص؟ قلت: لا يقدر العبد على ذلك، وإنما ذلك كله من فعل الله عز وجلّ. قال: وكيف يكون المسيح عبدًا لله وخلقًا من خلقه، وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كله؟ قلت: معاذ الله! ما أحيا المسيح الموتى ولا أبرأ الأكمه والأبرص. فتحيّر وقلّ صبره، وقال: يا مسلم، تنكر هذا مع اشتهاره فى الخلق، وأَخْذ الناس له بالقبول؟ فقلت: ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة إن الأنبياء عليهم السلام يفعلون المعجزات من ذاتهم. وإنما هو شىء يفعله الله تعالى على أيديهم تصديقًا لهم يجرى مجرى الشهادة.

فقال: قد حضر عندى جماعة من أولاد نبيّكم، وأهل دينكم المشهورين فيكم، وقالوا: إن ذلك فى كتابكم. فقلت: أيها الملك، فى كتابنا أن ذلك كله بإذن الله. وتلوت عليه منصوص القرآن فى المسيح:

"بإذن الله" وقلت: إنما فعل ذلك كله بإذن الله وحده لا شريك له لا من ذات المسيح. ولو كان المسيح يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص من ذاته لجاز أن يقال: موسى فلق البحر، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته. وليست معجزات الأنبياء عليهم السلام من ذاتهم وأفعالهم دون إرادة الخالق. فلما لم يجز هذا لم يجز أن تسند المعجزات التى ظهرت على يد المسيح إليه. فقال الملك: وسائر الأنبياء كلهم من آدم إلى من بعده كانوا يتضرّعون للمسيح حتى يفعل ما يطلبون. قلت: أوَفى لسان اليهود عظم لا يقدرون أن يقولوا إن المسيح كان يتضرّع إلى موسى، وكل صاحب نبى يقول: إن المسيح كان يتضرع إلى نبيه؟ فلا فرق بين الموضعين فى الدعوى. قال القاضى رحمه الله: ثم تكلمنا فى مجلس ثالث فقلت له: أتحد اللهوت بالناسوت؟ قال: أراد أن ينجى الناس من الهلاك. قلت له: درى بأنه يُقْتَل ويُصْلَب ويُفْعَل به كذا ولا يؤمن به اليهود؟ فإن قلت إنه لا يدرى ما أراد اليهود به بَطَلَ أن يكون إلهًا. وإذا بطل أن يكون إلهًا بطل أن يكون ابنًا. وإن قلت: قد درى ودخل فى هذا الأمر على بصيرة فليس بحكيم، لأن الحكمة تمنع من التعرض للبلاء. فبهت. وكان آخر مجلس كان لى معه.

وذكر ابن حيّان عمن حدثه أن الطاغية وعد القاضى أبا بكر بالاجتماع معه فى محفل من محافل النصرانية ليوم سمّاه. فحضر أبو بكر وقد احتفل المجلس، وبولغ فى زينته، فأدناه الملك وألطف سؤاله، وأجلسه على كرسيه دون سريره بقليل، والملك فى أبهته وخاصته عليه التاج، والذرية ورجال مملكته على مراتبهم. وجاء البطرك قيّم ديانتهم، وقد أوعد الملك إليه فى التيقظ، وقال له: إن فناخسرو ملك الفرس، الذى سمعت بدهائه وبكرامته، لا يُنْفِذ إلا من يشبهه فى رحلته وحيلته. فتَحَفَّظْ منه وأَظْهِرْ دينك، فلعلك تتعلق منه بسقطة أو تعثر منه على زلة تقضى بفضلنا عليه. فجاء البطرك قيم الديانة، وولى النِّحلة، فسلم القاضى عليه أحفل سلام، وسأله أحفى سؤال، وقال له: كيف الأهل والولد؟ فعظم قوله هذا عليه وعلى جميعهم، وتغيروا له وصَلَّبوا على وجوههم وأنكروا قول أبى بكر عليه، فقال: يا هؤلاء، تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد وتربأون به عن ذلك، ولا تستعظمونه لربكم عزّ وجهه فتضيفون ذلك إليه؟ سوءةً لهذا الرأى! ما أبين غلطه! فسُقِط فى أيديهم، ولم يردوا جوابًا. وتداخلتهم له هيبة عظيمة وانكسروا، ثم قال الملك للبطرك: ما ترى فى أمر هذا الشيطان؟ قال: تقضى حاجته، وتلاطف صاحبه وتبعث بالهدايا إليه، وتُخْرِج العراقى عن بلدك من يومك إن قدرت، وإلا لم آمَنِ الفتنةَ منه على النصرانية. ففعل الملك ذلك وأحسن جواب عضد الدولة وهداياه، وعجل تسريحه، ومعه عِدَّة من أسارى المسلمين والمصاحف. ووكل بالقاضى مِنْ جنده من يحفظه حتى وصل إلى مأمنه" مع بعض التصرف عن "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" للقاضى عياض.

وننتقل إلى الحديث التالى عن الحجر الأسود، وهو عن ابن عباس: "نزلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الجنةِ أَشَدّ بَياضًا مِنَ الثَّلْجِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطايا بَنِى آدمَ". وقد قال الجاحظ ما معناه أنه إذا كانت خطايا بنى آدم قد سودته لقد كان يجب أن يبيّضه المسلمون حين أسلموا. وأنا أضيف إلى ما قاله الجاحظ الأسئلة التالية: إذا لم يبيض بلمس المسلمين له فكيف لم يبيضّ بلمس رسول الله عليه السلام إياه، وهو من هو؟ ولم يا ترى لم يجعله الله سبحانه يرد عن نفسه أيدى المشركين والخطاة والمنافقين بدلا من

أن يلمسوه فيسودّ؟ ثم لماذا الحجر الأسود بالذات هو الذى حدث له ذلك؟ لماذا لم يحدث للكعبة وللمساجد والزوايا والمعابد والمدارس فى بلاد العرب وسائر بلاد الأرض؟ ومنذ متى تسوِّد الخطايا الصخور والأحجار؟ لقد كان قمينا بالحجر الأسود لا أن يسودّ فقط بل أن يحترق بل أن ينفجر حين سرقه القرامطة ونقلوه إلى البحرين حيث عاش تحت كنفهم وسلطانهم ٢٣ عاما. الواقع أن اسوداد الأحجار بسبب الخطايا شىء لم نسمع به فى الأولين أو الآخرين! ثم ما دام الأمر كذلك فلماذا لم يستبدل به الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم حجرا أبيض يليق به وبأتباعه؟ وعلى كل حال فقد قال محمد بن خزاعة حين رد القرامطة الحجر سنة ٣٣٩ هـ وعاينه قبل وضعه: "تأملت الحجر الأسود وهو مقلوع، فإذا السواد فى رأسه فقط، وسائره أبيض، وطوله قدر ذراع". وثم حديث رواه عبد الله بن عمر يقول: إنَّ مسحَ الحجرِ الأسودِ والركنِ اليمانى يَحُطّانِ الخطايا حطًّا"، فهل يحط الحجر الأسود الخطايا؟ أم هل تسوّده الخطايا؟

وهذا عن اللون، أما عن الحجر فى حد ذاته فسؤالنا هو: هل الجنة موجودة الآن قبل قيام الساعة؟ وهل فيها حجارة؟ وهل الحجارة التى فيها كحجارة أهل الأرض؟ بل هل يمكن أن يغادر حجر من أحجار الجنة موضعه منها وينزل إلى الأرض أصلا؟ فلماذا لا نتنسم منه عبير الجنة مثلا؟ ثم ألو كان الحجر الأسود من الجنة أكان عمر بن الخطاب يقول له وهو يقبله: "إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت النبى صلَّى الله عليه وسلَّم يقبّلك ما قبّلتُك"؟ لقد كان الأحرى أن يقول مثلا: "أنا أعلم أنك حجر من أحجار الجنة، ومع ذلك فالمهم هو نِيّةُ مَنْ يُقَبِّلك وعملُه". ولو كان الحجر الأسود من الجنة أكان المسلمون بعد معرفتهم هذا من رسولهم الكريم يسكتون فلا يتقاطروا على مدار اليوم والليلة ليحتضنوه ويتباركوا به؟ أليس من الجنة؟ بل أليس هو الشىء الوحيد فى الدنيا الذى نزل من الجنة؟

وقرأت أن د. زغلول النجار كان قد دعا إلى فحص مكونات الحجر الأسود معمليا لمعرفة مصدره، لكن لم يتم شىء فى هذا الصدد فى حدود علمى. وجاء فى موقع "إسلام أون لاين" تحت عنوان "ما حقيقة قصة الحجر الأسود؟" ما نصه: "ما هى الحقيقة العلمية للحجر الأسود؟ علميا الجواب على هذا السؤال هو أنه حجر من نوعTektites: التيكتيت، الذى يتميز بلونه الأسود المائل للخضرة أو فى بعض الأحيان يميل للون البنى أو الرمادى.وقد يُعْرَف هذا الحجز باسمه الثانى، وهو الزجاج الطبيعى.ينتج هذا النوع من الزجاج عندما يضرب نيزك الصحراء، فالصحراء مغطاة بالرمال التى هى فى الغالب مكونة من رمال السيليكا أو رمال الكوارتز. يسبب ارتطام نيزك صغير فى الصحراء انفجارا هائلا بقوة انفجار هيروشيما النووى أو أكبر ويخلق حفرة كبيرة. لحظة الارتطام تسبب الحرارة الهائلة الناتجة عن قوة الانفجار صهر الرمال وخلق حجز التيكتيت أو الزجاج الطبيعى، فى بعض الأحيان يطلق عليها اسم "الرمال المحترقة". هل أصل الحجر الأسود نيزك؟ أجريت العديد من النقاشات حول طبيعة الحجر الأسود فى الماضى، فقد وُصِف بأنه مجموعة أحجار مختلفة مكونة من "البازلت" وقطعة من الزجاج الطبيعى ونيزك حجرى.نشر بول باتريتش، الذى كان مسؤولًا عن الأحجار الكريمة فى الإمبراطورية النمساوية المجرية، أول تقرير شامل عن الحجر الأسود فى عام ١٨٥٧ فقال بأن أصل هذه الأحجار

نيزكى.ووجد روبرت ديتز وجون ماكهون فى عام ١٩٧٤ أن الحجر الأسود فى الواقع من السيليكا. أما مسألة اكتشاف موقع ارتطام النيزك فى صحراء العرب فهذا بالفعل ما قام به المستكشف البريطانى هارى سانت جون (Harry St. John) عام ١٩٣٢ فى رحلته فى صحراء الربع الخالى بحثًا عن مدينة وبار(Wabar) الأسطورية. لم يجد جون المدينة لكن ما وجده كان أهم! فقد وجد موقع اصطدام النيزك فى الأرض. والمدهش أن تلك المساحة الشاسعة كانت مغطاة بقطع من الأحجار السوداء تتراوح أحجامها من حصى صغيرة إلى قطع بحجم سيارة! أشارت الدراسات اللاحقة إلى أن سرعة النيزك كانت تقريبا من ٤٠ إلى ٦٠ ألف كلم/ ساعة. وكان بوزنٍ أكبر من ٣٥٠٠ طن، مما تسبب فى بعثرة الأحجار السوداء المتكونة إلى أماكن متفرقة. جاء التأكيد عام ١٩٨٠ إذ قدَّمت إليزابيث تومسن من جامعة كوبنهاغن ورقة بحثية بهذا الخصوص. فقد أشارت الورقة إلى أن الحجر الأسود هو جزء من الزجاج أو حجر متحول من آثار نيزك سقط قبل حوالى ٦٠٠٠ سنة فى منطقة الوبار فى صحراء الربع الخالى، الذى يبعد ١١٠٠ كم شرقا عن مدينة مكة. وحسب هذه الفرضية فإن التماثل بين تركيب الحجر الأسود فى مكة وبين الأحجار السوداء المبعثرة فى موقع الاصطدام كبير جدا، فكل منهما مكون من زجاج السيليكا الممزوج ببقايا عناصر النيزك من الحديد والنيكل. ويدلل أصحاب هذا الرأى على أن الحجر الأسود فى مكة ليس قطعة متماسكة واحدة بل مجموعة من أحجار صغيرة مُلتصقة بعضها ببعض حوالى ١٢ أو ١٣ قطعة صغيرة بحجم التمرات، وهو يعنى أن الحجر عبارة عن حصوات صغيرة وليس حجرا واحدا. كيف وصل هذا الحجر إلى مكة؟ تشير بعض النظريات إلى أنه قبل الإسلام كان لكل قبيلة كعبتها الخاصة، التى تحتضن حجرا أسود، وكان الطواف حول كعبة القبيلة سبع مرات وتقبيل الحجر الأسود جزءا مهما من تقاليد القبائل. كما كانت تلك الكعبات مؤشرا لأهمية القبيلة. فالقبيلة التى تملك كعبة تؤمها أعداد كبيرة هى أرفع مكانه من مثيلتها التى تملك كعبة شبه مهجورة. وكانت الكعبة التى ترجع لقبيلة قريش من أهم كعبات جزيرة العرب انعكاسًا لمكانة القبيلة وأهمية مكة التجارية. أشهر كعبات الجزيرة قبل الإسلام بعد كعبة مكة كانت كعبة بيت ثقيف، وكعبة بيت اللّات، وكعبة نجران، وكعبة شداد الأيادى، وكعبة ذى الشرى، وبيت الأقيصر، وبيت رضا، وكعبة رحيم، وبيت العزى، وبيت ذى الخلصة. وتقول هذه النظرية إن جميع هذه الكعبات تشترك فى صفتين أساسيتين: فجميعها أبنية مكعبة، وجميعها أُطُرٌ لأحجار سوداء. وهذه الأحجار السوداء هى أحجار نيزكية. ومما لا شك فيه أن هذه الأحجار هى بقايا النيزك الذى اصطدم بالأرض قرب منطقة أوبار". وفى النهاية لا أملك رغم كل ما كتبتُ إلا أن أقول: "والله أعلى وأعلم".

"عن أبى هريرة: الْفَأْرَةُ مَسْخٌ، وآيَةُ ذلكَ أنَّه يُوضَعُ بيْنَ يَدَيْها لَبَنُ الغَنَمِ فَتَشْرَبُهُ، ويُوضَعُ بيْنَ يَدَيْها لَبَنُ الإبِلِ فلا تَذُوقُهُ. فَقالَ له كَعْبٌ: أسَمِعْتَ هذا مِن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ؟ قالَ: أفَأُنْزِلَتْ عَلَى التَّوْراةُ؟"، "عن أبى هريرة: فُقِدَ سِبْطٌ مِن بنى إسرائِيلَ، وذكَرَ الفَأرةَ، فقال: ألَا تَرى أنَّك إذا أدنَيتَ منها لَبَنَ الإبِلِ لم تَقرَبْه، وإنْ قرَّبتَ إليها لَبَنَ الغَنَمِ شرِبَتْه؟ فقال: أكذا سمِعتَ مِن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ قال: أفَأَقرَأُ التَّوراةَ؟". وأول شىء هو: هل فى التوراة أن سبطا من أسباط بنى

إسرائيل فقد؟ فأين نجد ذلك فى التوراة، مع تحفظى على استخدام لفظة "التوراة" هنا؟ بل أين نجد ذلك فى تاريخ بنى إسرائيل مما كتبوه هم أو كتبه الآخرون فى القديم أو فى الحديث؟ وما اسم ذلك السبط؟ وكيف فقد؟ هل نام بنو إسرائيل ذات ليلة وقاموا فوجدوا أن سبطا من أسباطهم ضاع؟ ولكن لماذا؟ لم يذكر الحديث شيئا عن ذلك. إن المفقود سبط كامل من بنى إسرائيل لا إبرة ولا قلم ولا حتى حذاء حتى يختفى فجأة ودون أثر. ثم كيف سكت بنو إسرائيل طوال هاتيك القرون فلم يبحثوا عنه ولم يبتهلوا إلى الله أن يعيده إليهم؟ إن اختفاء الهنود الحمر من سجلات الحياة على الأرض قد استغرق عدة قرون واقتضى من الغربيين الذين اقتحموا عليهم بلادهم فى بداية الكشوف الجغرافية ألوانا من المؤامرات الدنيئة استخدموا فيها تفوقهم العلمى وامتلاكهم للأسلحة النارية التى لم يكن الهنود الحمر يعرفونها وخيانتهم للعهود والمواثيق التى بين الطرفين والتخطيط الجهنمى والقسوة الشيطانية ونشر الأمراض بين أصحاب البلاد وغير ذلك، ومع هذا بقيت طوائف من الهنود الحمر حتى الآن. أما سبط بنى إسرائيل فقد اختفى بغتة ولم يعلم أحد مصيره حتى هذه اللحظة حسب الحديث المنسوب لرسول الله عليه السلام، بل لم يثر اختفاؤه أى اهتمام أو فضول.

كذلك فالذى فى القرآن أن الله سبحانه قد جعل "أفرادا من بنى إسرائيل" قردة وخنازير، وحتى الآن ما زال المفسرون يتساءلون: هل كلام القرآن عن القردة والخنازير هو على الحقيقة؟ أم هل هو على المجاز؟ ولكن لم يقل القرآن إنه عز وجل قد حول سبطا كاملا منهم فئرانا. ولو كان هذا قد حدث ما سكت القرآن عن أمر كهذا. وليس فى التاريخ أن إنسانا قد تحول إلى حيوان، فضلا عن أن يكون المتحول أمة أو قبيلة كاملة. نعم لا نعدم أن نجد فى الأساطير والخرافات وبعض الروايات الحديثة التى تجرى على مذهب الواقعية السحرية أن إنسانا قد صار حيوانا كالأمير بدر باسم، الذى استحال حصانا فى "ألف ليلة وليلة"، وجريجور سامسا بطل رواية "المسخ: Die Verwandlung" للكاتب التشيكى فرانز كافكا، الذى نهض ذات صباح من نومه فألفى نفسه وقد صار حشرة هائلة بشعة مما ليس له وجود فى الواقع الحقيقى. ثم أليس عجيبا أن يتحول عدة آلاف من بنى إسرائيل إلى ملايير بل دشالين من القوارض؟ أما ما يقال مثلا عن بختنصر فى بعض الكتب ومسخه فهو كلام عامى رغم وروده فى عدد من الكتب كـ"حياة الحيوان الكبرى" للدميرى. قال: "وفى "الحلية"، فى ترجمة وهب بن منبه وغيرها، عن وهب بن منبه قال: إن بختنصر مُسِخَ أسدًا فكان ملك السباع، ثم مسخ نسرًا فكان ملك الطير، ثم مسخ ثورًا فكان ملك الدواب. وكان مسخه سبع سنين، وقلبه فى ذلك كله قلب إنسان، وهو فى ذلك كله يعقل عقل الإنسان، وكان ملكه قائمًا. ثم رده الله إلى بشريته، ورد عليه روحه، فدعا إلى توحيد الله وقال: كل إله باطل إلا الله إله السماء".

كذلك فمعنى أن الفأرة مَسْخٌ أنها لم تكن موجودة قبل تحويل السبط المذكور إلى فئران. فهل هذا صحيح؟ إن الفئران موجودة من قديم الأزل كما هو معروف. وبعيدا عن كلام علماء الطبيعة فى أن عمر الفئران يعد بمئات ملايين السنين فسنكتفى بالحديث التالى الذى يرينا أن جنس الفئران كان موجودا من قبل نوح، وإن كانت القطط قد تأخرت فى الظهور على مسرح الطبيعة حتى ركوب نوح

ومن وما معه من البشر والحيوانات الفُلْك: "عن أسلم مولى عمر بن الخطاب: لمّا حملَ نوحٌ فى السَّفينةِ من كلٍّ زوجينِ اثنينِ قالَ له أصحابُهُ: وَكيفَ تطمئنُّ المواشى ومعَها الأسدُ؟ فسلَّطَ اللَّهُ على الأسد الحُمّى، فكانت أوَّلَ حمى نزلَت إلى الأرضِ، فاشتغل بنفسه،ثمَّ شَكَوُا الفأرةَ، فقال: الفويسقَةُ تفسدُ علينا طعامَنا ومتاعَنا. فأوحى اللَّهُ إلى الأسدِ فعطسَ، فخرجتِ الْهِرَّةُ فتخبَّأتِ الفأرةُ منْها". وللأسف نسى صانع هذا الحديث أن يقول لنا: ماذا فعل نوح ومن معه حين رأوا القطة تأكل اللحم والسمك وتشرب اللبن من أصحاب السفينة؟ هل سكتوا على هذه الأضرار وتقبلوها، وأمرهم إلى الله؟ أم هل عطس الأسد عطسة أخرى فخرج من فمه الكلب فتخبأت منه القطة؟ وماذا فعل ركاب السفينة بالكلب حين أخذ ينبح طوال الليل فلم يستطيعوا النوم أو حين شرع يهاجمهم ويعقرهم... وهكذا دواليك؟ بل نسى أن الفأرة إذا اختبأت من القطة فإن شرها لن يتوقف بل ستقرض خشب السفينة وتثقبه من مخبئها وتعرض سكانها للغرق وهم لا يشعرون.

ثم إن الفئران أنواع وأشكال وألوان وأحجام مختلفة، فهل كل تلك الأنواع والأشكال والألوان والأحجام منقلبة عن يهود؟ كذلك كيف يبلو الله سبحانه البشر بالفئران، ومن ثم فبدلا من أن يكون هذا التحول الفئرانى عقوبة منه لليهود العصاة صار عقوبة للأبرياء؟ ترى لماذا لم يحولهم جل فى علاه دجاجا مثلا أو أرانب أو بطا وإوزا أو أبقارا وجواميس، فيُذْبَحون ويتألمون، ويستمتع البشر ويستفيدون من لحمهم وريشهم وجلودهم وفرائهم؟

وأما الإشارة إلى أن الفئران لا تشرب لبن الإبل فالمقصود الإشارة إلى أن اليهود لا يشربونه. ومعنى هذا أن تحوُّل السبط الإسرائيلى إلى فئران لم يغير طبيعته، فبقى ينفر من اللبن مع أن الله إنما حوله فئرانا لعصيانه وكفره، فكيف يصر على التزام تلك الدقائق حتى بعد سخط الله عليه وتصييره فئرانا؟ وكان ينبغى بناء على هذا أن تحتفظ الفئران بخصائص الشخصية الإسرائيلية الباقية من مثل عبادة العجل والسعار خلف الذهب وكراهية الإسلام والنصرانية بحيث لا تقرض شيئا من أشياء اليهود ولا تعيث فى بيوتهم فسادا بل تفعل ذلك بالنصارى والمسلمين فقط. بل كان ينبغى أن تخلو إسرائيل آليا من الفئران وتُبْلَى بها الأقطار العربية والإسلامية لأنها مخلوقات ضارة. كذلك كان ينبغى أن يعطف اليهود على الفئران مادامت الفئران سبطا منهم. وكان المفترض، ما دامت الفئران تعرف الشريعة اليهودية فى الطعام والشراب على هذا النحو، أن تحتفظ بالعقل البشرى وتتصرف تصرفات البشر. فهل هى تفعل ذلك؟ ولم يبق إلا أن يقال إن القطط هى أيضا مسخ، وإنها كانت يوما ما أمة من أمم الإسلام ثم قُلِبَتْ سنانير لتأكل الفئرانَ أعداءها. لكن سرعان ما يثور السؤال التالى: كيف يكون ذلك، واليهود هم الذين يسيطرون هذه الأيام على العرب والمسلمين ويأكلونهم ويلتهمون حقوقهم ويهينون كرامتهم ويستمتعون بأراضيهم ومساكنهم؟ وهناك بحث بعنوان "دراسة نقدية للحديث الشريف: فقدت أمة من بنى إسرائيل لا أراها إلا الفأر" نفذه د. حذيفة الخطيب ود. معز الإسلام فارس على عدد من الفئران وُضِعَتْ أمامها ألبان الإبل وألبان الشاء، فشربت من هذه ومن تلك دون أى تردد أو أية مشاكل،

ناسفة بذلك ما قيل فى هذا الموضوع. وبهذا يتضح أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يكون قد قال هذا الكلام العجيب الغريب.

والآن مع الجاحظ فى كلامه فى كتابه: "الحيوان" عن الأصل اليهودى لبعض الحيوانات فى أذهان العامة، ومنها الفأرة: "ما يضاف إلى اليهود من الحيوان. قال: والصبيان يصيحون بالفهد إذا رأوه: يا يهودى.وقد عرفنا مَقالهم فى الجِرِّى.والعامَّة تزعم أن الفأرة كانت يهوديَّةً سحّارة. والأرضة يهودية أيضًا عندهم. ولذلك يلطِّخون الأجذاع بشحم الجَزُور (على اعتبار أن اليهود لا يأكلون لحوم الإبل). والضبّ يهودى، ولذلك قال بعضُ القصَّاص لرجل أكل ضبًّا: اِعْلَمْ أنّك أكلت شيخًا من بنى إسرائيل. ولا أراهم يضيفون إلى النّصرانية شيئًا من السِّباع والحشرات".

وإذا كان الحديث السابق يقول بأن سبطا من بنى إسرائيل قد صار فئرانا فها هو ذا حديث آخر يقول بأن المسخ لم يكن فئرانًا بل ضِبَابًا: "عن عبد الرحمن بن حسنة: أنّهم طَبَخوا ضِبابًا، فقال النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّ أُمَّةً مِن بنى إسرائيل مُسِخَت دوابَّ، فأخشى أن تكونَ هذه، فأكْفِئُوها". وفى الحديث، كما نرى، أنه عليه السلام قد نهى مرافقيه عن الأكل من الضِّبَاب، فى حين نراه يتوقف فى رواية أخرى للحديث فلا ينهى أصحابه عنها، وإن لم يأكل هو منها: "عن ثابت بن وديعة: كُنّا معَ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فى جيشٍ فَأصبنا ضِبابًا، قال: فشويتُ منها ضبًّا، فأتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فوضعتُهُ بينَ يديْهِ، قال: فأخذَ عودًا فعدَّ بهِ أصابعهُ ثُمَّ قال: إنَّ أُمةً مِنْ بَنى إسرائيلَ مُسِخَتْ دوابَّ فى الأرضِ، وإنِّى لا أَدرى أى الدوابِّ هى.فلمْ يَأكلْ ولمْ يَنْهَ". وفى حديث آخر نراه صلَّى الله عليه وسلَّم يعتذر عن عدم الأكل من ضب وُضِع بين يديه، فجرَّه خالد بن الوليد وأكله، ولم ينكر عليه الرسول فى شىء، وعلل امتناعه عن الأكل منه بأنه ليس من طعام قومه، فلذلك عافته نفسه، ولم يقل إنه واحد من بنى إسرائيل الذين مسخوا.

وهذه ثلاث روايات لهذا الحديث الهام: "عن عبد الله بن عباس: أُتِى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بضبَّينِ مشويَّينِ، وعندَه خالدُ بنُ الوليدِ، فأهوى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم يدَه ليأكلَ، فقِيلَ له: إنه ضَبٌّ. فأمسكَ يدَه، فقال له خالدٌ: أحرامٌ هوَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: لا، ولكنَّه لا يكونُ بأرضِ قومِى، فأجِدُنى أعافُه. فأكل خالدٌ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ينظرُ إليه". "عن خالد بن الوليد: أُتِى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم بضَبٍّ مَشْوِى، فأهْوى إلَيْهِ لِيَأْكُلَ، فقِيلَ له: إنَّه ضَبٌّ. فأمْسَكَ يَدَهُ، فَقالَ خالِدٌ: أَحَرامٌ هُوَ؟ قالَ: لا، ولَكِنَّهُ لا يَكونُ بأَرْضِ قَوْمِى، فأجِدُنِى أعافُهُ. فأكَلَ خالِدٌ، ورَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَنْظُرُ. قالَ مالِكٌ عَنِ ابْنِ شِهابٍ: بضَبٍّ مَحْنُوذٍ". "عن خالد بن الوليد: أنه دخَلَ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم على ميمونَةَ بنتِ الحارثِ، وهى خالتُه، فقُدِّمَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لحمُ ضَبٍّ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يأكلُ شيئًا حتى يعلمَ ما هو، فقال بعضُ النسوةِ: ألا تُخْبِرْنَ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ما يَأْكُلُ؟ فأخْبَرْتُه أنه لحمُ ضَبٍّ، فتركَه. قال خالدٌ: سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أحرامٌ هو؟ قال: لا، ولكنه

طعامٌ ليس فى أرضِ قومى، فأجدُنى أَعافُه. قال خالدٌ: فاجَتَرَرْتُه إلى فأكَلْتُه، ورسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَنْظُرُ".

وفى "البداية والنهاية" لابن كثير عن اليهود الذين مسخوا قردة وخنازير: "روى ابن أبى حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس أنهم لم يعيشوا إلا فُوَاقًا، ثم هلكوا ما كان لهم نسل. وقال الضحاك عن ابن عباس إنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا. وقد استقصينا الآثار فى ذلك فى تفسير سورة "البقرة والأعراف"، ولله الحمد والمنة. وقد روى ابن أبى حاتم، وابن جرير من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة وخنازير، وإنما هو مثل ضربه الله "كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا". وهذا صحيح إليه وغريب منه جدًا، ومخالف لظاهر القرآن ولِمَا نصَّ عليه غير واحد من السلف والخلف، والله أعلم". وفى الحديث عن أم سلمة وعبد الله بن عمر وابن مسعود: "ما مسخ اللهُ تعالى من شىء فكان له عَقِبٌ ولا نسْلٌ". فإذا كان الأمر كذلك فكيف عاشت الفئران والضباب منذ مسخت حتى عصر النبى، وهو زمن يقاس بآلاف السنين لا بالأيام؟

واضح أن هذا كلام لا يمكن أن يكون قد قاله النبى عليه السلام لأن الأنبياء الذين اصطفاهم الله وصنعهم على عينه لا يمكن أن يقولوا هذا الكلام المضحك الساذج. وحتى لو نظرنا إلى محمد على أنه بشر عادى لا نبى فلا يمكن أن يصدر هذا الكلام عن رجل عظيم مثله أنجز كل تلك الأعمال الباهرة من تحويل العرب من أمة وثنية إلى أمة تؤمن بالله الواحد الأحد، ومن أمة تتقاتل وتتفانى إلى أمة تتعاون وتفتح العالم على النحو الإعجازى الذى نعرفه، ومن شعب أمى إلى شعب متنور يقود مسيرة الحضارة والثقافة لقرون، ومن الصدق فى كل ما تنبأ به لم يُخْرَم منه حرف. إن قائدا متفردا مثله لا يمكن أن يصدر عنه ذلك الكلام السخيف الذى يدل على ضآلة فى العقل وغرام بالخرافات المنحطة. ولقد وصفه بعض المستشرقين بالدهاء وشدة الذكاء بحيث قد صاغ القرآن على نحو لا تنكشف معه عثراته إذ جعل الكلام عاما فضفاضا لا يمكن تخطئته. وعلى هذا فمثله لا يمكن أن يقع فى ترديد تلك الخرافات.

على أن أمر الضب مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لم ينته بعد، فثم الحديث التالى، الذى تحدث فيه الضب كما يتحدث الآدميون وأعلن إيمانه بالله ودينه ورسوله بلسان طلق فصيح. وهو ما كان ليفعل ذلك لو كان واحدا من مسوخ بنى إسرائيل لأن اليهود لم يكونوا ليؤمنوا بالإسلام على هذا النحو السلس الذى يدل على تقوى وبر واستقامة وحب للحق. وأين هذا كله من بنى إسرائيل؟ وأين بنو إسرائيل من هذا كله؟ والآن إلى الحديث: "عن عمر بن الخطاب: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان فى مَحْفَلٍ مِن أصحابِه إذْ جاء أعْرابى مِن بَنى سُلَيمٍ قد صاد ضبًّا، وجعَله فى كُمِّه لِيَذهَبَ به إلى رَحْلِهِ فيَشويَه ويأكُلَه، فلمَّا رأَى الجماعَةَ قال: ما هذا؟ قالوا: هذا الَّذى يَذكُرُ أنَّه نَبى.فجاء حتَّى شقَّ النَّاسَ فقال: واللَّاتِ والعُزَّى ما اشتَمَلَتِ النِّساءُ على ذى لَهجَةٍ أبغَضَ إلى مِنك ولا أمْقَتَ، ولولا أنْ يُسمِّيَنى قومٌ: "عَجولًا" لعَجِلتُ عليك فقَتَلتُك فسَرَرْتُ بقَتلِك الأسودَ والأحمَرَ والأبيَضَ وغيرَهم. فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ: يا رسولَ اللهِ، دَعْنى فأقومَ فأقتُلَه. قال: يا عُمرُ، أمَا عَلِمتَ أنَّ الحَليمَ كاد أن يَكونَ

نبيًا؟ ثمَّ أقبَل على الأعرابى فقال: ما حمَلَك على أن قُلتَ ما قُلتَ، وقلتَ غيرَ الحقِّ ولَم تُكْرِمْنى فى مَجْلِسى؟ قال: وتكلِّمُنى أيضًا؟ (استخفافًا برَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم). واللّاتِ والعُزَّى لَا آمَنتُ بك أو يؤمِنَ بكَ هذا الضَّبُّ. وأخرَج الضَّبَّ مِن كُمِّه وطرَحَه بين يدَى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: يا ضَبُّ. فأجابه الضَّبُّ بلسانٍ عرَبى مُبينٍ يَسْمَعُه القومُ جميعًا: لبَّيْكَ وسَعْدَيْك يا زَينَ مَن وافى القِيامَةَ. قال: مَن تَعبُدُ يا ضَبُّ؟ قال: الَّذى فى السَّماءِ عَرشُه، وفى الأرضِ سُلطانُه، وفى البَحرِ سَبيلُه، وفى الجنَّةِ رَحمَتُه، وفى النَّارِ عِقابُه. قال: فَمن أنا يا ضَبُّ؟ قال: رسولُ ربِّ العالَمين وخاتَمُ النَّبيِّين. وقد أفلَح مَن صدَّقَك، وقد خاب مَن كذَّبَك. قال الأعرابى: لا أَتْبَعُ أثَرًا بعدَ عينٍ. واللهِ لقد جِئتُك وما على ظَهْرِ الأرضِ أبغَضُ إلى مِنك، وإنَّك اليومَ أحَبُّ إلى مِن والدَى ومِن عينى ومنِّى.وإنِّى لأُحِبُّك بداخِلى وخارِجى، وسرِّى وعَلانيتى.أشهَدُ ألَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّك رسولُ اللهِ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: الحمدُ للهِ الَّذى هَداك بى.إنَّ هذا الدِّينَ يَعْلو ولا يُعْلَى، ولا يُقبَلُ إلَّا بصَلاةٍ، ولا تُقبَلُ الصَّلاةُ إلَّا بقُرآنٍ. قال: فعلِّمْنى.فعَلَّمَه "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" (الإخلاص/ ١)، قال: زِدْنى، فما سَمِعتُ فى البَسيطِ ولا فى الرَّجَزِ أحسَنَ مِن هذا. قال: يا أعرابى، إنَّ هذا كلامُ اللهِ ليس بشِعْرٍ. إنَّك إنْ قرأتَ "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" مرَّةً كان لك كأجْرِ مَن قرَأَ ثُلثَ القُرآنِ، وإن قرأتَ مرَّتين كان لك كأجْرِ مَن قرَأَ ثُلُثَى القرآنِ، وإذا قرأتَها ثلاثَ مرَّاتٍ كان لك كأجْرِ مَن قرَأَ القرآنَ كلَّه. قال الأعرابى: نِعْمَ الإلهُ إلهًا يَقبَلُ اليَسيرَ ويُعطى الجَزيلَ. فقال له رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ألك مالٌ؟ قال: ما فى بَنى سُلَيمٍ قاطِبَةً رجلٌ هو أفقَرُ منِّى.فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابِه: أعطُوه. فأعطَوْه حتَّى أبطَروه، فقام عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوْفٍ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ له عِندى ناقَةً عُشَراءَ دونَ البُخْتيَّةِ وفوقَ الأَعْرَى، تَلْحَقُ ولا تُلحَقُ، أُهْدِيَتْ إلى يومَ تَبوكَ، أتقرَّبُ بها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وأدفَعُها إلى الأعرابى.فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: قد وصفْتَ ناقتَك، فأصِفُ ما لك عندَ اللهِ يومَ القيامَةِ؟ قال: نعَم. قال: لكَ كَناقَةٍ مِن درَّةٍ جَوْفاءَ، قوائمُها مِن زبَرْجَدٍ أخضَرَ، وعُنُقُها مِن زبَرجَدٍ أصفَرَ، عليها هَوْدجٌ، وعلى الهودَجِ السُّندُسُ والإستبرَقُ، وتَمُرُّ بك على الصِّراطِ كالبَرقِ الخاطِفِ، يَغبِطُك بها كلُّ مَن رآك يومَ القيامَةِ. فقال عبدُ الرَّحمنِ: قد رَضيتُ. فخرَج الأعرابى، فلقيه ألفُ أعرابى مِن بَنى سُلَيمٍ على ألْفِ دابَّةٍ، معَهم ألْفُ سَيفٍ وألفُ رُمْحٍ. فقال لهم: أين تُريدون؟ فقالوا: نذهَبُ إلى هذا الَّذى سفَّه آلِهَتَنا فنقتُلُه. قال: لا تفعَلوا، أنا أشهَدُ ألا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ. فحدَّثهم الحديثَ، فقالوا بأجمعِهم: لا إلَهَ إلَّا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ. ثمَّ دخَلوا، فقيل للنَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فتلقَّاهم بلا رِداءٍ، فنزَلوا عن رِكابِهم يُقبِّلون حيثُ وافَوْا مِنه وهم يقولون: لا إلَهَ إلَّا اللهُ. محمَّدٌ رَسولُ اللهِ، ثمَّ قالوا: يا رسولَ اللهِ، مُرْنا بأمرِك. قال: كُونوا تحتَ رايَةِ خالِدِ بنِ الوَليدِ. فلم يؤمِنْ مِن العرَبِ ولا غيرِهم ألفٌ غيرُهم".

هذا ولا يزال فى الجعبة الحديث التالى الذى يخبرنا أن المسخ سوف يطول المسلمين أيضا. الله أكبر! "عن أبى عطاء اليحبورى: قال لى عبادةُ بنُ الصامتِ رضى اللهُ عنه: يا أبا عطاءٍ، كيف تصنعونَ إذا فرَّتْ منكم علماؤكم وقراؤكم وكانوا فى رؤوسِ الجبالِ مع الوحوشِ؟ قلتُ: ولِمَ ذاكَ أصلحكَ اللهُ؟ قال:

خشيةَ أن تقتُلوهم. قال: قلتُ: نقتُلُهم، وكتابُ اللهِ بين أظهُرِنا؟ قال: ثكِلَتكَ أمُّكَ يا أبا عطاءٍ! أولم يُؤْتَ التوراةَ اليهودُ فترَكوها وضلُّوا عنها؟ أولم يؤتَ النصارى الإنجيلَ فترَكوه وضلُّوا عنه؟ وإنما هى فتنٌ تتبعُ بعضُها بعضًا، ولم يكُنْ فيهم شىء إلا سيكونُ فيكم مثلُه. قال داودُ (يعنى ابنَ أبى هندٍ): فترَكتُه أيامًا ثم أتيتُه فقلتُ: يا أبا السائبِ، إنه قد كان فيهم مسخُ قردةٍ. فقال: حدَّثنى أبو عطاءٍ أنَّ عبادةَ بنَ الصامتِ قال: لم يكُنْ فيهم شىء إلا سيكونُ فيكم مثلُه. لا تذهبُ الأيامُ والليالى حتى تُمسَخَ طوائفُ مِن هذه الأمةِ".

ويؤكده هذان الحديثان: "عن عبد الله بن عمرو: فى أمتى خسْفٌ ومسْخٌ وقَذْفٌ". "عن عبد الله بن عمرو: يَكونُ فى أمَّتى خسفٌ ومسخٌ، وذلِك فى المُكذِّبينَ بالقدرِ". وهذا شرح الحديث الأخير فى موقع "الدرر السنية": "الإيمانُ بالقدَرِ خيرِه وشَرِّه ركن من أركان الإيمان، والمؤمنُ الحقُّ يَعلمُ ويُوقِنُ أنَّ ما أصابه لم يَكُنْ لِيُخطِئَه وأنَّ ما أخطَأه لم يكُنْ لِيُصيبَه. ومَن أنكَر القدَرَ فقد أنكَر بعضًا مِن أركانِ الإيمانِ. وفى هذا الحَديثِ بيانُ عُقوبةِ المكذِّبين بالقَدرِ فى الدُّنيا، حيثُ يقولُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: "يكونُ فى أُمَّتى"، أى أمَّةِ الإسلامِ، "خَسْفٌ"، وهو الذَّهابُ والغِيابُ فى باطنِ الأرضِ، كما حدَث لقارونَ عليه لَعنةُ اللهِ، "ومَسخٌ"، وهو تَحويلُ الصُّورةِ وتبديلُها إلى أقبَحَ مِنها كما مُسِخَت بَنو إسرائيلَ قِردةً وخَنازيرَ. فالحَديثُ على ظاهرِه، والخَسْفُ والمسخُ المذكورانِ حَقيقيّانِ ويَكونانِ لِمَن أراد اللهُ أن يُعجِّلَ له العُقوبةَ فى الدُّنيا. والمسْخُ يقَعُ بصُورتِه الحقيقيَّةِ فى هذه الأُمَّة، "وذلك فى المكذِّبين بالقدَرِ"، أى يقَعُ الخسفُ والمسخُ لِمَن كذَّبوا بالقدَرِ، ويُقالُ لهم: القدَريَّةُ، وهم الَّذين يَقولون: إنَّ الأمرَ لم يَسبِقْ به قدَرٌ ولا عِلمٌ مِن اللهِ، وإنَّ اللهَ لا يَعلَمُ الأشياءَ إلّا بعدَ وُقوعِها، وإنَّه لم يَخلُقْ أفعالَ العبادِ، تعالى اللهُ عمّا يَقولون عُلوًّا كبيرًا... وفى الحديثِ: أنَّ الخسفَ والمسخَ يَقعُ فى هذه الأمَّةِ كما وقَعَ ذلك فى الأُممِ السّابقةِ". وواضح أن ملفق هذا الحديث يبغى من ورائه تكفير بعض الفرق المنتمية للإسلام أو تفسيقهم على الأقل. وها قد مضى على هذا الحديث أربعة عشر قرنا، وظهر من المكذبين بالقدر الكثيرون، ومن المنافقين الكثيرون، ومن الملحدين الكثيرون، وصار الهجوم على الإسلام وكتابه ونبيه يتم جهارا نهارا فى إعلام بلاد المسلمين، ولم يمسخ منهم أحد.

وقفة مع بعض الأحاديث

هناك شخص عجيب معاصر للنبى صلَّى الله عليه وسلَّم فى المدينة كنيته ابن صياد أو ابن صائد، واسمه صافى أو عبد الله. وكان من يهود المدينة، وقيل: من الأنصار، وكان صغيرًا عند قدوم النبى صلَّى الله عليه وسلَّم إلى المدينة. وقيل إنه أسلم.وكان يتكهن أحيانًا فيصدق ويكذب. وقد انتشر خبره بين الناس، وشاع أنه الدجال. فأراد النبى صلَّى الله عليه وسلَّم أن يطّلع على أمره ويتبين حاله حسبما تقول الروايات، فكان يذهب إليه متخفيًا حتى لا يشعر به رجاء أن يسمع منه شيئًا على حين بغتة، وكان يوجه إليه بعض الأسئلة التى من شأنها الكشف عن حقيقته. وقد عاش بعد النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ثمّ فُقِدَ يوم الحرّة. وفى الحديث "حَدَّثَنَا عَبْدَانُ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ عَنْ يُونُسَ عَنْ الزُّهْرِى قَالَ: أَخْبَرَنِى سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ انْطَلَقَ مَعَ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم فِى رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ حَتَّى وَجَدُوهُ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ عِنْدَ أُطُمِ بَنِى مَغَالَةَ، وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ الْحُلُمَ، فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لابْنِ صَيَّادٍ: تَشْهَدُ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ؟ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الأُمِّيِّينَ. فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم: أَتَشْهَدُ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ؟ فَرَفَضَهُ وَقَالَ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ. فَقَالَ لَهُ: مَاذَا تَرَى؟ قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: يَأْتِينِى صَادِقٌ وَكَاذِبٌ. فَقَالَ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم: خُلِّطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم: إِنِّى قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا. فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: هُوَ الدُّخُّ. فَقَالَ: اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ. فَقَالَ عُمَرُ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ: دَعْنِى يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم: إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلا خَيْرَ لَكَ فِى قَتْلِهِ. وَقَالَ سَالِمٌ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وَأُبَى بْنُ كَعْبٍ إِلَى النَّخْلِ الَّتِى فِيهَا ابْنُ صَيَّادٍ وَهُوَ يَخْتِلُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ ابْنِ صَيَّادٍ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ابْنُ صَيَّادٍ، فَرَآهُ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم وَهُوَ مُضْطَجِعٌ (يَعْنِى فِى قَطِيفَةٍ لَهُ فِيهَا رَمْزَةٌ أَوْ زَمْرَةٌ)، فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيّادٍ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وَهُوَ يَتَّقِى بِجُذُوعِ النَّخْلِ، فَقَالَتْ لابْنِ صَيَّادٍ: يَا صَافِ، هَذَا مُحَمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. فَثَارَ ابْنُ صَيَّادٍ، فَقَالَ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم: لَوْ تَرَكَتْهُ بَيَّنَ" (رواه البخارى ١٣٥٥).

وقرأت فى موقع "الإسلام: سؤال وجواب" تعليقا على هذه الرواية ما يلى: "فى الحديث السابق الذى فيه بعض أحوال ابن صياد وامتحان النبى صلَّى الله عليه وسلَّم له ما يدل على أن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم كان متوقفًا فى أمر ابن صياد لأنه لم يُوحَ إليه أنه الدجّال ولا غيره. وكان كثير من الصحابة يظنون أن ابن صياد هو الدجال. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنهما يحلف أنه الدجال بحضرة النبى صلَّى الله عليه وسلَّم وحضرة الصحابة، ولم ينكر عليه النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ذلك. ففى الحديث عن محمد بن المنكدر قال: "رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَحْلِفُ بِاللَّهِ أَنَّ ابْنَ الصَّائِدِ الدَّجَّالُ. قُلْتُ: تَحْلِفُ بِاللَّهِ؟ قَالَ: إِنِّى سَمِعْتُ عُمَرَ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم، فَلَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم" (رواه البخارى برقم ٦٨٠٨).

وقد حصلت لابن عمر قصّة عجيبة مع ابن صائد وردت فى صحيح الإمام مسلم عن نَافِعٍ قَالَ: لَقِيَ ابْنُ عُمَرَ ابْنَ صَائِدٍ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ قَوْلا أَغْضَبَهُ فَانْتَفَخَ حَتَّى مَلأَ السِّكَّةَ، فَدَخَلَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى حَفْصَةَ وَقَدْ بَلَغَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: رَحِمَكَ اللَّهُ! مَا أَرَدْتَ مِنْ ابْنِ صَائِدٍ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قَالَ: إِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ غَضْبَةٍ يَغْضَبُهَا؟ (صحيح مسلم ٢٩٣٢).

وبالرغم من ذلك فقد كان ابن صياد لما كبر يحاول الدّفاع عن نفسه ويُنكر أنه الدّجال ويُظهر تضايقه من هذه التهمة، ويحتج على ذلك بأن ما أخبر به النبى صلَّى الله عليه وسلَّم من صفات الدجال لا تنطبق عليه. ففى الحديث "عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: "خَرَجْنَا حُجَّاجًا أَوْ عُمَّارًا وَمَعَنَا ابْنُ صَائِدٍ، قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلا، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ، فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ وَحْشَةً شَدِيدَةً مِمَّا يُقَالُ عَلَيْهِ. قَالَ: وَجَاءَ بِمَتَاعِهِ فَوَضَعَهُ مَعَ مَتَاعِي، فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ، فَلَوْ وَضَعْتَهُ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ. قَالَ: فَفَعَلَ. قَالَ: فَرُفِعَتْ لَنَا غَنَمٌ، فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِعُسٍّ (قدح كبير)، فَقَالَ: اشْرَبْ أَبَا سَعِيدٍ. فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ، وَاللَّبَنُ حَارٌّ (مَا بِي إِلا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشْرَبَ عَنْ يَدِهِ أَوْ قَالَ: آخُذَ عَنْ يَدِهِ). فَقَالَ: أَبَا سَعِيدٍ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آخُذَ حَبْلًا فَأُعَلِّقَهُ بِشَجَرَةٍ ثُمَّ أَخْتَنِقَ مِمَّا يَقُولُ لِي النَّاسُ. يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مَعْشَرَ الأَنْصَارِ. أَلَسْتَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: هُوَ كَافِرٌ، وَأَنَا مُسْلِمٌ؟ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: هُوَ عَقِيمٌ لا يُولَدُ لَهُ، وَقَدْ تَرَكْتُ وَلَدِي بِالْمَدِينَةِ؟ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: لا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلا مَكَّةَ، وَقَدْ أَقْبَلْتُ مِنْ الْمَدِينَةِ، وَأَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ؟ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِي: حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَعْذِرَهُ. ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ وَأَيْنَ هُوَ الآنَ. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ" (رواه مسلم برقم ٥٢١١). وقال ابن صياد فى رواية: "أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُ الآنَ حَيْثُ هُوَ وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ. وَقِيلَ لَهُ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: لَوْ عُرِضَ عَلَى مَا كَرِهْتُ" (رواه مسلم برقم ٥٢١٠).

وقد التبس على العلماء ما جاء فى ابن صياد، وأشكل عليهم أمره: فمن قائل إنه الدجال، ومنهم من يقول إنه ليس الدجال. ومع كل فريق دليله، فتضاربت أقوالهم كثيرًا. وقد اجتهد ابن حجر فى التوفيق بين هذه الأقوال فقال: "أقرب ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال أن الدجال بعينه هو الذى شاهده تميم موثوقا، وأن ابن صياد هو شيطان تبدّى فى صورة الدجال فى تلك المدة إلى أن توجه إلى أصبهان فاستتر مع قرينه إلى أن تجىء المدة التى قدّر الله تعالى خروجه فيها" (فتح البارى ١٣ / ٣٢٨). وقيل إنّ ابن صياد هو دجّال من الدّجاجلة وليس هو الدّجال الأكبر. والله تعالى أعلم".

هذا ما قرأته فى الموقع المذكور. ولكن هل يعقل أن يظن النبى مجرد ظن ولو عابرا أن ابن صياد هو المسيح الدجال؟ إن هذا لو صح وقوعه من النبى عليه السلام لكان تكذيبا للنبوءات التى تنبأها عليه السلام فيما يتعلق بانتصار الإسلام وانتشاره فى العالم أجمع وفتح القسطنطينية وحرب المسلمين لليهود فى آخر الزمان... إلخ. ذلك أنه لو كان هذا العيّل المسمى: ابن صياد هو المسيح الدجال فمعنى

هذا أن القيامة ستقوم بعد قليل، إذ مجىء المسيح الدجال مقترن بالساعة. ثم هل يعقل أيضا أن "عيلا" صغيرا يلعب فى الشوارع والحوارى مع أمثاله من العيال الصغار يمكن أن يشغل النبى كما تقول الروايات الخاصة به، والنبى صلَّى الله عليه وسلَّم قد قلم أظفار كبار اليهود بل قلم رقابهم ولم يأخذوا معه غلوة واحدة، كما قضى على الكهانة والكهان إلى أبد الآبدين، ولم يستعص عليه واحد منهم؟ ثم هل يمكن أن يكون المسيح الدجال ولدا صغير لم يبلغ الحلم بعد؟ وهل هناك من ينزل من بطن أمه مختونا حسبما جاء فى بعض الروايات؟ ولماذا ينزل ابن صياد مختونا دون سائر البشر؟ والعجيب أن ابن صياد لا تنطبق عليه علامات المسيح الدجال، فلم يكن ابن صياد أعور لا العين اليمنى ولا العين اليسرى ولا العينين الاثنتين كما قال لى طبيب شاب ذات مرة، فضحكت من كلامه. وبالمثل لم يكن مكتوبا بين عينى ابن صياد كلمة "كافر" كما تقول الروايات. كما أن المسيح الدجال يزعم الألوهية وتكون معه جنة ونار يفتن بهما الناس، ولم يحدث ان ادعى ابن صياد الألوهية ولا زعم مجرد زعم أن معه جنة ونارا. وماذا نصنع بتفسير قوله برؤية عرش على الماء بأنه يرى إبليس فى حين أن القرآن قد جعل عرش الله على الماء قبل خلق العالم حسبما جاء فى سورة "هود"؟

ثم لو كان ابن صياد كاهنا فمنذ متى كان النبى قبل فتح مكة وأمْره بهدم طواغيت الوثنية يذهب للكهان يستطلع طلعهم؟ كذلك فعجيب أن يدَّعى ابن صياد أنه رسول الله، وهو غلام صغير، وكأن النبوة شغل عيال. ولو كان دجالا فكيف قال إنه يأتيه صادق وكاذب، والدجاجلة لا يرضون بنسبة الكذب إلى شياطينهم أبدا، بل يجعلونهم كلهم صادقين لا يمكنهم أن يخبروهم بشىء كاذب. ثم من أين لابن صياد الكهانة؟ وهل يمكن أن يكون الكهان عيالا صغارا؟ وما المعبد الذى كان يقوم عليه ويقصده الناس فيه؟ ولماذا يا ترى يختبر النبى ابن صياد فيخبئ له خبيئا فى نفسه كما كان يفعل الوثنيون فى الجاهلية مع كهانهم حين يقصدونهم للسؤال عن شىء مسروق أو عن عِرْض فلانة أو علانة ممن اتهمن بالزنا؟ إن معنى هذا أنه عليه السلام يريد أن يختبره ويعرف أنه صادق فى تكهنه أو لا. ترى أولو استطاع معرفة ذلك الخبىء أكان النبى يؤمن به ويصدقه كما يقتضى الأمر فى مثل تلك الأحوال؟ الله أكبر. إن هذا لكلام فى غاية الخطورة. والعجيب أن ابن صياد استطاع أن يعرف ما خبأه له رسول الله، فلماذا يظل النبى يعيب ابن صياد؟ أكانت تخبئة النبى له "الدخان" تضييع وقت وعبثا من عبث العابثين؟ نعيذ النبى عليه السلام أن يكون من العابثين مضيعى الوقت فى السخافات والتفاهات؟ وإذا كان ابن صياد قد اعتنق الإسلام فلم كل تلك الروايات عن كهانته ودجله وحيرة النبى بشأنه؟ كذلك فإن كلام الروايات عن أن ابن صياد حين غضب انتفخ حتى ملأ السكة فى المدينة كديدنه حين يغلبه الغضب هو كلام مضحك لا يليق بالصحابة الذين نسبت إليهم تلك الروايات. وأعجب من ذلك كله أن الروايات تقول إن المسلمين رغم دخول ابن صياد فى الإسلام ظلوا يعتقدون أنه المسيح الدجال حتى لقد فكر فى الانتحار والتخلص من هذه الشائعة المسيئة؟ يعنى: عنزة ولو طارت! إن فى هذا تصويرا للمسلمين على أنهم سذج لا عقل عندهم ولا يفكرون، ومن السهل الميسور الضحك عليهم وخداعهم.

ومن العجيب أشد العجب أن يؤكد عبد الله بن عمر فى أحد الأحاديث أن المسيح الدجال إنما يكون من يهود أصبهان: "عن عبد الله بن عمر وحذيفة بن اليمان: يَخرُجُ المَسيحُ الدَّجّالُ مِن يَهوديَّةِ أصفَهانَ"، وأن نسمعه فى حديث آخر يقول: "عن عبد الله بن عمر: واللهِ ما أشُكُّ أنَّ المَسيحَ الدَّجّالَ ابنُ صَيّاد" لأنه إذا كان المسيح الدجال من يهود أصبهان، وكان ابن صياد من يهود المدينة، فإنه لا يمكن أن يكون هو المسيح الدجال كما يقول العقل والمنطق. ثم كيف يقسم عمر بن الخطاب أن ابن صياد هو الدجال فلا ينكر عليه النبى ذلك بما يفيد أنه فعلا هو المسيح الدجال ثم يتضح رغم هذا أنه ليس المسيح الدجال؟

* * *

وبعد ابن صياد ننتقل إلى موضوع آخر. لقد تكفل الله بحفظ القرآن فى قوله تعالى بسورة "الحِجْر": "إنا نحن نزَّلنا الذِّكْرَ، وإنا له لحافظون". ولكن بكل أسف هناك روايات متهافتة تقول ما يناقض هذا التعهد الإلهى ولو فى شكل محدود. ومن هذه الروايات الرواية التالية المنسوبة إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: "لقد نزلت آيةُ الرَّجمِ ورضاعة الكبيرِ عَشْرًا، ولقد كان فى صحيفةٍ تحتَ سريرى. فلمَّا ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وتشاغلنا بموتِهِ دخلَ داجنٌ فأكَلَها". ولن أدخل فى مسألة الإسناد والجرح والتعديل بل سوف أتناولها بالمنطق المجرد وبالنظر إلى الأوضاع التاريخية والاجتماعية التى أحاطت بتلك الحادثة إن كانت قد وقعت فعلا ولم تكن من صنع خيال بعض الناس.

وأول شىء أن الرواية تقول إن الداجن قد أكلت الورقة بعد وفاة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. ومعنى ذلك أن القرآن لم يحفظ كما ينبغى، على النقيض مما تعهد به الله سبحانه. فكيف لم يهج المسلمون للواقعة وتركوها تمر وكأن أمرا جللا لم يقع ينسف هذا التعهد من الأساس؟ لقد كان الأحرى بهم أن تتزلزل الأرض تحت أقدامهم. لكننا ننظر فلا نرى انفعالا ولا ضجة ولا غضبا وكأن نصا قرآنيا لم يضع فى بطن الداجن إلى الأبد. وأين عمر مثلا من تلك المصيبة وقت حدوثها أو وقت علمه بها؟ أتراه كان سيلوذ بالصمت، وهو الغيور العنيف الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم، ولا يبالى بأحد متى كان هناك خطأ أو تقصير؟ فهل هذا مما يعقله العاقلون؟

الغريب أن يسكت عمر حتى يموت أبو بكر ويتولى هو الخلافة بعده ثم يوشك أن يموت، وهنا، وهنا فقط، يتذكر عمر قصة اختفاء نص الرجم حسبما تقول الحكاية التالية: "لما صدر عمر بن الخطاب من مِنًى أناخ بالأبطح، ثم كوّم كومة بطحاء ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء فقال: اللهم كبرتْ سنى، وضعفتْ قوتى، وانتشرتْ رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيِّع ولا مفرِّط. ثم قَدِم المدينةَ فخطب الناس فقال: أيها الناس، قد سُنَّتْ لكم السنن، وفُرِضَت الفرائض، وتُرِكْتُمْ على الواضحة إلا أن تضلّوا بالناس يمينا وشمالا. وضرب بإحدى يديه على الأخرى ثم قال: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل: لا نجد حَدَّيْن فى كتاب الله. فقد رجم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد رجمنا. والذى نفسى بيده لولا أن يقول الناس: "زاد عمر بن الخطاب فى كتاب الله" لكتبتُها: "الشيخ

والشيخة فارجموهما ألبتة". فإنا قد قرأناها. قال مالك: قال يحيى بن سعيد: قال سعيد بن المسيب: فما انسلخ ذو الحجة حتى قُتِل عمر رحمه الله".

فهل نصدق أن عمر كان يعلم أن هذه آية من القرآن ثم يخشى أن يعيدها إلى كتاب الله؟ ترى ما الذى منعه من ذلك؟ تقول الحكاية: لقد خاف أن يقول المسلمون عنه: زاد فى القرآن. فهل صحيح أنه لو كتبها فى المصحف سيكون قد زاد شيئا على القرآن؟ بطبيعة الحال لا. ثم لقد صرح أمام المسلمين بأنها من القرآن، فهل أنكر عليه أحد ذلك؟ لا. فلم الخوف إذن من الانتقال إلى الخطوة التالية وكتابتها، ونحن نعرف أن الكتابة ليست شيئا آخر غير القول مُثْبَتًا فى ورق؟ فهل هناك فرق بين هذا وذاك؟ وهل كان عمر وحده هو الذى يعرف أن هناك نصا قرآنيا برجم الشيخ والشيخة الزانيين؟ طبعا لا. فلماذا لم يستشهد بمن يشاطرونه هذه المعرفة، كعائشة مثلا، ليحسم الأمر ويعيد كتابة الآية فى موضعها؟

ترى هل يمكن أن يهمل عمر اختفاء نص قرآنى طوال هاتيك السنين دون أن يَحْرَج ضميرُه فيعيش خالى البال وكأن شيئا لم يكن؟ فما الذى جد يا ترى فجعله يتذكر الأمر بغتة ويخشى توابعه؟ إن معنى هذا أن عمر قد مات وهو يعرف أن هناك نصا قرآنيا ضاع، ولا سبيل لإعادته إلى مقره، ولم ير فى هذا ما ينبغى تصحيحه. فهل هذا مما يقبله عاقل؟ لقد كان عمر أشجع من هذا وأحزم وأعزم، ولم يكن ممن يعملون للمعترضين حسابا متى اقتنع بشىء. لقد أوقف مثلا سهم المؤلفة قلوبهم بعد قوة الإسلام دون أن يتردد لحظة. ومن قبلُ حين أراد الهجرة من مكة رأيناه يذهب إلى الكعبة حيث كانت قريش تعقد مجالسها فيصارحهم بنيته متحديا إياهم بقوله: من أراد أن تثكله أمه أو ترمل زوجته أو ييتم ولده فليلقنى وراء هذا الوادى. كما اعترض فى البداية على نصوص معاهدة الحديبية رغم موافقة الرسول عليها.

ترى هل يمكن عمر، الذى يثور لمثل ما ثار له فى الرواية التالية على قلة شأن المسألة بالقياس إلى موضوعنا الحالىّ، أن يكون موقفه من هذا الموضوع الخطير بهذا الهدوء بل بهذا البرود؟ تقول الرواية على لسانه: "سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورةَ "الفرقانِ" فى حياة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقْرِئْنيها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كذلك، فكدتُ أساورُه فى الصلاة، فانتظرتُه حتى سلَّم، ثم لَبَّبْتُه بردائِه أو بردائى، فقلتُ: من أقرأَك هذه السورةَ؟ قال: أقرأنيها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. قلتُ له: كذبتَ. فواللهِ إن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أقرأنى هذه السورةَ التى سمعتُك تقرؤها. فانطلقتُ أقوده إلى رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنى سمعتُ هذا يقرأ بسورة "الفرقانِ" على حروفٍ لم تُقْرِئْنيها، وأنت أقرأتنى سورةَ "الفرقانِ". فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أرسِلْه يا عمرُ. اقرأْ يا هشامُ. فقرأ عليه القراءةَ التى سمعتُه يقرؤها، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: هكذا أُنْزِلَتْ. ثم قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: اقرأْ يا عمرُ. فقرأتُ، فقال: هكذا أُنزِلَتْ. ثم قال: إنَّ هذا القرآنَ أُنزِل على سبعةِ أحرفٍ، فاقرؤوا ما تيسَّر منه".

ثم لماذا لم يفصح عمر عما فى نفسه بخصوص رجم الشيخين حين تجرد زيد بن ثابت لجمع القرآن فى عهد الصديق بناء على اقتراحه هو نفسه خوفا من ضياع شىء من الكتاب المجيد بسبب استحرار القتل فى صفوف قُرّاء القرآن فى حروب الردة؟ لماذا لم يقل، بعدما انتهى زيد من مهمته، إن هناك نصا فات زيدا أن يضعه فى المصحف؟ لقد كان عمر، كما قلت آنفا، رجل حزم وعزم، فلم يكن ليضيع تلك الفرصة ويضيع معها تلك الآية. أَوَبعدما انتهى زيد واللجنة التى كانت معه من عملها، ومرت على ذلك أعوام، يأتى عمر فى الوقت الضائع ويتذكر أن هناك آية قرآنية سقطت من كتاب الله، ثم لايكتفى بهذا بل يعلن عن خشيته من إعادتها إلى موضعها؟ لقد كان إيمانه وحصافته جديرين بأن يجعلاه يسلك سبيلا أقوم من هذا رشدا، أو ما دام يخشى العوام إلى هذا الحد لقد كان ينبغى أن يكتم الأمر حتى لا يثير فتنة بين المسلمين بتذكيرهم أن الله لم يحفظ قرآنه خلافا لما وعد به. الواقع أن تصرف عمر معناه أنه أراد تجنب الفتنة بإشعالها. فهل يمكن أن تكون هذه هى شخصية عمر؟

وهذه هى رواية جمع زيد للقرآن فى عهد أبى بكر، وموقف عمر من ذلك الجمع، وهو موقف يتناقض مع موقفه الذى نحن بصدده تمام التناقض، إذ كيف يكون حريصا على ألا يضيع شىء من النص القرآنى هناك، ولا يبالى بذلك هنا؟ لقد أقر زيد ولجنته آخر سورة "التوبة" رغم أنهم لم يجدوه إلا عند أبى خزيمة. فلماذا يا ترى لم ينبر عمر ويقول: وأنا أيضا عندى آية ينبغى ضمها إلى كتاب الله؟ ولا أظن شهادة عمر أقل من شهادة أبى خزيمة. وهذا لو لم تكن هذه الآية لدى أحد سواه، وهو أمر مستبعد، فقد كانت عائشة على علم بها كما رأينا. يقول زيد بن ثابت فى الرواية المذكورة: "أرسَل إلىَّ أبو بكرٍ مَقْتَلَ أهلِ اليمامةِ، فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عِندَه. قال أبو بكرٍ رضى اللهُ عنه: إنَّ عُمَرَ أتانى فقال: إنَّ القتلَ قدِ اسْتَحَرَّ يومَ اليمامةِ بقُرَّاءِ القرآنِ، وإنى أخشى أن يَستَحِرَّ القتلُ بالقُرَّاءِ بالمواطنِ، فيذهَب كثيرٌ منَ القرآنِ. وإنى أرى أن تَأمُرَ بجمعِ القرآنِ. قلتُ لعُمَرَ: كيف تفعَلُ شيئًا لم يفعلْه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ قال عُمَرُ: هذا واللهِ خيرٌ. فلم يزَلْ عُمَرُ يُراجِعُنى حتى شرَح اللهُ صدرى لذلك، ورأيتُ فى ذلك الذى رأى عُمَرَ. قال زيدٌ: قال أبو بكرٍ: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نَتَّهِمُك، وقد كنتَ تَكتُبُ الوحى لرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فتتبَّعِ القرآنَ فاجمَعْه. فواللهِ لو كلَّفونى نقلَ جبلٍ من الجبالِ ما كان أثقلَ علىَّ مما أمَرنى به من جمعِ القرآنِ. قلتُ: كيف تفعلونَ شيئًا لم يفعَلْه رسول ُاللهِ؟ قال: هو واللهِ خيرٌ. فلم يزَلْ أبو بكرٍ يُراجِعُنى حتى شرَح اللهُ صدرى للذى شرَح له صدرَ أبى بكرٍ وعُمَرَ رضى اللهُ عنهما، فتتبَّعتُ القرآنَ أَجْمَعُه منَ العُسُبِ واللِّخافِ وصدورِ الرجالِ حتى وجَدتُ آخِرَ سورةِ "التوبةِ" معَ أبى خُزَيمَةَ الأنصارى، لم أجِدْها معَ أحدٍ غيره: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ"... حتى خاتِمةِ بَراءَة. فكانَتِ الصحُفِ عِندَ أبى بكرِ حتى توفَّاه اللهُ، ثم عندَ عُمَرَ حياتَه، ثم عِندَ حفصةَ بنتِ عُمَرَ رضى اللهُ عنه".

لقد كان المسلمون يهيجون لما هو أقل من هذا بمراحل كاختلافهم حول طريقة نطق بعض الألفاظ طبقا لاختلاف القراءات وخوف عمر من افتتان المسلمين بذلك وتفكيره فى جمعهم على مصحف واحد. كما ثار المسلمون على عثمان لجمعه القرآن مرة أخرى فى عدد من المصاحف والتخلص مما

عداها رغبة منه فى ألا يختلف المسلمون اختلافا يهدد وحدتهم. فكيف تَلَقَّوْا تلك الواقعة بأعصاب باردة إلى هذا الحد؟ ثم كيف عرفت عائشة أن الداجن قد أكل الورقة؟ إذا كانت قد رأت ما حدث فكيف لم تتدخل وتمنع الداجن من العيث فى القرآن فسادا؟ وإذا لم تكن قد شاهدت شيئا فكيف عرفت بما حدث؟ ثم إن النبى قد غُسِّل وكُفِّن فى حجرة عائشة، التى كانت الورقة المذكورة مدسوسة تحت الفراش فيها. فكيف دخلت الداجن تلك الغرفة الصغيرة وأكلت الورقة المقدسة، وزوجات النبى وبنته وقريباته على الأقل هناك، والنبى ممدد على الفراش، دون أن تنهر إحداهن الداجن عن فراش النبى والعبث تحته؟ يستحيل أن يحدث هذا، فهن أكبر من أن تصيبهن هذه البلادة.

ونحن نعرف أن النبى لم يكن له سرير كسُرُرِنا الآن مرتفع عن الأرض بل مجرد حشية أو حصير يوضع عليها، فكيف يمد الداجن فمه تحت الحصير؟ بل كيف يمكن أن يضع النبى أو عائشة الورقة القرآنية فى ذلك الموضع الغريب؟ وهل كان من عادة العرب أن يضعوا أوراقهم، حين يكون عند أحدهم شىء منها، على الأرض تحت الفراش؟ الحق أنى لم أسمع بمثل تلك الواقعة فى تلك العصور. لقد كان الورق فى عصر الجاهلية والنبوة من الندرة بحيث أتصور أنه كان يعامل معاملة الذهب والجواهر النفيسة. فكيف تُعَامَل ورقةٌ فيها نص قرآنى بهذه اللامبالاة؟ ثم من أدرى عائشة بأن ما ضاع من القرآن هو هذان النصان فقط؟ سيقال إن المسلمين كانوا يحفظون القرآن، وإنهم قد تنبهوا إلى ضياع هذين النصين. فكيف لم يعيدوا النصين الضائعين إلى القرآن إذن ما داموا يحفظونهما؟ هل غَلَّ أحدٌ يدهم عن ذلك؟ وهذا إن كانت هناك نسخة واحدة فقط من ذَيْنِكَ النَّصَّيْن.

ثم هل تظنون أن اليهود والنصارى كانوا ليسكتوا على ما حدث فلا يقيموا الدنيا ويقعدوها شماتة فى الدين الجديد الذى يهدد دينيهما ويزيد فيتهمهما بالعبث فى نصوصهما؟ وهناك أيضا المنافقون الكارهون فى أعماقهم للإسلام، وكذلك المرتدون، الذين انتهزوا وفاة النبى ونكصوا على أعقابهم وخرجوا من دينه خروجا كاملا أو جزئيا، واتبع بعضهم أنبياء من قبائلهم. أتراهم كانوا يهملون تلك الواقعة فلا يستغلوها فى محاربة الدين الجديد وتسويغ خروجهم منه باعتبار أن الله لم يحفظ قرآنه كما وعد، ومن ثم فإن الأمر يبعث على الريبة والتشكك؟

ثم إن الروايات الأخرى تقول إن الرجم فى النص السابق المفقود خاص بالشيخ والشيخة، إذ يقول: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة". ومعنى ذلك أن الرجم لا يسرى على الشبان والرجال والكهول بل على الشيوخ فقط. لكن هل الشيوخ من عنف الشهوة بما يجعل القرآن يخصهم دون سائر الزناة بهذا الحكم الشديد كى يردعهم؟ وقبل ذلك ما الذى منع المسلمين يا ترى من رد ذلك النص إلى المصحف ما داموا يحفظونه على هذا النحو؟ وفوق هذا فتلك أول رواية وآخرها تتحدث عن حفظ رسول الله قرآنا مكتوبا تحت فراشه. ألا إن هذا كله لغريب!

ثم لماذا يقضى الله بضياع نص من كتابه رغم تعهده بحفظه، ثم الإبقاء مع هذا على الحكم الذى يتضمنه ذلك النص؟ يا له من أمر مربك! يبدو أن من اخترع هذا الحديث ونسبه للرسول إنما أراد أن يسوغ حكم رجم الزانى، الذى لم يرد رغم خطورته فى القرآن. لكن اختراعه لم يكن محبوكا البتة. وعلى ذكر

"البتة" ليس فى القرآن كلمة "البتة" أبدا، تلك الكلمة التى انفرد النص المذكور بورودها فيه. بل ليس فى القرآن أية كلمة مشتقة من الجذر: "ب ت ت". وهو ما يعضد إنكارى أن يكون ذلك النص آية محذوفة من كتاب الله. وبالمثل ليس فى القرآن كلمة "الشيخة" أبدا. وهذا مُعَضِّدٌ آخر. ثم إن فى القرآن نصا خاصا بالزناة يقول: "الزانيةُ والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة". فكيف يكون هناك نص آخر فى القرآن بحكم آخر؟ إن هذا إما أن يربك المسلمين فيتساءلوا: أى الحكمين هو الحكم الصحيح؟ وإما أن يقولوا: إن حكم الرجم خاص بالشيوخ والشيخات، وحكم الجلد لمن دونهما. فكما يرى القارئ فإن هذه الرواية تربك كل شىء أيما إرباك.

وهناك هذه الرواية الأخرى، وهى عن عائشة أيضا: "نزَل القرآنُ بعَشْرِ رَضَعاتٍ معلوماتٍ يُحرِّمْنَ، ثمَّ نُسِخْنَ بخمسِ رضعاتٍ معلوماتٍ، فتوفى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وهُنَّ مما نقرأ من القرآن". فهذا إذن نص آخر ضاع من القرآن. لكن كيف يقال إنه قد ضاع، وها هى ذى عائشة لا تبرح تذكره؟ والسؤال من ثم هو: لم يا ترى لم يأخذوه منها ويسجلوه فى القرآن؟ ثم هل كانت هى وحدها التى تعلمه؟ غريبة! أترى كان النبى يبلِّغها وحدها أحيانا بالوحى؟ لكن هل يعقل ذلك؟ الواقع أنه لو كان هذا نصا قرآنيا لوجدنا كثيرا من المسلمين غير عائشة يحفظونه، وبخاصة أنه مما يطبق حكمه كثيرا. لكن منذ متى كان القرآن يقف عند تفاصيل موضوع صغير كعدد الرضعات التى تحرِّم الزواج؟ لقد نزلت آية سورة "النساء" عن تحريم الاقتران بأخوات الرضاعة، مثلهن مثل أخوات الدم تماما، وهذا كاف جدا، ثم تتكفل السنة بتفصيل القول فيه كما تكفلت بتفصيل الكلام فى بقية من يَحْرُمْنَ من النساء. ويبقى أن الداجن قد أكل الورقة التى تضم هذا النص، وقد سبق أن فندنا القصة كلها. ونرجو من الله ألا نكون قد شططنا أو قلنا خَطَلا من الأمر!

* * *

وهناك أيضا هذا الحديث الذى يرويه ابن عمر أيضا: "عن عبد الله بن عمر: قام رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فذكرِ المسيحَ الدجالَ فقال: إنَّ اللهَ تعالى ليس بأعورَ. ألا إن المسيحَ الدجالَ أعورُ عينِ اليمنى كأن عينَه عنبةٌ طافيةٌ". إن معنى الحديث هو أن لله عينيين صحيحتين على عكس المسيح الدجال، الذى له عين عوراء، وهو ما لا يصح أبدا أن يقال عن الله. وإلا فليقل لى أحد: ما معنى هذا الحديث؟ كما أن بعض الروايات إذا كانت تقول إن الدجال أعور العين اليمنى فبعض الروايات الأخرى تقول إنه أعور العين اليسرى. والروايتان عن صحابى واحد. ولقد أذكر أنى كنت أناقش أحد الأطباء الشبان الملتحين بقريتى منذ نحو أربعين عاما فلفتُّ نظره إلى أن الأحاديث بشأن الدجال متضاربة وأنها تقول مرة إنه أعور العين اليمنى، ومرة إنه أعور العين اليسرى، فما كان منه رحمه الله إلا أن رد فى زهو بأن التوفيق بين الروايتين سهل ميسور. فقلت له دهشا: كيف ذلك؟ قال: نقول إنه أعور العينين الاثنتين معا. فضحكت من هذا البله الطبى قائلا: ليس هناك من هو أعور العينين جميعا، بل هو فى هذه الحالة أعمى لا أعور. واستغربت أن يصدر هذا الكلام التلفيقى من طبيب. وتبقى الرواية القائلة

بأنه ما من رسول من الرسل السابقين إلا حذر أمته الدجال. وهو تحذير غير مفهوم ما دام المسيح الدجال لن يظهر على صفحة الوجود إلا فى آخر الزمان.

* * *

ابن قرناس اسم لكاتب سعودى الأصل فيما يقال، وله عدة مؤلفات عن الإسلام يختلط فيها الحابل بالنابل، وكثير مما ورد فيها أباطيل تدابر المنطق ولا تحترم التاريخ وتقوم على الخيالات والتوهمات والرغبة فى المخالفة لاجل المخالفة وحب الشغب والشذوذ الفكرى. وهو يعد نفسه مفكرا ليس له نظير رغم أنه يقول كلاما مضحكا فى كثير من الأحيان مع امتلاء كتاباته بالأخطاء اللغوية والنحوية، وينكر أحاديث الرسول كلها جميعا عاطلا مع باطل، ويرى أنه لا ينبغى أن نشغل أنفسنا بغير القرآن. ويحتفى به موقع "أهل القرآن" المعادى للسنة احتفاء كبيرا. ويغلب على ظنى أنه واحد ممن تلتقطهم أو توظفهم الجهات المعادية للإسلام وتسهل لهم نشر ما يكتبون على نطاق واسع. وسوف نناقش هنا بعض ما جاء فى كتابه: "الحديث والقرآن". ونبتدئ باستغرابه أن يكتب الله فى كتاب له محفوظ فوق العرش أن رحمته غلبت غضبه ما دام لا يستطيع أحد من خلقه الوصول إلى هذه العبارة. وهو استغراب لا معنى له. فنحن لا نرى الله سبحانه، ومع ذلك فقد جاء الأنبياء يدعوننا للإيمان به، فآمن به المليارات وستظل المليارات تؤمن به فى المستقبل حتى يوم القيامة. وهو أيضا استغراب لا معنى له باعتبار آخر، إذ ها هى ذى تلك العبارة وخبر الكتاب الذى سُجِّلَتْ فيه قد وصلانا من خلال الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم عن رب العزة. فما المشكلة؟ وهو كذلك استغراب لا معنى له باعتبار ثالث، إذ المعنى هو أن رحمة الله هى الغالبة، وفى هذا طمأنة للبشر بأن الله سبحانه كريم رحيم وأنه لا يبحث عن الذنوب ومرتكبيها فى صرامة وقسوة بل يتقبل منهم التوبة ويعفو عن كثير بل كثيرا ما يعفو عن الذنوب جميعا. ثم لا يهم بعد ذلك أكانت هذه العبارة مكتوبة فعلا بالمعنى الذى نفهمه من الكتابة أم كانت مكتوبة بمعنى يختلف عن المعنى الذى نفهمه من الكتابة أم كان المقصود هو مجرد إعلامنا بأن رحمة الله تسبق غضبه دائما. وهكذا يتضح أن ابن قرناس لا يفقه شيئا من النصوص العربية وأن عقله أضيق من ثَقْب الإبرة وأنه قد أدخل نفسه فى مزانق لا يستطيع منها فلفصة لأنه غير أهل لمثل ذلك الدخول.

وهو يقف بعد ذلك إزاء الحديث التالى عن أبى هريرة: "خَرَجَ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فى طائِفَةِ النَّهارِ لا يُكَلِّمُنِى ولا أُكَلِّمُهُ، حتّى أتى سُوقَ بَنِى قَيْنُقاعَ، فَجَلَسَ بفِناءِ بَيْتِ فاطِمَةَ، فَقالَ: أثَمَّ لُكَعُ؟ أثَمَّ لُكَعُ؟ فَحَبَسَتْهُ شيئًا، فَظَنَنْتُ أنَّها تُلْبِسُهُ سِخابًا أوْ تغسلُهُ، فَجاءَ يَشْتَدُّ حتّى عانَقَهُ وقَبَّلَهُ وقالَ: اللَّهُمَّ أحْبِبْهُ وأَحِبَّ مَن يُحِبّهُ"، متسائلا فى دهشة متصنعة: كيف يكون بيت فاطمة عند سوق يهود؟ ولماذا يقول الرسول عليه السلام إن ابنها قد أثم؟ أتراه قد فتح قلبه ليعرف أنه قد أثم؟ ثم يضيف فى دهشة أخرى أن العبارة الخاصة بأن نافع بن جبير قد أوتر بركعة هى عبارة خارج السياق ولا معنى لمجيئها هنا حيث الكلام عن حفيد النبى وسؤاله عنه. وأولا لم أجد الرواية التى فيها عبارة إيتار نافع بركعة، وهو من جهته لم يقل لنا من أين حصل على النص الذى فيه هذه العبارة حتى يتسنى لنا مناقشته بشأنها. وأما استغرابه أن يكون بيت فاطمة قريبا من سوق بنى قينقاع فهو استغراب كنت

حريا أن أفهمه لو كان صاحبه متيقنا من أن بيت فاطمة يستحيل أن يكون هناك. وأنى له ذلك، وهو لم يبحث فى روايات الحديث الأخرى؟ ولو بحث لوجد الأمر أبسط من البساطة. وثالثا من الواضح أنه لا يفهم عبارة بسيطة كقوله عليه السلام: "أَثَمَّ لكع؟"، فقد ظن أن الرسول يحكم على حفيده بأنه ارتكب إثما، وزاد على ذلك بتساؤله المضحك: ترى كيف عرف الرسول بأن حفيده قد أثم، وهو لم يشق قلبه ليطلع على ذلك الإثم؟ وفاته أن الإنسان يستطيع أن يحكم على إنسان آخر بارتكابه الإثم دون أن يشق قلبه. ترى هل نحن محتاجون، إذ رأينا شخصا يشرب الخمر أو يقترف الزنى أو يقتل شخصا آخر دون موجب للقتل، أن نشق قلبه لنعرف أنه قد أثم؟ يا لابن قرناس من جاهل كبير! لكن ما الإثم الذى يمكن أن يجترحه طفلٌ جِدُّ صغيرٍ كحسن لا يحسن المشى؟ ألم يحاول ابن قرناس العبقرى أن يسأل نفسه مثل هذا السؤال قبل أن ينطلق كالثور الهائج فى متحف الزجاج يحطم بأظلافه التحف والمرايا والأوانى الثمينة؟ الواقع أنه، كما قلنا، جاهل كبير، إذ ليس فى الحديث أى كلام أو إشارة إلى الإثم، بل العبارة مجرد سؤال من الجد الكريم عن الحفيد العزيز. والمعنى "أين هو؟ أهو هنا؟" إن كلمة "أثم" ليست كلمة واحدة كما حسبها ذلك اللوذعى بل كلمتين: "الهمزة" و"ثَمَّ" بمعنى "أهو هنا؟". أما عبقرينا القرناسى فقد فهمها بعقله الفريد فى غبائه وتنطعه بصفتها كلمة واحدة هى الفعل الماضى من "الإثم". ولا أدرى كيف سولت له نفسه حشر نفسه فى هذا الموضوع الذى ليس مؤهلا له بأى حال.

وأخيرا ها هى ذى رواية أخرى للحديث يتضح منها موقع بيت فاطمة: "خَرَجْتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى طائِفَةٍ مِنَ النَّهارِ لا يُكَلِّمُنِى وَلا أُكَلِّمُهُ، حتّى جاءَ سُوقَ بَنِى قَيْنُقاعَ، ثُمَّ انْصَرَفَ حتّى أَتى خِباءَ فاطِمَةَ فَقالَ: أَثَمَّ لُكَعُ؟ أَثَمَّ لُكَعُ؟ يَعْنِى حَسَنًا. فَظَنَنّا أَنَّهُ إنَّما تَحْبِسُهُ أُمُّهُ لأَنْ تغسلَهُ وَتُلْبِسَهُ سِخابًا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جاءَ يَسْعى حتّى اعْتَنَقَ كُلٌّ واحِدٍ منهما صاحِبَهُ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: اللَّهُمَّ إنِّى أُحِبُّهُ، فأَحِبَّهُ وَأَحْبِبْ مَن يُحِبُّهُ". لو أن القرناسى بحث لوجد هذه الرواية الثانية التى وجدتها أنا فى الحال. والآن ألسنا نخسر الكثير والكثير إن ضربنا صفحا عن هذا الحديث وأشباهه مما يلقى ضوءا قويا على الجوانب الإنسانية فى حياة النبى ومشاعره نحو أحفاده وعلاقاته بهم فنعرف أن الجانب النبوى فيه عليه السلام لا يطغى على ذلك الجانب البشرى فضلا عن أن يلغيه؟ ثم إن مثل تلك الأحاديث تعلمنا كيف يتصرف النبى عليه السلام مع أحفاده وهو الذى يتلقى الوحى من الله فيظن كثير من الناس أنه يعيش كل لحظة من عمره نبيا رسولا لا يتصرف أبدا تصرف البشر العاديين ولا يخضع لما يخضعون له من عواطف ومشاعر وميول.

ومن تلك الأحاديث "عن عبد الله بن عباس: كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حاملَ الحَسَنِ بنِ عَلِى عَلى عاتِقِهِ. فقال رجُلٌ: نِعْمَ المَرْكَبُ رَكِبْتَ يا غُلامُ. فقال النبِى صلَّى الله عليه وسلَّم: ونِعْمَ الراكِبُ هُو". "عن أبى قتادة بن ربعى أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كانَ يحمِلُ بنتَ أبى العاصِ على عنقِهِ فى الصَّلاةِ، فإذا سجدَ وضعَها، وإذا قامَ حملَها (وفى روايةٍ): وَهوَ يحملُ بِنتَ زينبَ على عنقِهِ، فيؤمُّ النّاسَ: فإذا رَكَعَ وضعَها، وإذا قامَ حملَها". "عن بريدة بن الحصيب الأسلمى: بينا رسولُ اللَّهِ على المنبَرِ يخطبُ إذ أقبلَ الحسنُ والحسينُ عليهِما قميصانِ أحمرانِ يمشيانِ ويعثُرانِ، فنزلَ وحملَها،

فقال: صدقَ اللَّه! إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ. رأيتُ هذينِ يمشيانِ ويعثرانِ فى قميصيْهما فلم أصبر حتّى نزلتُ فحملتُهما".

"عن عبد الرحمن بن عوف: أخذَ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم بيدى، فانَطلقتُ معَهُ إلى ابنِهِ إبراهيمَ وهو يجودُ بنفسِهِ. فأخذَهُ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم فوضعَهُ فى حِجْرِهِ، حتّى خرجَت نفسُهُ، فوَضعَهُ ثمَّ بَكى. فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أتبكى وأنتَ تَنْهَى عنِ البُكاءِ؟ فقالَ: إنِّى لم أَنْهَ عنِ البُكاءِ، ولكنِّى نَهَيْتُ عن صَوتَينِ أحمقَينِ فاجِرينِ: صَوتٍ عندَ نَغمةِ لَهْوٍ ولعبٍ ومَزاميرِ شيطانٍ، وصَوتٍ عند مصيبةٍ: لطمِ وجوهٍ، وشقِّ جيوبٍ، وَهَذا رحمةٌ، مَن لا يَرْحَم لا يُرْحَم. يا إبراهيمُ، لولا أنَّهُ وعدٌ صادقٌ وقولٌ حقٌّ وأنَّ آخِرَنا سيلحقُ أوَّلَنا لَحَزنّا عليكَ حُزنًا هوَ أشدُّ مِن هذا، وإنّا بِكَ لَمحزونونَ. تَبكى العَينُ، ويحزَنُ القلبُ، ولا نَقولُ ما يُسخِطُ الرَّبَّ". "عن جابر بن عبد الله: انكسَفتِ الشَّمسُ على عَهْدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وذلِكَ يومَ ماتَ ابنُهُ إبراهيمُ ابنُ رسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فصلَّى بالنّاسِ ستَّ رَكَعاتٍ فى أربعِ سجداتٍ، كبَّرَ، ثمَّ قرأَ فأطالَ القراءةَ، ثمَّ رَكَعَ نحوًا ممّا قامَ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ، فقرأَ دونَ القراءةِ الأولى، ثمَّ رَكَعَ نحوًا ممّا قرأَ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ، فقرأَ دونَ القراءةِ الثّانيةِ، ثمَّ رَكَعَ نحوًا ممّا قرأَ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ، ثمَّ انحدرَ فسجدَ سجدتَينِ، ثمَّ قامَ فصلّى ثلاثَ رَكَعاتٍ قبلَ أن يسجدَ ليسَ فيها رَكْعةٌ إلّا الَّتى قبلَها أطولُ منَ الَّتى بعدَها، إلّا أنَّ ركوعَهُ نحوًا من قيامِهِ، ثمَّ تأخَّرَ فى صلاتِهِ فتأخَّرتِ الصُّفوفُ معَهُ، ثمَّ تقدَّمَ فتقدَّمتِ الصُّفوفُ معَهُ، فقَضى الصَّلاةَ وقد أضاءَتِ الشَّمسُ، ثمَّ قالَ: أيُّها النّاسُ، إنَّما الشَّمسُ والقمرُ آيتانِ من آياتِ اللَّهِ، وإنَّهما لا ينكسِفانِ لِمَوتِ بشرٍ، فإذا رأيتُمْ شيئًا من ذلِكِ، فصلُّوا حتّى تَنجلى". "عن أبى هريرة: أخذَ الحَسَنُ بنُ على رضى اللَّهُ عنهما تمرةً من تَمرِ الصَّدقةِ، فأدخلَها فى فيهِ، فقالَ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم: كِخْ كِخْ! أَلقِها أَلقِها، أما علِمتَ أنّا لا نأكُلُ الصَّدقةَ؟".

إن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا ما أهملنا أحاديثه تحول شبحا غامضا لا نعرف عن حياته ولا شخصيته شيئا ولا نستطيع أن ندرك كيف كان يتصرف فى هذا الموقف أو ذاك. لقد صار شبحا أثيريا لا وجود له فى حياتنا ولا فى عقولنا ولا فى سلوكنا؟ وفى هذه الحالة أنتركه ونتأسى بمن هم مثلنا ممن لا علاقة لهم بالنبوة أو الرسالة؟ ألا إن ذلك لغريب. والمنطقى أننا إذا لم نهتم بالأحاديث التى تتتبع حياته وتصف تصرفاته وترسم لنا شخصيته وترينا التفاصيل التى يتجسد من خلالها عليه السلام ويصير إنسانا يتكلم ويسمع ويبصر، ونسمعه ونبصره، ويفرح ويتألم ويواجه الشدائد والنعم أفليس إهمال حياة غيره واللامبالاة بتصرفاتهم وأقوالهم وأفعالهم أحرى وأخلق؟ فكيف تكون الحياة يا ترى بدون أن نعرف شيئا عن الأنبياء والعظماء والعلماء والرواد والمخترعين والمبرّزين والمتفوقين؟ وفى هذه الحالة لن يكون هناك أى معنى ولا حكمة فى محاولتنا معرفة تفاصيل حيوات الناس العاديين بطبيعة الحال، وعندئذ تتحول الحياة كلها إلى فراغ موحش قاتل يسودها الصمت والعتمة. فأية حياة هذه؟

وبعيدا عن دور السنة فى التشريع والتأسى برسول الله وما إلى ذلك فإن الأغبياء الذين يدعون إلى إهمال السنة النبوية يتجاهلون الطبيعة البشرية فى حبها لأدب التراجم: الشخصية منها والغيرية؟ إن

كل الآداب تمتلئ بكتب التراجم، وهى تؤدى دروا عظيما فى ثقافة البشر وأخلاقهم. أفيكتب على المسلمين وحدهم أن يُحْرَموا معرفة سيرة رسولهم الكريم؟ فلماذا بالله؟

ويورد ابن قرناس نصا آخر راويته عائشة يقول حرفيا: إن "بعض أزواج النبى صلَّى الله عليه وسلَّم قلن للنبى صلَّى الله عليه وسلَّم: أينا أسرع لحوقا بك؟ قال: أطولكن يدا. فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يدا. فعلمنا بعد أنها كانت طول يدها الصدقة. وكانت أسرعنا لحوقا به، وكانت تحب الصدقة"، ثم يعلق عليه قائلا: "من اختلق الحديث يقول بأن الصدقة تطيل اليد فعليا وأن أم المؤمنين سودة كانت أطول نساء الرسول يدا لأنها أكثرهن صدقة. ومن صدَّق بهذا الكلام فلا عقل له. والصدقة يقبلها الله سبحانه: "ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة عن عباده ويقبل الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم" (التوبة/ ١٠٤). وهى قرض حسن لله يجزيها يوم القيامة ولا جزاء لها فى الدنيا. "من ذا الذى يقرض اللهَ قرضا حسنا فيضاعفها له وله أجرٌ كريمٌ" (الحديد/ ١١). ولكنها لا تجعل ذراع الإنسان تطول".

والحق أن ما أخذه ابن قرناس على الحديث لا قيمة له، إذ لم يقل الحديث إن طول اليد جسديا هو المقصود بل طول اليد المعنوى، وهو كثرة التصدق على الفقراء والمساكين. أى أن قياس أمهات المؤمنين أذرعهن ماديا ليس هو الأسلوب الصحيح. ولهذا علمن بعد لحوق سودة بنت زمعة رضى الله عنها قبلهن جميعا بالرسول عليه السلام أن المراد طول اليد بالصدقة والكرم والعطف على المحتاجين. وهذه رواية أخرى توضح ما نقول توضيحا. فعن عائشة رضى الله عنها: "قال النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم لأزواجِه: يَتْبَعُنى أطوَلُكنَّ يَدًا. فكنّا إذا اجتمَعْنا بعدَه نَمُدُّ أيدِيَنا فى الجِدارِ نتطاوَلُ، فلمْ نَزَلْ نَفعَلُه حتى تُوُفِّيَتْ زَينَبُ، وكانتِ امرأةً قَصيرةً. لم تَكُنْ رحِمَها اللهُ أطوَلَنا. فعَرَفْنا أنَّما أرادَ الصَّدقةَ، وكانتْ صَناعَ اليَدِ، فكانتْ تَدبِغُ وتَخرُزُ وتَصَدَّقُ". ثم هذه رواية ثالثة عن نفس الموضوع: "عن أبى برزة الأسلمى نضلة بن عبيد: كانَ للنَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم تِسعُ نسوةٍ، فقالَ يومًا: خيرُكُنَّ أطولُكنَّ يدًا. فكانت كلُّ واحدةٍ تضعُ يدَها على الجدارِ، فقالَ: لستُ أعنى ذلك، ولكن أصنعُكنَّ يَدَيْنِ". وأنا طول عمرى أفهم الحديث على هذا المعنى، وفى ذهنى ما نلحظه من تباين فهم الناس للنص ما بين الفهم الظاهرى والفهم المعنوى. وهذا يرينا أن ابن قرقاس جعجاع كبير.

ومن بين الأحاديث التى استنكرها أيضا ابن قرناس الحديث التالى: "ما يزالُ الرَّجلُ يسألُ النّاسَ حتّى يأتى يومَ القيامةِ وليس فى وجْهِهِ مزعةُ لحمٍ. وقالَ إنَّ الشَّمسَ تدنو حتّى يبلغَ العرقُ نصفَ الأذنِ، فبينما هم كذلِك استغاثوا بآدمَ عليهِ السلامُ، فيقولُ: لستُ بصاحبِ ذلِك، ثمَّ بموسى فيقولُ كذلِك، ثمَّ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيشفعُ ليقضى بينَ الخلقِ فيمشى حتّى يأخذَ بحلقةِ الجنَّةِ، فيومئذٍ يبعثُه اللَّهُ مقامًا محمودًا يحمدُه أَهلُ الجمعِ كلُّهم". فهو يستنكر مثلا اشتمال الحديث على ثلاثة موضوعات. ولست أعرف وجها لهذا الاستنكار. لقد ذكر الراوى بعض ما سمعه من الرسول عليه السلام، لكنه لم يقل إنه عليه السلام قال ذلك كله فى مجلس واحد. وحتى لو قاله عليه السلام فى مجلس واحد فما وجه الاستنكار؟ إنه لمن المحتمل جدا أن يكون قد تحدث عن السائل الملحف أولا ثم استفاض الكلام

وانتقل إلى هذا وذاك من الأمور. كذلك ذكر ابن قرناس أنه لم يحط علما بالمقصود بـ"المسألة". وأنا بدورى أستغرب كيف يجهل فلحاس كابن قرناس معنى "المسألة" فى الحديث. إن المراد بها مد الشحاذ يده لهذا وذاك يطلب صدقة دون أن يكون لها أهلا لأنه قوى قادر بمكنته أن يعمل ويَكْسِب ويُعِفّ نفسه ويحفظ كرامته ويعيش بين الناس مرفوع الهامة. ترى هل يحق لمن كان بهذا الجهل المخزى أن يتطاول لإنكار الأحاديث النبوية؟

ترى ألم يمر عليه الحديث التالى، وهو يجرى نفس المجرى، وإن كان أكثر تفصيلا وأشد حيوية وفيه اللمسة الشخصية: "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: أَمَا فِى بَيْتِكَ شَىء؟ قَالَ: بَلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: ائْتِنِى بِهِمَا. قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بِيَدِهِ وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِى هَذَيْنِ؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ: مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِى وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِى بِهِ. فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا. فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيء الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِى وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِى فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِى غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِى دَمٍ مُوجِعٍ".

ومما يأخذه ابن قرناس كذلك على الحديث أن الرسول يتحدث فيه عن الغيب فى العالم الآخر حيث تكون أوضاع الكون آنذاك مختلفة عنها هنا وأنه قد ذكر تمزع وجه السائل قبل الحساب، والمفروض أن الحساب يقع أولا ثم يأتى العقاب بعد ذلك. وأما أن الرسول قد تعرض لشىء فى العالم الآخر فمن عند الله لا من عند نفسه. وهذا مثل ما نقرؤه فى القرآن عن ذلك العالم بحشره وحسابه وثوابه وعقابه وجنته وناره وما إلى ذلك. وبالنسبة لتغير قوانين الكون فالمعروف أن الكلام عن يوم القيامة هو كلام على المجاز لتقريب أوضاعه من العقل البشرى ليس إلا. وأما اعتراضه بأن الحديث يذكر عقاب الشحاذ الملحاح قبل محاسبته فمن أين لابن قرناس ذلك؟ إن الحديث يذكر ما سوف يحدث له فى العالم الآخر، ولكنه لم يحدد أن عقابه سيكون قبل الحساب. وهذا إن كانت عبارة "وليس فى وجهه مزعة لحم" تعنى العقاب. إننى أفهمها على أنها تعبير مجازى عن الخجل العنيف والشعور بالخزى والعار جراء نزوله فى الدنيا إلى موقف المذلة والسؤال دون وجه حق وتحوله قُرَادَةً تمتص دماء البشر بدلا من أن يكون عضوا فى المجتمع نافعا يعمل وينتج ويحتفظ بكرامته. ولم يقل أحد إن قولنا تعبيرا عن الابتهاج الشديد: "لقد طرت من الفرح" أو عن الرعب فى بعض المواقف: "لقد أخذت ذيلى فى أسنانى وقلت: يا فكيك" أو "لقد سقط قلبى فى رجلى" أو عن نظر الحبيب إلى حبيبته فى هيام: "سوف يلتهمها بعينيه" أو عن الغضب العنيف: "إن الشرر يتطاير من عينى فلان"... إلخ مقصود به التعبير الحرفى، وإلا كان فى عقله خلل. ومن هذا يتبين لنا أن ابن قرناس ضيق العطن قليل الفهم سطحى العلم، ومن

كان بهذه الصفات لا يصح له أبدا التطاول إلى ما هو أعلى عنه من الموضوعات، وعليه أن يلزم غرزه ويعرف حجمه ولا يجاوز حدوده.

إذن فابن قرناس ضعيف الفهم بل عديمه ويتوهم أشياء فى النص لا وجود لها، وبدلا من أن يلزم حده نراه ينطلق مستعرضا ضيق أفقه وقلة فقهه. ولنأخذ الحديث التالى أيضا مثالا على هذا الذى نقوله عنه: "عن عروة بن الزبير: لَمّا سَقَطَ عليهِمُ الحائِطُ فى زَمانِ الوَلِيدِ بنِ عبدِ المَلِكِ أخَذُوا فى بنائِهِ، فَبَدَتْ لهمْ قَدَمٌ، فَفَزِعُوا وظَنُّوا أنَّها قَدَمُ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فَما وجَدُوا أحَدًا يَعْلَمُ ذلكَ حتّى قالَ لهمْ عُرْوَةُ: لا واللَّه ما هى قَدَم النبى صلَّى الله عليه وسلَّم. ما هى إلّا قَدَمُ عُمَرَ رَضِى اللَّهُ عنْه". وتعليقا على هذا يكتب ابن قرناس ما يلى: "والتاريخ لا يتحدث عن هذه الحادثة التى يحدثنا بها البخارى والتى تشير إلى أن الرسول وعمر دفنا فى عُرْض الحائط وليس فى لحد تحت الأرض".

وسؤالنا الآن: من أين لابن قرناس أن النبى وصاحبه الجليل قد دفنا فى عُرْض الحائط؟ ما أفهمه من الحديث هو أنهم حين بَنَوُا الجدار حفروا له لكى تكون بعض مداميكه تحت الأرض وإلا سقط لأقل هزة، وحين حفروا الأرض لذلك الغرض بانت قدم... إلخ. فبالله ما وجه المشكلة هنا؟ إن الرجل يتخيل خيالات لا تدور فى عقل سليم، وإلا فكيف خطر له أن الراوى يقصد ظهور القدم من الجدار؟ ترى هل كان العرب يدفنون موتاهم فى جدران البيوت؟ عشنا وشفنا العجب!

ومن الناحية التاريخية لقد تحدث المقريزى مثلا فى كتابه: "إمتاع الأسماع" عن هذه الحادثة. وروى "أبو بكر الآجرى من طريق شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة قال: "أخبرنى أبى قال: كان الناس يصلّون إلى القبر، فأمر به عمر بن عبد العزيز، فرفع حتى لا يصلى إليه أحد، فلما هدم بدت قدم بساق وركبة، ففزع عمر بن عبد العزيز، فأتاه عروة فقال: هذا ساق عمر وركبته. فسُرِّى عن عمر بن عبد العزيز. وروى الآجرى من طريق مالك بن مغول عن رجاء بن حيوة قال: كتب الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز، وكان قد اشترى حُجَر أزواج النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، أنِ اهْدِمْها ووَسِّعْ بها المسجد. فقعد عمر فى ناحية ثم أمر بهدمها، فما رأيت باكيا أكثر من يومئذ. ثم بناه كما أراد. فلما أن بنى البيت على القبر وهدم البيت الأول ظهرت القبور الثلاثة وكان الرمل الذى عليها قد انهار، ففزع عمر بن عبد العزيز وأراد أن يقوم فيسويها بنفسه، فقلت له: "أصلحك الله! إنك إن قمت قام الناس معك، فلو أمرت رجلا أن يصلحها"، ورجوت أنه يأمرنى بذلك، فقال: يا مزاحم (يعنى مولاه)، قم فأصلحها". وفى "الدرة الثمينة فى أخبار المدينة" لابن النجار: "سقط جدار الحجرة مما يلى موضع الجنائز فى زمان عمر رضى الله تعالى عنه، فظهرت القبور، فما رؤى باكيا أكثر من يومئذ، فأمر عمر بقباطى يستر بها الموضع، وأمر ابن وردان أن يكشف عن الأساس. فلما بدت القدمان قام عمر فزعا، فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهم، وكان حاضرا: أيها الأمير، لا تفزع، فهما قدما جدك عمر. ضاق البيت عنه، فَحُفِر له فى الأساس. فقال له عمر: يا ابن وردان، غَطِّ ما رأيت. ففعل". وأورد هذه الحادثة السمهودى فى الجزء الثانى من كتابه: "وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى": "وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن غير واحد منهم إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز

الزهرى عن أبيه قال: جاف بيت النبى صلّى الله عليه و سلّم من شرقيّه، فجاء عمر بن عبد العزيز و معه عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، فأمر ابن وردان أن يكشف عن الأساس، فبينا هو يكشفه إلى أن رفع يده وتنحّى واجما، فقام عمر بن عبد العزيز فزعا، فقال عبد الله ابن عبيد الله: أيها الأمير، لا يروعنّك. فتانك قدما جدك عمر بن الخطاب. ضاق البيت عنه، فَحُفِر له فى الأساس. فقال: يا ابن وردان، غطّ ما رأيت. ففعل"... وفى هذا كفاية فى الرد على ما زعمه ابن قرناس من أن المؤرخين سكتوا عن هذه الحادثة.

وهذا حديث آخر يرفضه ابن قرناس: "عن أبى هريرة أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: مَن أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فى سَبيلِ اللَّهِ نُودِى مِن أَبْوابِ الجَنَّةِ: يا عَبْدَ اللَّهِ، هذا خَيْرٌ. فَمَن كانَ مِن أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِى مِن بابِ الصَّلاةِ، ومَن كانَ مِن أَهْلِ الجِهادِ دُعِى مِن بابِ الجِهادِ، ومَن كانَ مِن أَهْلِ الصِّيامِ دُعِى مِن بابِ الرَّيّانِ، ومَن كانَ مِن أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِى مِن بابِ الصَّدَقَةِ. فَقالَ أبو بَكْرٍ رَضِى اللَّهُ عنْه: بأَبِى أَنْتَ وأُمِّى يا رَسولَ اللَّهِ ما على مَن دُعِى مِن تِلكَ الأبْوابِ مِن ضَرُورَةٍ، فَهلْ يُدْعى أَحَدٌ مِن تِلكَ الأبْوابِ كُلِّها؟ قالَ: نَعَمْ، وأَرْجُو أَنْ تَكُونَ منهمْ". وسر رفض ابن قرناس لهذا الحديث هو "كيف يدخل المصلى الصائم المتصدق المجاهد؟ إن الإنسان إذا دخل من أحد هذه الأبواب باعتبار فلن يخرج ليدخل من باب آخر باعتبار آخر إذ النتيجة واحدة، وهى دخول الجنة، ودخولها يكفى فيه انفتاح باب واحد لمستحقها. ثم إن الجنة ليست لها أبواب لأنها ليست بناء محصنا بل لها مسارات سماها القرآن: أبوابا. يقصد قوله سبحانه: "وفُتِحت السماء فكانت أبوابا".

وكلامه الأخير مضطرب، فهو ينكر أن تكون للجنة أبواب ليعود فيقول إن لها مسارات سماها القرآن: أبوابا. وواضح أنه لا يعرف أن فى اللغات شيئا اسمه المجاز. والعبد لله يفهم أمر المسلم الذى يدخل من أبواب الجنة كلها أن استحقاقه لهذا الدخول هو استحقاق قوى أكيد، وثوابه عظيم، ودرجته عالية. وقد رأينا ابن قرناس يحاجّنا بأن العالم الآخر يختلف عن العالم الحالى. وعلى هذا نقول إن كلام الرسول هو للتقريب، وإن المسلم الملتزم بأوامر الإسلام ونواهيه كلها سوف يتم تكريمه بنداء اسمه من جميع أبواب الجنة. ولا أظن أن الإمساك بالمسطرة لقياس كل كلمة بهذه الطريقة يصلح لشىء. إن طريقة تفصيص الشعرة هذه تفسد اللغة أيما إفساد. وبطريقة ابن قرناس نستطيع أن نسأله: ما علاقة انفتاح السماء وصيرورتها أبوابا بأبواب الجنة؟ وهل السماء بناء محصن تنفتح فيه أبواب؟ والعجيب أن ابن قرناس المباهى بعلمه لا يحسن الكتابة بالعربية، فمن ذلك قوله هنا: "الحديث الأول يقول بأن للصائم باب يدخل منه الجنة... وأن للمصلى باب، وللمجاهد باب"، وكان ينبغى أن ينصب "باب" بوصفه اسم "أنَّ" متأخرا. كما نراه يكتب "ويبدوا أن القاص فطن..." بوضع ألف بعد "يبدو" رغم أن الواو هى لام الفعل وليست واو الجماعة حسبما ظن، إذ الفاعل مفرد مذكر وليس جماعة من الذكور العقلاء. والكتاب مملوء بمثل هذه الأخطاء النحوية والصرفية والإملائية.

ويقف ابن قرناس أيضا إزاء الحديث التالى: "عن النعمان بن بشير: أُغْمِى على عبدِ اللَّهِ بنِ رَواحَةَ، فَجَعَلَتْ أُخْتُهُ عَمْرَةُ تَبْكِى: "وا جَبَلاه! وا كَذا! وا كَذا!" تُعَدِّدُ عليه، فَقالَ حِينَ أفاقَ: ما قُلْتِ

شيئًا إِلّا قيلَ لِى: آنْتَ كَذلكَ؟" قائلا إن ابن رواحة قد استشهد فى مؤتة، ولم تكن أخته معه، فكيف عددتْ مناقبه كما يقول الخبر؟ وهذا السؤال نواجهه بسؤال آخر يقضى عليه ويجعله بلا أية قيمة، وهو: هل قال الخبر إن ابن رواحة قد مات، ومات شهيدا فى مؤتة؟ إن كل ما قيل هو أنه أغمى عليه وإنه قد أفاق.

وهو يعترض على الحديث التالى: "عن أبى هريرة أنَّ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم كانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ، وعِنْدَهُ رَجُلٌ مِن أهْلِ البادِيَةِ، أنَّ رَجُلًا مِن أهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فى الزَّرْعِ، فَقالَ له: ألَسْتَ فِيما شِئْتَ؟ قالَ: بَلى، ولكِنِّى أُحِبُّ أنْ أزْرَعَ. قالَ: فَبَذَرَ، فَبادَرَ الطَّرْفَ نَباتُهُ واسْتِواؤُهُ واسْتِحْصادُهُ، فَكانَ أمْثالَ الجِبالِ، فيَقولُ اللَّهُ: دُونَكَ يا ابْنَ آدَمَ، فإنَّه لا يُشْبِعُكَ شىء! فَقالَ الأعْرابِى: واللَّهِ لا تَجِدُهُ إلّا قُرَشِيًّا أوْ أنْصارِيًّا، فإنَّهُمْ أصْحابُ زَرْعٍ، وأَمّا نَحْنُ فَلَسْنا بأَصْحابِ زَرْعٍ. فَضَحِكَ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم"، ومستنده فى الاعتراض هو أن الجنة ليس فيها زراعة أصلا، وأن القرشيين ليسوا بأصحاب زرع، وأن أهل الجنة يرزقون فيها بغير حساب دون أن يتعبوا فى شىء. لكن من قال إن الرجل، حين استأذن ربه فى الزرع، كان يتصور أنه سوف يتعب فى ممارسته؟ إنه يشعر بالبهجة حين يزرع ويتأمل زرعه ويحصده، فهو يريد ألا يحرم هذه البهجة حتى ولا فى الجنة. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإنى أتمنى أن أتمكن فى الجنة من رؤيتى فى كل أطوار حياتى كما عشتها فى الدنيا بما فى ذلك لعب الكرة فى الجرن والسوق، ونزهاتى الخلوية بين حقول قريتى وغدرانها، وجدتى التى ربتنى وكانت تأخذنى فى حضنها وأنا ولد صغير يتيم وتغطينى بمَلَسها فى الشتاء حتى لا أبرد، وتعطينى نصيبها من الطعام فى كثير من الأحيان.

وأما أن القرشيين لم يكونوا يزرعون لأن منطقة مكة منطقة مجدبة فقد كان للقرشيين بساتين وحقول فى الطائف وفى المناطق القريبة من مدينتهم كما هو معروف. ولو لم يكونوا يعرفون الزراعة والبستنة ما كان لنزول الآيات التالية فى المرحلة المكية أى معنى: "وأنزلنا من المُعْصِرات ماء ثجَّاجا * لنُخْرِجِ به حبا ونباتا * وجناتٍ ألفافا" (النبأ)، "وفى الأرض قِطَعٌ متجاورات وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغير صنوانٍ يُسْقَى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأُكُل. إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون" (الرعد)، "وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء، فأخرجنا منه خَضِرًا نخرج منه حبا متراكبا. ومن النخل من طَلْعِها قنوانٌ دانيةٌ وجناتٌ من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه. انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه. إن فى ذلكم لَآياتٍ لقوم يؤمنون" (الأنعام)، "وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والزرع والنخل مختلفا أُكُلَه والزيتونَ والرمانَ متشابها وغير متشابه. كلوا من ثمره إذا أثمر وآتُوا حقَّه يوم حَصَاده" (الأنعام)، "وهو الذى يرسل الرياح بُشْرًا بين يَدَىْ رحمته حتى إذا أَقَلَّتْ سحابا ثِقَالا سقناه لبلدٍ ميتٍ فأنزلنا به الماءَ فأخرجنا به من كل الثمرات. كذلك نُخْرِج الموتى لعلكم تَذَكَّرون* والبلد الطيب يَخْرُج نباتُه بإذن ربه، والذى خَبُثَ لا يَخرُج إلا نَكِدًا. كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون" (الأعراف). وهذا قبل الهجرة، أما بعدها فقد صار كثير من القرشيين فى المدينة زُرَّاعًا وقُلَّاعًا كالأنصار. فما المشكلة؟

وبالنسبة لبقية الاعتراضات أحب أن أقول إننى طول عمرى أقرأ هذا الحديث وأشباهه على اعتبار أنه يبرز جانبا من جوانب الشخصية الإنسانية، وهو أن من اعتاد على شىء قاس كل شىء آخر عليه. وكما أن فى الدنيا زراعة وغرسا وثمرا وجنيا وقلعا فكذلك الأمر فى الجنة. كما أن النهم البشرى فى الدنيا لا يشبعه ولا يرويه شىء، وكلما حصل الإنسان على شىء تطلع إلى ما وراءه وفوقه. فهذا الحديث يمثل هذين الجانبين فى الطبيعة البشرية بطريقة لا تخلو من شىء من الفكاهة. وفى القصة شىء آخر بديع، وهو أنه لا توجد سواتر ولا حواجز بين الله وعباده بل حوار لطيف وأخذٌ وردٌّ حر طليق كما يكون بين الأصدقاء والمتحابين.

هذا، وموقفى معروف مما يقوله بعض القاديانيين، حسبما جاء فى هامش آيات سورة "يس" التالية من ترجمة القرآن الإنجليزية التفسيرية التى حررها ملك غلام فريد، من أنه سوف يكون هناك عمل وتعب ومجاهدة فى الجنة من أجل الارتقاء الروحى، وأن الحياة هناك ليست حياة سكون. وهذا هو تفسيرهم لقوله تعالى فى سورة "يس": "إن أصحابَ الجنة اليوم فى شُغُلٍ فاكهون" غافلين أن "الشغل" هنا ليس هو العمل وما يقتضيه من التعب والإرهاق بل الانشغال عما يكابده أصحاب النار من العذاب والآلام. وبقية الآيات تقول هذا بصريح العبارة: "إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون * هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يَدَّعُون * سلامٌ قولًا من رب رحيم * وامتازوا اليوم أيها المجرمون". كأن القاديانيين لا يكفيهم ما يقاسيه البشر فى الدنيا من وجع دماغ ومعاناة جسدية ونفسية وصراعات وحروب وأمراض ومخاوف وتوجسات وقلق وشكوك... ولعل القصة التالية تدخل فى هذا الباب، فقد حكيت لطلابى ذات مرة منذ عقود أننى كلما أردت أن أشجع ابنى الصغير على عمل شىء طيب قلت له: إذا فعلت ذلك فإن الله سوف يعطيك فى الجنة شيكولاتة. فما كان من طلابى إلا أن هاجوا منكرين أن تكون فى الجنة شيكولاتة. وأتصور أنهم ظنوا أن الشيكولاتة هى طعام أطفال الغربيين حصريا، وهؤلاء لا موضع لهم فى الجنة.

وبنفس المنوال الذى فهمت به الحديث الفائت أفهم الحديث التالى: "إذا فرَغَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِن القَضاءِ بيْنَ العِبادِ، وأرادَ أنْ يُخرِجَ برَحْمَتِه مَن أرادَ مِن أَهلِ النَّارِ أمَرَ الملائكةَ أنْ يخرِجوا مِن النَّارِ مَن كان لا يُشرِكُ باللهِ شيئًا، ممَّن أرادَ اللهُ أنْ يَرحَمَه، ممَّن يَقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فيَعرِفونَهم فى النَّارِ، يَعرِفونَهم بأَثَرِ السُّجودِ، تَأكُلُ النَّارُ ابنَ آدَمَ إلَّا أَثَرَ السُّجودِ، وحرَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ على النَّارِ أنْ تأكُلَ أَثَرَ السُّجودِ، فيَخرُجون مِن النَّارِ قد امتُحِشوا فيُصَبُّ عليهم ماءُ الحياةِ، فيَنبُتون كما تَنبُتُ الحِبَّةُ... فى حَمِيلِ السَّيلِ. ويَبقى رَجُلٌ مُقبِلٌ بوَجهِه على النَّارِ، وهو آخِرُ أَهلِ الجنَّةِ دُخولًا، فيَقولُ: أَى رَبِّ، اصرِفْ وَجهى عن النَّارِ، فإنَّه قد قشَبَنى رِيحُها، وأحرَقَنى دُخَانُها. فيَدعو اللهَ ما شاءَ أنْ يَدعُوَه، ثم يَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: هل عسَيْتَ إنْ فُعِلَ ذلك بك أنْ تَسأَلَ غَيرَه؟ فيَقولُ: لا وعِزَّتِك لا أَسأَلُ غَيرَه. ويُعطى رَبَّه عزَّ وجلَّ مِن عُهودٍ ومَواثيقَ ما شاءَ، فيَصرِفُ اللهُ عزَّ وجلَّ وَجهَه عن النَّارِ، فإذا أقبَلَ على الجنَّةِ ورآها سكَتَ ما شاء اللهُ أنْ يَسكُتَ، ثم يَقولُ: أَى رَبِّ، قَرِّبْنى إلى بابِ الجنَّةِ. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ له: ألستَ قد أعطَيْتَ عُهودَكَ ومَواثيقَك ألَّا تَسأَلَنى غَيرَ ما أعطَيتُكَ؟ وَيْلَكَ يا ابنَ آدَمَ! ما أَغدَرَكَ!

فيَقولُ: أَى رَبِّ. فيَدعو اللهَ حتى يَقولَ له: فهل عسَيْتَ إنْ أُعطيتَ ذلك أنْ تَسأَلَ غَيرَه؟ فيَقولُ: لا وَعِزَّتِكَ لا أَسأَلُ غَيرَه. فيُعطى رَبَّه عزَّ وجلَّ ما شاء مِن عُهودٍ ومَواثيقَ، فيُقَدِّمُه إلى بابِ الجنَّةِ، فإذا قام على باب الجنَّةِ انفهَقَتْ له الجنَّةُ، فرأى ما فيها مِن الحِبَرَةِ والسُّرورِ، فيَسكُتُ ما شاء اللهُ أنْ يَسكُتَ، ثم يَقولُ: أَى رَبِّ، أَدخِلْنى الجنَّةَ. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ له: أليس قد أعطَيْتَ عُهودَك ومَواثيقَك أَلَّا تَسأَلَنى غَيرَ ما أعطَيتُكَ؟ وَيْلَك يا ابنَ آدَمَ! ما أَغدَرَك! فيَقولُ: أَى رَبِّ، لا أَكُونُ أَشْقَى خَلقِكَ. فلا يَزالُ يدعو اللهَ حتى يَضحَكَ اللهُ منه، فإذا ضَحِكَ اللهُ عزَّ وجلَّ منه قال: ادْخُلِ الجنَّةَ. فإذا دخَلَها قال اللهُ عزَّ وجلَّ له: تَمَنَّهْ. فيَسأَلُ رَبَّه عزَّ وجلَّ ويَتَمَنَّى حتى إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليُذَكِّرُه يَقولُ: "مِنْ كذا وكذا"، حتى إذا انقطَعَتْ به الأَمانِى قال اللهُ عزَّ وجلَّ له: لك ذلك ومِثلُه معه. قال عطاءُ بنُ يَزيدَ: وأبو سَعيدٍ الخُدرِى مع أبى هُريرةَ، لا يَرُدُّ عليه مِن حَديثِه شَيئًا، حتى إذا حدَّثَ أبو هُريرةَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال لذلك الرَّجُلِ: "ومِثْلُه معه" قال أبو سعيدٍ: وعَشَرةُ أَمثالِه معه يا أبا هُريرةَ. قال أبو هُريرةَ: ما حفِظْتُ إلَّا قَولَه: ذلك لك ومِثلُه معه. قال أبو سعيدٍ: أَشهَدُ أنِّى حفِظْتُ مِن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قَولَه فى ذلك الرَّجُلِ: لك عَشَرةُ أَمثالِه. قال أبو هُريرةَ: وذلك الرَّجُلُ آخِرُ أَهلِ الجنَّةِ دُخولًا".

وأنا، فى قراءة هذا الحديث البديع الذى ليس له مثيل فى أى دين نعرفه أو قرأنا عنه، لا أقف أمام التفصيلات التى يبرع ابن قرناس ومن لف لفه فى اتخاذها مستنَدا للاعتراضات والجدالات والمناكفات، بل أنظر إلى ما يريد أن يرسخه فى وجداننا من أن الله رحيم كريم وأن العباد، برحمته تعالى وكرمه، سوف يدخلون الجنة فى نهاية المطاف. ولا أستطيع مهما فعلت أو فعل أحد غيرى كى يلفت أنظارنا بعيدا عن مغزى الحديث العظيم أن أغفل عن هذا الحوار الحى بين الله وعبده وتصوير ما يبرع فيه البشر المقصرون من اللف والدوران والكيفية التى انتهجها العبد فى الوصول إلى ما يتطلع إليه والحصول عليه والفوز فى النهاية بكل ما يريد وعشرة أضعافه معه.

ولننظر إلى المواجهة المباشرة بين العبد وربه وحرية العبد فى الحديث مع خالقه دون خوف أو تردد أو تلعثم. وهو ما يذكرنى بعنوان كتاب "يسقط الحائط الرابع"، إذ قد سقطت فى الحديث كل الحواجز بين الله وعبده فى ذلك الحوار البديع، وهو ما يَسِم العلاقة بين الله وعباده، وإن كنا نحن البشر عادة ما نغفل عن ذلك متصورين أن الله يتربص بنا دائما وينتظر أقل هفوة حتى يطيّر رقابنا عن أكتافنا فى لمحة بصر ناسين أنه خالقنا وخالق ضعفنا وأنه يغفر الذنوب جميعا...

والحق أننى كلما قرأت هذا الحديث سال فى قلبى حنان وحنين وشعرت بأن الله موجود تجاهى وقريب جدا منى. وقد شجعنى ذلك الحديث وما يدور مداره من أحاديث على فتح قلبى بين يدى ربى وأروح فى نوبة من الفضفضة أكلمه كما أكلم أخلص أصدقائى لا أوارى ولا أدارى ولا أتجاهل شيئا بل أتحدث عن مشاعرى العميقة وأخطائى القديمة والجديدة بعفوية تامة. أوليس يقول لنا الحديث إن الله ذاته يضحك من عبده هذا المحاور المداور؟ كل ذلك وأنا أعلم أنه سبحانه لا حاجة به لشىء مما أقول، فهو أعلم بى من نفسى، ولكنه حب التخلص مما يؤود النفس، والرغبة الجارفة فى الاستئناس به

وبالنجوى معه سبحانه وتعالى. ولعل بعضهم يقول إن الله قد وصف ابن آدم بالغدر وتوعده قائلا له: ويلك! لكنى لا أنظر للأمر بهذا المنظار بل أنظر إلى تلك العبارة كما أنظر إليها حين تصدر من أب لا يحب أن يعاقب ابنه المخطئ الطامع فى عفوه والإغضاء عن تقصيره، فيقول لابنه مثلا: يا لك من ولد مكار! أتظن أنك يمكنك خداعى والضحك علىَّ؟ أما ابن قرناس فسبيله فى الفهم والتوجيه، ومن ثم فى الاعتراض والإنكار، سبيل آخر هو سبيل ا لتنمر والتربص بغير وجه حق. الواقع أن مثل ذلك الحديث لا يمكن العثور عليه فى أى دين!

وفى موضع آخر من الكتاب يسوق ابن قرناس حديث الرسول لعائشة بأن جهاد النساء الحج، ثم يورد الحديثين التاليين فى مواجهته باعتبارهما يتعارضان تمام التعارض معه، وهو ما يظهر الرسول متناقضا مع نفسه، إذ يقول الشىء وعكسه دون أن يتنبه لهذا التناقض. وهذان هما الحديثان: "عن أنس بن مالك: دَخَلَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على ابْنَةِ مِلْحانَ، فاتَّكَأَ عِنْدَها، ثُمَّ ضَحِكَ فَقالَتْ: لِمَ تَضْحَكُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ فَقالَ: ناسٌ مِن أُمَّتى يَرْكَبُونَ البَحْرَ الأخْضَرَ فى سَبيلِ اللَّهِ، مَثَلُهُمْ مَثَلُ المُلُوكِ على الأسِرَّةِ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنى منهمْ. قالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْها منهمْ. ثُمَّ عادَ فَضَحِكَ، فَقالَتْ له مِثْلَ... ذلكَ، فَقالَ لَها مِثْلَ ذلكَ، فَقالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنى منهمْ. قالَ: أَنْتِ مِنَ الأوَّلِينَ، وَلَسْتِ مِنَ الآخِرِينَ. قالَ: قالَ أَنَسٌ: فَتَزَوَّجَتْ عُبادَةَ بنَ الصّامِتِ فَرَكِبَتِ البَحْرَ مع بنْتِ قَرَظَةَ، فَلَمّا قَفَلَتْ رَكِبَتْ دابَّتَها، فَوَقَصَتْ بها، فَسَقَطَتْ عَنْها، فَماتَتْ"، "عن أنس بن مالك: لَمّا كانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النّاسُ عَنِ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، قالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عائِشَةَ بنْتَ أَبِى بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وإنَّهُما لَمُشَمِّرَتانِ أَرى خَدَمَ سُوقِهِما تَنْقُزانِ القِرَبَ، وَقالَ غَيْرُهُ: تَنْقُلانِ القِرَبَ على مُتُونِهِما، ثُمَّ تُفْرِغانِهِ فى أَفْواهِ القَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعانِ فَتَمْلَآنِها، ثُمَّ تَجِيئانِ فَتُفْرِغانِها فى أَفْواهِ القَوْمِ". ليس ذلك فحسب بل لقد أوغل فى تنطعه مستنكرا أن تنكشف سوق الصحابيات اللاتى كن يسقين الجرحى فى أحد وأن تسافر بنت ملحان دون محرم.

وأنا لا أدرى أين وجه التناقض بين هذا وذاك، فالإسلام لم يوجب على المرأة الجهاد فى سبيل الله فعلا بمعنى إمساك السيف والرمح والضرب بهما فى المعركة كما يفعل الرجال، أما أن تشترك النساء فى الأعمال الجانبية المساعدة كسقى الجرحى وتطبيب المصابين منهم فلا مشكلة. ثم إن انكشاف شىء من سيقان النساء أثناء ذلك أمر طبيعى لأنهن يشمرن أثوابهن حتى يستطعن الحركة الطليقة ولا يتعثرن فى أُزُرِهِنّ. وليس هناك عاقل يرى فى انكشاف سيقانهن فى تلك الظروف ذلك الأمر الإدّ الذى يريد ابن قرناس أن يوهم به قراءه. إن تبادل الضرب والرمى، ووقوع القتل والجراحات والآلام المصاحبة للمعارك لا يعطى أحدا الفرصة ليكون انكشاف شىء من ساق امرأة تسقى العطاشى وتطبب الجرحى أمرا يبعث على الشهوة والفتنة. ولتفهيم من لا يفهم نسوق الحديث التالى: "عن عائشة أم المؤمنين: يُحْشَرُ النّاسُ يومَ القِيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا. الأمرُ أَشَدُّ من أن يَنْظُرَ بعضُهم إلى بعضٍ". وفى رواية أخرى: "عن عائشة أم المؤمنين: يُبعثُ النّاسُ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غُرْلًا. فقالت عائشةُ: فَكيفَ بالعوْراتِ؟ قالَ: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ". أما ما يقوله ابن قرناس فهو التفيهق بعينه والتساخف مجسدا. إنه

يريد أن يكون ملكيا أكثر من الملك بغية التلبيس على الناس وإيقاع الشك فى نفوس المسلمين فى أحاديث سيد المرسلين حتى يضل المسلمون طريقهم وينقسموا فى كل شىء إذ لن يكون أوائذ فى أيديهم "الكتالوج" الخاص بفهم الدين وتطبيقه والمتمثل فى الأحاديث النبوية الشريفة رغم كل ما يمكن أن يقال عن اختلاف الناس فى صحة تلك الطائفة من الأحاديث أو هذه مما قام به علماء الحديث بقدر وسعهم دون تقصير، وإن كنا نرى رغم هذا أنه لا تزال هناك مندوحة لمراجعة الأحاديث فى كتبها والانتهاء إلى أن بعضها لا يدخل العقل أو يخالف العلم المقطوع بصحته أو لا يتسق مع عادات المجتمع العربى وتقاليده، أو يتناقض مع روح الإسلام أو آيات القرآن أو مع بعض الأحاديث الأخرى على نحو لا يمكن حله.

ويبقى سفر بنت ملحان، الذى يزعم ابن قرناس أنه لم يكن هناك مَحْرَمٌ لها خلاله. لقد تجاهل ابن قرناس أنها ركبت البحر مع زوجها فى غزوة قبرص سنة ٢٨ للهجرة فى خلافة عثمان وتحت قيادة معاوية، وكانت معها نسوة أخريات مثل بنت قرظة، التى ورد ذكرها فى الحديث، وهى زوجة معاوية قائد الجيش. وبطبيعة الحال لم يكن خروجها للقتال بل لسقى الجرحى وتطبيبهم وما إلى هذا. ولكى أقطع على ابن قرناس سبيل اللجاج أذكر للقراء أن أم حرام بنت ملحان قد توفيت فى قبرص، وضريحها قائم بالقرب من مسجد لارنكا الكبير، ويسمى: قبر المرأة الصالحة. كما أنها، حسب إحدى الروايتين المتعلقتين بموضوعنا، لم يكتب لها رغم هذا كله الاشتراك فى الحرب على أى وضع: فلا ضربت بسيف ولا رمت برمح ولا مرَّضت المقاتلين لأنها توفيت فور نزولها من السفينة حسب الروايات المتعلقة بهذا الموضوع. ومن ثم فلا مجال أمامه لمزيد من التنطع والتساخف. وعبقرينا القرناسى يجترح أثناء ذلك كله من الأخطاء النحوية والصرفية والإملائية والبلاغية ما يتمعر منه وجه أجهل الجهلاء. فهل يصلح مثله لتناول ذلك الأمر الخطير؟ ولنضرب الصفح عن هذا كله ونتساءل: ترى لم اخترع المخترعون حديثا كهذا؟ لو استطاع ابن قرناس الجواب عن هذا السؤال أكون شاكرا.

والآن إليكم هذا الحديث: "عن صفية بنت عبدالمطلب: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمّا خرَج إلى أُحُدٍ جعَل نساءَه فى أُطُم يُقالُ له: فارِعٌ، وجعَل معهن حسّانَ بنَ ثابتٍ، فكان حسّانُ يطَّلِعُ إلى النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم: فإذا اشتَدَّ على المُشركِينَ اشتَدَّ معه وهو فى الحِصنِ، وإذا رجَع رجَع وراءَه. فجاء ناسٌ مِن اليهودِ فرقِى أحَدُهم فى الحِصْنِ حتّى أطَلَّ علينا، فقُلْتُ لحسّانَ: قُمْ إليه فاقتُلْه. فقال: ما ذاكَ فى.لو كان ذلكَ فى لكُنْتُ مع النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم. قالت صفيَّةُ: فضرَبْتُ رأسَه حتّى قطَعْتُه. فلمّا قطَعْتُه قُلْتُ: يا حسّانُ، قُمْ إلى رأسِه فارْمِ به عليهم وهم أسفَلَ مِن الحِصنِ. فقال: واللهِ ما ذلكَ فى.قالت: فأخَذْتُ برأسِه فرمَيْتُه عليهم، فقالوا: قد واللهِ علِمْنا أنَّ مُحمَّدًا لَمْ يكُنْ يترُكُ أهلَه خُلوفًا ليس معهم أحَدٌ وتفرَّقوا...". والسؤال هو: ماذا يقول ابن قرناس فى حمل صفية العمود والدخول فى قتال مع اليهودى الزنيم؟ أوَقد خالفت السيدة صفية حكم الإسلام فقاتلت اليهودى وضربته وقتلته مع أن الإسلام لم يوجب عليها القتال بل استعاض عنه بالحج؟ لم تخالف ولم تأت ما يمكن أن يتعلل به متعلل بالغا ما بلغ تنطعه وتفصيصه للشعرة. ذلك أننا هنا أمام ضرورة لا مفر من مجابهتها، بغض النظر عن

صحة الحديث أو عدمه، وبخاصة ما يتعلق منه بحسان رضى الله عنه. فهذا الموقف يمكن أن يقع لأية امرأة، فتجد نفسها فى مواجهة شخص سافل منحط الخلق عديم الرجولة يريد الاعتداء عليها، وليس معها من يدفع عنها، وإلا فهل ينصحها ابن قرناس بالاستسلام للمجرم حتى لا تخرج على حكم الإسلام؟

ويقول ابن عباس فى حديث له إن النبى عليه السلام تزوج ميمونة (خالته) وهو محرم، فيندفع ابن قرناس معترضا على الحديث، إذ يفهم من الإحرام هنا أنه الحج، وبما أن الرسول لم يحج إلا فى السنة العاشرة للهجرة وسبق قبل ذلك بعدة سنوات أن حرم الله على نبيه الزواج من أية امرأة بعد ذلك فمعنى هذا أن الرسول قد خالف عن أمر ربه بناء على هذا الحديث. كما خالف عن أمر ربه فى موضوع آخر، فقد رفث، أى بنى بميمونة، أثناء الحج خارجا على قوله تعالى: "فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج". وهو يتخذ من هذا تكأة إلى القول بأن الحديث مكذوب على رسول الله، وينبغى بالتالى حذفه كسائر الأحاديث.

لكن هل عبارة "وهو محرم" تعنى فقط ودوما أنه كان محرما بالحج؟ أبدا، إذ الإحرام يكون بالحج أو بالعمرة. وعن عبد الله بن عباس "تَزَوَّجَ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم مَيْمُونَةَ وهو مُحْرِمٌ، وبَنى بها وهو حَلالٌ، وماتَتْ بسَرِفَ. وزادَ ابنُ إسْحاقَ: حدَّثَنى ابنُ أبِي نَجِيحٍ وأَبانُ بنُ صالِحٍ عن عَطاءٍ ومُجاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ قالَ: تَزَوَّجَ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم مَيْمُونَةَ فى عُمْرَةِ القَضاءِ". وفى شرح هذا الحديث بموقع "الباحث الحديثى" نقرأ ما يلى: "بيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ ورَسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم ما يَحِلُّ للمُحرِمِ فِعلُه وما يَحرُمُ عليه، ونقَلَ ذلك الصَّحابةُ الكِرامُ رَضى اللهُ عنهم أجْمَعينَ. وفى هذا الحَديثِ يُخبِرُ عبدُ اللهِ بنُ عبّاسٍ رَضى اللهُ عنهما أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم تَزوَّجَ مَيمونةَ بنتَ الحارثِ الهِلاليَّةَ رَضى اللهُ عنها حالَ كونِه مُتلبِّسًا بالإحْرامِ للعُمرةِ، وهذا يَقتَضى مَشْروعيَّةَ نِكَاحِ المُحْرِمِ. وقد ثبَتَ عنِ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم فى أحاديثَ أُخْرى النَّهى عن نِكاحِ المُحرِمِ منها ما فى "صَحيحِ مُسلِمٍ" مِن حَديثِ عثمانَ بنِ عفّانَ رَضى اللهُ عنه عنِ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "لا يَنكِحُ المُحرِمُ ولا يُنْكِحُ ولا يَخطُبُ". وهذا ما ظهَرَ لابنِ عبّاسٍ رَضى اللهُ عنهما مِن أمْرِ زَواجِ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم بمَيمونةَ فقال به لأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كان مُحْرِمًا بعُمرةِ القَضاءِ... فى هذا الوَقتِ.

والصَّوابُ أنَّ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم تزوَّجَها فى طَريقِ مكَّةَ قبْلَ أنْ يُحْرِمَ، وظهَرَ أمْرُ تَزويجِها بعْدَ أنْ أَحْرَمَ، ثُمَّ بَنى بها وهو حَلالٌ بسَرِفَ، وهو فى طَريقِه إلى المدينةِ. ففى "التِّرمِذى" عن يَزيدَ بنِ الأصَمِّ عن مَيمونةَ رَضى اللهُ عنها "أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم تَزوَّجَها وهو حَلالٌ، وبَنى بها حَلالًا". وقدْ أخْبرَت مَيمونةُ رَضى اللهُ عنها عنْ نفْسِها كما فى "صَحيحِ مُسلِمٍ" أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم تَزوَّجَها وهو حَلالٌ. وهى أعلَمُ وأدْرى بهذا الأمْرِ. وذكَرَ ابنُ عبّاسٍ رَضى اللهُ عنهما أنَّ أمَّ المؤمِنينَ مَيْمونةَ رَضى اللهُ عنها قد ماتتْ بسَرِفَ، وهو مَوضِعٌ يَبعُدُ عن مكَّةَ حوالَى عَشَرةِ أمْيالٍ، وكان هذا سَنةَ إحْدى وخَمسينَ مِن الهِجرةِ على الصَّحيحِ. وفى الحَديثِ أنَّ مَن تَحَلَّلَ مِن إحْرامِه فقدْ حَلَّ له كُلُّ شَىء، ومنه الزَّواجُ وعَقْدُ النِّكاحِ. وفيه احْتِمالُ وُقوعِ الوهمِ مِن بعضِ رُواةِ الحَديثِ عن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُعرَفُ هذا بمُقابَلةِ النُّصوصِ ببَعضِها".

وهناك حديث رائع يسيل رحمة وكرما وغفرانا وسماحة وبرا وحنوا من الله تعالى على عباده المقصرين لقاء توهج إيمانهم وخوفهم العنيف من ربهم مع ضعفهم عن الأعمال الصالحة: "عن أبى سعيد الخدرى: أنَّ رجلًا كان قبلكم رَغَسَهُ اللهُ مالًا، فقال لِبَنيهِ لمّا حُضِر: أى أَبٍ كنتُ لكم؟ قالوا: خيرَ أَبٍ. قال: إنِّى لَم أعملْ خيرًا قطُّ، فإذا مِتُّ فأحْرِقونى ثمَّ اسْحَقونى ثمَّ ذَرُونى فى يومٍ عاصِفٍ، ففعلوا، فَجَمعَه اللهُ فقال: ما حَمَلكَ؟ قال: مَخافتُكَ. فتَلقّاه برحمتِهِ". لكن ابن قرناس لا يعجبه الحديث لأن الجنة لديه ليست سبهللا يدخلها كل من هب ودب مهما يكن إيمانه وخشيته لربه ودرايته بعظمته وسلطانه. وكأن ابن قرناس معه قائمة لا يخر منها الماء بصنوف أهل الجنة، وقائمة نهائية بصنوف أهل النار، وليس عنهما محيد بل لا بد أن يقع الجزاء على ما هو مبين فيهما حرفيا وآليا وبدون رحمة أو غفران. وأنا أنظر إلى مثل هذا الحديث على أساس أنه معادل لأحاديث أخرى تبعث الرعب والقشعريرة فى الجلد والنفس، وذلك حتى يكون المؤمن مترددا بين قطبين فلا يطمئن تماما إلى رحمة ربه ولا ييأس منها يأسا مبيرا، ولكنْ قَوَامٌ بين ذلك. وفى القرآن آيات كهذه تحفظ التوازن الروحى فى نفس المسلم.

ثم كيف فات ابن قرناس مثل هذه الأحاديث: "عن أبى هريرة: مَنْ هَمَّ بِحَسَنةٍ فلمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ له حَسَنةً، فإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ له بِعَشْرِ أَمْثالِها إلى سَبعِمائةٍ وسبعِ أَمْثالِها، فإنْ لَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ له حَسَنةً، ومَن هَمَّ بسَيِّئَةٍ فلمْ يَعْمَلْها لَمْ تُكْتَبْ عليه، فإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ عليه سَيِّئَةً واحِدةً، فإنْ لَمْ يَعْمَلْها لَمْ تُكْتَبْ عليه"، "عن معاذ بن جبل: من رفع حجرًا من الطريقِ كُتِبتْ له حسنةٌ، ومن كانت له حسنةٌ دخل الجنَّةَ"، "عن أبى هريرة أنَّ رجلًا وجد كلبًا يَلْهَثُ من العطشِ، فنزل بئرًا فملأ خُفَّهُ منها ماءً فسقى الكلبَ حتى رَوِى.قال الرسولُ: فشكر اللهُ له فغفَر له. فقال الصحابة: إنَّ لنا فى البهائمِ لَأَجْرًا يا رسولَ اللهِ؟ قال: فى كلِّ كَبْدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ"، "عن أبى هريرة: غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بكَلْبٍ على رَأْسِ رَكِى يَلْهَثُ، قالَ: كادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّها فأَوْثَقَتْهُ بخِمارِها فَنَزَعَتْ له مِنَ الماءِ، فَغُفِرَ لَها بذلكَ"، "عن عبدالرحمن بن سمرة: خرجَ علَينا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ونحنُ فى صُفَّةٍ بالمدينةِ، فقامَ علَينا فقال: إنِّى رأيتُ البَارحةَ عجبًا. رأيتُ رجلًا مِن أُمَّتى أتاهُ ملَكُ المَوتِ ليقبضَ روحَهُ، فجاءَهُ برُّهُ بوالدَيْهِ فردَّ ملَكَ المَوتِ عنهُ، ورأيتُ رجلًا مِن أُمَّتى قد احتوشتْهُ الشَّياطينُ، فجاءَ ذِكْرُ اللهِ فطيَّرَ الشَّياطينَ عنهُ، ورأيتُ رجلًا مِن أُمَّتى قد احتَوشتْهُ ملائكةُ العذابِ، فجاءَتْهُ صلاتُهُ فاستَنقذَتْهُ مِن أيديهم، ورأيتُ رجلًا من أُمَّتى يلهثُ عطشًا كلَّما دنا من حَوْضٍ مُنِعَ وطُرِدَ، فجاءَهُ صيامُ شهرِ رمضانَ فأسقاهُ وأرواهُ، ورأيتُ رجلًا مِن أُمَّتى ورأيتُ النَّبيِّينَ جلوسًا حِلَقًا حِلَقًا كلَّما دنا إلى حلقةٍ طُرِدَ ومُنِعَ، فجاءَهُ غُسْلُهُ مِن الجنابةِ فأخذَ بيدِهِ فأقعدَهُ إلى جَنْبى، ورأيتُ رجلًا مِن أُمَّتى مِن بينَ يدَيْهِ ظُلمةٌ، ومِن خلفِهِ ظُلمةٌ، وعن يمينِهِ ظُلمةٌ، وعن يسارِهِ ظُلمةٌ، ومِن فَوقِهِ ظُلمةٌ، وهوَ مُتَحيِّرٌ فيهِ، فجاءَهُ حَجُّهُ وعُمرتُهُ فاستخرجاهُ مِن الظُّلمةِ وأدخلاهُ فى النُّورِ، ورأيتُ رجلًا مِن أُمَّتى يتَّقى وَهَجَ النَّارِ وشررَها، فجاءَتْهُ صدقتُهُ فصارتْ سِترًا بينَهُ وبينَ النَّارِ وظلًّا على رأسِهِ، ورأيتُ رجلًا مِن أُمَّتى يُكلِّمُ المؤمنينَ ولا يُكلِّمونَهُ، فجاءتْهُ صِلَتُهُ لرَحِمِهِ فقالت: يا معشرَ المؤمنينَ، إنَّهُ كان وصولًا لرَحِمِهِ فكلِّموهُ، فكلَّمَهُ المؤمنونَ وصافَحُوهُ وصافَحَهُمْ، ورأيتُ رجلًا من أُمَّتى قد احتَوشتْهُ الزَّبانيةُ، فجاءَهُ أمْرُهُ بالمعروفِ ونهيُهُ عن

المُنكرِ فاستَنقذَهُ من أيديهم وأدخلَهُ فى ملائكةِ الرَّحمةِ، ورأيتُ رجلًا مِن أُمَّتى جاثيًا على رُكبَتَيهِ وبينه وبينَ اللهِ حجابٌ، فجاءَهُ حُسْنُ خُلُقِهِ فأخذ بيدِهِ فأدخلَهُ على اللهِ عزَّ وجلَّ، ورأيتُ رجلًا من أُمَّتى قد ذهبَتْ صحيفتُهُ من قِبَلِ شمالِهِ، فجاءَهُ خَوفُهُ من اللهِ عزَّ وجلَّ فأخذَ صحيفتَهُ فوضعَها فى يمينِهِ، ورأيتُ رجلًا من أُمَّتى خفَّ ميزانُهُ، فجاءَهُ رجاؤُهُ من اللهِ عزَّ وجلَّ فاستَنقذَهُ من ذلكَ ومضَى، ورأيتُ رجلًا من أُمَّتى قد هوَى فى النَّارِ، فجاءَتْهُ دمعتُهُ الَّتى قد بكَى من خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فاستَنقذتْهُ من ذلكَ، ورأيتُ رجلًا من أُمَّتى قائمًا على الصِّراطِ يرعدُ كما ترعدُ السَّعفَةُ فى ريحٍ عاصفٍ، فجاءَهُ حُسْنُ ظنِّهِ باللهِ عزَّ وجلَّ فسكَّنَ رَوْعَهُ ومضَى، ورأيتُ رجلًا من أُمَّتى يزحفُ على الصِّراطِ: يحبو أحيانًا ويتعلَّقُ أحيانًا، فجاءتْهُ صلاتُهُ على فأقامَتْهُ على قدمَيْهِ وأنقذَتْهُ، ورأيتُ رجلًا من أُمَّتى انتهَى إلى أبوابِ الجنَّةِ، فغُلِّقَتِ الأبوابُ دونَهُ، فجاءتْهُ شهادةُ ألا إلهَ إلَّا اللهُ ففُتِّحَتْ لهُ الأبوابُ، وأدخلَتْهُ الجنَّةَ"؟ والحمد لله أن ابن قرناس لم يكن نبيا، وإلا لأرسل البشرية على بكرة أبيها للنار لا يبالى أو يطرف له جفن. يا له من يائس مَيَئِّس! ضرب الله بيننا وبين القانطين المقنِّطين مسافات من البيد شاسعة لا تنتهى تحار فيها العيس ولا تهتدى سبيلا.

وينكر ابن قرناس كل معجزة ذكرت الأحاديث أنها وقعت من النبى صلَّى الله عليه وسلَّم بحجة أن القرآن قد أكد أن الله لم يعد يرسل بالمعجزات بعدما ثبت أنها لا تقنع الكفار بل تزيدهم تكذيبا وإنكارا. وأذكر أن د. محمد حسين هيكل قد أكد ذلك فى السيرة الجميلة التى كتبها لخاتم النبيين والمرسلين عليه السلام. ولست أظن أنه يمكن أن يؤاخَذ على هذا رحمه الله. ولكن ماذا نصنع بالأحاديث المتعددة التى تنسب هذه المعجزة أو تلك للنبى صلَّى الله عليه وسلَّم؟ لقد لاحظت أنها قد وقعت منه وهو بين أتباعه لا بناء على اقتراح من الكفار ولا حتى طلب من المسلمين، بل وقعت تلقائيا. ورأيى هو أنه من المحتمل أن تكون تلك المعجزات قد حدثت على يديه إكراما للمسلمين لا قبولا لتحدى المشركين ولا تحقيقا لطمع أحد من أتباعه، ومن ثم لا تتعارض مع قوله تعالى: "وما منعَنا أن نرسل بالآيات إلا أَنْ كذَّب بها الأولون...". أما من يفهم الآية على أنها قد أغلقت باب المعجزات بالضبة والمفتاح فى أى ظرف من الظروف وأمام أى شخص أو جماعة من البشر مشركة كانت أو مسلمة مؤمنة فهو وذاك، وهذا اجتهاد منه. ونبينا نبى عظيم لأنه أتى بدين عظيم، وتحقق كل ما تنبأ به، وتخرَّج من تحت يده رجالٌ عَجَبٌ أنجزوا فى وقت قصير جد قصير إنجازات إعجازية تاريخيا. وعلى هذا فلا تثريب على من يؤمن بهذه المعجزات، ولا تثريب على من لا يقبلها ويرى أنها تعارض القرآن الكريم. والله مكرم الاثنين لأن كلا منهما اجتهد وسعه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وهو سبحانه يكافئ المجتهد فى الحالتين: حال الصواب وحال الخطإ.

* * *

شبير أحمد طبيب باكستانى له كتابات فى الإسلام والقرآن، ومن كتاباته دراسة بالإنجليزية بعنوان "مجرمو الإسلام" توقف فيها عند بعض العلماء والمتصوفة فى القديم والحديث ممن يحظَوْن بالتبجيل والتمجيد من قِبَل كثير من طوائف المسلمين موردا بعض أقوالهم وأفعالهم التى تناقض الإسلام

وتناهضه فى نظره. وبعض ما قاله كلام جميل لا نختلف معه فيه إذا صحت المعلومة التى بناه عليها، لكن بعضه الآخر يصعب جدا موافقته عليه. وهذا أولا قوله فى العلماء والمتصوفة الذين يغالى أتباعهم فى الحديث عنهم مغالاة غير مقبولة حتى ليكادون يلحقونهم بالملائكة فى خشيتهم من الله وعبادتهم لربهم ونقائهم من كل خطإ:

Dear Reader, do you see what the “great ”scholars and imams thought of each other? Where is their mutual harmony? We believe it was necessary to point this out. It is important to break the ‘Idol of Indisputable Scholarship ’that exists today among the Ummah in order to free our minds from blind reverence. It will be difficult, if not impossible to find a single book of the Imams without lofty prefaces or introductions by the publishers and presenters. These are filled with fabricated accounts of the Imams ’ miraculous memories, marathon ibadat sessions, and angelic character. The idea is to portray the Imams as superhumans and to render them indisputable .

ثم هذا قوله فى أبى الأعلى المودودى العالم الباكستانى المسلم، إذ يأخذ عليه أن اسمه "أبو الأعلى"، و"الأعلى" (كما يقول) هو الله سبحانه. ومن ثم فهذا الاسم لون من الشرك. كما أنه يطلق على نفسه: "مولانا" بينما لا يوجد إلا "مولانا" واحد لا غير هو الله عز وجل حسبما يقول القرآن المجيد:

Let us not be dazzled by this extravaganza and examine their “greatness ”with a critical mind in the light of the Qur’an. The Mulla-in-Chief of The ٢٠th Century: Maudoodi. Before presenting some glimpses of the famous Mulla Maudoodi’s wisdom, let us tell you his full name and title---Maulana Syed Abul Aala Maudoodi .The name translates as: “Our master, owner, the father of the most glorious, Maudoodi”. It is strange that the man claiming to be a great Islamic scholar lived ٧٦ odd years with this name. Does it need much insight to see that the very name is depicting outright shirk?! According to the Qur'an, "Maulana" (٩:٥١), "our Master", al-Aala, the Most Glorious is no one but Allah

لكننا نجد أن الله سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين فى سورة "آل عمران" بأنهم هم "الأَعْلَوْن"، و"الأعلون" جمع "الأعلى". وقد تكرر الأمر فى سورة "محمد": "فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ". وبالمثل حين يحس موسى عليه السلام فى نفسه الخوف أمام سحرة فرعون وألاعيبهم يقول ربه له عز وجل (فى سورة "طه"): "قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى". بل

لقد وُصِف الأفق الذى كان فيه جبريل عليه السلام حين أبصره الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم عند ظهوره له أول مرة بـ"الأفق الأعلى". أى أن هناك وجها وجيها تمام الوجاهة لتفسير اسم "أبى الأعلى" المودودى بعيدا عن الشرك، تلك التهمة البشعة التى لا ينبغى التسرع إلى وصف الآخرين بها على هذا النحو من الخفة واللامبالاة.

أما بالنسبة لـ"المولى" فتطلق فى القرآن أيضا على البشر كما فى قوله تعالى فى سورة "النحل": "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ". بل تطلق كذلك على المعبودات من دون الله: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ" (سورة"الحج"). كما نقرأ فى سورة "الدخان" عن يوم الفصل فى العالم الآخر: "إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ". بل لقد أطلق القرآن تلك الكلمة على النار ذاتها: "فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" (سورة "الحديد"). وفى المعاجم نجد لـ"المولى" معانى متعددة لا يمثل إطلاقها على الله سبحانه سوى واحد منها ليس إلا: فالمَوْلَى: الربُّ، والمولى: المالك، والمولى: كلُّ من وَلِى أمرًا أَوْ قامَ به، والمولى: الولى المحب، والمولى: الصاحب، والمولى: الحَليف، والمولى: النزيل، والمولى: الجار، والمولى: الشريك، والمولى: الصِّهرُ، والمولى: القريبُ من العَصَبَة كالعمّ وابن العمِّ ونحو ذلك، والمولى: المنعِم، والمولى: المنعَمُ عليه، والمولى: المُعْتِقُ، والمولى: المُعْتَق، والمولى: العبدُ، والمولى: التابعُ، والجمع: مَوالٍ". وكان العقاد رحمه الله يستخدم كلمة "مولانا" فى مخاطبة كثير ممن يتعاملون معه.

أما كلام شبير أحمد عن مغالاة حواريى بعض العلماء والمتصوفة عن نقائهم الأخلاقى ورقيهم الروحى وتفانيهم فى العبادات وما إلى ذلك بحيث يخيّلون للناس أن هؤلاء قوم معصومون وأنهم يحلقون فى أفق علوى غير أفق البشر فأنا معه، إذ هذا كذب أولا، ولا يصح للمسلم أن يكذب أو أن يرضى بأن يكذب الناس عنه ويغالوا فى وصفه. كما أن مثل تلك المغالاة من شأنها أن توقع اليأس فى القلوب، إذ ينظر الناس إلى ما ينجزون فيجدونه دون إنجاز هؤلاء بمراحل شاسعة وموئسة فيصيبهم الإحباط، ويركبهم الهم، وقد يكون ذلك سببا فى انصرافهم عن الطريق المستقيم، إذ يوسوس الشيطان لهم بأنه ما دامت الجهود لا توصل إلى هذه الآفاق السامقة فلا داعى للتعب والإرهاق دون ثمرة.

وفى هذا الكتاب يدرج شبير أحمد، ضمن من تحدث عنهم وهاجمهم، الإمام البخارى. ومما أورده فى كتابه المذكور لهذا المحدِّث الكبير من أحاديث يرى أنها ضارة بالمسلمين الحديث التالى: "عن أبى هريرةَ قال: قال سليمانُ بنُ داودَ عليهما السلامُ: لَأَطُوفَنَّ الليلةَ بمائةِ امرأةٍ تَلِدُ كلُّ امرأةٍ غلامًا يُقاتِلُ فى سبيلِ اللهِ. فقال له المَلَكُ: قل: إن شاء اللهُ. فلم يَقُلْ ونَسِى، فأطاف بهن، ولم تَلِدْ منهن إلا امرأةٌ نِصْفَ إنسانٍ. قال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: لو قال: "إن شاء اللهُ" لم يَحْنَثْ، وكان أَرْجَى لحاجتِهِ".

(الراوى: أبو هريرة. المحدث: البخارى.المصدر: صحيح البخارى.الصفحة أو الرقم: ٥٢٤٢. خلاصة حكم المحدث: صحيح).

وأولا لا يصح أبدا رمى البخارى بهذه التهمة، فقد اجتهد ذلك العالم وسجل الحديث المذكور باعتباره حديثا صحيحا طبقا للمقاييس والشروط التى وضعها. ولا يعنى هذا أنه معصوم أو أن الأحاديث التى يشتمل عليها كتابه كلها صحيح مائة فى المائة ولا يخر من أى منها الماء، فالكمال لربنا وحده سبحانه. أما نحن البشر فما علينا سوى الاجتهاد والإخلاص فى عملنا، والباقى على الله، وقد نصيب وقد نخطئ، وليس هناك ضمان مطلق لأن يأتى عملنا كله صوابا لا شائبة فيه. ودائما ما أقول: إننى أجلس بكل احترام تحت أقدام العلماء مبجلا لهم محترما إياهم، لكنى فى ذات الوقت أُعْمِل عقلى وأُشَغِّل آلتى النقدية التى وضعها الله فى رأسى وقلبى، وإن لم يكن ثَمَّ ضمان بأن يكون ما أصل إليه صوابا بالضرورة، إنما هو بدوره اجتهاد، والمهم أن أبذل كل ما فى وسعى وأن أكون مخلصا فى عملى ونيتى وأن أترك عقلى مفتوحا بعد الوصول إلى ما وصلت إليه من نتائج، فلربما يتضح لى أنى قَصَّرْتُ أو سهوتُ أو أخطأتُ أو نَسِيتُ أو فاتنى الاطّلاع على شيء أو أشياء.

وإذا توقفنا أمام الحديث الذى أوردناه فسوف نلاحظ الآتى: أن الروايات تختلف فى عدد النساء اللاتى صرح سليمان عليه السلام بأنه سوف يمر بهن فى تلك الليلة ويعاشرهن: ففى رواية أخرى فى البخارى أنهن ستون فقط، وفى رواية ثالثة أنهن تسعون، وفى رابعة أنهن سبعون، وفى خامسة أنهن تسع وتسعون. ودَعُونا من روايات المحدِّثين الآخرين... ثم ما معنى أن يطوف الواحد بعشرات النساء فى ليلة واحدة؟ هل سيلقى على كل منهن تحية المساء ثم ينطلق إلى غيرها بحيث لا تأخذ كل منهن من وقته سوى دقيقة مثلا؟ إن الكلام هنا عن معاشرة جنسية وعاطفية تأخذ وقتا فى التهيؤ الجسدى والنفسى والعقلى بحيث تحتاج إلى وقت غير قصير. كما أن الإنسان يحتاج إلى فترة انتظار بعد المعاشرة حتى تعود إليه رغبته وقدرته وتحمسه لمعاشرة أخرى، وإلا تحول الإنسان فى هذه الحالة إلى آلة لا تشعر ولا تفكر ولا تحتاج إلى راحة واستجمام وتهيؤ من جديد. لا بل إن الآلات نفسها لتحتاج إلى راحة وصيانة ومراجعة وتزييت وتشحيم وإصلاح وتغيير لبعض القطع التالفة حتى تستمر فى العمل. ثم هل باستطاعة الإنسان معاشرة كل هذا العدد فى ليلة واحدة؟ إن الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله الكريم بأن يقول: "إنما أنا بشر مثلكم يوحى إِلَيَّ". فهو إذن بشر كسائر البشر إلا فى النبوة: إنه يأكل ويشرب، ويجوع ويشبع، وينام ويستيقظ، ويصح ويمرض، ويتعب ويرتاح، ويمشى فى الأسواق ويستكن فى المنزل، ويعبد ربه ويدبر أمور أمته وينهض بحاجات أسرته... وهكذا كما يحدث لكل البشر ومنهم. ولم يقل إنه يتميز عنهم بقوة جنسية تخول له أن يعاشر مائة امرأة فى ليلة واحدة.

وقبل ذلك كله كيف تصور ذلك النبى الكريم أن نسوته المائة لا بد أن يحملن جمعاوات فى تلك الليلة، وكأنهن كلهن أوّلًا ولودات لا عاقرَ منهن البتة، وكلهن ثانيًا خاليات من موانع الحمل الشهرية؟ فيا لها من مصادفة عجيبة غريبة! الغريب أن ثم حديثا يزعم رواته أن الشيطان قد حل محله عليه السلام ذات مرة، فكان الرجيمُ الزنيمُ يعاشر زوجاته وهُنَّ حُيَّض، وكأن الشيطان له جسد مثلنا، وكأن

زوجات سليمان قد قبلن تلك المعاشرة الشاذة فلم ينكرن عليه! ثم لِمَ طرأ على خاطره عليه السلام فى تلك الليلة بالذات أن يقوم بهذا العمل؟ كان يمكن فهم هذا لو أن أولاده تَوَّ نزولِهن إلى الحياة سوف يصيرون فرسانا مجاهدين فى سبيل الله، فيرسلهن فى الحال إلى خط النار لأن المعارك الطاحنة مشتعلة على كل الجبهات ولا تستطيع الانتظار. أما وهم لن يكونوا مستعدين للحرب فى سبيل الله إلا بعد بضعة عشر عاما على الأقل فلم يكن هناك أى داع للعجلة، ولْيَمُرّ عليه السلام إذن على نسائه فى كل ليلة واحدة، ويأتى الأولاد عندئذ براحتهم كما يأتى أولاد البشر.

وفوق هذا فالحديث معناه أنه لن يكون عنده وقت لعمل أى شىء آخر، فلا صلاة ولا ذكر ولا نوم ولا راحة ولا تشاور مع وزرائه ورجال دولته فى أمور الدولة ولا حتى استماع لما يمكن أن تحكيه له زوجته مثلا من مشاكل بينها وبين ضَرَّاتها كما يقع فى كل البيوت التى تضم عددا من الزوجات لرجل واحد ولا سؤال عن أى ولد من أولاده ولا أكل ولا شرب ولا قضاء حاجة ولا اغتسال ولا ملل ولا إرهاق. ذلك أن أمامه مائة امرأة لا بد من المرور عليهن والفراغ منهن واحدة واحدة بالتمام والكمال فى تلك الليلة.

كذلك يلفت النظر أن المَلَك قد نبهه إلى وجوب تقديمه المشيئة حتى يحقق الله له مطلبه، لكنه نسى. ويتساءل الواحد منا: كيف ينسى أن يردد وراء الملك فى الحال كلمة "إن شاء الله"؟ لقد قال له الملك: قل: إن شاء الله. فكان ينبغى أن يقول فى الحال: "إن شاء الله". هل هذه معضلة؟ فكيف نَسِىَ أن يقول ذلك؟ إن هذا قد يصح لو كان ينوى معاشرة زوجاته بعد ليلة أو ليلتين أو أسبوع أو أسبوعين مثلا. أما والمَلَك ينبهه إلى ترديد هذه الكلمة البسيطة فى الحال فكان المتوقع أن يقول وراءه فى التو واللحظة: لأطوفن الليلة إن شاء الله بنسائى... إلخ، وتنتهى المشكلة.

وكيف لم تحمل أية من نساء سليمان عليه السلام من معاشرته لهن بعد ذلك؟ ترى هل جامعهن تلك المرة الواحدة ثم أهملهن مدى الحياة؟ وإلا فكيف عرف أن ذلك الولد المشوه هو ثمرة لقاء تلك الليلة بالذات؟ ثم ما معنى أن امرأة من نسائه قد ولدت له شق غلام؟ إن معنى ذلك أنه كانت له عين واحدة وحاجب واحد وساق واحدة وقدم واحدة وكُلْيَة واحدة وفتحة أنف واحدة ورئة واحدة ونصف جمجمة ونصف مخ ونصف فم وست عشرة سنا ونصف بطن ونصف أمعاء، ثم يتبقى القلب والكبد مثلا، وسوف يتوقف وجود كل منهما على الشق الذى ولد به الغلام، فلو كان الشق هو الشق الأيمن مثلا فمعنى هذا أنه لن يكون له قلب. فكيف يعيش يا ترى؟ على أن المسألة لا تتوقف هنا، بل كيف سيأكل ذلك الغلام؟ وكيف يمشى؟ وكيف يتكلم؟ وكيف يجلس؟ وكيف يقضى حاجته؟ وكيف يفكر؟ وكيف يشعر؟ وهذا إن كان قد بقى على قيد الحياة. أم هل تراه مات أو نزل ميتا؟ لكن ليس فى الرواية شىء عن ذلك الموضوع. لقد سكتت الأحاديث عن هذا تماما. أفيعقل أن أمرا كهذا يتم تناوله فى حديث واحد ثم يُنْسَى فلا يأتى له ذكر بعد ذلك قط؟ وبالمناسبة فإننا لا نعرف من الأحاديث شيئا عن أبناء سليمان رغم كثرة عدد زوجاته كما رأينا، بل لا نعرف منها أكان له أولاد أصلا أم لا. لقد صمتت الروايات عن ذلك، بخلاف شق الولد الذى تكلم عنه الحديث الذى نحن بصدده. وهذا عجيب!

ثم كيف كان سليمان وزوجته يتعاملان مع هذا الابتلاء؟ لقد صمتت الأحاديث عن رد فعل الأم حين ابتلاها الله بطفل مشوه غاية التشويه ليس له نظير بين البشر. وبالمثل سكتت عن وصف مشاعر سليمان نفسه. أَوَيُمْكِن أن يكون الأبوان قد استقبلا هذا المولود العجيب دون أى استغراب أو تألم أو معاناة؟ ألا إن هذا لأمر غريب غاية الغرابة، وبخاصة أن سليمان عليه السلام كان يمنى نفسه بأن يجاهد أولاده فى سبيل الله.

ثم إن لدينا فى القرآن قوله تعالى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام فى سورة "الكهف" حين سأله الكفار عن شىء ما فوعدهم أن يأتيهم بخبره فى الغد دون أن يقدم المشيئة، فنهاه الله عز وجل قائلا: "ولا تقولنَّ لشىءٍ إنى فاعلٌ ذلك غدًا إلا أَنْ يشاءَ الله. واذكر ربَّك إذا نَسِيتَ"، وهذا كل ما هنالك، فلم يعاقبه الله بشىء، إذ هو لم يرتكب جرما يعاقَب بسببه، بل سها عن شىء كان يحسن الالتفات إليه ما دام الأمر الذى وعد به المشركين لم يكن فى يده بل سوف ينزل به الوحى. فكيف يكون رد السماء على نسيان سليمان لتقديم المشيئة ردا عنيفا على هذا النحو غير المنتظَر ولا المسوَّغ؟ ولقد كرم الله نبيه سليمان فسخَّر له الريح وعَلَّمه منطق الطير وأخدمه الجن. فكيف يتسق هذا الإكرام العظيم مع العقوبة الرهيبة على مثل تلك الهفوة التى لا تُذْكَر؟

على أن هذه الملاحظات لو صحت لما نالت من مكانة البخارى، فضلا عن أن يتطاول متطاول سفيه عليه فيجعله مجرما من المجرمين، فقد اجتهد ذلك العالم الجليل وأدى ما عليه، ولا يضيره أن نجد له، وسط هذه الآلاف من الأحاديث التى محصها وانتقاها من الآلاف المؤلفة من أمثالها، طائفة من الأحاديث التى نرى أنها لا تستقيم. وقد نكون نحن المخطئين مع هذا. لقد حفظ لنا الرجل ثروة من أقوال رسولنا العظيم لا تقدَّر بكنوز الدنيا ولا ينهض الدين على ساقيه بدونها، فهى المذكرة التفسيرية والتطبيقات العملية والإضافات الأساسية للقرآن الكريم. ولو افترضنا أننا نبذنا السنة كما يريد منا من فى قلوبهم مرض لاضطرب حبل الدين ولم تقم له قائمة.

على أن هناك من يرى وجوب الصمت عن مناقشة الأحاديث النبوية اعتمادا على أن هذا إعمال للعقل، والدين عند هؤلاء لا يؤخذ بالعقل. فبأى شىء يؤخذ يا ترى؟ إن الإسلام هو دين العقل بامتياز، ولا تجد فى أى دين آخر نعرفه هذه السمة العظيمة. والآيات القرآنية تدعو دائما إلى استعمال العقل فى أمر الدين والنبوة، إذ كيف يمكن معرفة صدق النبى محمد وصلاحية الدين الذى جاء به لتنظيم حياة البشر وتوصيلهم إلى الآفاق العالية التى وعدهم بها ما لم نختبر هذا الذى أتانا به لنعرف مدى صدق دعواه من عدمها؟ وكيف يا ترى سيتم هذا الاختبار إلا بالعقل والتفكر والتدبر والتأمل؟

وإذا كان هناك من يؤكد أن مثل هذه الحكاية لا تصلح ميدانا للعقل فإننا بدورنا نتساءل: لماذا لا تصلح؟ أهى من أمور الغيب المخفاة عنا كالملائكة والجن والجنة والنار وعالم البرزخ فلا نستطيع أن نعرف عنها شيئا إلا من نصوص الوحى؟ أبدا. إنها من أمور دنيانا، وندركها بحواسنا، ومن ثم نستطيع أن نُعْمِل بكل سهولة فيها عقولنا، وهو ما فعلناه فى هذا المقال الذى فى يد القارئ الآن. فما المشكلة؟ إن هؤلاء يرددون كلاما لا يعرفون معناه، كلاما محفوظا يُجْلِبون به على من يريد تبصيرهم وحماية سمعة

الدين من توحش الملاحدة والعلمانيين وسلاطة ألسنتهم وفجورهم. إن دين محمد عليه الصلاة والسلام هو دين العقل فيما للعقل فيه مجال. وهذا الموضوع الذى نحن بصدده أحد تلك الموضوعات. بل إن الإنسان لا يستطيع أن يدرك قصور عقله عن اختراق عالم الغيب إلا بوساطة العقل ذاته. فالعقل هو الأداة التى تزن نفسها بنفسها وتعرف قدراتها وألوان ضعفها وعجزها. فلا مناص للإنسان إذن من استعمال العقل حتى حين لا ينبغى استعمال العقل. أى أنه لا مهرب للعقل إلا إلى العقل.

ويقول بعض المعترضين إن العلماء قد سبقوا وانتهَوْا إلى صدق هذه الأحاديث، فليس لنا إلا أن نخر عميا وبكما وصما عليها دون أن نفتح أفواهنا إلا بالموافقة والتأمين على ما يقولون. ولكن السؤال الذى يبرز على التو ويفرض نفسه علينا ويريد منا الجواب العاجل الملح هو: وكيف نعرف أن هؤلاء العلماء قد أصابوا الحق فى كل ما قالوه من الأحاديث النبوية، وكل كتاب حديث يشتمل على الآلاف من نصوصها؟ سيقال لك: لقد تلقت الأمة حكمهم بالقبول، فماذا تريد أكثر من ذلك؟ لكن ألم يسمعوا قول الرسول عليه الصلاة والسلام: لا يكن أحدكم إمعة يقول: أنا مع الناس. إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت؟ ألا يعرفون أن العصمة ليست من صفات البشر، اللهم إلا فى تبليغ الأنبياء رسالات ربهم؟ ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون فى أمر الحديث ويطالبون من يأتيهم بشىء منه لم يسمعوه أن يوافيهم بالبرهان على صحته. كما أن علماء الحديث لم يقبلوا عشرات الآلاف من الأحاديث التى وصلتهم بل غربلوها فلم يصححوا منها سوى نسبة جد ضئيلة؟ فلِمَ يُطْلَب منا أن نخرس فلا نحاول التحقق من صحة ما صححوه؟ ترى هل سيحاسبهم الله بدلا منا، ومن ثم ينبغى أن "يشيلوا هم وحدهم الليلة"، ويوم القيامة نعتذر لمولانا الكبير المتعال بأننا لسنا سوى تابعين؟ لكن القرآن قد حسم المسألة موضحا أن التابعين والمتبوعين سوف يحاسبون جميعا، وسوف يكون الحساب عسيرا، وربما كان المصير تعيسا.

إن مثل ذلك الحديث يثير التهكم لدى الملاحدة والعلمانيين، ويسخرون بسببه منا نحن المؤمنين، ولهم الحق، فهو يناقض العقل ويتنكر لطبيعة الطاقات البشرية ولا يتمشى مع ما نعرفه من قوانين الحياة البيولوجية والنفسية والاجتماعية، فضلا عن مدابرته لحقائق الرياضيات التى متى ما استعنَّا بما فيها من جمع وطرح وضرب وقسمة فلسوف نجد أن الأمر لا يستقيم لأن مجامعة مائة امرأة لا يمكن أن تكفيه ساعات الليل حتى لو لم يكن للمُجَامِع من عمل سوى الجماع. ولكن على من تلقى مزاميرك يا داود؟

قد ينبرى من يقول إن الأمر كله معجزة، فلا ينبغى أن يقاس بمقاييسنا العادية. لكن نسى من يمكن أن يقول هذا أن المعجزة لون من التكريم الإلهى للرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا معناه أنه سبحانه راض عما يفعلون، فهو لذلك يعضدهم ويكرمهم ويجعل الآية التى يعضدهم بها دليلا على رضاه عنهم وعن سلوكهم وأنه معهم. فهل كان الله مع سليمان فيما فعل حسبما يقص علينا ذلك الحديث؟ لو كان معه لحقق له مراده وجعل كل نسائه يحملن فى تلك الليلة تحقيقا لرغبته. لكننا ننظر فنجد أنه عز وجل لم يكن راضيا عما صنع رسوله عليه السلام، إذ لم يقدم المشيئة، فضلا عن عدم انصياعه إلى ما

نبه إليه الملاك حين ذكَّره بما ينبغى أن يقول قبل معاشرته لزوجاته. من هنا نقول إن الأمر ليس فيه من المعجزة قليل أو كثير، وإلا فأين المعجزة فى أن يهب الله له شِقّ ولد؟ إنه عقاب لا تكريم كما هو واضح.

ويقول شبير أحمد أيضا فى كتابه: "مجرمو الإسلام"، عن الحديث التالى: "عن أبى هريرة: حَفِظْتُ مِن رَسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وِعاءَيْنِ. فأمّا أَحَدُهُما فَبَثَثْتُهُ، وأَمّا الآخَرُ فلوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هذا البُلْعُومُ"، إن أبا هريرة لا يمكن أن يكون قد روى هذا الحديث، بل هو من وضع عبد الله بن سبإ بغية فتح الباب أمام تفسير القرآن تفسيرا باطنيا، فقد شهد القرآن للنبى عليه السلام بأنه بلغ الرسالة كلها عن آخرها. ولا يمكن أن يختص أبا هريرة بشىء منها ويحجبه عن الصحابة الآخرين. بيد أن لشراح هذا الحديث فى موقع "الباحث الحديثى" توجيها لهذا الذى رده شبير أحمد. وهذا ما قالوه:

"فى هذا الحَديثِ يحكى أبو هُرَيرةَ رَضى اللهُ عنه أنَّه حَفِظَ مِن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم صِنفَينِ مُختلفَينِ من العِلمِ أحدُهما: عِلمُ الشَّريعةِ المُتعلِّقُ بالعقائدِ والأحكامِ، وهذا قد نشَرَه وبلَّغه، وأمّا الآخَرُ فلو بَلَّغه وتحدَّثَ به إلى النّاسِ لَذُبِحَ ذَبْحَ الشّاةِ مِن البُلعومِ، وهو مَجْرى الطَّعامِ. ولعلَّ هذا العلمَ هو ما يَتعلَّقُ بأخْبارِ وُلاةِ السُّوءِ أو الفِتَنِ، كقَتْلِ عُثمانَ والحُسينِ رَضى اللهُ عنهما. وقد يقولُ قائلٌ: كيف استجازَ كَتْمَ الحديثِ عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد قال: "بَلِّغوا عنى"؟ وكيف يقولُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ما إذا ذُكِر قُتِلَ راويه؟ وكيف يستجيزُ المسلِمون مِن الصَّحابةِ الأخيارِ والتّابعين قتْلَ مَن يَرْوى عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ فالجوابُ أنَّ هذا الذى كَتَمَه ليس مِن أمرِ الشَّريعةِ، فإنَّه لا يَجوزُ كِتمانُها. وقد كان أبو هريرةَ نفْسُه يقولُ كما رواهُ عنه البخارى: "لولا آيةٌ فى كِتابِ اللهِ ما حدَّثْتُكم، وهى قولُه: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ والْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنّاهُ لِلنّاسِ فِى الْكِتابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُونَ * إِلّا الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنا التَّوّابُ الرَّحِيمُ" (البقرة/ ١٥٩- ١٦٠)". فكيف يُظَنُّ به أنْ يَكتُمَ شَيئًا مِن الشَّريعةِ بعدَ هذه الآيةِ، وبعْدَ أمْرِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبلَّغَ عنه، وقد كان يقولُ لهم: "لِيُبلِّغِ الشاهدُ منكم الغائبَ"؟ وإنَّما هذا المكتومُ مِثلُ أنْ يقولَ: فُلانٌ مُنافِقٌ، وستَقْتُلون عُثمانَ، و"هَلاكُ أُمَّتى على يَدَى أُغَيْلِمَةٍ مِن قُرَيْشٍ"، بنو فُلانٍ. فلو صرَّحَ بأسْمائِهم لكذَّبوه وقَتَلوه. وفى الحديثِ فَضيلةُ أبى هُرَيرةَ رَضى اللهُ عنه. وفيه تَعريضُ الآمِرِ بالمعروفِ إذا خافَ على نفْسِه فى التَّصريحِ".

* * *

على أن هذا لا يعنى أن من ينتقدون الأحاديث لم يصيبوا الحق البتة فى حكمهم على هذا الحديث أو ذاك، فهناك أحاديث أرى أنها لا يمكن أن يكون قد قالها الرسول عليه السلام، لكن الفرق بينى وبينهم أنى لا أخطئ الأحاديث جملة بل أرى أن بعضها باطل، وأنى لا أجزم بأن ما أقوله هو الصواب الذى لا يأتيه الخطأ من بين يديه ولا من خلفه، أما هم فيريدون محو الأحاديث كلها بحيث لا يبقى سوى القرآن مؤقتا ثم بعد ذلك يهاجمون القرآن ذاته فى مرحلة لاحقة بأسلوب الخطوة خطوة، وأنهم لا يعرفون الاحتياط فى الحكم على ما ينكرونه من أحاديث، فضلا عن أن من قرأت لهم يَتَّسِمون بقلة العلم والتسرع ويخطئون فى اللغة أخطاء تنم عن جهل.

وهذه أمثلة من تحليلى لبعض أحاديث منسوبة لرسول الله لا أطمئن إليها. فمن ذلك الحديث التالى: "عن أبى هريرة: لقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بالصَّلاةِ فَتُقامَ، ثُمَّ أُخالِفَ إلى مَنازِلِ قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلاةَ فَأُحَرِّقَ عليهم". وفى رواية أخرى نصٌّ على أنها صلاة الجمعة. وأول شىء يلفت الانتباه أنى لا أستطيع أن أتذكر أية أحاديث تتحدث عن تخلف ناس من المسلمين عن الصلاة. ليس هذا فحسب بل هناك حديث بأن النبى عليه السلام كان يخطب الجمعة ذات يوم إذ سُمِعَتْ ساعتئذ ضجة جراء وصول قافلة تجارية إلى المدينة، فنهض بعض المصلين وتركوا النبى والخطبة فرحا بوصول القافلة التى وضعوا أموالهم فيها ورغبة فى الاطمئنان على مصير تلك الأموال والحصول على أنصبائهم فى تجارتها، ومع هذا فلا الرسول ولا القرآن وضعا عقابا على هذا، وهو ليس بالأمر الهين. وكل ما هنالك أن نزلت بعض الآيات الكريمة تعاتبهم على صنيعهم ذاك ولم تتوعدهم ولم تشنع عليهم بل اكتفت بالقول بأن ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة. ثم ما الذى منع النبى عليه السلام من تنفيذ ما كان ينويه من تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة؟ ولا ريب أن تحريق البيوت ليس بالعقوبة الضئيلة بل هو خراب ودمار وتشريد، فهل فى الصلاة حد يقول بتحريق بيوت من لا يؤدونها جماعة سواء كانت صلاة عادية أو صلاة جمعة؟ إن التحريق لا يشكل أية عقوبة فى الإسلام على أى ذنب لا على ترك الصلاة ولا على ترك الصيام أو الزكاة أو الحج ولا على الزنا أو القتل أو شرب الخمر أو تعاطى الربا أو الفرار من القتال. بل إنه عليه السلام لم يحرق بيوت الخونة من بنى قريظة الذين كادوا يتسببون فى محق الإسلام بغدرهم وموالستهم لمشركى قريش واشتراكهم معهم فى حصار المدينة فى غزوة الخندق على عكس ما توجبه عليهم نصوص الصحيفة التى كتبها النبى بينه وبين يهود أول مهاجره إليها. وبالمثل لم يحرق ولا فكر فى أن يحرق بيت أحد من المنافقين بما فيهم أولئك الذين خططوا ذات مرة لاغتياله وهو عائد من إحدى الغزوات. وما ذنب النساء والأطفال الذين سوف تحرق بيوت أهليهم، وهم لم يجترحوا إثما ولا قصروا فى شىء لأن صلاة الجمعة وصلاة الجماعة اليومية ليست واجبة عليهم؟ إن الدول إنما تبنى لمواطنيها المساكن ولا تحرقها، فكيف ينقلب الوضع فى الإسلام على هذا النحو العجيب؟ وهل يمكن أن يمر أمر كهذا دون أن يكون له صدى فى كتاب الله؟ بل أين أسماء الذين كانوا يغيبون عن الجُمَع والجماعات؟ غريب أن تسكت الأحاديث فلا تورد أسماءهم. وبطبيعة الحال سوف تساعد الدولة أولئك الرجال فى بناء مساكن أخرى تضم أسرهم إذ لا يمكن تركهم يعيشون فى العراء. أى أن الدولة بعد أن تحرق سوف تبنى بيوتا عوضا عن تلك التى أحرقت. وهذا تصرف غاية فى العبث والتخبط نعيذ رسولنا الكريم منه.

كذلك هل يمكن أن نقتنع بأن هناك فى الإسلام عقوبة دون تحذير مسبق ودون نص عليها وعلى الشروط التى ينبغى توافرها قبل إيقاعها بالشخص المستحق لها؟ ومن الواضح أن من لا يصلى الجمع أو الجماعات فى الحديث لم يكن رجلا واحدا بل رجالا، فكلما حاولتُ تخيل الوضع فى المدينة وقد اشتعلت بيوت من لا يصلون الجمع أو فى جماعات وتطايرت النيران والأدخنة لم أشعر بالارتياح أبدا، وبخاصة إذا تطايرت شعلة من تلك الشعل وأمسكت فى بيوت أخرى. وأخيرا وليس آخرا كيف يعاقب

النبى أولئك الرجال على تركهم الجمع أو الجماعات ثم يترك هو نفسه الصلاة ويذهب لعقابهم؟ ألا إنها لمفارقة عجيبة.

* * *

"عن أبى هريرة: وَكَّلَنِى رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بِحِفْظِ زَكاةِ رَمَضانَ، فأتانِى آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعامِ فأَخَذْتُهُ، وقُلتُ: واللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إلى رَسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، قالَ: إنِّى مُحْتاجٌ، وعَلَى عِيالٌ، ولِى حاجَةٌ شَدِيدَةٌ. قالَ: فَخَلَّيْتُ عنْه فأصْبَحْتُ، فَقالَ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: يا أبا هُرَيْرَةَ، ما فَعَلَ أسِيرُكَ البارِحَةَ؟ قالَ: قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، شَكا حاجَةً شَدِيدَةً وعِيالًا، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قالَ: أما إنَّه قدْ كَذَبَكَ، وسَيَعُودُ. فَعَرَفْتُ أنَّه سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إنَّه سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعامِ، فأخَذْتُهُ فَقُلتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إلى رَسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. قالَ: دَعْنِى، فإنِّى مُحْتاجٌ وعَلَى عِيالٌ. لا أعُودُ. فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فأصْبَحْتُ، فَقالَ لى رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: يا أبا هُرَيْرَةَ، ما فَعَلَ أسِيرُكَ؟ قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، شَكا حاجَةً شَدِيدَةً وعِيالًا، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قالَ: أما إنَّه قدْ كَذَبَكَ، وسَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعامِ، فأخَذْتُهُ فَقُلتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إلى رَسولِ اللَّهِ. وهذا آخِرُ ثَلاثِ مَرّاتٍ أنَّكَ تَزْعُمُ لا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. قالَ: دَعْنى أُعَلِّمْكَ كَلِماتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بها. قُلتُ: ما هُوَ؟ قالَ: إذا أوَيْتَ إلى فِراشِكَ فاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِى: "اللَّهُ لا إلَهَ إلّا هو الحَى القَيُّومُ" (البقرة/ ٢٥٥) حتّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فإنَّكَ لَنْ يَزالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حافِظٌ، ولا يَقْرَبَنَّكَ شيطانٌ حتّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فأصْبَحْتُ، فَقالَ لى رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ما فَعَلَ أسِيرُكَ البارِحَةَ؟ قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، زَعَمَ أنَّه يُعَلِّمُنِى كَلِماتٍ يَنْفَعُنِى اللَّهُ بها، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قالَ: ما هى؟ قُلتُ: قالَ لِى: إذا أوَيْتَ إلى فِراشِكَ فاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِى مِن أوَّلِها حتّى تَخْتِمَ الآيَةَ: "اللَّهُ لا إلَهَ إلّا هو الحَى القَيُّومُ "(البقرة/ ٢٥٥). وقالَ لِى: لَنْ يَزالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حافِظٌ، ولا يَقْرَبَكَ شيطانٌ حتّى تُصْبِحَ (وكانُوا أحْرَصَ شىء على الخَيْرِ). فَقالَ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: أمَا إنَّه قدْ صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ. تَعْلَمُ مَن تُخاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيالٍ يا أبا هُرَيْرَةَ؟ قالَ: لا. قالَ: ذاكَ شيطانٌ".

والحق أنه ليس من المعقول أن يصر الجنى بطل قصتنا فى كل مرة على أن يأتى المسجد فى هيئة مادية بحيث يراه أبو هريرة ويمسك به رغم أن الجن لا يُرَوْن. ألم يقل القرآن المجيد عن الشيطان: "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا تَرَوْنهم"؟ فكيف يترك الجنى طبيعته التى خلقه الله عليها، معطيا بذلك أبا هريرة الفرصة للقبض عليه وأخذه أسيرا؟ إن هذا أشبه بلص عقد العزم على سرقة دارة لأحد الأغنياء، وكان يستطيع أن يسطو على تلك الدارة ليلا أثناء غياب أهلها فى سفر مثلا فيأخذ ما لذ وطاب من الطعام والأموال والملابس دون أن يزعجه مزعج، إلا أنه يصر على ألا يفعل هذا إلا فى عز النهار وفى وجود صاحب الدارة الذى لم يكن سوى مدير المباحث ذاته بشحمه ولحمه، ثم لا يكتفى بهذا بل يصر على أن يكون دخوله من الباب الأمامى، والأسرة كلها، وعلى رأسها عائلها كبير رجال المباحث، جالسون يتناولون طعام الغَدَاء فى الردهة. فهل هذا مما يعقله عاقل؟ ثم هل طعام الجن هو طعامنا حتى يقال إن الجنى كان يريد أن يسرق القمح من المسجد؟ وحتى لو قيل إن طعامهم هو نفسه طعام البشر، وهذا

غير صحيح، ثم قلنا فوق هذا إن الجنى كان من معاتيه الجن فأتى المسجد فى شكل مرئى محسوس معرضا نفسه للقبض عليه رغم أنه كان يمكنه الإتيان فى هيئة لا تُرَى ولا تُحَسّ، فهل ضاقت الدنيا على الجنى فلم يجد إلا القمح الذى يحرسه أبو هريرة، ذلك الحارس الذى لا يغفل ولا ينام؟ ألا توجد حقول وأهراء وبساتين تمتلئ عن آخرها بالبلح والرمان والقمح والشعير وكل الحبوب التى تُطْحَن وتؤكَل؟ فكيف تركها الجنى ولم يفكر إلا فى اقتحام المسجد "عينى عينك" بحيث يراه أبو هريرة ويقبض على تلابيبه ويهدده بأخذه إلى رسول الله كى يتلقى ما يستحقه من عقاب؟ وهل يعقل أن يدل الشيطان أحدا من البشر على خير، وهو الموكَّل بالشر والإفساد والحث عليه؟ وما الذى جعل الشيطان يَصْدُق فى حديثه إلى أبى هريرة، والصحابى الجليل لن يمكنه التحقق مما قاله إلا بعد أن يكون قد طار من يده ولم يعد فى مستطاعه أن يؤاخذه حين يكتشف أنه قد كذب عليه؟ اللهم إلا إذا قيل إن الشخص الذى أمسك به أبو هريرة كان من شياطين الإنس لا الجن، وهو جائز جدا حسب استعمال القرآن لهذه الكلمة كما فى قوله تعالى: "شياطين الإنس والجن"، وحسبما ورد فى الحديث التالى من "صحيح البخارى" على سبيل المثال: "حدثنا أبو معمر: حدثنا عبد الوارث: حدثنا يونس عن حميد بن هلال عن أبى صالح عن أبى سعيد، قال: قال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: إذا مر بين يدى أحدكم شىء وهو يصلى فلْيمنعه. فإنْ أَبَى فلْيمنعه. فإن أبى فليقاتله، فإنما هو شيطان."

لكن هناك عدة أسئلة مهمة هى: هل يعقل أن يكون بين سكان المدينة المنورة فى ذلك الوقت حين كانت قرية صغيرة محدودة، وكل شخص يعرف كل شخص هناك، من يجهله أبو هريرة؟ فكيف لم يعرف رضى الله عنه اللص الذى ضبطه وهو يعبئ القمح فى غرارته أو فى حجر ثوبه؟ وكيف صدقه وهو يعرف جيدا أن الرسول لم يكن يترك محتاجا دون أن يعطيه ما يحتاجه هو وبيته من مال الصدقة؟ بل كيف تكتَّم الخبر وستر على اللص، وهو ليس صاحب المال المسروق؟ بل هل كان يمكن أن يدور فى خاطر أحد آنذاك أن يسرق من مال الصدقة؟ وكيف تركه دون أن يسأله: من أنت؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ بل كيف سكت عليه ثلاث مرات دون أن يبلغ رسول الله بما وقع حتى إن الرسول هو الذى كان يفاتحه فى ذلك الموضوع؟ بل كيف لم يقل للص إنه سوف يشرح للرسول أحواله هو وأسرته حتى يجعلهم على قائمة مستحقى الزكاة؟ ولماذا لم يأت الرجل بعد ذلك فى الليالى التالية؟ أم لعله كان من أصحاب نظرية "التالتة تابتة"؟ ثم إن هذه أول وآخر مرة يحدث فيها شىء مثل ذلك. أليس ذلك غريبا؟ ثم كيف يعرف رسول الله فى كل مرة بقبض أبى هريرة على اللص ولا يعرف ماذا قاله ذلك اللص له؟

وإذا كان اللص من شياطين الجن فهل الشياطين تحتاج إلى الأكل من طعامنا نحن البشر؟ ذلك أن هناك أحاديث تقول إن الجن يأكلون العَظْم والرَّوْث. فما القول فى هذا؟ يروى أبو هريرة أن النبى عليه السلام قد حدث المسلمين ذات يوم قائلا: "إذا ذَهبَ أحدُكم إلى الغائطِ فلا يستقبِلِ القبلةَ ولا يستدبِرْها لغائطٍ ولا لبولٍ، ولْيَسْتَنْجِ بثلاثةِ أحجارٍ. ونَهَى عنِ الرَّوْثِ والرِّمَّةِ وأن يستَنجى الرَّجلُ بيمينِهِ". وفى حديث آخر، وعن أبى هريرة أيضا: "قلتُ: ما بالُ الرَّوثِ والعظمِ؟ قال: هما طعامُ الجنِّ".

وإذا قلنا، رغم ذلك، إنها تأكل مثلنا فهل تأكل يا ترى نفس الطعام وبنفس الطريقة بحيث يحتاج شيطاننا هذا إلى سرقة القمح؟ وماذا يفعل الشياطين بالقمح؟ هل لديهم رَحًى أو ماكينة طحين يطحنون فيها القمح ويحولونه دقيقا يصنعون منه الخبز؟ فأين تلك الرحى أو تلك الماكينة؟ ولماذا لم يفكر شيطاننا فى سرقة خبز جاهز ما دام أولاده يتضورون جوعا إلى هذا الحد بدل أن يضيع الوقت فى الطحين والعجن والخبز فيكون أولئك الشياطين الصغار قد ماتوا؟ ولكن هل يكتفى الشياطين بالخبز الحافى؟ فلماذا إذن لم يحاول اللص الشيطان سرقة بعض اللحوم أو حتى اللبن والجبن والتمر لزوم التغميس؟ بل هل كان ذلك الشيطان يحتاج إلى السرقة من مال الصدقة الذى فى المسجد والذى يحرسه أبو هريرة، وعنده كما قلنا جميع الحقول والأهراء التى حول المدينة ويمكنه أن يأخذ منها ما يحتاجه هو وكل الشياطين من القمح وغير القمح دون أن يبصره أبو هريرة أو غير أبى هريرة؟ وإذا قلنا إنه شيطان مبتدئ لم يتشرب صنعة الشيطنة على أصولها، وعوضا عن ذلك أصر على سرقة المال الذى فى المسجد، فلماذا لم ينتظر حتى يذهب أبو هريرة فى سابع نومة فيعمل عملته وقتذاك ويحمل ما يشاء من قمح دون أن يحس به أحد أو يتعرض له أحد؟ بل هل الشياطين تحتاج إلى أن تظهر للناس، وبخاصة حين تريد أن تسرقهم؟ يا له من شيطان غبى! لكن هل هناك شيطان غبى؟ وإذا كان شيطانا من شياطين الجن أكان ينصح أبا هريرة تلك النصيحة الخيرة؟ ترى متى كانت الشياطين تفكر فى الخير، فضلا عن أن تنصح به، فضلا عن أن تكون النصيحة ضارة بهم هم أنفسهم بحيث لا يستطيعون بعدها أن يمارسوا صنعة الشيطنة معنا نحن البشر؟ وأنا لا أتهم الصحابى الجليل الذى أحبه حبا يفوق الحد ودافعت عنه دفاعا ملتهبا فى دراسة لى طويلة على المشباك، بل الخطأ من غيره. وهذا إذا لم أكن أنا المخطئ فى كل ما قلته. فأنا، فى نهاية المطاف، بشر أصيب وأخطئ، وليس لى من العصمة قليل ولا كثير.

* * *

ومن أحاديث الجن والشياطين الحديث التالى برواياته المختلفة: "عن أبى هريرة: إنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ البارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَى صَلاتِى، فأمْكَنَنِى اللَّهُ منه، فأخَذْتُهُ فأرَدْتُ أنْ أرْبُطَهُ على سارِيَةٍ مِن سَوارِى المَسْجِدِ حتّى تَنْظُرُوا إلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أخِى سُلَيْمانَ: "رَبِّ هَبْ لى مُلْكًا لا يَنْبَغِى لأحَدٍ مِن بَعْدِى"، فَرَدَدْتُهُ خاسِئًا". "عن أبى سعيد الخدرى: أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قامَ فصلّى صلاةَ الصُّبحِ، فالتبَسَت علَيهِ القراءةُ، فلمّا فرغَ من الصَّلاةِ قالَ: لو رأيتُمونى وإبليسَ، فأَهْويتُ بيدى، فما زلتُ أخنقُهُ حتّى وجدتُ بَردَ لُعابِهِ بينَ أصبعى هاتينِ: الإبهامِ والَّتى تليها. ولولا دعوةُ أخى سُلَيْمانَ لأصبَحَ مربوطًا بساريةٍ من سوارى المسجدِ يتلاعبُ بِهِ صبيانُ المدينةِ". "عن جابر بن سمرة: صَلَّينا مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم صَلاةً مكتوبةً، فضمَّ يَدَه فى الصَّلاةِ، فلمّا قَضى الصَّلاةَ، قُلنا: يا رسولَ اللهِ، أحَدَثَ فى الصَّلاةِ شَيء؟ قال: لا، إلّا أنَّ الشَّيطانَ أرادَ أنْ يَمُرَّ بين يَدَى فخَنَقتُه حتى وَجَدتُ بَرْدَ لِسانِه على يَدِى، وايمُ اللهِ، لولا ما سَبَقَنى إليه أخى سُلَيمانُ لَنِيطَ إلى ساريةٍ من سَوارى المَسجِدِ حتى يُطيفَ به وِلدانُ أهلِ المدينةِ". "عن جابر بن سمرة: صلى صلاةً مكتوبةً فضمَّ يدَه، فلما صلّى قالوا: يا

رسولَ اللهِ! أحدث فى الصلاةِ شيء؟ قال: لا، إلا أن الشيطانَ أراد أن يمرَّ بين يدى، فخنقتُه حتى وجدتُ بردَ لسانِه على يدى، وايم اللهِ لولا ما سبقنى إليه أخى سليمانُ لارتبطُته إلى ساريةٍ من سوارى المسجدِ حتى يطيفَ به ولدان أهلِ المدينةِ. فمن استطاع ألا يحولَ بينه وبين القبلةِ أحدٌ؛ فليفعلْ". "عن أبى سعيد الخدرى: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قام فصلّى صلاةَ الصبحِ، وهو خلفَه، فقرأَ فالتبَستْ عليه القراءةُ. فلمّا فرغ من صلاتِهِ قال: لو رأيتمونى وإبليس، فأهويتُ بيدى فما زلتُ أخنقهُ حتّى وجدتُ بردَ لعابهِ بين أصبعى هاتينِ: الإبهامِ والتى تليها. ولولا دعوةُ أخى سليمانَ لأصبح مربوطًا بساريةٍ من سوارى المسجدِ يتلاعبُ به صبيانُ المدينةِ. فمنِ استطاع منكم ألا يحُولَ بينه وبين القبلةِ أحدٌ فليفعلْ"... إلخ.

وأول ما يفد إلى الذهن أن مصارعة الشياطين إن كانت تتم بهذه الطريقة لنجح البشر جميعا فى دخول الجنة لأنه لن يكون عليهم مجاهدات نفسية وروحية وأخلاقية بل مجرد اشتباك يدوى يمسك الإنسان الجن خلاله من رقبته ويظل يعصرها حتى تفيض روحه. لكن الرسول عليه السلام هو نفسه الذى قال: إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم، أو مجرى الدم والروح. فالشيطان يوسوس لنا ولا يدخل معنا فى عراك جسدى لأنه ليس مخلوقا ماديا. كما شرعت الاستعاذة للتخلص من وسوسة الشيطان ولم يقل القرآن ولا الحديث إنه قد شرع، إلى جانب الاستعاذة، المصارعة البدنية. قال تعالى: "قل أعوذ برب الناس *... * من شر الوسواس الخناس * الذى يوسوس فى صدور الناس".

كذلك يفهم من الحديث أن الشيطان قد نجح فى إفساد صلاة النبى عليه السلام إذ أخرجه منها، فأمسكه وظل يخنقه وترك الصلاة وانشغل به. كما أن الروايات تختلف فى الصلاة التى كان يصليها النبى: ففى إحدى الروايات أنها كانت ليلية لأن التعبير عنها كان بكلمة "البارحة"، وفى رواية أخرى أنها صلاة الصبح، لكن يعترض عليها بأن تعبير الرسول هو "لأصبح مربوطا بسارية المسجد"، فكيف تكون الصلاة صلاة الصبح، وهو ما يعنى أن الناس قد "أصبحت" فعلا، ثم يقال إن الجنى سوف "يصبح" مربوطا بسارية المسجد؟ فهل هناك إصباحان فى كل يوم؟ ولنفترض أن الجنى قد ربط بسارية المسجد أفهو عاجز عن هز السارية فيخلخل بناء المسجد ويسقط السقف على رؤوس الموجودين؟ بل هل الجنى كائن مادى أصلا حتى يمسك ويربط بحبل؟ وهل له رقبة يخنق منها ولعاب يسيل من فمه؟ وهل ربط الجنى فى سارية المسجد يعارض دعوة سليمان أن يجعل الله له مُلْكًا لا يتاح لأحد من بعده؟ لقد كانت نتيجة الدعوة، ضمن أشياء أخرى، أن يسخر الله له الجن بنائين وغواصين، والنبى لم يكن ليشغّل الجنى بناء ولا غواصا ولا حتى كناسا بل سوف يربطه فى عمود الجامع ليس إلا. وهل الجن يظهر للبشر، وقد قال القرآن عن الشيطان فى سورة "الأعراف": "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم"، والرسول نفسه عليه الصلاة والسلام لم يعرف بوجود الجن حين استمعوا إليه فى مكة وهو يقرأ القرآن بل أخبره الوحى بذلك كما فى سُورَة "الجن"؟ فكيف يمكن أن يرى صبيان المدينة ذلك الجنى، وهو من جنس لا يظهر للبشر؟ وماذا فى أن يتلاعب الصبيان به ويقضوا وقتا بهيجا فى ذلك؟ هل كان سليمان ليغضب لو نما إلى علمه ذلك؟ ثم كيف يا ترى التبست القراءة على سيدنا رسول الله عليه

السلام؟ وكيف ينفق النبى كل هذا الوقت فى القبض على الجنى وخنقه وما إلى ذلك فلا يلحظ المسلمون الذى كان يؤمهم فى الصلاة إلا أنه "قبض يده" فقط حتى إنهم ليسألونه عما حدث؟ أيلاحظون قبض يده ولا يلاحظون المعركة الشرسة التى نشبت بينه عليه السلام وبين الجنى الشقى؟ وهل لو لم يترك المصلون مسافة بينهم وبين القبلة ينجون من الوسوسة فى الصلاة؟ إن الوسوسة تتم فى كل الأحوال كما نعرف كلنا لأن الشيطان يسكن عقولنا ونفوسنا ولا يسكن فى أبنية أو خرائب. والقرآن يقول على لسان الشيطان: "ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم". ومعناه أن الشيطان يأتينا من كل اتجاه، ولا تضيق عليه أية مسافة حتى لو التصق المصلى بجدار القبلة التصاقا. وفوق ذلك كيف لاحظ الصحابة حركة يد الرسول وهم يقفون خلفه ولا يرون شيئا من يديه؟ وكيف تلتوى القراءة على الرسول ولا يلاحظ الصحابة هذا الالتواء؟

و"عن جابر بن عبد الله: لا تَلِجُوا على المُغِيبات، فإنَّ الشَّيطانَ يجرى من أحدِكم مجرى الدَّمِ. قلنا: ومنْكَ؟ قالَ: ومنِّى، ولكنَّ اللَّهَ أعاننى عليْهِ، فأسلم". "عن عبد الله بن مسعود: ما مِنْكم مِنْ أحدٍ إلّا وقد وُكِّلَ بهِ قرينٌ منَ الجنِّ. قالوا: وبِكَ؟ قالَ: وبى إلّا أنَّ اللَّهَ أعانَنى علَيه، فأسلَمَ". "عن عبد الله بن مسعود: ما منكم من أَحَدٍ إلّا وقدْ وُكِّلَ به قَرِينُهُ منَ الجِنِّ. فقيل: وإيّاكَ؟ قال: وإيّاى، ولكنَّ اللهَ أعانَنى عليه، فأسلَمَ فلا يأمُرُنى إلّا بخير". إذن فالنبى، حسب هذه الأحاديث، لا يمكن أن يوسوس له الجنى أو الشيطان بشر أبدا بل يأمره دائما بالخير. ومع هذا رأينا الجنى أوالشيطان لا يوسوس له فقط بل يعرض له بجسده، الذى لا وجود له لأنه ليس كائنا ماديا كما قلنا، ويلبِّس عليه القراءة ويخرجه عن الصلاة ويضطره إلى عراكه وخنقه وما إلى ذلك. كل هذا، وهو مُسْلِم ولا يمكن أن يأمره إلا بخير. ترى ماذا كان يمكنه أن يفعل لو لم يكن الله قد أعان نبيه عليه وكتب عليه أن يسلم فلا يأمره إلا بخير؟

* * *

ومن الأحاديث التى تُلُقِّيَتْ بعض رواياتها بالقبول من حيث السند، لكن فى النفس منها أشياء الحديث التالى الذى سوف أورد رواياته المختلفة، وهو عن غرق فرعون: "قال لى جبريلُ: يا محمَّدُ، لو رأَيْتَنى وأنا آخُذُ من حالِ البحرِ فأدُسُّه فى فرعونَ مخافةَ أن يقولَ: "ربِّ"، فتُدرِكَه رحمةُ اللهِ" (الراوى: أبو هريرة/ المحدث: ابن عدي/ المصدر: الكامل فى الضعفاء. خلاصة حكم المحدث: فيه حفص بن سليمان. عامة حديثه غير محفوظ). "قال لى جبريلُ عليه السلامُ: يا مُحمَّدُ، لو رأيتَنى وأنا آخُذُ من حالِ البحرِ فأدُسُّه فى فَمِ فِرعَونَ مَخافَةَ أنْ يقولَ: "ربِّ"، فتُدرِكَه رحمةُ اللهِ" (الراوى: أبو هريرة/ المحدث: ابن القيسراني/ المصدر: ذخيرة الحفاظ/ خلاصة حكم المحدث: فيه حفص بن سليمان. متروك الحديث". "قال جبريلُ عليهِ السلامُ: لوْ رأيتَنى وأنا آخذُ مِنْ حالِ البحرِ (بالفارسيةِ يَعنى الترابَ) فأدسُّهُ فى فِى فرعونَ مخافةَ أنْ تدركَهُ الرحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: الجورقاني/ المصدر: الأباطيل والمناكير/ خلاصة حكم المحدث: حسن). "لما أغرق اللهُ فرعونَ قال: آمنتُ أنه لا إله إلا الذى آمنتْ به بنو إسرائيلَ. فقال جبريلُ: يا محمدُ، فلو رأيتَنى وأنا آخذُ من حالِ البحرِ فأدسُّه فى فيهِ مخافةَ أن تدركَه الرحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث:

الزيلعي/ المصدر: تخريج الكشاف/ خلاصة حكم المحدث: له طرق). "قالَ جبريلُ: لو رأيتَنى وأَنا آخذُ من حالِ البحرِ فأدسُّهُ فى فمِ فرعونَ مخافةَ أن تُدْرِكَهُ الرَّحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: ابن حجر العسقلاني/ المصدر: تحفة النبلاء/ خلاصة حكم المحدث: غريب). "قال لى جبريلُ: لو رأيتنى وأنا آخِذٌ من حالِ البحرِ فأدسُّه فى فى فرعونَ مخافةَ أن تُدْرِكَه الرحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: محمد جار الله الصعدي/ المصدر: النوافح العطرة/ خلاصة حكم المحدث: صحيح). "أغرَق اللهُ فِرعَونَ فقال: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ. قال لى جِبريلُ: يا محمدُ، لو رأَيتَنى وأنا آخُذُ من حالِ البحرِ فأدُسُّه فى فيهِ مَخافَةَ أنْ تُدرِكَه الرحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: الشوكاني/ المصدر: فتح القدير/ خلاصة حكم المحدث: رُوِى من غير وجه ومن طرق أخرى). "لما قال فرعون: "آمنتُ أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل" قال: قال لى جبريل: يا محمد، لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر فدَسَّيْتُه فى فيه مخافة أن تناله الرحمة" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: أحمد شاكر/ المصدر: مسند أحمد/ خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح". "أن جبريلَ عليهِ السلامُ قال للنبى صلَّى الله عليه وسلَّم: لو رأيتنى وأنا آخذُ من حالِ البحرِ فَأَدُسُّهُ فى فِى فرعونَ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: أحمد شاكر/ المصدر: مسند أحمد/ خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح). "قال لى جبريلُ: لو رأيتنى وأنا آخُذُ من حالِ البحرِ فأَدُسُّه فى فَمِ فِرعونَ مخافةَ أن تُدركَه الرحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: الألباني/ المصدر: السلسلة الصحيحة/ خلاصة حكم المحدث: صحيح). "قال جبريلُ: لوْ رأيتَنِى وأنا آخُذُ من حَماءِ البحرِ فأدُسُّهُ فى فى فِرعونَ مَخافةَ أنْ تُدرِكَهُ الرحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: الألباني/ المصدر: صحيح الجامع/خلاصة حكم المحدث: صحيح). "لما أغْرَقَ اللهُ فرعونَ قال: آمنتُ أنه لا إلَهَ إلا الذى آمنتْ به بنو إسرائيلَ. قال جبريلُ: يا محمدُ، فلو رأيْتَنِى وأنا آخُذُ من حالِ البحرِ فأدُسُّه فى فيه مخافَةَ أن تُدْرِكَه الرحَمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: الألبانى/ المصدر: صحيح الجامع/ خلاصة حكم المحدث: صحيح). "لَمَّا أغرقَ اللَّهُ فِرعونَ قالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فقالَ جبريلُ: يا محمَّدُ فلو رأيتَنى وأَنا آخذٌ من حالِ البحرِ فأدسُّهُ فى فيهِ مخافةَ أن تُدْرِكَهُ الرَّحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: الألباني/ المصدر: صحيح الترمذي/ خلاصة حكم المحدث: صحيح لغيره).

وأول ملاحظة هى أن القرآن يقول إن فرعون قد أعلن إيمانه بالله بغض النظر عن صلاحية ذلك الإيمان أو لا، وقبوله من ثم أو عدم قبوله، فى حين يقول الحديث فى معظم رواياته إن جبريل كان يضع الطين فى فمه منعا له من نطق الشهادة. فبأى النصين نأخذ؟ بالقرآن أم بتلك الروايات الحديثية؟ المفروض طبقا للمنطق والعقيدة أن يكون القرآن هو المصدَّق فى مثل تلك الحالة. والغريب أن بعض الروايات تذكر ما قاله القرآن الكريم فى ذلك الموضوع ثم تعقب عليه بما قاله جبريل مناقضا له بحيث لا تترك فرصة للقارئ كى يسهو فيقبل كلام الملاك الكريم. وعلى أية حال كيف فات النبىَّ ملاحظة هذا التناقض بين القرآن والحديث؟ ثم لماذا وُضِعَت على لسان جبريل فى كل روايات الحديث تقريبا كلمة "حال"، التى قيل إنها فارسية تعنى "التراب"؟ هل كان عليه السلام لا يعرف المقابل العربى لها؟ أم

هل شعر أن محمدا صلى الله عليه وسلم يستلطف الفارسية ويؤثرها، فى هذا الموضع على الأقل، على لغة قومه؟ ولقد حاولت أن أجد هذه الكلمة بذلك المعنى فى الشعر الجاهلى أو المخضرم أو الإسلامى، فلم ألق شيئا، وإن قابلت فى أحد الأحاديث الخاصة بوصف "الكوثر" أن "حاله" (وفى أحاديث أخرى: "ملاطه") هو المسك، ولكن من غير القول بفارسية اللفظ. أما فى القرآن المجيد فلا وجود لتلك الكلمة البتة.

كذلك فالملاحظ أن الملائكة حين تتدخل فى بعض الأحداث تدخلا خاصا نجد القرآن يذكر ذلك كما هو الحال فى حديثه عن غزوة بدر مثلا، بينما فى حديث القرآن عن غرق الفرعون لا نرى كلاما عن الملائكة قط. فلم سكت القرآن عن ذلك إذا كان جبريل قد تدخل على النحو الذى يصوره الحديث؟ كذلك ففى سورة "الأنفال" مثلا تصوير لما يصنعه الملائكة بالكفار عند وفاتهم: "ولو ترى إذ يَتَوَفَّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم، وذُوقُوا عذابَ الحريق * ذلك بما قَدَّمَتْ أيديكم وأن الله ليس بظَلامٍ للعبيد"، وهو مخالف لما ذكرتْ تلك الأحاديثُ عما صنعه جبريل مع فرعون. ثم ما دام الحديث لم يَكْتَفِ هنا بذكر الملائكة وحَدَّدَ جبريلَ تحديدا فإننا نتساءل: هل هذه مهمةُ جبريل؟ ترى أين إسرافيل ملك الموت؟ ولماذا لم نسمع به هنا، وهذا تخصصه؟ ثم ما الذى يزعج جبريل فى أن يؤمن فرعون وتدركه رحمة الله؟ أتراه يريد أن يصادر على مشيئة رب العالمين فيسبقه ليمنعه من رحمة الطاغية إن كانت هناك رحمة له؟ منذ متى تفعل الملائكة ذلك، وكأنها تتصرف من تلقاء نفسها ولا تنفذ أمر ربها؟ ثم لماذا يقول جبريل أصلا لرسول الله إنه وضع الطين فى فم فرعون ليمنعه من إعلان التوحيد، رغم أن فرعون قد أعلن إيمانه فعلا؟ ترى كيف نفسر هذا الأمر؟

إن هناك أحاديث تعنِّف أشد التعنيف من يَتَأَلَّوْن على الله فيحكمون على بعض العصاة بأنهم فى النار وتذكر أن الله يغضب ممن يفعلون ذلك ويرديهم هم فى العذاب وينجى العاصى. بل لقد قيل فى منتهى الصراحة والقوة لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بشأن الكفار: "ليس لك من الأمر شىءٌ أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهم، فإنهم ظالمون". كما تكرر فى القرآن الكريم أنه عليه السلام مجرد مبلِّغ، ولا دخل له فى الحساب أو فى سَوْق المشركين على غير إرادتهم إلى الإيمان، فما بالنا بمحاولة منعهم من ذلك الإيمان؟ وإذن فكيف نصدق أن جبريل يقدم على هذا الذى أقدم عليه؟ بل كيف يجرؤ جبريل على اقتحام الحوار الذى كان دائرا بين الله وبين فرعون دون أن يسمح الله له بذلك بل دون أن يستأذنه هو أصلا؟ أيمكن أن يقع ملاك مقرب كريم فى هذا السلوك؟ ولقد كان رسولنا الرحيم يدعو بالهداية لقومه رغم كفرهم وعُتُوِّهم وبغيهم وظلمهم وتصلبهم قائلا: "رب، اهد قومى، فإنهم لا يعلمون"، بل لقد هم أن يصلى على كبير المنافقين ابن سلول بعد موته واعتراض عمر على ذلك لولا أن نزل النهى حاسما من السماء عن الصلاة عليه، ورغم هذا لم يتوان عن إعطاء ابنه ثوبه الطاهر عليه السلام ليكفنه فيه رجاء الرحمة، فكيف اتخذ جبريل خطةً مناقضةً بغيةَ ألا يرحم الله فرعون سواء كان ممن يعلمون أو من الذين لا يعلمون؟

ولنفترض أن جبريل قد استطاع منع فرعون من النطق بالشهادة فعلا فهل ينخدع الله بذلك فيخرج نية فرعون فى الإيمان من الاعتبار إن كان هناك مجال لتقبل الإيمان منه وإسباغ الرحمة عليه من ثم؟ إن الإسلام هو دين النيات. والعامة تقول بحق: "ربنا رب قلوب". فلو كان إيمان فرعون صحيحا لما نفع صنيع جبريل معه؟ لكن المشكلة هنا ليست فى النطق أو عدم النطق بل فى النية، ولم تكن نية فرعون نقية بل كان سببها الرعب اللحظى بحيث إنه لو قُدِّر له أن ينجو من الغرق لرجع ثانية إلى الكفر والتمرد. ولقد وضحت بعض أحاديث الرسول عليه السلام أن التوبة تظل مقبولة من العبد ما لم يغرغر. ويقول القرآن فى هذا الصدد: "وليست التوبةُ للذين يعملون السيئات حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال: "إنى تبتُ الآن" ولا الذين يموتون وهم كفار". وبهذا تنحسم المسألة دون أن تكون هناك حاجة لطين البحر، أو "حاله" إذا كان لنا أن نرطن بالفارسية. وهذا إن كانت الكلمة فارسية أصلا، وهو ما أردتُ التحقق منه فى المعاجم الخاصة بتلك اللغة فلم أجد لها أثرا. ثم لماذا كان لابد من استعمال التراب أو الطين فى منع فرعون من النطق، والماء بحمد الله فى البحر كثير لا يمنعه فقط من النطق بل من الحياة كلها؟

والعجيب أيضا، ما دمنا بصدد اللغة، أن بعض روايات الحديث تبدأ بذكر غرق فرعون أولا، ثم تتحدث عن وضع جبريل تراب البحر أو طينه فى فمه، أى بعد خراب بصرة فيما يُفْهَم من النص، أما القرآن فيقول بوضوح تام إن فرعون، حين أراد إعلان إيمانه، لم يكن قد غرق بل "أدركه الغرق". وعلى هذا فما لزوم وضع الطين فى فمه لحرمانه من فرصة النجاة، وهو قد غرق وانتهى أمره؟ وأخيرا لِمَ يحرصُ جبريل على إخبار الرسول بأنه هو الذى منعه من الإيمان؟ أليقول: إننى أنا الذى منعته، وليس الله هو الذى رفض ذلك الإيمان المدخول؟ وأخيرا ما مناسبة حديث جبريل إلى رسول الله فى هذا الموضوع؟ للأسف قد سكت الرواة عن ذلك، وهو ما كان من شأنه لو ذُكِر أن ينير لنا بعض الجوانب المعتمة فى القصة. أكتب هذا وأنا على استعداد للتراجع متى ما ظهر فى المسألة شىء جديد لم يكن متاحا لنا. فكل ما كتبته هنا هو مجرد اجتهاد بشرى يصيب ويخطئ.

ومن الأحاديث التى أريد أن أناقشها أيضا الحديث التالى: "أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِى بَعْدَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ بِالأَنْفُسِ"، أى بالعين. ووجه الغرابة فى هذا الكلام هو أنه يشترط قضاء الله وقدره فى الإصابة بالعين، وكأن الإصابات الأخرى لا تستلزم ذلك. أما إذا كان المقصود هو وضع الموت بالعين فى فئة أخرى من الوَفَيَات خارج قضاء الله وقدره فمعنى ذلك أن هناك من ألوان الموت ما يمكن ألا يخضع للقضاء والقدر. وفوق ذلك فالحديث يقرر أن أكثر الموت فى أمة المسلمين راجع إلى العين مع أن وقائع التاريخ لا تساعد على هذا الاقتناع، ودعك من أنه يجعل منا أمة من الحسادين الذين يصيب بعضهم بعضا بنظرات العيون. ويكفى فى التدليل على خطإ ذلك الكلام أن مرض سهل بن حنيف فى الماء بسبب نظر عامر بن ربيعة إليه وثنائه على بشرته البيضاء وهو يستحم عاريا على ما سوف يأتى للتو هو، فيما نعلم، الحالة الوحيدة من الإصابة بالعين فى عهده صلَّى الله عليه وسلَّم وعهد الخلفاء الراشدين على الأقل، إذ لم نسمع بحالة غيرها آنذاك.

لا أجهل أن هناك حديثا منسوبا للنبى عليه الصلاة والسلام يقول: "العين حق. ولو كان شىء سابق القدر سبقته العين، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغتسلوا". ولو ثبت أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد قال ذلك وحيا من السماء، وبالمعنى الذى يقصده من يؤمنون بالعين، لما كان لى إلا أن أصدق ما قاله سيدنا رسول الله. لكن لى عدة ملاحظات: هل قال النبى ذلك فعلا؟ الجواب هو أن كتب الحديث تقول إن هذا حديث صحيح. إذن فمن حيث الرواية: الحديث صحيح. لكن هل إذا كان الحديث صحيحا فى نظر أهل الحديث من ناحية الإسناد أفلا بد أن يكون صحيحا بالضرورة؟ هل الأحاديث مجرد رواية لا دخل لها بالتفكير المنطقى فى مضمونها ومعناها؟ ثم هل قاله صلَّى الله عليه وسلَّم على سبيل الوحى؟ أم هل كان ذلك مجرد اجتهاد منه كاجتهاده فى مسألة تأبير النخل، الذى اتضح أن ما أشار به فى هذا الخصوص كان فى غير موضعه ولم يكن هو الأسلوب السليم فى عملية التلقيح؟ لكن هل يترك الله الأمر فى هذه الحالة دون أن يتم تصحيح الخطإ على نحو أو على آخر كما حدث فى تأبير النخل؟ معنى هذا أن يكون النبى قد قال ذلك أولا حتى يمكن أن يصحَّح ما يكون قد وقع منه من سهو أو نسيان أو خطإ، فهل قاله فعلا؟

كذلك هل يمكن أن يسبق شىءٌ القَدَر؟ إن القدر هو مشيئة الله عز شأنه، فهل يمكن أن يخطر هذا المعنى على بال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وينطق به فى حديث يظل يردده المسلمون طوال الحياة؟ ترى هل هناك شىء يقع على الأرض أو فى السماء يمكن أن يكون بمشيئة غير مشيئته سبحانه، بله أن تسبق تلك المشيئة مشيئته تعالى، بله أن يكون هذا الشىء هو العين، التى يرى ابن القيم أنها قد تصيب، وقد تخيب، فضلا عن أنها ليست بالقضية الهامة على الإطلاق، بل هى لا فى العير ولا فى النفير، وبخاصة أن معظمنا لا يرى أثرا لها فى الواقع؟ أقول: "معظمنا" لمجاراة الطرف الآخر سَدًّا لباب اللجاج ليس إلا. فكيف يمكن أن نصدق أن الرسول عليه السلام يلجأ، فى الكلام عنها، إلى هذا التعبير المتجاوز؟ الواقع أننى فى أشد الحيرة.

ومن الأحاديث التى قررت ذلك الموضوع الحديث التالى برواياته المختلفة، وقد أشرت إليه آنفا: "انطلق عامرُ بنُ ربيعةَ وسهلُ بنُ حُنيفٍ يريدان الغُسْلَ. قال: فانطلَقا يلتمِسانِ الخَمَرَ. قال: فوضع سهل جُبَّةً كانت عليه من صوفٍ، فنظرتُ إليه فأصبتُه بعينى، فنزل الماءَ يغتسلُ. قال: فسمعتُ له فى الماءِ قرقعةً، فأتيتُه فناديتُه ثلاثًا، فلم يُجِبْنى. فأتيتُ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فأخبرْتُه فجاء يمشى فخاض الماءَ كأنى أنظرُ إلى بياضِ ساقَيْه. قال: فضرب صدَره بيدِه، ثم قال: اللهمَّ أذهِبْ عنه حرَّها وبردَها ووصَبَها. قال: فقام. فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: إذا رأى أحدُكم من أخيه ومن نفسِه ومن مالِه ما يُعْجِبُه فلْيُبرِّكْهُ، فإنَّ العينَ حقٌّ".

"اغتسلَ سهلُ بنُ حُنَيْفٍ بـ"الخَرَّارِ" فنزع جُبَّةً كانت عليه، وعامرُ بنُ ربيعةَ ينظرُ، وكان سهلٌ رجلًا أبيضَ حسنَ الجلدِ، قال: فقال له عامرُ بنُ ربيعةَ: ما رأيتُ كاليوم ولا جلدَ عذراءَ. قال: فوُعِكَ سهلٌ مكانَه، واشتدَّ وعَكُه، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبره أنَّ سهلًا وُعِكَ، وأنه غيرُ رائحٍ معك يا رسولَ اللهِ. فأتاه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبر سهلٌ بالذى كان من أمرِ عامرٍ، فقال

رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: علامَ يقتلُ أحدُكم أخاهُ؟ ألا بَرَّكْتَ؟ إنَّ العينَ حقٌّ. تَوَضَّأ له. فتوضَّأ له عامرٌ، فراح سهلٌ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس به بأسٌ".

"خرج (سهيل بن حنيف) مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى إذا كان بالخرار دخل ماءً يغتسل، وكان رجلا وضاء، فمر به عامر بن ربيعة فقال: لم أر كاليوم حُسْنَ شيء ولا جلد مخبَّأة. فما لبث سهل أن لُبِطَ به، فدُعِيَ له نبى الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ من تتهمونه به؟ قالوا: عامر بن ربيعة. فدعا عامرا ودعا بإناء فيه ماء فأمر عامرا، فغسل وجهه فى الماء وأطراف يديه وركبتيه وأطراف قدميه، ثم أخذ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ضَبْعَى إزار عامر وداخِلَته فغمرها فى الماء ثم أفرغ الإناء على رأس سهل وأكفأ الإناء من دبره، فأُطْلِقَ سهل لا بأس به".

والآن أى هذه الأحاديث هو الصحيح؟ هل ذهب الحاسد إلى الرسول فأخبره بما وقع منه من حسد كاد أن يقتل صاحبه؟ أم هل سأل رسول الله من حوله فوجهوا الاتهام إلى عامر بن ربيعة؟ ثم هل كان المحسود، أيا كان، يحتاج إلى أن يخلع ملابسه حتى يرى الحاسد لون بشرته؟ أليست بشرة الواحد منا تظهر حتى وهو مرتدٍ ملابسه عند كشفه لصدره أو ذراعيه أو ساقيه مثلا؟ أم كان الرجال فى ذلك الوقت يغطون كل بقعة من أجسادهم؟ كذلك متى كان رجال العرب، فضلا عن المسلمين، يتفاخرون بأن جلودهم تشبه جلود العذارى، كى يحسد بعضهم بعضا على هذا؟ إننى لا أنفى وجود الحسد فى الناس، فالحسد شعور بشرى يكاد لا يفلت منه أحد. وعلى هذا فليس لمن يحاول إثبات أثر العين دليل على وجود ذلك الأثر بالقول بأن الحسد مذكور فى القرآن، إذ الحسد موجود كما قلنا، ونحن نؤمن به سواء ورد ذكره القرآن أو لا.

لكن السؤال هو: هل يؤثر هذا الحسد فى المحسودين عن طريق نظرات عين الحسود؟ أما أنا فلا أعتقد ذلك، بل أرى أن الحسد إنما يؤثر فى عن طريق ما يمكن أن يحبكه الحاسد من مؤامرات على من يتفوق عليه ويثير الغيظ والحقد فى نفسه، أو من خلال ما يضعه فى طريقه من عقبات أو يثيره فى وجهه من مشاكل أو يشنّه ضده من شائعات مثلا، إن لم يفكر فى ضربه أو قتله. أما العين فقصة أخرى. بيد أن بعض المفسرين يقرأون قوله تعالى مخاطبا الرسول عليه السلام فى سورة "القلم": "وإنْ يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقُونكَ بأبصارهم لما سمعوا الذِّكر ويقولون إنه لمجنون" على أنه إشارة إلى عيون الكفار وقدرتها على أن تصيب الرسول بالضر فتسقطه على الأرض بقوة الشعاع الصادر منها نحوه. وهو تفسير مضحك. فالكفار لم يكونوا يحسدون الرسول على النبوة بل كان ضيقهم به وبدعوته لأنها كانت تهديدا عنيفا لتقاليدهم وعاداتهم وعقائدهم التى درجوا هم وأسلافهم عليها منذ قرون طوال. ثم على أى شىء كان يمكن أن يحسدوا الرسول؟ لقد كان ضعيفا مضطهدا آنذاك لا يملك حولا ولا طولا ولا مالا ولا رئاسة ولا زعامة مما يمكن أن يثير الأحقاد فى النفوس. أما الحسد على النبوة فقد ظهر فى المدينة، وكان اليهود أصحابه. ولم يذكر القرآن أنهم عانُوا الرسول عليه السلام، بل ذكر أنهم كانوا يؤلبون المشركين ضده ويزعمون لهم أن وثنيتهم خير من توحيده. وكان مبعث حسدهم له أن النبوة قد فارقت بنى إسرائيل

وانتقلت إلى العرب واختير لها محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، بينما هم لا يطيقون أن تكون النبوة فى أى قوم غيرهم. ونجد ذلك الموضوع فى سورة "النساء".

وقد ورد ذكر "القرقعة" فى الحديث الأول، وهى صوت الحديد عند اصطدامه بالحديد وما أشبه من الأصوات على ما جاء فى "معجم اللغة العربية المعاصرة" للدكتور أحمد مختار عمر. وإنى لأتساءل: ما دخل القرقعة هنا بالعين والإصابة بها؟ ثم كيف يترك الرجل زميله فى هذا الوضع المفزع ويذهب لرسول الله كى يخبره بما حصل دون أن يحاول مساعدته مع أن كل الشواهد تدل على أنه فى خطر عظيم إذ لم يستطع الرد عليه حين ناداه ثلاث مرات لا مرة واحدة، وسمع بدلا من ذلك صوت قرقعة، وكأن هناك حديدا يصدم حديدا، وبخاصة أن الذهاب إلى رسول الله والعودة معه لا بد أن يستغرق وقتا طويلا يكون المعيون فيه قد صار فى خبر كان؟ ثم ماذا كان يمكن أن يقع لو لم يكن هناك رسول الله؟ لقد كان الرجل فى كرب عظيم، وكانت حياته فى حرج كما يفهم من سياق الرواية. أإلى هذا الحد يكون خطر العيون، وتكون حياة الشخص المَعِين رهنا بالمصادفات التى لا تجرى على قانون؟

أنا لا أكذِّب كلاما ثبت أن رسول الله قاله فعلا، بل كل ما أبغيه هو محاولة إقامة مثل هذا الأمر على أسس علمية صلبة بدلا من الاعتقاد فى شىء لا ندرى مدى مبلغه من الصحة. ولا أظن الرسول عليه السلام يضيره أو يغضبه أن نحاول التحقق من قول ينسب إليه. إننا نحبه صلَّى الله عليه وسلَّم حبا جما، ونحب أن نتأكد من صحة ما يُرْوَى عنه كى نصدق أنه قاله حقا. ذلك أن حبنا الحقيقى له صلَّى الله عليه وسلَّم يقتضينا أن نلجأ إلى العلم للتحقق من صحة أى شىء. أليس هو الذى نادى بفضل العلم والعلماء؟ أليس القرآن هو الذى يدعو الكفار إلى الإتيان بأثارة من علم إن كانوا صادقين؟ ومن السهل التحقق من هذه المسألة، فهى ليست مسألة غيبية لا تخضع للتجربة كما يهرف بعض الناس، بل من المسائل المادية. أليست العين شيئا ماديا؟ أليس الجسد المصاب بها شيئا ماديا؟ أليست الأشعة التى يقال إنها تصدر عنها وتضر من تقع عليه مما يمكن قياسه بالآلات المادية مثلها مثل الأشعة الضوئية والتيارات الكهربية مثلا؟ فهذا أفضل مليون مرة من بقائنا أسرى لاعتقاد عجيب يفسد العلاقات بين الناس ويترتب عليه تشاؤم بعضهم من بعض ونفور بعضهم من بعض وتجنب بعضهم لبعض دون أن يكون لهذا الاعتقاد أساس سليم.

ترى هل يغضب الرسول أو يجد فى الأمر مِسَاسًا برسالته إذا ما أراد أحد الصحابة التحقق مثلا من أن عدم تأبير النخل لا يمنعه من الإثمار؟ بل لقد حدث هذا فعلا، وقام الصحابة بتجربة ما قاله الرسول فى هذا الشأن فترتب عليه أن النخيل لم يثمر ذلك العام، فراجعوه عليه السلام، فما كان منه سوى أن قال بكل بساطة وتواضع ونزول على مقتضى الحق والواقع: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، ولم يقل لهم فى غضب: كيف تراجعوننى فى أمر أخبرتكم فيه برأيى؟ ففى الحديث "أنَّ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم مرَّ بقومٍ يُلَقِّحون، فقال: لو لم تفعلوا لَصَلَح. قال: فخرج شِيصًا. فمرَّ بهم فقال: ما لِنَخْلِكم؟ قالوا: قلتَ كذا وكذا. قال: أنتم أعلمُ بأمرِ دنياكم".

والغريب أن ثَمَّ حديثا فى شرح "موطإ" الإمام مالك المسمى بـ"المنتقى" يقول: "رَوَى ابْنُ السُّنِّى عَنْ سَعِيدِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: "كَانَ صلَّى الله عليه وسلَّم إِذَا خَافَ أَنْ يُصِيبَ شَيْئًا بِعَيْنِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ، وَلا تَضُرَّهُ"، وهو ما يعنى أن عينه عليه الصلاة والسلام كانت هى أيضا مؤذية لولا أنه كان يستعين على أذاها بتبريك الشىء أو الشخص الذى ينظر إليه. عجيب! لم يبق إلا أن يقال هذا عن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم. ألا إن هذا لهو الهوس بعينه! أما كيف نحصل على ماء اغتسال العائن لصبه على المعيون فقد قرأت فى آخر إحدى روايات الحديث الذى نحن بصدده ما يلى: "الغُسلُ أنْ يُؤْتَى بالقَدَحِ، فيُدخِلَ الغاسلُ كفَّيْهِ جميعًا فيه ثمَّ يغسِلَ وجهَه فى القَدَحِ ثمَّ يُدخِلَ يدَه اليُمنى فيغسِلَ صدرَه فى القَدَحِ ثمَّ يُدخِلَ يدَه فيغسِلَ ظهرَه ثمَّ يأخُذَ بيدِه اليُسرى يفعَلُ مِثلَ ذلك، ثمَّ يغسِلَ رُكبَتَيْهِ وأطرافَ أصابعِه مِن ظَهرِ القدَمِ ويفعَلَ ذلك بالرِّجْلِ اليُسرى ثمَّ يُعْطِى ذلك الإناءَ، قبْلَ أنْ يضعَه بالأرضِ، الَّذى أصابه العينُ ثمَّ يمُجَّ فيه ويتمضمضَ ويُهْرِيقَ على وجهِه ويصُبّ على رأسِه ويُكْفِئ القَدَحَ مِن وراءِ ظَهرِه". وهذا، كما نرى، أشبه بأعمال السحر. ثم من ذا يا تُرَى يرضى بأن يقال عنه إنه حسّاد حقود يؤذى الناس بعينه، ويقتلهم بها قتلا، ويوافق على الاغتسال ويعرض نفسه لذلك الأمر الفاضح المهين؟ إن هذه دعوة إلى إفساد العلاقات بين الناس أكثر مما هى فاسدة أصلا.

ليس ذلك فقط، بل يمضى الهوس بذلك الموضوع حتى لنقرأ، فى ذات الكتاب المذكور آنفا، كلاما عجيبا منسوبا للقرطبى مُفَاده أنه "لَوْ أَتْلَفَ الْعَائِنُ شَيْئًا ضَمِنَهُ، وَلَوْ قَتَلَ فَعَلَيْهِ الْقِصَاصُ أَوِ الدِّيَةُ إِذَا تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ بِحَيْثُ يَصِيرُ عَادَةً. وَهُوَ فِى ذَلِكَ كَالسَّاحِرِ الْقَاتِلِ بِسِحْرِهِ عِنْدَ مَنْ لا يَقْتُلُهُ كُفْرًا، وَأَمَّا عِنْدَنَا فَيُقْتَلُ، قَتَلَ بِسِحْرِهِ أَمْ لا لأَنَّهُ كَالزِّنْدِيقِ". ومعنى هذا أن القرطبى لا مانع عنده أن يقتل العائن كم قتيلا للتجربة، ولكن حين نتأكد من خلال التجارب أنه يَعِين فعلا فعندئذ لا بد من قتله إذا مات المَعِين (المَعْيُون). والواقع أننا لو أخذنا بهذا الحكم العجيب الذى سوف يجعلنا مهزلة الأمم لسوف يقوم الجهلة، وما أكثرهم وأشد حماقتهم واختلال عقولهم، باتهام بعضهم بعضا بالقتل عن طريق العين، وسوف ينتهى الأمر بتفانى المسلمين. وشكرا للإمام القرطبى على غيرته "القاتلة" على الدين، فهكذا ينبغى أن تكون الغيرة، وإلا فلا. وعلى خلافه ابن عبد البر والإمام النووى، إذ يقول الأول نقلا عن صاحب "المنتقى": "إِنَّ مِنَ الطَّبْعِ الْبَشَرِى الإِعْجَابَ بِالشَّىْءِ الْحَسَنِ وَالْحَسَدَ عَلَيْهِ، وَهَذَا لا يَمْلِكُهُ الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ. فَلِذَا لَمْ يُعَاتَبْ عَامِرٌ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَى تَرْكِ التَّبْرِيكِ الَّذِى فِى وُسْعِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ قَدْ تَقْتُلُ، وَتَوْبِيخُ مَنْ كَانَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ سُوءٌ، وَإِنْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ تَحْتَ الْقَدَرِ السَّابِقِ بِذَلِكَ كَالْقَاتِلِ يَقْتُلُ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ يَمُوتُ بِأَجَلِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ إِنَّمَا تَعْدُو إِذَا لَمْ يُبَرِّكْ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَعْجَبَهُ شَىْء أَنْ يُبَارِكَ". وهذا كلام معقول رغم أنى لا أطمئن إلى أن العين تؤذى.

وفى "المنتقى" كذلك نقرأ للنووى أنّه "لا يُقْتَلُ الْعَائِنُ، وَلا دِيَةَ وَلا كَفَّارَةَ، وَأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى منضبطٍ عَامٍّ دُونَ مَا يَخْتَصُّ بِبَعْضِ النَّاسِ وَبَعْضِ الأَحْوَالِ مِمَّا لا انْضِبَاطَ لَهُ. كَيْفَ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ فِعْلٌ أَصْلًا، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ حَسَدٌ وَتَمَنٍّ لِزَوَالِ النِّعْمَةِ؟ وَأَيْضًا فَالَّذِى يَنْشَأُ عَنِ الإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ حُصُولُ مَكْرُوهٍ لِذَلِكَ الشَّخْصِ، وَلا يَتَعَيَّنُ ذَلِكَ الْمَكْرُوهُ فِى إِزَالَةِ الْحَيَاةِ، فَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَكْرُوهٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ

أَثَرِ الْعَيْنِ. قَالَ الْحَافِظُ: وَلا يُعَكِّر عَلَيْهِ إِلا الْحُكْمُ بِقَتْلِ السَّاحِرِ، فَإِنَّهُ فِى مَعْنَاهُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عَسِرٌ". وفى "المنتقى" أيضا أنه قد "نَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يَنْبَغِى لِلإِمَامِ مَنْعُ الْعَائِنِ إِذَا عُرِفَ بِذَلِكَ مِنْ مُدَاخَلَةِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُهُ بِلُزُومِ بَيْتِهِ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا رَزَقَهُ مَا يَكْفِيهِ وَيَكُفُّ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّ ضَرَرَهُ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ آكِلِ الثومِ وَالْبَصَلِ الَّذِى مَنَعَهُ النَّبِى صلَّى الله عليه وسلَّم مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ لِئَلا يُؤْذِى الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمَجْذُومِ الَّذِى مَنَعَهُ عُمَرُ وَالْعُلَمَاءُ بَعْدَهُ الاخْتِلاطَ بِالنَّاسِ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمُؤْذِيَاتِ مِنَ الْمَوَاشِى الَّذِى يُؤْمَرُ بِإِبْعَادِهَا إِلَى حَيْثُ لا يَتَأَذَّى بِهَا أَحَدٌ". ورغم أنى لست من أنصار تحديد إقامة العائن، أو بالأحرى: من يظن الناس أنه عائن، فلا شك أن هذا أخف كثيرا جدا من قتله!

* * *

وأخيرا مع أحاديث ليلة الجن: عن علقمة بن قيس: "سأَلْتُ ابنَ مسعودٍ فقُلْتُ: هل شهد أحَدٌ منكم مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليلةَ الجنِّ؟ فقال: لا، ولكنَّا كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ذاتَ ليلةٍ ففقَدْناه، فالتَمَسْناه فى الأوديةِ والشِّعابِ، فقُلْنا: استُطير أو اغتيل. قال: فبِتْنا بشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ. فلمَّا أصبَحْنا إذا هو جاء مِن قِبَلِ حِراءٍ. قال: فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ، فقَدْناك فطلَبْناك فلم نجِدْك، فبِتْنا بشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ. فقال: أتانى داعى الجنِّ، فذهَبْتُ معه فقرَأْتُ عليهم القرآنَ. قال: فانطلَق بنا فأرانا نيرانَهم. وسأَلوه الزَّادَ، فقال: لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِر اسمُ اللهِ عليه يقَعُ فى أيديكم أوفرَ ما يكونُ لحمًا، وكلُّ بَعْرٍ علفًا لدوابِّكم. فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: فلا تستنجوا بالعَظْمِ ولا بالبَعْرِ فإنَّه زادُ إخوانِكم مِن الجنِّ" (الراوى: عبد الله بن مسعود/ المحدث: ابن حبان/ المصدر: صحيح ابن حبان/ خلاصة حكم المحدث: أخرجه فى صحيحه).

وعن عمر بن غيلان الثقفى قال: "أتيتُ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ فقلتُ لهُ: حَدَّثْتَ أنك كنتَ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليلةَ وَفَدَ الجنُّ. قال: أجل. قلتُ: حدِّثنى كيف كان. قال: إنَّ أهلَ الصُفَّةِ أخذ كل رجلٍ منهم رجلا يعشِّيهِ إلا أنا، فإنَّهُ لم يأخذنى أحدٌ. فمرَّ بى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: من هذا؟ فقلتُ: أنا ابنُ مسعودٍ. فقال: ما أخذك أحدٌ يعشِّيك؟ قلتُ: لا يا رسولَ اللهِ. قال: فانطلِقْ لعلى أجدُ لك شيئًا. فانطلق حتى أتى حجرةَ أم سلمةَ فتركنى ودخل إلى أهلِهِ، ثم خرجتِ الجاريةُ فقالت: يا ابنَ مسعودٍ، إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يجدْ لك عشاءً، فارجِعْ إلى مضجعكَ. فرجعتُ إلى المسجدِ فجمعتُ حصباءَ المسجدِ فتوسَّدتُه والتففتُ بثوبى.فلم البثْ إلا قليلا حتى جاءتِ الجاريةُ فقالت: أجب رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. فاتبعتها حتى بلغتُ مقامى، فخرج رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وفى يدِه عسيبُ نخلٍ فعَرَضَ بهِ على صدرى فقال: انطلق أنت معى حيث انطلقتُ. قال: فانطلقنا حتى أتينا بقيعَ الغرقدِ، فخطَّ بعصاهُ خطةً ثم قال: اجلس فيها ولا تبرحْ حتى آتيك. ثم انطلقَ يمشى وأنا أنظرُ إليهِ، حتى إذا كان من حيثُ لا أراهُ ثارت مثل العجاجةِ السوداءِ، ففزعتُ وقلتُ فى نفسى: هذه هوازنُ مكروا برسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليقتلوهُ. فهممتُ أن أسعى إلى البيوتِ فأستغيثَ الناسَ، فذكرتُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أوصانى ألا أبرحَ.

وسمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُفَزِّعهم بعصاهُ ويقول: اجلسوا. فجلسوا حتى كاد ينشقُّ عمودُ الصبحِ، ثم ثاروا وذهبوا، فأتانى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: أنمتَ؟ فقلتُ: لا واللهِ. ولقد فزعتُ الفزعةَ الأولى حتى هممتُ أن آتى البيوتَ فأستغيثَ الناسَ حتى سمعتُكَ تُفَزِّعهم بعصاكَ. فقال: لو أنك خرجتَ من هذه الحلقةِ لم آمَنْ أن تُخْطَفَ. فهل رأيتَ شيئًا منهم؟ قلتُ: رأيتُ رجالا سودًا مستفزّين بثيابٍ بيضٍ. قال: أولئكَ وفدُ جِنّ نصيبين، فسألونى الزادَ والمتاعَ، فمتعتُهم بكل عظمٍ حائلٍ أو روثةٍ أو بعرةٍ. قلتُ: وما يغنى ذلك عنهم؟ قال إنهم لا يجدون عظمًا إلا وجدوا عليهِ لحمَه الذى كان عليهِ يوم أُكِلَ ولا روثةً إلا وجدوا فيها حبَّها الذى كان فيها يومَ أُكِلَتْ. فلا يستنج أحدٌ منكم بعظمٍ ولا بعرةٍ" (الراوى: عمر بن غيلان الثقفى/ المحدث: الزيلعى/ المصدر: نصب الراية/ خلاصة حكم المحدث: فى إسناده رجل لم يُسَمّ).

وعن ابن مسعود: "اسْتَتْبَعنى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليلةً فقال: إنَّ نفَرًا مِن الجِنِّ خمسةَ عشَرَ، بنو إخوةٍ وبنو عمٍّ، يأتونى اللَّيلةَ، فأقرَأُ عليهم القُرآنَ. فانطلَقْتُ معه إلى المكانِ الَّذى أراد، فجعَل لى خطًّا ثمَّ أجلَسَنى فيه وقال: لا تخرُجَنَّ مِن هذا. فبِتُّ فيه حتَّى أتانى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مع السَّحَرِ، وفى يدِه عَظْمُ حائلٍ ورَوْثةٌ وحُمَمةٌ، فقال: إذا أتَيْتَ الخَلاءَ فلا تستنجِيَنَّ بشىء مِن هذا. قال: فلمَّا أصبَحْتُ قُلْتُ: لاعْلَمَنَّ حيثُ كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. فذهَبْتُ فرأَيْتُ موضِعَ سبعينَ بعيرًا" (الراوى: عبد الله بن مسعود/ المحدث: الطبرانى/ المصدر: المعجم الأوسط/ خلاصة حكم المحدث: لم يرو على بن رباح عن ابن مسعود حديثا غير هذا). وعن ابن مسعود أيضا: "قدم وفد الجن على رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: يا محمدُ، انهَ أُمَّتَك أن يستنجوا بعظم أو روثة أو حممة، فإن الله تعالى جعل لنا فيها رزقا. قال: فنهى رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عن ذلك" (الراوى: عبد الله بن مسعود/ المحدث: أبو داود/ المصدر: سنن أبى داود/ خلاصة حكم المحدث: سكت عنه. وقد قال فى رسالته لأهل مكة: كل ما سكت عنه فهو صالح).

وعن الزبير بن العوام: "صلى بنا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم صلاةَ الصبحِ فى مسجدِ المدينةِ. فلما انصرف قال: أيُّكم يتبعُنى إلى وفدِ الجنِّ الليلةَ؟ فأسكت القومُ، فلم يتكلمْ منهم أحدٌ. قال ذلك ثلاثًا. فمرَّ بى يمشِى فأخذ بيدِى، فجعلت أمشِى معَه حتى خَنَسَتْ عنا جبالُ المدينةِ كلُّها وأفضينا إلى أرضٍ بِرَازٍ، فإذا رجالٌ طوالٌ كأنهمُ الرماحُ مُسْتَذْفِرِى ثيابهم من بينِ أرجلِهم. فلما رأيتُهم غشِيَتْنى رِعْدةٌ شديدةٌ حتى ما تُمْسِكُنى رجلاى من الفَرَقِ. فلما دنونا منهم خطَّ لى رسولُ اللهِ بإبهامِ رجْلِه فى الأرضِ خطًّا، فقال لى: اقعُدْ فى وَسَطِه. فلما جلست ذهب عنِّى كلُّ شىء كنتُ أجدُه من ريبةٍ، ومضَى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم بينى وبينَهم، فتلا قرآنًا رفيعًا حتى طلع الفجرُ، ثم أقبل حتى مرَّ بى فقال لى: الحقْ. فجعلت أمشِى معَه، فمضينا غيرَ بعيدٍ، فقال لى: التفتْ فانظرْ هل ترَى حيثُ كان أولئكَ من أحدٍ؟ قلت: يا رسولَ اللهِ، أرَى سوادًا كثيرًا. فخَفَّض رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم رأسَه إلى الأرضِ، فنظم عظمًا بروثةٍ ثم رمَى به إليهم ثم قال: رشد أولئك منِّى وفدُ قومٍ. هم وفدُ نَصِيبينَ. سألونى الزادَ، فجعلت لهم كلّ عظمٍ وروثةٍ. قال الزبيرُ: فلا يحلُّ لأحدٍ أن يستنجِى بعظمٍ ولا روثةٍ أبدًا"

(الراوى: الزبير بن العوام/ المحدث: الهيثمي/ المصدر: مجمع الزوائد/ خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن).

وعن ابن العباس: "ما قرَأ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم على الجِنِّ وما رآهم. انطلَق رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وطائفةٌ مِن أصحابِه عامِدينَ سوقَ عُكاظٍ، وقد حِيلَ بيْنَ الشَّياطينَ وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُبُ، فرَجَعَتِ الشَّياطينُ إلى قومِهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حِيل بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ، وأُرسِلَتْ علينا الشُّهُبُ. قالوا: ما ذاك إلا شىء حدَث، فاضرِبوا مَشَارِقَ الأرضِ ومَغَارِبَها، فانظُروا ما هذا الَّذى حال بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ. فانطلَقوا يضرِبون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، فمَرَّ النَّفَرُ الَّذين أخَذوا نحوَ تِهامةَ، وهو بنَخْلةَ، وهم عامِدونَ إلى سوقِ عُكاظٍ، وهو يُصَلِّى بأصحابِه صلَّى الله عليه وسلَّم صلاةَ الفجرِ. فلمَّا سمِعوا القرآنَ قالوا: هذا الَّذى حال بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ. فرجَعوا إلى قومِهم "فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا". فأوحى اللهُ إلى نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: قُلْ أُوحِىَ إِلَىَ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: ابن حبان/ المصدر: صحيح ابن حبان/ خلاصة حكم المحدث: أخرجه فى صحيحه)

والآن هل صاحب ابن مسعود رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ليلة الجن فى الذهاب إليهم أو لا؟ هناك روايتان، ولا أحسب أنه يمكن التوفيق بينهما. أم هل كان رفيقه ليلتذاك هو الزبير؟ لكن كيف يكون هذا، وهى ليلة واحدة ذات رفيق واحد؟ كما أن ابن مسعود يقول مرة إنها كانت فى مكة، ومرة إنها كانت فى المدينة، ويشاركه فى القول بمدنيتها أيضا ابن العوام. وهذا أيضا تناقض لا يمكن التخلص منه. أما القرآن فواضح الدلالة على أنها كانت فى مكة ما دامت الإشارة إليها قد وردت فى سورتى "الأحقاف" و"الجن"، وهما سورتان مكيتان بلا أدنى خلاف. وفى رواية ابن عباس أن رسول الله لم ير الجن، وإنما أخبره الوحى بذلك. والواقع أن هذا هو ما يتسق مع القرآن، إذ نقرأ فى سورة "الأحقاف": "وإذ صَرَفْنا إليك نَفَرًا من الجن يستمعون القرآنَ، فلما حضروه قالوا: أَنْصِتوا. فلما قُضِىَ وَلَّوْا إلى قومهم منذِرين". فطريقة سياقة الخبر تشير إلى أن الرسول لم يعلم بهم بل القرآن هو الذى أخبره بذلك. ولدينا كذلك سورة "الجن"، وهى ناصعة الدلالة على ما نقول: "قل: أُوحِىَ إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا".

ثم هل طلب الرسول ابن مسعود قصدا ليصحبه فى رحلته تلك؟ أم هل كان مع الرسول جمع من الصحابة افتقدوه وظنوا أنه قد اغتيل؟ هذا أيضا تناقض. كذلك كيف يعرض الرسول على صحابته أن يرافقه أحدهم لمقابلة الجن فيسكتوا ولا يجيبوه بـ"نعم" أو"لا"، وكأنهم طلبتى بقسم اللغة العربية حين أسألهم سؤالا فلا يفتح الله عليهم بكلمة ولا يفكرون هم من جهتهم أن يفتحوا فمهم! لو كنت مكان الصحابة رضوان الله عليهم لرفعت إصبعى مبتهجا حتى أرى الجن بأم عينى وأستمتع بمشاهدة تلك المخلوقات العجيبة. لكن من ناحية أخرى يبرزسؤال سخيف مزعج: ترى لماذا حرص الرسول على اصطحاب أحد معه ما دام سيخط له خطا ينهاه بحسم قاطع عن تجاوزه بما يعنى أنه لن يشاهد فى الحقيقة شيئا؟ ثم لماذا اقتصر عرضه على أن يصحبه واحد فقط، ولم يطلب من الجميع أن يرافقوه؟

كما أن رواية ابن عباس تخلو من الكلام عن طعام الجن، فأراحتنا من مشكلة أخرى نحن فى غنى عنها، إذ كيف يكون العظم والروث طعام أهل الجن، ونحن نراهما فى أمكنتهما لا ينقصان مهما طال الزمن إلا بالجفاف. ولو وُضِعا فى مجمِّد (فريزر) مثلا لبقيا كما هما تقريبا مهما طال الزمن. ثم إننا لا ندرى مَنْ فَتَح موضوع النهى عن استعمال العظم والرَّوْث فى الاستنجاء: أهو الرسول حين سأله الجن الطعام، فحددهما لهم؟ أم هل هم الجن عندما التمسوا منه هم أنفسهم أن ينهى أمته عن استخدامهما فى الاستنجاء لأنهما طعامهم؟ واضح أن هذا تناقض آخر مزعج. كذلك هناك تأفف الجن من ذلك الاستخدام مما لا نفهم له معنى، إذ الروث فضلات نجسة منتنة كالخرء سواء بسواء، وكلاهما يخرج من البطن. وعلى هذا فما دام الجن لا يجدون غضاضة فى أكل الروث فلِمَ يجدون تلك الغضاضة إذا علق بها بعض الفضلات البشرية التى لا تذكر؟ ألا إن هذا تنطس بل تنطع سخيف. وهذا إن كان الجن هم الذين سيأكلونه كما يُفْهَم من إحدى الروايات، أما إن كانت دوابهم هى التى ستأكله فهو غريب، إذ ما عهدنا دابة تأكل خرء دوابَّ مثلها. لكن هل للجن دوابّ أصلا؟ ودعنا من أنها تأكل أو لا تأكل.

كما أن طلب الجن من الرسول تحديد طعام يأكلونه معناه أنهم، مذ خلقهم الله، لم يكونوا يأكلون شيئا. فكيف كانوا يعيشون طوال تلك الأحقاب والدهور؟ الحق أن هذا مما لا يعقله العاقلون ما دام إخواننا من الجن يحتاجون إلى الطعام كى يعيشوا. وهناك أمر آخر، ألا وهو أن الرسول وَعَدَ الجن أنهم متى وجدوا عظما سُمِّىَ الله عليه صار أكثر ما يكون لحما. فلماذا لم يختص عليه السلام أمته بهذه المزية التى تعفيهم من التفكير فى اللحم إلى الأبد، إذ يكفى أن يأكلوا لحما مرة واحدة ثم يحتفظوا بالعظم، ليتحول لحما كلما جاعوا؟ وعندنا فى إحدى روايات الحديث أن الجن كانوا خمسة عشر بينما دوابهم سبعون. فكيف؟ كما جاء فى الحديث أن الرسول صلى بأصحابه الصبح لنفاجأ مع ذلك بالرواى يشير إلى طلوع الفجر بعد الصلاة بزمن. فكيف يا ترى يكون ذلك؟

أما أنا فلا أملك إلا أن أضرب صفحا عن كل تلك الروايات وآخذ برواية ابن العباس رضى الله عن الصحابة جميعا مع التنبيه إلى أن فى هذه الرواية كلاما لم يسمعه بَشَرِىٌّ من الجن ما دام الرسول نفسه لم يرهم ولم يسمعهم. وإذن فهو كلام من كلام الحال لا من كلام المقال. وأما الحديث التالى فيقتصر على النهى عن استخدام العظام والأرواث فى الاستنجاء، وهى مسألة صحية وذوقية ولها علاقة بالنجاسة فى الإسلام، إذ لا يعقل أن أزيل النجاسة عن بدنى بنجاسة مثلها، ولا صلة بينها وبين الجن ولا طعام أهل الجن. ومن هنا أرى الاقتصار فى هذا الموضوع على حديثنا ذاك. ونصه: "إنَّمَا أنا لكم مثلُ الوالِدِ، فَإِذَا ذهب أحدُكُمْ إلى الغائِطِ فَلا يَسْتَقْبِلِ القبلَةَ، ولا يَسْتَدْبِرْهَا بِغَائِطٍ ولا بَوْلٍ، وَلْيَسْتَنْجِ بِثَلاثَةِ أَحْجَارٍ. وَنَهَى عن الروث والرِّمَّة" (الراوى: أبو هريرة/ المحدث: النووى/ المصدر: الخلاصة/ خلاصة حكم المحدث: صحيح).

* * *

وبعد فقد يظن البعض أن مراجعة الأحاديث النبوية والتشكيك فى حديث منها هى من الأمور الخطيرة التى ستؤدى إلى انهيار بناء السنة كله. لكنى لا أشاطر أصحاب هذا الرأى تخوفهم لأن الحق

أحق أن يتبع. هذا أولا، وثانيا لأنه كانت هناك مراجعة شاملة للأحاديث النبوية عند جمع هذه الأحاديث فى كتب كـ"صحيح البخارى" و"مسند أحمد" و"موطإ مالك" ترتب عليها إنكار مئات الآلاف منها والحكم عليها بالضعف أو البطلان لا التشكيك فى بعض الأحاديث القليلة فقط، فضلا عن أن الأحاديث التى جمعها العلماء فى كتبهم ليست كلها فى مرتبة واحدة بل فيها الصحيح والحسن والمرفوع وأحاديث الآحاد مثلا، ومع هذا لم يَنْهَرْ بناءُ السنة بل ازداد قوة وصلابة ووثاقة. وأرى أن القيام بمراجعة الأحاديث المجموعة فى كتب الصحاح والمسانيد وأمثالها من ناحية المضمون من شأنه تنقية ذلك التراث النبوى العظيم مما علق به.

على أنى حين أقول هذا لا أقصد أبدا أن النتائج التى سوف نتوصل إليها ستكون صحيحة كلها بالضرورة، فأى جهد بشرى معرض دائما للخطإ والسهو والفشل. ولكن ليس أمامنا غير هذا. ومن غير المقصود كذلك أن يتصدى لهذا العمل كل من هب ودب، بل العلماء الراسخون الواسعو الثقافة المتعمقون فى معرفة الحديث، وأن يكون كلامهم فى ذلك الموضوع رصينا عميقا يحدوه حب الإسلام والسنة النبوية والرغبة فى خدمتها لا الكيد لها والعمل على إضعافها والتشكيك فيها.

ومع هذا كله فلا بد من التنبيه إلى أن المسلمين لم ينتظروا تصنيف كتب الحديث المعروفة كى يتعاملوا مع أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام بل كانوا منذ عصره صلَّى الله عليه وسلَّم يعتمدون فى تشريعاتهم على الحديث النبوى إلى جانب اعتمادهم على كتاب الله. وكان كل منهم يبذل غاية جهده للتحقق من صحة ما يبلغه من الحديث. لكن هذا لا يعنى أن نعد كتب الأحاديث كعدمها، فلا ريب أنها قد اختصرت الطريق والجهد، إذ وضعت بين أيدينا ثروة هائلة من أحاديثه صلَّى الله عليه وسلَّم مخدومة مبذولا فيها الجهد الكبير بغية تصفيتها من الشوائب، وهذا بلا شك أفضل مليون مرة من أن يبدأ كل منا مع كل حديث من الأحاديث النبوية من نقطة الصفر فنجتهد بأنفسنا للتحقق من صحته. وأين لكل شخص بالوقت والعلم اللازمين لذلك؟ لقد تخصص أولئك العلماء فى التحقق من صحة الأحاديث وجمعها وتصنيفها، وبذلوا فى ذلك أقصى طاقتهم وعصارة تفكيرهم ونور أعينهم، ولا يعقل أن نجعل هذا كله هباء منثورا فيكون هو والعدم سواء كما يريد منا من يُطْلَق عليهم: "القرآنيون".

كذلك ينبغى أن يكون هناك تركيز على الجوانب الحضارية فى أحاديث النبى صلَّى الله عليه وسلَّم كالعلم والعمل والإنتاج والإبداع والإتقان والذوق السليم والتعاون والطموح والاجتهاد والعطف على الفقراء والمساكين واليتامى ووجوب إحراز القوة العسكرية والاقتصادية وما إلى هذا، إلى جانب العبادات بطبيعة الحال، بدلا من التركيز على إطالة اللحية وتقصير الثياب والحسد وتجديد الوضوء والمسيح الدجال والمهدى المنتظر والشفاعة مثلا. إننى من الذين يؤمنون أن لنبينا شفاعة عظيمة يوم الدين. لكن هذا لا يعنى ولا ينبغى أن يعنى تضييع وقتنا فى الاشتغال بها هنا فى الدنيا لأن موعدها مكانا وزمانا ليس هنا بل هناك. ومن ثم فلنهتم بما هو أَوْلَى وأَلَحّ. ترى أيصح أن يقول رسولنا إن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وفى ذات الوقت تمتلئ شوارعنا وطرقنا بكل ألوان الأذى السمعى والبصرى والشمى والذوقى؟ ففى كل مكان نشاهد الأحجار والمخلفات والحفر والزجاج المكسور والقطط والكلاب

الميتة والأرصفة المتهالكة التى لا تصلح لسير الآدميين والشوارع غير الممهدة، إلى جانب الروائح المنتنة والألفاظ والعبارات البذيئة وضجيج أبواق السيارات وعادم المركبات وألوان القبح من كل لون. هل يعقل أن يحث نبينا الكريم على النظافة بينما القذارة هى العملة السائدة فى كل مكان تقريبا؟ هل يعقل أن يخبرنا سيدنا رسول الله بأن الله جميل يحب الجمال، ثم ننظر فنجد القبح يطارد الجمال هنا وهناك وهنالك ولا يتركه حتى يستأصله من الوجود ومن الأذواق جميعا؟ هل يعقل أن يجعل رسولنا من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فيكره المسلمون العلم والسعى لاكتسابه مفضلين ما يسمونه بـ"تكبير المخ"، أى إعطاء العقل إجازة مستديمة من التفكير واعتماد اللامبالاة أسلوب حياة؟

وهذه طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى مجالات الحياة المختلفة. ففى مجال العقيدة نقرأ ما يلى: "(عن عائشة:) مَنْ حَدّثَكَ أن محمدا صلَّى الله عليه وسلَّم رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: لا تُدْرِكه الأبصار. ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: لا يعلم الغيب إلا الله". "لَلَّهُ أفرحُ بتوبة أحدكم من رجل بأرض فلاة دوية مهلكة معه راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه وما يصلحه فأَضَلَّها، فخرج فى طلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى مكانى الذى أضللتُها فيه فأموت فيه، فرجع إلى مكانه، فغلبته عينه، فاستيقظ، فإذا راحلته عند رأسه، عليها طعامه وشرابه وما يُصْلِحه".

"يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا. ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا. ومن أتانى يمشى أتيتُه هرولة. ومن لقينى بقُرَاب الأرض خطيئةً لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة". "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بَيَّن ذلك: فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو هَمَّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة". "من سَنَّ فى الإسلام سُنّةً حسنةً فعُمِل بها بعده كُتِب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شىء. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعُمِل بها بعده كُتِب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شىء". "ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هم ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يُشَاكُها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه".

"كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذ أنا مِتُّ فأحرقونى ثم اطحنونى ثم ذَرُونى فى الريح، فوالله لَإِنْ قدَر على ربى ليعذبنِّى عذابا ما عُذِّبَه أحد. فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: "اجمعى ما فيك منه"، ففعلتْ، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: "يا رب، خشيتك"، فغفر له". "لا أحد أصبر على الأذى من الله تعالى، يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم".

"(وعن عامر أخى الخضر بن محارب:) إنى لببلادنا إذ رُفِعَتْ لنا رايات وألوية، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسِط له كساء، وهو جالس عليه، وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الأسقام فقال: إن

المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض ثم أُعْفِى كان كالبعير عَقَله أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه. فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله، وما الأسقام؟ والله ما مرضتُ قط. فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: قم عنا، فلستَ منا. فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء، وفى يده شىء قد التف عليه، فقال: يا رسول الله، إنى لما رأيتك أقبلتُ إليك فمررت بغَيْضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن فى كسائى، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسى، فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائى، فهن أولاء معى.قال: ضعهن عنك. فوضعهن، وأَبَتْ أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابه: أتعجبون لرحمة أم الأفراخ فراخها؟ قالوا: نعم يا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. قال: فوالذى بعثنى بالحق، لَلَّهُ أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها. ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتَهن، وأمّهن معهن. فرجع بهن".

"قُدِم على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بسَبْى، فإذا امرأة من السبى تسعى، إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أتَرَوْن هذه طارحةً ولدها فى النار؟ قلنا: لا والله، وهى تقدر ألا تطرحه. فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: الله أرحم بعباده من المرأة بولدها". "جعل الله الرحمة فى مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه".

"إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها". "إن الله يمهل حتى يذهب شطر الليل الأول، ثم ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى ينشقّ الفجر".

"أذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لى ذنبى.فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أَى ربِّ، اغفر لى ذنبى.فقال تبارك وتعالى: عبدى أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب، اغفر لى ذنبى.فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك". "والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم". "إن الله تعالى يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس، ويقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أَى رَبِّ. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه قد هلك، قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطيه كتاب حسناته بيمينه. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم! ألا لعنة الله على الظالمين".

"إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم. قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم: ما

يقول عبادى؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رَأَوْنى؟ قال: فيقولون: لا والله ما رَأَوْك. قال: فيقول: وكيف لو رَأَوْنى؟ قال: يقولون: لو رأوْك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول: فما يسألوننى؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رَأَوْها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوْها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوْها كانوا أشدّ عليها حرصا، وأشدّ لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: فمِمَّ يتعوّذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوْها؟ قال: يقولون: لو رأوْها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأُشْهِدكم أنى قد غفرت لهم. قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يَشْقَى بهم جَلِيسُهم".

"قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك. يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة... ويُضْرَب جسر جهنم. قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ. وبه كلاليبُ مثل شوك السعدان. أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قَدْر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم: منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يُخْرِج من النار من أراد أن يُخْرِج ممن كان يشهد ألا إله إلا الله، أَمَر الملائكةَ أن يخرجوهم، فيَعْرِفونهم بعلامة آثار السجود، وحَرَّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتُحِشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار فيقول: يا رب، قد قشبنى ريحها، وأحرقنى ذَكَاؤها، فاصرف وجهى عن النار. فلا يزال يدعو الله، فيقول: لعلك إن أعطيتُك أن تسألنى غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب، قَرِّبْنى إلى باب الجنة. فيقول: أليس قد زعمتَ ألّا تسألنى غيره؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فلا يزال يدعو، فيقول: لعلى إن أعطيتك ذلك تسألنى غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيعطى اللهَ من عهودٍ ومواثيقَ ألا يسأله غيره، فيقرّبه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: رب، أدخلنى الجنة. ثم يقول: أوليس قد زعمتَ ألا تسألنى غيره؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: يا رب، لا تجعلنى أشقى خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها. فإذا دخل فيها قيل: تَمَنَّ مِنْ كذا. فيتمنى، ثم يقال له: تمنَّ مِنْ كذا. فيتمنى حتى تنقطع به الأمانى، فيقول له: هذا لك، ومثله معه. قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا. قال: وأبو سعيد الخدرى جالس مع أبى هريرة لا يغيّر عليه شيئا من حديثه، حتى

انتهى إلى قوله: هذا لك ومثله معه. قال أبو سعيد: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: هذا لك وعشرة أمثاله".

"لما نزلتْ على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "لله ما فى السماوات وما فى الأرض. وإن تُبْدُوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبْكم به اللهُ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. والله على كل شىء قدير" قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فأَتَوْا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. ثم بركوا على الرُّكَب فقالوا: أَى رسول الله، كُلِّفْنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة. وقد أُنزِلَتْ عليك هذه الآية، ولا نطيقها. قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله فى إثرها: "آمَن الرسولُ بما أُنزِل إليه من ربه والمؤمنون: كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرّق بين أحد من رسله. وقالوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير". فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى. وأنزل الله عز وجل: لا يكلّف الله نفسا إلا وُسْعَها. لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ربنا، لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا (قال: نعم). ربنا، ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا (قال: نعم). ربنا، ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به (قال: نعم). واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (قال: نعم)".

"إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفَخْرَها بالآباء: مؤمن تقى، وفاجر شقى. أنتم بنو آدم، وآدم من تراب. لَيَدَعَنَّ رجالٌ فَخْرَهم بأقوام إنما هم فحْمٌ من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الـجُعْلان التى تدفع بأنفها النتن". "لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض، إلا بالتقوى. الناس من آدم، وآدم من تراب". "(عن جابر بن عبد الله:) كنا فى غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصارى: يا للأنصار! وقال المهاجرى: يا للمهاجرين! فسمع ذاك رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال: دعُوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أبى فقال: فعلوها؟ أَمَا والله لَإِنْ رجعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فبلغ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعنى أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه".

"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (ثم شبك بين أصابعه)". "المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يَدٌ على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد على أقصاهم". "لا تَبَاغَضُوا ولا تَقَاطَعُوا ولا تَدَابَرُوا ولا تَحَاسَدُوا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله. ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام"."المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه". "مَثَلى ومَثَلُ الأنبياء من قبلى كمَثَل رجلٍ ابتنى بيوتا فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لَبِنَةٍ فى زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وَضَعْتَ ههنا لبنة فيتمّ بنيانك؟ فقال محمد صلَّى الله عليه وسلَّم: فكنت أنا اللبنة".

"عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كانت المرأة تكون مِقْلاتًا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده. فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كان فيهم أبناء الأنصار، فقالوا: لا نَدَعُ أبناءنا. فأنزل الله عز وجل: "لا إكراه فى الدين. قد تبيَّن الرشد من الغى". المِقْلات: التى لا يعيش لها ولد". "ألا مَنْ ظلم معاهَدًا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ له شيئا بغير حقه فأنا حجيجه يوم القيامة (وأشار رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بيده إلى صدره). ألا ومَنْ قَتَل رجلا له ذمة الله ورسوله حرّم الله عليه الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا".

"أيها الناس، لا تَمَنَّوْا لقاء العدو، وسَلُوا الله العافية. فإذا لقيتوهم فاصبروا". "خرج رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم زمن الحديبية، حتى كانوا ببعض الطريق قال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين". فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش، وسار النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته. فقال الناس: "حل حل"، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء. فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكنْ حَبَسها حابسُ الفيل". ثم قال: "والذى نفسى بيده لا يسألوننى خطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"، ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرَّضه الناس تبرُّضا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكِى إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم العطش، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. فوالله مازال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه. فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عَيْبَةَ نُصْح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من أهل تهامة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العُوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت. فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين. وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم. فإن شاؤوا ماددتهُم مدة، ويخلّوا بينى وبين الناس. فإن أَظْهَر: فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا. وإنْ هم أَبَوْا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنَّهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، وليُنْفِذَنّ اللهُ أمره. فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. قال: فانطلق حتى أتى قريشا قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء. وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا. فحَدَّثهم بما قال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموننى؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلّحوا علىَّ جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإنّ هذا قد عرض لكم خطة رشد. اقبلوها ودعونى آتيه. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم نحوا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيتَ إن استأصلتَ أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنى والله لأرى وجوها، وإنى لأرى أشوابا من الناس خليقا أن يفرّوا

ويَدَعوك. فقال له أبو بكر: امصص ببظر اللات. أنحن نفرّ عنه وندَعُه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لولا يَدٌ كانت لك عندى لم أَجْزِك بها لأجبتُك. قال: وجعل يكلم النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، ومعه السيف وعليه المِغْفَر. فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ضرب يده بنعل السيف وقال له: أَخِّرْ يدك عن لحية رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: "أَى غُدَر، ألستُ أسعى فى غدرتك؟". وكان المغيرة صَحِبَ قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "أما الإسلام فأَقْبَل، وأما المال فلست منه فى شىء". ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى صلَّى الله عليه وسلَّم بعينه. قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم نُخَامَةً إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيما له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أَى قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشى، والله إنْ رأيت مَلِكًا قَطّ يعظمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمد صلَّى الله عليه وسلَّم محمدا. والله إنْ تنخَّم نخامةً إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيما له. وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بنى كنانة: دعونى آتيه. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبى صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه، قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "هذا فلان، وهو من قوم يعظّمون البُدْن، فابعثوها له". فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يلبّون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يُصَدّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ. فما أرى أن يُصَدّوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعونى آتيه. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "هذا مكرز، وهو رجل فاجر". فجعل يكلم النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. قال معمر: فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "لقد سهل لكم من أمركم". قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا. فدعا النبى صلَّى الله عليه وسلَّم الكاتب، فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "بسم الله الرحمن الرحيم". قال سهيل: أما "الرحمن" فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب: "باسمك اللهم" كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا "بسم الله الرحمن الرحيم". فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "اكتب: باسمك اللهم". ثم قال: "هذا ما قاضَى عليه محمد رسول الله". فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: "محمد بن عبد الله". فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "والله إنى لرسول الله، وإنْ كذَّبتمونى. اكتب: "محمد بن عبد الله". قال الزهرى: وذلك لقوله: "لا يسألوننى خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها". فقال له النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به". فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب

أنا أُخِذْنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددتَه إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدّ إلى المشركين، وقد جاء مسلما؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إلى. فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "إنا لم نَقْضِ الكِتَاب بَعْد". قال: فوالله إذن لم أصالحك على شىء أبدا. قال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "فأَجِزْه لى". قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: "بلى فافعل". قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أُرَدّ إلى المشركين، وقد جئت مسلما؟ ألا تَرَوْنَ ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابا شديدا فى الله. قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبى الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقلت: ألستَ نبى الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعَدُوّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطى الدنية فى ديننا إذن؟ قال: إنى رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصرى. قلت: أوليس كنتَ تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: بلى. فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبى الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعَدُوّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسِكْ بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى. أفأَخْبَرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوِّفٌ به. قال الزهرى: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل غما. ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهن... (حتى بلغ:) بعِصَم الكوافر". فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبى صلَّى الله عليه وسلَّم إلى المدينة، فجاءه أبو بصير: رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذى جعلتَ لنا؟ فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحُلَيْفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا. فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتى بَرَد، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو. فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حين رآه: "لقد رأى هذا ذُعْرًا". فلما انتهى إلى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم قال: قُتِل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبى الله، قد والله أَوْفَى اللهُ ذِمّتَك. قد رددتَنى إليهم، ثم نجانى الله منهم. قال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "ويل أمه

مِسْعَر حرب! لو كان له أحد". فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بِعِيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم تناشده بالله والرَّحِم لَمّا أرسل: "فمن آتاه فهو آمن". فأرسل النبى صلَّى الله عليه وسلَّم إليهم، فأنزل الله تعالى: "وهو الذى كَفَّ أيديَهم عنكم وأيديَكم عنهم ببطن مكةَ من بعد أن أظفركم عليهم... (حتى بلغ:) الحميّةَ حميّةَ الجاهلية". وكانت حميّتهم أنهم لم يُقِرّوا أنه نبى الله، ولم يُقِرّوا بـ"بسم الله الرحمن الرحيم"، وحالوا بينهم وبين البيت".

"مرت جنازة على رسول الله فقام لها واقفا، فقيل له: يا رسول الله، إنها جنازة يهودى، فقال: أليست نفسا؟". "قَدِمَتْ قُتَيْلة ابنة عبد العُزَّى بن سعد على ابنتها أسماء (بنت أبى بكر) بهدايا: ضِبَاب وأَقِط وسمن، وهى مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. فسألت عائشةُ النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين... إلى آخر الآية"، فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها".

وفى مجال الأخلاق: "إن الله قال: إذا ابتليتُ عبدى بحبيبتيه فصبر عوضتُه منهما الجنة". يريد عينيه. "عن أنس بن مالك: يقول لامرأة من أهله: تعرفين فلانة؟ قالت: نعم. قال: فإن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم مَرَّ بها وهى تبكى عند قبر، فقال: اتقى الله واصبرى.فقالت: إليك عنى، فإنك خِلْوٌ من مصيبتى.قال: فجاوزها ومضى، فمر بها رجل فقال: ما قال لك رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم؟ قالت: ما عرفته. قال: إنه لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. قال: فجاءت إلى بابه فلم تجد عليه بوابا، فقالت: يا رسول الله، والله ما عرفتك. فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: إن الصبر عند أول صدمة". "لما كان يوم حنين آثر النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ناسا: أعطى الأقرع مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسا، فقال رجل: ما أُريدَ بهذه القسمة وجهُ الله. فقلت: لأخبرن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم. قال: رحم الله موسى! قد أُوذِى بأكثر من هذا فصبر".

"كنا عند النبى صلَّى الله عليه وسلَّم إذ جاءه رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها فى الموت، فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "ارجع فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى. فَمُرْها فلْتَصْبِر ولْتَحْتَسِبْ". فأعادت الرسول أنها أقسمتْ لتأتينَّها، فقام النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، فدُفِع الصبى إليه، ونفسه تقعقع كأنها فى شَنّ، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء". "أُصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة منى، فإن يَكُ فى الجنة أَصْبِر وأَحْتَسِب، وإن تكن الأخرى تَرَ: ما أصنع؟ فقال: ويحك... أَوَجَنَّةٌ واحدةٌ هى؟ إنها جِنَانٌ كثيرة، وإنه لفى جنة الفردوس".

"الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه، فمُعْتِقها أو مُوبِقها". "عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سَرّاءُ شكر، فكان خيرا له. وإن أصابته ضَرّاءُ صبر، فكان خيرا له".

"شهدنا مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حُنَيْنًا، فقال لرجل ممن يدعى بالإسلام: "هذا من أهل النار". فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالا شديدا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذى قلت له آنفا: "إنه من أهل النار" فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات. فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: "إلى النار"، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحا شديدة! فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأُخْبِر النبى صلَّى الله عليه وسلَّم بذلك فقال: الله أكبر! أشهد أنى عبد الله ورسوله". ثم أمر بلالا فنادى فى الناس: "إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر".

"كان كعب بن الأشرف يهجو النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبى صلَّى الله عليه وسلَّم حين قدم المدينة، وأهلها أخلاط: منهم المسلمون والمشركون يعبدون الأوثان واليهود، وكانوا يؤذون النبى صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه بالصبر والعفو، ففيهم أنزل الله: ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور". "من ابتُلِى بشىء من البنات (أى رزقه الله ببنات لا بأولاد ذكور) فصبر عليهن كن له حجابا من النار". "سئل النبى صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإيمان قال: الصبر والسماحة".

"(عن عبد الله بن العباس:) كنت رديف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: يا غلام، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى. فقال: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده أمامك. تعرَّفْ إليه فى الرخاء يَعْرِفْك فى الشدة. إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله. قد جَفَّ القلم بما هو كائن: فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه. وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه. فاعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خير كثير، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا". "إن الله كتب الغيرة على النساء، وكتب الجهاد على الرجال، فمن صبر منهن احتسابا كان له أجر شهيد". "من تصبَّرَ يُصَبِّره الله". "من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له فى كل شىء يصاب من ثمرها صدقةٌ عند الله عز وجل".

"هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله عز وجل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: الفقراء المهاجرون الذين تُسَدّ بهم الثغور، وتُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فَحَيُّوهم. فتقول الملائكة: ربَّنا، نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك. أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادا يعبدونى، ولا يشركون بى شيئا. تُسَدّ بهم الثغور، وتُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع

لها قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم، فنِعْمَ عُقْبَى الدار".

"لَأَنا لفتنةِ السَّرَّاء أَخْوَفُ عليكم من فتنة الضَّرَّاء. إنكم ابتُليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإن الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ". "من وُعِكَ ليلةً فصبر ورضى بها عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كيومِ ولدته أمه". "(عن عائشة:) سألت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن الطاعون، فقال: كان عذابا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين. ما من عبد يكون فى بلد يكون فيه، ويمكث فيه لا يخرج من البلد صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد". "يأتى على الناس زمانٌ الصابرُ فيهم على دينه كالقابض على الجمر". "الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر".

"(قال عبد الله بن عمرو بن العاص:) يا رسول الله، أخبرنى عن الجهاد والغزو. فقال: يا عبد الله بن عمرو، إن قاتلتَ صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا بعثك الله مرائيا مكاثرا. يا عبد الله بن عمرو، على أى حال قاتلتَ أو قُتِلْتَ بعثك الله على تلك الحال". "أربعٌ من أُعْطِيَهُنَّ فقد أُعْطِى خَيْرَىِ الدنيا والآخرة: قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وبدنا على البلاء صابرا، وزوجة لا تبغيه حُوبًا فى نفسها وماله". "عن عائشة رضى الله عنها قالت: من قدَّم من ولده ثلاثةً صابرا محتسبا حجبوه بإذن الله تعالى من النار".

"لما كان يومُ أُحُد قُتِل من الأنصار أربعة وستون رجلا، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: لَإِنْ كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنُرْبِيَنَّ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يُعْرَف: لا قريش بعد اليوم. فنادى منادى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أَمِنَ الأسودُ والأبيضُ إلا فلانا وفلانا (ناسا سماهم)، فأنزل الله تبارك وتعالى: "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به. ولَإِنْ صبرتم لهو خير للصابرين". فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: نَصْبِر ولا نعاقِب".

"أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأَوَوْا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه، والله يا هؤلاء، لا ينجيكم إلا الصدق. فلْيَدْعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صَدَق فيه. فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجيرٌ عَمِل لى على فِرْقٍ من أرز، فذهب وتركه، وإنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أنى اشتريت منه بقرا، وأنه أتانى يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسُقْها. فقال لى: إنما لى عندك فرق من أرز. فقلت له: اعمد إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفرق. فساقها. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. فانساحت عنهم الصخرة. فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم: كان لى أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لى، فأبطأتُ عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلى وعيالى يتضاغَوْن من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواى، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما. فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء. فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى ابنة عم من أحب الناس إلىَّ، وأنى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتُها حتى قَدَرْتُ. فأتيت

بها فدفعتها إليها فأمكنتنى من نفسها. فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله، ولا تَفُضّ الخاتم إلا بحقه. فقمت وتركت المائة دينار. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. ففرّج الله عنهم فخرجوا".

"عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البِرّ، وإن البِرّ يهدى إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكْتَب عند الله صِدِّيقًا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار. وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكْتَب عند الله كذابا". "دع ما يَرِيبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة". "لا يجتمع الإيمان والكفر فى قلب امرىء، ولا يجتمع الكذب والصدق جميعا، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعا". "(قال أبو بكر الصديق:) إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قام فينا عامَ أَوَّل فقال: ألا إنه لم يُقْسَم بين الناس شىء أفضل من المعافاة بعد اليقين. ألا إن الصدق والبِرّ فى الجنة. ألا إن الكذب والفجور فى النار".

"لما فُتِحَتْ خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم شاة فيها سم، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: اجمعوا لى من كان ها هنا من اليهود. فجمعوا له، فقال لهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إنى سائلكم عن شىء، فهل أنتم صادِقِى عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: كذبتم، بل أبوكم فلان. فقالوا: صَدَقْتَ وبَرَرْتَ. فقال: هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا. قال لهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرا، ثم تَخْلُفوننا فيها. فقال لهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: اخسأوا فيها. والله لا نخلفكم فيها أبدا. ثم قال لهم: فهل أنتم صادِقِى عن شىء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم. فقال: هل جعلتم فى هذه الشاة سما؟ فقالوا: نعم. فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذابا نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرك".

"سمع النبى صلَّى الله عليه وسلَّم جلبة خصام عند بابه، فخرج عليهم فقال: إنما أنا بشر، وإنه يأتينى الخصم، فلعل بعضًا أن يكون أبلغ من بعض: أقضى له بذلك، وأحسب أنه صادق. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار. فليأخذها أو ليدعها". "من طلب الشهادة صادقا أُعْطِيَها، ولو لم تصبه". "من مات وهو يشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، صادقا من قلبه دخل الجنة". "(عن عبد الله بن عمرو بن العاص:) قلنا: يا رسول الله، مَنْ خير الناس؟ قال: ذو القلب المخموم، واللسان الصادق. قلنا: قد عرفنا اللسان الصادق، فماذا القلبُ المخمومُ؟ قال: هو التقى النقى الذى لا إثم فيه ولا بغى ولا حسد". "إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد. وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك. وأسألك قلبا سليما. وأسألك لسانا صادقا. وأسألك من خير ما تعلم. وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم. إنك أنت علام الغيوب".

وفى مجال العلم: "ما من خارج خرج من بيته فى طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رِضًا بما يصنع". "من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع". "طلب العلم فريضة على كل مسلم". "منهومان لا يقضى أحدهما نهمته: منهوم فى طلب العلم لا يقضى نهمته، ومنهوم فى طلب المال لا يقضى نهمته". "اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم". "طلب العلم فريضة على كل مسلم. وإنّ طالب العلم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر". "إن الله عز وجل أوحى إلى أنه من سلك مسلكا فى طلب العلم سهلت له طريق الجنة".

"من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم. وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما. ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر". "فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض". "خيار أمتى علماؤها، وخيار علمائها رحماؤها. ألا وإن الله تعالى ليغفر للعالم أربعين ذنبا قبل أن يغفر للجاهل ذنبا واحدا. ألا وإن العالم الرحيم ليجىء يوم القيامة وإن لنوره ضوءا يمشى فيه ما بين المشرق والمغرب". "ذُكِر لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم. ثم قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليُصَلُّون على معلِّم الناس الخير". "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب". "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر". "من كانت له جارية فأحسن أدبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران اثنان".

ليس ذلك فقط، بل إن الإسلام كان حريصا تمام الحرص فى ذات الوقت على القضاء على منابع الخرافة والدجل والأساطير، فقد حرّم السحر تحريما قاطعا ولم يتساهل فيه أى قدر من التساهل، وكان حربا شعواء على الكهانة والعيافة والزجر وما شابه ذلك من ضروب الانحراف الفكرى والعقيدى. وفى القرآن نفىٌ قاطعٌ لما كان المشركون يزعمونه بالكذب والباطل عن الرسول عليه السلام من أنه كاهن. ذلك أن الكهانة خرافة وانحطاط فكرى وحضارى، أما نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فدعوة إلى اليقظة العقلية والإبداعات العلمية والعمل على إحراز المجد فى الدنيا عن طريق العلم وإكرام العلماء والاستعانة بأفكارهم واجتهاداتهم. وأين الكهانة من هذا؟ إنها هى التخلف ذاته، إذ هى الجهل مجسدا. يقول المولى جل جلاله: "فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ"، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

وها هى ذى بعض النصوص الحديثية التى تناولت هذا الموضوع. وهى، كما سيرى القارئ، تتشدد فيه تشددا قد يبدو غريبا عند من لا يتنبه إلى الموضع البارز الذى يحتله العلم فى دين محمد، وأن الإسلام هو دين العقل والعلم ويكره الخرافة والجهل كراهية رهيبة: "العيافة والطَّرْق والطِّيَرة من الجِبْت". والعيافة: زجر الطير. والطَّرْق: الخط يُخَطّ فى الأرض. والجبت: الشيطان. "من أتى عرّافا

فسأله عن شيء لم تُقْبَل له صلاة أربعين ليلة". "من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنْزِل على محمد". "أكبر الكبائر عند الله يومَ القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورَمْى المحصَنة، وتعلُّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم". "إن بين يدى الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويُرْفَع فيها العلم، ويكثر فيها الهَرْج". والهرج: القتل. "جاء رجل إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله عز وجل". قال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله". قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرنى عن العلم؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل". "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسُئِلوا فأَفْتَوْا بغير علم، فضلوا وأضلوا".

وفى مجال العمل: "(عن جابر بن عبد الله الأنصارى:) أن خديجة استأجرت النبى صلَّى الله عليه وسلَّم سَفْرَتَيْن إلى جرش، كُلّ سَفْرة بقَلُوص". "نزل رسول الله على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، وعمل فيه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ليرغّب المسلمين فى العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه. فقال قائل من المسلمين:

لَإِنْ قعدْنا، والنبى يعملُ   لَذَاكَ منّا العمل المضلَّلُ

وارتجز المسلمون وهم يبنونه، يقولون:

لا عيشَ إلا عيشُ الآخرهْ   اللهم ارحم الأنصار والمهاجِرهْ

فيقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: لا عيش إلا عيش الآخرة. اللهم ارحم المهاجرين والأنصار. قال: فيدخل عمار بن ياسر، وقد أثقلوه باللَّبِن، فقال: يا رسول الله: قتلونى! يحملون على ما لا يحملون. قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ينفض وَفْرَتَه بيده، وكان رجلًا جَعْدًا، وهو يقول: وَيْحَ ابنِ سميّة! ليسوا بالذين يقتلونك. إنما يقتلك الفئة الباغية".

"(عن عائشة:) كان (الرسول) فى مهنة أهله: يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق". "إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة. قالوا: فما يكفرها يا رسول الله؟ قال: الهموم فى طلب المعيشة". "ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريطَ لأهل مكة". "مر على النبى صلَّى الله عليه وسلَّم رجلٌ، فرأى أصحابُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا فى سبيل الله؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إن كان خَرَج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله، وإن كان خَرَج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خَرَج يسعى على نفسه يُعِفّها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو فى سبيل الشيطان".

"لما قدموا المدينة نزل المهاجرون على الأنصار، فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع، فقال: أقاسمك مالى، وأنزل لك عن إحدى امرأتىَّ. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك. فخرج إلى السوق فباع واشترى فأصاب شيئا من أَقِطٍ وسمن، فتزوج". "(عن أسماء بنت أبى بكر:) تزوجنى الزبير، وما له فى الأرض من مال ولا مملوك، ولا شى غير ناضح وغير فرسه. فكنت أعلف فرسه وأستقى الماء، وأخرز غَرْبَه وأعجن. ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لى من الأنصار، وكنّ نسوة صدق. وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على رأسى، وهى منى على ثلثى فرسخ".

"(عن على بن أبى طالب:) خرجت فى يومٍ شاتٍ من بيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد أخذتُ إهابا معطونا جَوَّبْتُ وسَطه فأدخلته عنقى، وشددت وسطى فحزمته بخُوص النخل، وإنى لشديد الجوع. ولو كان فى بيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم طعام لطعمت منه. فخرجت ألتمس شيئا، فمررت بيهودى فى مال له، وهو يسقى ببكرة له، فاطَّلَعْتُ عليه من ثُلْمَة فى الحائط، فقال: ما لك يا أعرابى؟ هل لك فى كل دلوٍ بتمرة؟ قلت: نعم، فافتح الباب حتى أدخل. ففتح فدخلت، فأعطانى دلوه. فكلما نزعتُ دلوا أعطانى تمرة. حتى إذا امتلأت كفى أرسلت دلوه وقلت: حَسْبِى. فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت المسجد، فوجدت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فيه".

"جاء رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ما لى أرى لونك منكفتا؟ قال: الخَمْص. فانطلق الأنصارى إلى رَحْله فلم يجد فيه شيئا، فخرج يطلب، فإذا هو بيهودى يسقى نخلا له، فقال الأنصارى لليهودى: أسقى نخلك؟ قال: نعم، كل دلو بتمرة. واشترط الأنصارى عليه ألا يأخذ فيه جرزة ولا تارزة ولا حشفة، ولا يأخذ إلا جيدة. فاستقى له بنحو من صاعين، ثم أتى به إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: من أين لك هذا؟ فأخبره الأنصارى، وكان يسأل عن الشىء إذا أُتِىَ به، فأرسل إلى نسائه بصاع، وأكل هو وأصحابه صاعا".

"الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار". "رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه. وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله، وأُجْرِى عليه رِزْقُه، وأَمِنَ الفَتَّانَ". "عن عائشة أنها قالت: كان الناس أهل عمل، ولم يكن لهم كُفَاة، فكانوا يكون لهم تَفَلٌ، فقيل لهم: لو اغتسلتم يوم الجمعة؟". "إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه". "إن الله تعالى يحبّ من العامل إذا عمل أن يُحْسِن".

"أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه". "قال الله تعالى: ثلاثة أنا خَصْمُهم يوم القيامة: رجل أُعْطِىَ بى ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره". "إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد. وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل: "ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات؟"، و"يمحق الله الربا ويُرْبِى الصدقات". "لما نزلت هذه الآية: "إن تُبْدُوا الصدقات فنِعِمَّا هى... إلى آخر الآية" جاء عمر بنصف ماله يحمله إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، يحمله على

رؤوس الناس، وجاء أبو بكر بماله أجمع يكاد أن يخفيه من نفسه، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ما تركتَ لأهلك؟ فقال: عِدَة الله وعِدَة رسوله. قال: يقول عمر لأبى بكر: بنفسى أنت أو بأهلى أنت. ما استبقْنا إلى خير قَطُّ إلا سبقتنا إليه". "زكاة الفطر طهرةٌ للصائم من اللَّغْو والرَّفَث وطُعْمَةٌ للمساكين. من أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات".

"(عن جرير بن عبد الله:) كنا عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى صدر النهار، فجاءه أقوام حفاة عراة مجتابى النمار أو العباء، متقلدى السيوف، وليس عليهم أُزُرٌ ولا شىء غيرها، عامّتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعَّر... وجه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لِمَا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذَّن وصلى الظهر، ثم صعد منبرا صغيرا، ثم خطب فحمد الله وأثنى عليه، فقال: أما بعد، فإن الله أنزل فى كتابه: "يا أيها الناس، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبَثَّ منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تَسَاءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيبا"، والآية التى فى الحشر: "يا أيها الذين آمنوا، اتقوا لله، ولْتنظر نفسٌ ما قدَّمَتْ لِغَدٍ، واتقوا الله. إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسَهم. أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة: أصحاب الجنة هم الفائزون". تصدَّقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة. تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من شعيره، من صاع تمره، حتى قال: ولا يحقرنَّ أحدكم شيئا من الصدقة ولو بشق تمرة. فأبطأوا حتى بان فى وجهه الغضب. قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرّةٍ من وَرِق (وفى رواية: من ذهب) كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، فناولها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهو على منبره، فقال: يا رسول الله، هذه فى سبيل الله. فقبضها رسول الله صلى الله عليه و سلم، ثم قام أبو بكر فأعطى، ثم قام عمر فأعطى، ثم قام المهاجرون والأنصار فأَعْطَوْا، ثم تتابع الناس فى الصدقات: فمِنْ ذى دينار، ومن ذى درهم، ومن ذى، ومن ذى، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: مَنْ سَنَّ فى الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرها ومِثْل أجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سن سنة فى الإسلام سيئة كان عليه وزرها ومِثْلُ وزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء. ثم تلا هذه الآية: "ونكتب ما قَدَّموا وآثارَهم". قال: فقسَّمه بينهم".

"إن هذه الصدقات إنما هى أوساخ الناس. إنها لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد". "(عن زياد بن الحارث الصدائى:) أتيت النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فبايعته، فبلغنى أنه يريد أن يرسل جيشا إلى قومى، فقلت: يا رسول الله، رُدَّ الجيش، وأنا لك بإسلامهم وطاعتهم. فقال: يا أخا صداء، إنك لمطاع فى قومك؟ قلت: بل هداهم الله وأحسن إليهم. قال: أفلا أؤمِّرك عليهم؟ قلت: بلى. فأمَّرنى عليهم، فكتب لى بذلك كتابا. وسألتُه من صدقاتهم ففعل. وكان النبى صلَّى الله عليه وسلَّم يومئذ فى بعض أسفاره، فأعرسْنا من أول الليل، فلزمتُه وجعل أصحابى يتقطعون حتى لم يبق معه رجل غيرى. فلما تحين الصباح أمرنى، فأذَّنْتُ. ثم قال: يا أخا صداء، معك ماء؟ قلت: نعم، قليل لا يكفيك. قال: صُبَّه فى الإناء ثم

ائتنى به. فأَدْخَل يده فيه، رأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينا تفور. قال: يا أخا صداء، لولا أنى أستحيي من ربى لسقينا واستقينا. نادِ فى الناس: من يريد الوضوء؟ قال: فاغترف من اغترف، وجاء بلال ليقيم، فقال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: إن أخا صداء أذَّنَ، ومن أذّن فهو يقيم. فلما صلى الفجر أتاه أهل المنزل يشكون عاملهم ويقولون: يا رسول الله، أَخَذَنا بما كان بينه وبين قومه فى الجاهلية. فالتفت إلى أصحابه وقال: لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن. فوقعت فى نفسى، وأتاه سائل يسأله، فقال: من سأل الناس عن ظهر غِنًى فهو صداع فى الرأس، وداء فى البطن. فقال: أعطنى من الصدقات. فقال: إن الله لم يرض فى الصدقات بحكم نبى ولا غيره حتى جعلها ثمانية أجزاء. فإن كنتَ منهم أعطيتُك حقك. فلما أصبحت قلت: يا رسول الله، أَقِلْ إمارتك، فلا حاجة لى فيها. قال: ولِمَ؟ قلت: سمعتك تقول: "لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن"، وقد آمنتُ. وسمعتك تقول: "من سأل الناس عن ظهر غنى فصداع فى الرأس، وداء فى البطن"، وقد سألتك وأنا غنى. قال: هو ذاك، فإن شئتَ فخُذْ، وإن شئتَ فَدَعْ. قال: قلت: بل أَدَعُ. قال: فدُلَّنى على رجل أُوَلِّيه. فدللته على رجل من الوفد، فولاه. قال: يا رسول الله، إن لنا بئرا إذا كان الشتاء وَسِعَنا ماؤها فاجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه من حولنا. وإنا لا نستطيع اليوم أن نتفرق. كلّ من حولنا عدو. فادع الله أن يسعنا ماؤها. فدعا بسبع حصيات ففركهن بين كفيه وقال: إذا أتيتموها فألقوا واحدة، واذكروا اسم الله. فما استطاعوا أن ينظروا إلى قَعْرها بَعْد".

"(عن أبى هريرة:) أن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم كان يوما يحدّث، وعنده رجل من أهل البادية، أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع، فقال له: ألستَ فيما شئتَ؟ قال: بلى، ولكنى أحب أن أزرع. قال: فبَذَر، فبادر الطَّرْفَ نباتُه واستواؤه واستحصادُه، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شىء. فقال الأعرابى: والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا، فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك النبى صلَّى الله عليه وسلَّم". "اللهم اسقنا غيثا مغيثا هنيئا مريئا مريعا غَدَقا مجللا عاما طَبَقا سحًّا دائما. اللهم اسقنا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين. اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد والضنك ما لا نشكو إلا إليك. اللهم أنبت لنا الزرع، وأَدِرَّ لنا الضرع، واسقنا من بركات السماء، وأنبت لنا من بركات الأرض. اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعرى، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك. اللهم إنا نستغفرك، إنك كنت غفارا، فأَرْسِل السماء علينا مدرارا".

"من أحيا أرضا ميتة فهى له". "من كانت له أرض فليزرعها أو ليُزْرِعها أخاه". "ألا من وَلِى يتيمًا له مال فَلْيتَّجِر بماله، لا يتركه حتى تأكله الصدقة". "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمة إلا كان له به صدقة". "من اتخذ كلبا، إلا كلب زرع أو غنم أو صيد، ينقص من أجره كل يومٍ قيراط". لما قدمنا إلى المدينة آخى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بينى وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إنى أكثر الأنصار مالا فأَقْسِم لك نصف مالى. وانظر أى زوجتى هَوِيتَ نزلتُ لك عنها، فإذا حَلَّتْ تزوجتَها. قال: فقال عبد الرحمن: لا حاجة لى فى ذلك. هل من سوق فيه

تجارة؟ قال: سوق قينقاع. قال: فغدا إليه عبد الرحمن، فأتى بأَقِطٍ وسمن. قال: ثم تابع الغُدُوّ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة. فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: تزوجتَ؟ قال: نعم. قال: ومن؟ قال: امرأة من الأنصار. قال: كم سُقْتَ؟ قال: زِنَة نواةٍ من ذهب، أو نواةٌ من ذهب. فقال له النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: أَوْلِمْ ولو بشاة". "سمعت ابن عمر، وسُئِل عن الرجل يحجّ ومعه تجارة، فقرأ ابن عمر: "ليس عليكم جُنَاحٌ أن تبتغوا فضلا من ربكم".

وفى مجال الذوق الراقى واللياقة العالية والسلوك المهذب والفن الجميل: "إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود. فنظفوا أفنيتكم، ولا تَشَبَّهوا باليهود". "(قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:) لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبْر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكِبْر بَطَر الحق وغَمْط الناس". "من جر ثوبه خُيَلاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة". "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خَرْدَل من كِبْر". "إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالى الأخلاق، ويكره سفسافها". "إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس". "كانوا (أى بعض الناس) يدخلون على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يستاكوا، فقال: تدخلون على قُلْحًا؟ استاكوا، فلولا أن أشقّ على أمتى لفرضت السواك عند كل صلاة كما فرضت عليهم الوضوء". "استاكوا وتنظفوا وأَوْتِروا، فإن الله وَتْرٌ يحب الوَتْر". "سَوُّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة". "أَتِمُّوا الصفَّ المقَدَّم ثم الذى يليه، فما كان من نقصٍ فلْيَكُنْ فى الصفّ المؤَخَّر". "مَنْ سَدَّ فُرْجَةً فى الصفّ غُفِر له". "لا ينظر الله عز وجل إلى صلاة عبدٍ لا يقيم صُلْبَه فيما بين ركوعها وسجودها".

"كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بيده أنِ: اخْرُج فأَصْلِحْ رأسك ولحيتك. ففعل ثم رجع، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟". "اتقوا الملاعن الثلاثة: البِراز فى الموارد وقارعة الطريق والظل". "ثلاث من السعادة: المرأة الصالحة، والمنزل الواسع، والمركب الهنى". "اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال. اللهم اغسل عنى خطاياى بماء الثلج والبَرَد، ونَقِّ قلبى من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بينى وبين خطاياى كما باعدتَ بين المشرق والمغرب". "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفْضِى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد، ولا تُفْضِى المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد".

"الإيمان بضع وسبعون: أفضلها قول "لا إله إلا الله"، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان". "(عن أنس:) حَدَّث نبى الله صلَّى الله عليه وسلَّم بحديث، فما فرحنا بشىء منذ عرفنا الإسلام أشد من فرحنا به. قال: إن المؤمن ليُؤْجَر فى إماطة الأذى عن الطريق، وفى هداية

السبيل، وفى تعبيره عن الأرتم، وفى منحة اللبن". "البذاء من الجفاء، والجفاء فى النار. والحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة". "من اطَّلَعَ فى بيت رجل بغير إذنه فخذفه بحصاة ففقأت عينه فلا شىء عليه". "عن عطاء بن يسار أن رجلا سال النبى صلَّى الله عليه وسلَّم: أستأذن على أمى؟ قال: نعم". "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت. إن الله يحب الحيى الحليم العفيف، ويبغض الفاحش البذىء السائل الملحف. إن الحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة، والفحش من البذاء، والبذاء فى النار".

"إن الله كتب الإحسان على كل شىء: فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح. ولْيُحِدَّ أحدكم شفرته، ولْيُرِحْ ذبيحته". "جاء قوم بصاحبهم إلى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: يا نبى الله، إن صاحبنا هذا قد أفسده الحياء. فقال نبى الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إن الحياء من شرائع الإسلام، وإن البذاء من لؤم المرء". "(عن لقيط بن صرة:) قلت: يا رسول الله، إن لى امرأة فى لسانها شىء (يعنى البذاء). قال: طلقها. قلت: إن لى منها ولدا، ولها صحبة. قال: فمُرْها (أى عِظْها)، فإن يك فيها خير فستقبل، ولا تضربنّ ظعينتك ضَرْبك أَمَتَك".

"إذا شرب أحدكم فلا يتنفس فى الإناء، وإذا بال أحدكم فلا يمسح ذكره بيمينه، وإذا تمسح أحدكم فلا يتمسح بيمينه". "(عن أبى هريرة:) أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رأى نخامة فى قبلة المسجد، فأقبل على الناس فقال: "ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخّع أمامه؟ أيحب أحدكم أن يُسْتَقْبل فيُتَنَخَّع فى وجهه؟ فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره، تحت قدمه". "انطلقت أنا وعمرو بن العاص إلى النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، فخرج ومعه درقة، ثم استتر بها، ثم بال". "كان النبى صلَّى الله عليه وسلَّم إذا بلغه عن الرجل الشىء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟". "مر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم برجل فى سفر فى ظل شجرة وهو يُرَشّ عليه الماء، فقال: ما بال صاحبكم؟ قالوا: صائم يا رسول الله. قال: ليس من البر الصيام فى السفر. فعليكم برخصة الله التى أرخص لكم، فاقبلوا". "(عن عمرو بن أبى سلمة ربيب رسول الله:) كنت غلاما فى حِجْر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وكانت يدى تطيش فى الصحفة، فقال لى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "يا غلام، سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يلى". فما زالت تلك طعمتى بعد".

"(عن عائشة:) أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أُهْدِى إليه ضَبٌّ، فلم يأكله، فقالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، ألا تطعمه المساكين؟ فقال لا تطعموهم مما لا تأكلون". "إذا اجتمع الداعيان فأَجِبْ أقربهما بابا، فإن أقربهما بابا أقربهما جوارا. وإنْ سَبَقَ أحدُهما فأجب الذى سبق". "من دُعِىَ إلى عرس أو نحوه فليجب". "إذا دُعِىَ أحدكم إلى الوليمة فليجب". "إذا دُعِى أحدكم إلى طعام فليجب: فإن كان مفطرا فليأكل، وإن كان صائما فلْيَدْعُ بالبركة". "شر الطعام طعام الوليمة يُدْعَى لها الأغنياء ويُتْرَك الفقراء. ومن ترك الدعوة فقد عصى الله تعالى ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم". "أُتِىَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ليلة أُسْرِى به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما، فأخذ اللبن. قال جبريل: الحمد لله الذى هداك للفطرة. لو أخذتَ الخمر غَوَتْ أمتك".

"(عن أنس:) أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أكل أو شرب قال: الحمد لله، الذى أطعمنا وسقانا وسَوَّغه وجعل له مخرجا". "من أكل طعاما ثم قال: "الحمد لله الذى أطعمنى هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة" غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ومن لبس ثوبا فقال: "الحمد لله الذى كسانى هذا الثوب ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة" غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر". "كان (الرسول عليه السلام) إذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين". "(عن عائشة:) كانت فاطمة إذا دخلت على النبى صلَّى الله عليه وسلَّم قام لها فأخذ بيدها وقبّلها وأجلسها فى مجلسه. وكان إذا دخل عليها قامت إليه وأجلسته فى مجلسها". "(عن أبى الطفيل:) رأيت النبى وأنا غلام، فدنت منه امرأة، فبسط لها رداءه، فجلست عليه. فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التى أرضعته". "(لما جيء بأخت الرسول من الرضاعة فى سبايا هوازن وتعرفتْ إليه بسط لها رداءه وقال لها:) إن أحببتِ أقمتِ عندنا مكرمة مُحَبَّة، أو متَّعْتُكِ ورجعتِ إلى قومك"، فاختارت قومها، فمتَّعها". "كان إذا أُتِى بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة. إنها كانت تحب خديجة".

"(عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم قال:) إياكم والجلوس فى الطرقات. قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدّ. قال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر". "يسلِّم الراكب على الماشى، وفى رواية: يسلم الصغير على الكبير والماشى على القاعد، والقليل على الكثير". "لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يقعد فيه، ولكن توسَّعوا وتفسَّحوا يَفْسَح الله لكم". "إذا انتهى أحدكم إلى مجلسٍ فلْيُسَلِّم. فإن بدا له أن يجلس فلْيجلس، ثم إذا قام فلْيُسَلِّم. فليست الأولى بأحقَّ من الثانية". "إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به". "وَفَدَ وَفْدٌ للنجاشى، فقام رسول الله يخدمهم، فقال له أصحابه: نحن نكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مُكْرِمين، وإنى أحب أن أكافئهم". "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، فإن ذلك يحزنه". "تبسُّمك فى وجه أخيك صدقة".

"كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول: "استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم. لِيَلِنِى منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". "(قال أبو عياش الزرقى:) كنا مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بعسفان، وعلى المشركين خالد بن الوليد، قال: فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد كانوا على حال لو أردنا لأصبنا غفلة. فأُنْزِلَتْ آية القَصْر بين الظهر والعصر، فأخذ الناس السلاح وصَفُّوا خلف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مستقبلى القبلة، والمشركون مستقبلوهم. فكبَّر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وكبَّروا جميعا، ثم ركع وركعوا جميعا، ثم رفع رأسه ورفعوا جميعا، ثم سجد وسجد الصف الذى يليه، وقام الآخرون يحرسونهم. فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء، ثم نكص الصف الذى يليه، وتقدم الآخرون فقاموا فى مقامهم، وركع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فركعوا جميعا، ثم رفع رأسه ورفعوا جميعا، ثم سجد وسجد الصف الذى يليه، وقام الآخرون يحرسونهم. فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء الآخرون، ثم اسْتَوَوْا معه فقعدوا جميعهم، ثم سلم بهم

جميعا. فصلى بعسفان، وصلاها يوم بنى سليم". "لما انكفأ المشركون من أحد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "اسْتَوُوا حتى أُثْنِى على ربى"، فصاروا خلفه صفوفا، فقال: اللهم لك الحمد كله. وفيه: اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك، واجعل عليهم رِجْزَك وعذابك. اللهم عَذِّب الكَفَرة، إلهَ الحق".

"من زار قوما فلا يَؤُمَّهم، ولْيَؤُمَّهم رجل منهم". "إذا حضرتِ الصلاة فلْيُؤَذِّن لكم أحدكم، وليَؤُمَّكم أقرؤكم". "(عن عبد الله بن زيد الأنصارى:) لما أمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالناقوس يُعْمَل ليضرب به للناس لجمع الصلاة طاف بى وأنا نائم رجل يحمل ناقوسا فى يده، فقلت: يا عبد الله، أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت: بلى، فقال: تقول: الله أكبر، الله أكبر. الله أكبر، الله أكبر. أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله. حَى على الصلاة، حَى على الصلاة. حَىَّ على الفلاح، حَىَّ على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. ثم استأخر عنى غير بعيد، ثم قال: ثم تقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر، الله أكبر. أشهد ألا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله. حى على الصلاة. حى على الفلاح. قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. فلما أصبحتُ أتيتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبرته بما رأيت، فقال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله. فقم مع بلال، فألق عليه ما رأيتَ، فليؤذِّن به، فإنه أندى صوتا منك". "إذا سافرتم فليؤمَّكم أقرؤكم، وإن كان أصغركم. وإذا أمَّكم فهو أميركم". "من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلْنا أو ليعتزلْ مسجدنا، وليقعدْ فى بيته". "عن المغيرة بن شعبة قال: أكلت ثوما ثم أتيت مصلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فوجدته قد سبقنى بركعة، فلما قمت أقضى وجد ريح الثوم، فقال: من أكل من هذه البقلة فلا يقربنَّ مسجدنا حتى يذهب ريحها". "ما مسستُ حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبى صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا شممت ريحا قط أو عَرْفًا قط أطيب من ريح أو عَرْفِ النبى صلَّى الله عليه وسلَّم".

"حوضى من كذا إلى كذا، فيه من الآنية عدد النجوم، أطيب ريحا من المسك، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأبيض من اللبن، من شرب منه شربة لم يظمأ أبدا، ومن لم يشرب منه لم يَرْوَ أبدا". "إن هذا (أى يوم الجمعة) يوم عيد جعله الله للمسلمين. فمن جاء الجمعةَ فليغتسل، وإن كان عنده طيب فلْيَمَسَّ منه. وعليكم بالسواك". "من غسل ميتا فليغتسل، ومن حمله فليتوضأ". "نهى (رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم) عن البول فى الماء الدائم ثم الاغتسال منه، ونهى عن اغتسال الجنب فيه، وأمر المستيقظ من نوم الليل ألا يغمس يده فيه، وأمر بإراقة الإناء من ولوغ الكلب فيه". "الإسلام إقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و حج البيت، و صوم شهر رمضان، والاغتسال من الجنابة". "إن أمتى يُدْعَوْن يوم القيامة غُرًّا محجَّلين من آثار الوضوء. فمن استطاع منكم أن يُطِيل غُرَّته فليفعل". "إذا قمتَ إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، واجعل الماء بين أصابع يديك ورجليك". "لا يبولنّ أحدكم فى الماء الراكد".

ويدخل فى الذوق الفنون من غناء وتصوير ونحت وشعر ونثر... وها هى ذى بعض النصوص التى وردت فى أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام عن فن الغناء: "زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا". "مر النبى صلَّى الله عليه وسلَّم على أبى موسى ذات ليلة وهو يقرأ فقال: إن عبد الله بن قيس (أو الأشعرى) أُعْطِى مزمارا من مزامير داود. فلما أصبح ذكروا ذلك له، فقال: لو كنتَ أعلمتَنى لحبَّرْتُ ذلك تحبيرا". "زَوَّجَتْ عائشةُ ذاتَ قرابة لها من الأنصار، فجاء رسول الله فقال: أَهْدَيْتُم الفتاة؟ قالوا: نعم. قال: أرسلتم معها من يغنّى؟ قالت: لا. فقال رسول الله: إن الأنصار قوم فيهم غَزَل. فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم، فحيانا وحياكم". "دخل علىَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وعندى جاريتان تغنيان بغناء بُعَاث، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه. ودخل أبو بكر فانتهرنى وقال: مزمارة الشيطان عند النبى صلَّى الله عليه وسلَّم؟ فأقبل عليه رسول الله عليه السلام فقال: دعهما. فلما غفل غمزتهما فخرجتا". "(عن بريدة) أن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم غزا، فنذرت أَمَةٌ سوداءُ إنْ رده الله سالما أن تضرب عنده بالدف. فرجع سالما غانما، فأخبرتْه، فقال: إن كنتِ فعلتِ فافعلى، وإلا فلا. فقالت: يا رسول الله، قد فعلتُ. فضَرَبَتْ، فدخل أبو بكر وهى تضرب. ودخل عمر وهى تضرب، فألقت الدف وجلست عليه مُقْعِيَة. فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أنا هاهنا، وأبو بكر هاهنا، وهؤلاء هاهنا. إنى لأحسب الشيطان يَفْرَق منك يا عمر".

المصادر والمراجع

طائفة من كتب السنة وكتب علوم الحديث وكتب الجرح والتعديل وكتب تراجم المحدثين وكتب الرافضين للسنة وكتب المدافعين عن صحة الاستشهاد بالحديث الشريف وكتب التفسير وكتب التاريخ وكتب الأدب والبلاغة والنقد والمعاجم... إلخ. ويقع القارئ خلال مطالعته هذه الفصول على اسم كل كتاب ومؤلفه فى مواضع الاقتباس والمناقشة والمراجعة.